

الابحاث

وَأَثَرُهُ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِينَ
كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

إعداد

الشيخ عبداللّه مهبر غني محمد صالح - السودان

ماجستير من كلية أصول الدين - جامعة الإمام
الرياض - المملكة العربية السعودية

دار الأبحاث

الذكر

إِلَى الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا.. إِلَى الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.. إِلَى إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ فِي
مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، أَهْدَى هَذَا وَاحْتَسِبُ
أَجْرِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

عَبْدُ اللَّهِ مِير غَنِي مُحَمَّدٌ صَلَاح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه الله بالحق والهدى والرشاد ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . وبعد :

فإنَّ القرآن العظيم هو الكتاب المبين ، الذي أنزله الله رب العالمين على الرسول ﷺ هدى وموعظة للمتقين . وهو مصدر الإسلام الأول : عقيدة ، وشرعية ، وأخلاقاً ، وأدباً . حدد الله فيه للعالمين معالم الحق ، وأصول العدل ، وبين لهم مناهج الخير ، وضوابط السلوك ، وقواعد الهداية والتشريع : ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾^(١) .

والقرآن الكريم هو آية النبي العظمى ، ومعجزته الباقية الكبرى ، وحجته القاطعة ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٢) .

وهو دستور الإسلام الجامع ، الذي فصل الله فيه الحقوق والواجبات ، ونظم العلاقات والمعاملات ، وشرع الحدود والأحكام ، في آياته البينات : ﴿ وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(٣) ؛ ولذلك يجب أن يستمد من معينه نظام الحياة . فلا يصح الاعتقاد ، وتطهر الأخلاق ، ويتحقق العدل ، ويسعد الفرد والمجتمع ، إلا إذا بُني ذلك كله على أساس من هداية القرآن الحكيم ﴿ إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾^(٤) .

١ - من سورة المائدة : آية رقم ١٦ .

٢ - من سورة الحجر : آية رقم ٩ .

٣ - من سورة فصلت : آية رقم ٤١ - ٤٢ .

٤ - من سورة الإسراء : آية رقم ٩ .

ولقد فهم الصحابة (رضى الله عنهم) هذه الحقائق كلها عن القرآن الكريم ، وآمنوا بها إيماناً كاملاً . فكان كتاب الله هو الأساس الذى تقوم عليه حياتهم العملية ، حيث كانوا يحفظون آياته ، ويتدبرون معانيه ، ويطبقون أحكامه ويتخلقون بأخلاقه ، ويهتدون بهديه . فوفقهم الله تعالى للاستقامة على أمره ، وتبليغ دعوته ، والجهد فى سبيله .

هذا ، وقد حتمت على دراستى فى قسم التفسير ، أن يكون موضوع بحثى فى رحاب الكتاب الكريم . فاخترت (الابتلاء) موضوعاً لهذه الرسالة التى أتقدم بها إلى قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالرياض . وجعلت عنوان هذه الرسالة هو (الابتلاء وأثره فى حياة المؤمنين كما جاء فى القرآن الكريم) . وقد دفعنى لاختيار هذا الموضوع جملة من الدوافع ، أوجزها فيما يلى :

أولاً - أننى كثيراً ما كنت أقرأ فى المصحف الشريف آيات كريمة عن رسل الله وقصصهم مع أقوامهم ، فيبدو لى أن فيها مواقف عنيفة متشابهة كان يواجهها كل منهم . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أولنعودن ﴾ فإلى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴿ (١) . وقوله سبحانه : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ (٢) .

لقد كان كل منهم (عليهم السلام) يواجه فى طريق الدعوة إلى الله تعالى : الضلال والعمى والطغيان والهوى ، ويتلقى على أيدى أعداء الله وجند الشيطان : الاضطهاد والتهديد والوعيد والتشريد . فهذا العنت الذى كان يلقاه الأنبياء ، والعناء الذى كان يصب على رسل الله (عليهم السلام) قد دفعنى ذلك إلى تقصى أسبابه ، والبحث عن غايته وأهدافه ؛ ليطمئن القلب وتهل النفس .

ثم إننى - فى أثناء تلاوقى للقرآن الكريم - كنت أقف على آيات كثيرة فى ابتلاء المؤمنين ، مثل قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ (٣) وقوله سبحانه : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ (٤) .

١ - من سورة إبراهيم : آية رقم ١٣ - ١٤ .

٢ - من سورة الحجر : آية رقم ١٠ - ١١ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ١٥٥ .

٤ - من سورة العنكبوت : آية ٢ .

وكنّت دائماً أسائل نفسي : ما هو الابتلاء ؟ وما هي الفتنة ؟ وما الحكمة في ذلك البلاء وهذه الفتنة ؟ وما أثر الابتلاء في حياة المؤمنين ؟ فكان هذا من أكبر الدوافع لي علي التفكير في دراسة هذا الموضوع .

ثانياً - هناك دافع آخر حفزني إلى بحث هذا الموضوع ، وهو أنني لم أجد من قام بمثل ما اعتزمت القيام به في هذه الرسالة من هذه الدراسة المنهجية الواسعة عن ابتلاء المؤمنين في ضوء القرآن الكريم ، اللهم إلا ما جاء في أماكن متفرقة هنا وهناك في كتب التفسير . ولم أعرّض على كتاب تعرّض لابتلاء المؤمنين على وجه الخصوص إلا ما جاء في مواضع شتى (في ظلال القرآن) حيث توسّع الأستاذ سيد قطب في هذا الموضوع ، وصوّره تصويراً دقيقاً وعميقاً . ثم إن هناك رسالة للدكتور الحسيني أبو فرحة ، تكلم فيها عن فلسفة البلاء في ضوء الكتاب والسنة ، وموضوعها هو : (غزوة أحد في الكتاب والسنة) .

ثالثاً - إلى جانب هذا كله ، كان من أعظم الدوافع لي على اختيار هذا الموضوع هو إيماني بأن هذا العمل الذي سأقوم به في هذه الرسالة ما هو إلا إسهام مني في خدمة كتاب الله تعالى ، وقيام مني ببعض الواجب نحو هذا الكتاب الكريم ، الذي يحمل في آياته الدعوة إلى الهدى والحق والخير ، ويحقق للناس السعادة في الدنيا والآخرة .

وقد اقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع أن أقسّمه إلى مقدّمة ، وتمهيد ، وباين ، وخاتمة :

أما التمهيد : فقد جاء في أربعة مباحث :

ذكرت في المبحث الأول : تعريف البلاء والابتلاء والفتنة .

وفي المبحث الثاني : بيّنت أن ابتلاء المؤمنين سنة ربانية جارية . وسلكت في توضيح ذلك مسلكين : فتكلّمت أولاً - عن سنة الله تعالى في ابتلاء الأنبياء ، ثم تحدّثت عن سنة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين أتباع الأنبياء . وفي ثانيا ذلك تطرقت لأثر البلاء في تربية النفوس ، كما بيّنت بعض جوانب الحكمة في ابتلاء المؤمنين .

أما المبحث الثالث : فقد وضّحت فيه أن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره ، وأن زاده التقوى والصبر .

ثم تحدّثت في المبحث الرابع : عن تحذير الله تعالى للمؤمنين من فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها .

وأما الباب الأول : فقد خصصته لدراسة ابتلاء الأولين ، فعرضت فيه نماذج من ابتلائهم ، وذلك بعد أن قسّمته إلى خمسة فصول :

تناولت بالدراسة في الفصل الأول : الابتلاء بالطاعة . وقسّمت هذا الفصل إلى خمسة مباحث :

تكلّمت في المبحث الأول : عن ابتلاء آدم (عليه السلام) .

ثم وضّحت في المبحث الثاني : ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بتكاليف خاصة . وقصرت الحديث في ذلك على لونين من البلاء : فتكلّمت أولاً - عن ابتلائه بكلمات ابتلاه ربه بها . ثم ذكرت نموذجاً آخر من نماذج الابتلاء بالطاعة التي تعرّض لها خليل الرحمن ، ألا وهو ابتلاؤه بذبح ابنه إسماعيل (عليهما السلام) .

أما المبحث الثالث : فقد عرضت فيه صوراً من ابتلاء بنى إسرائيل بالطاعة ، وأبرزت ذلك في أربعة معارض : صوّرت في المعرض الأول فتنة قوم موسى بالعجل وتوبيتهم من عبادته . ثم أبرزت في المعرض الثاني قصة بقرة بنى إسرائيل . ثم تحدّثت في المعرض الثالث عن ابتلاء بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدّسة . ثم تكلّمت في المعرض الرابع عن قصة أصحاب السبت .

ثم تناولت بالدراسة في المبحث الرابع : ابتلاء قوم طالوت . ثم تحدّثت في المبحث الخامس : عن ابتلاء يونس (عليه السلام) .

أما الفصل الثاني : فقد تكلّمت فيه عن الابتلاء في مرحلة الإعداد للدعوة . وبيّنت ذلك في مبحثين : تناولت بالدراسة في المبحث الأول ابتلاء يوسف (عليه السلام) . فحصرت الفتن والمحن والابتلاءات التي عاناها في ثلاثة عناصر كما يلي :

١ - يوسف وكيد إخوته له .

٢ - امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه .

٣ - يوسف في غياهب السجن .

ثم تحت كل عنصر من هذه العناصر فصّلت القول فيما لاقاه (عليه السلام) من مكر وكيد وبلاء .

ثم تناولت بالدراسة في المبحث الثاني : ابتلاء موسى (عليه السلام) في مرحلة الإعداد للدعوة ، وقسّمت ذلك إلى قسمين : تكلّمت في القسم الأول عن مولده (عليه السلام) وما أحاط به من ظروف قاسية ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته . ثم تحدّثت في القسم الثاني عن الابتلاء الشديد الذي عاناه (عليه السلام) حين بلغ أشده واستوى .

أما الفصل الثالث : فقد خصصته لدراسة ابتلاء أولي العزم من الرسل ، بالإعراض والأذى من المكذبين بالدعوة . وقسمته إلى أربعة مباحث :

المبحث الأول : تحدّث فيه عن ابتلاء نوح (عليه السلام) .

ثم تكلمت في المبحث الثاني عن ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) . وسلكت في ذلك مسلكين : تحدّثت أولاً - عن دعوته لأبيه آزر ، وثانياً - عن دعوته لقومه . وتحت كل عنصر من هذين العنصرين فصلت القول في ابتلائه (عليه السلام) بالإعراض والأذى من المكذبين بدعوته .

أما المبحث الثالث : فقد تحدّث فيه عن ابتلاء موسى (عليه السلام) بالإعراض والأذى من المكذبين بالدعوة . وقسمت ذلك إلى ستة أقسام كما يلي :

أ - موسى يواجه فرعون وملأه برسالاته فيتهمونه بالسحر والجنون .

ب - موسى يناظر سحرة فرعون فإذا بهم يؤمنون برب العالمين .

ج - فرعون وملؤه يأتمرون بموسى وقومه ليؤذوهم .

د - فرعون يتمادى في كفره وضلاله ويستهزئ بموسى (عليه السلام) .

هـ - جحود فرعون وقومه بآيات الله ظليماً وعلواً .

و - هلاك فرعون وجنوده ، ونجاة موسى وأصحابه من كيدهم .

ثم تحت كل قسم من هذه الأقسام فصلت القول في ابتلائه (عليه السلام) .

ثم تكلمت في المبحث الرابع : عن ابتلاء عيسى (عليه السلام) . وفي مستهل الحديث عن ذلك لخصت قصة أمه مريم البتول ، وما لاقته من شدائد ومحن حين ولادته (عليه السلام) .

أما الفصل الرابع : فقد تناولت فيه بالدراسة الابتلاء بالنعم ، وقسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : عرضت فيه نماذج من ابتلاء بنى إسرائيل بالنعم ، ولخصت ذلك تحت

العناصر الآتية :

أ - نعمة تفضيلهم علي عالمي زمانهم .

ب - نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم .

ج - نعمة بعثهم من بعد موتهم .

د - نعمة شمول الله إياهم بفضله ورحمته برغم نقضهم الميثاق .

هـ - نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم .

و - نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش .

ثم تحدّثت في المبحث الثاني : عن ابتلاء أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم .
وأما الفصل الخامس : فقد خصصته لدراسة ابتلاء قوة العقيدة . وقسّمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تحدّثت فيه عن ابتلاء أيوب (عليه السلام) .
المبحث الثاني : تكلمت فيه عن ابتلاء سحرة فرعون .
المبحث الثالث : تحدّثت فيه عن حادث أصحاب الأخدود .

وأما الباب الثاني : فقد عقدته لدراسة الابتلاء في حياة الرسول ﷺ . وقسّمت هذا الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : عرضت فيه صوراً من الابتلاء في حياة النبي ﷺ في مكة المكرمة . وقد قسّمت هذا الفصل إلى تمهيد ومبحثين :

أما التمهيد : فقد تكلمت فيه عن حياة الرسول ﷺ من مولده إلى أن بعثه الله رسولاً نبياً ، وأشارت إلى ما لاقاه في هذه الفترة من حياته من شدائد ومحن وابتلاءات .
ثم عرضت في المبحث الأول : صوراً عنيفة لمواقف الكافرين من النبي ﷺ ودعوته . وقد قسّمت هذا المبحث إلى قسمين :

فأبرزت في القسم الأول : نماذج من دور الأشخاص في المناوأة والتكذيب . فتكلّمت عن مواقف أبي جهل من النبي ﷺ . ثم ذكرت صوراً عنيفة من مواقف الوليد بن المغيرة ضد الرسول ﷺ ودعوته . ثم تكلمت عن مناوأة النضر بن الحارث للنبي ﷺ واستهزائه بآيات الله تعالى . ثم تحدّثت عن كيد أبي لهب وامراته لرسول الله ﷺ .

أما القسم الثاني : فقد عرضت فيه صوراً أخرى من مواقف الجاحدين في المبكارة والإعراض ، ووضّحت ذلك تحت العناوين الآتية :

- أ - القرآن ومكابرة الجاحدين حين تلاوته عليهم .
- ب - إعراض الكفار عن سماع الإنذار والدعوة .
- ج - أكابر المجرمين يصدون العامة عن الهدى .

ثم تحدّثت في المبحث الثاني : عن الابتلاء بالتحدي والأذى من المكذبين بالدعوة في مكة المكرمة فتكلّمت أولاً - عن تحديات متصله بشخص الرسول ﷺ . وثانياً - أشارت إلى تحديات متصله بالقرآن خاصة . ثم ذكرت نماذج أخرى مما لقيه النبي ﷺ من الأذى ، ووضّحت ذلك تحت العناوين الآتية :

- أ - سعي الرسول ﷺ إلى الطائف وموقف ثقيف منه .
- ب - مشركو قريش يتظاهرون بالاستخفاف بالنبي ﷺ .
- ج - إهتمام مشركي قريش بالنبي ﷺ وإخراجه من مكة .

وأما الفصل الثاني : فقد أبرزت فيه صوراً من الابتلاء في حياة الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، وقسمت هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : عرضت فيه صوراً من ابتلاء الرسول ﷺ وأصحابه في الغزوات . واقتصرت في ذلك على ابتلاء المؤمنين في غزوة أحد وغزوة الخندق .

ثم تحدثت في المبحث الثاني عن ابتلاء المؤمنين بمكر المنافقين . واقتصرت في ذلك على عرض نماذج منه ، ووضّحت ذلك تحت العناصر الآتية :

- أ - حديث الإفك وقصته .
- ب - تعرّض المنافقين لنساء المسلمين بالأذى .
- ج - زعيم المنافقين يدعو إلى مواقف كيدية للمسلمين .

وأما الخاتمة : فقد ذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها في هذه الرسالة ، ولخصت القضايا التي عالجتها في هذا البحث .

هذا ، وأرجو أن أكون - بهذه الرسالة - قد أضفت الى العلم شيئاً جديداً ، وقدمت إلى مكتبة التفسير بحثاً جاداً . فطالما كانت هذه المكتبة في حاجة إلى دراسة مثل هذه الموضوعات التي قمت بها في هذه الرسالة ، ومعالجة مثل هذه القضايا التي عالجتها في هذا البحث .

فإن كنت قد أصبت في بحثي هذا ، فذلك من فضل الله تعالى وعظيم توفيقه . وإن كنت قد أخطأت ، فذلك مني ومن الشيطان الرجيم . وأسأل الله العظيم أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يرزقني حسن القبول ، وأن يهيئ لي من أمري رشداً ، إنه سميع قريب مجيب .

عبد الله ميرغني محمد صالح

ليلة النصف من شهر ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ .
الموافق ٢٩ من يناير سنة ١٩٨٣ م .

الابتلاء

وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في
القرآن الكريم

التمهيد

في بيان المباحث التالية :

- المبحث الأول : في تعريف البلاء والابتلاء والفتنة .
- المبحث الثاني : ابتلاء المؤمنين سنة ربانية جارية .
- المبحث الثالث : الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره .
- المبحث الرابع : تحذير المؤمنين من فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها .

المبحث الأول

في تعريف البلاء والابتلاء والفتنة

البلاء والابتلاء يلتقيان في معنى الاختبار والامتحان . وهما إسمان من بلاء يبلوه وابتلاء ، أى جرّبه . يقال : (بلوت الرجل بلواً وبلاءً وابتليته : اخترته ، وبلاء يبلوه بلواً ، إذا جرّبه واختبره)^(١) . وبلي فلان وابتلي ، إذا امتحن .

جاء في لسان العرب : (وقال ابن الأعرابي : أبلي بمعنى أخبر . وابتلاء الله : امتحنه ، والاسم : البَلَوُ والبِلْوَةُ والبَلِيَّةُ والبَلِيَّةُ والبلاء ، وبلي بالشئ بلاءً وابتلي)^(٢) .

وقال الفيروزابادي : (وابتليته : اخترته . وابتليت الرجل فأبلاى : استخبرته فأخبرني ، وامتحنته واختبرته ، كبلوته بلواً وبلاءً . والاسم : البَلَوُ والبَلِيَّةُ والبِلْوَةُ بالكسر . والبلاء : الغم كأنه يبلي الجسم . والتكليف بلاء ؛ لأنه شاق على البدن ، أو لأنه اختبار . والبلاء يكون منحة ويكون محنة)^(٣) (٤) .

وفي المعجم الوسيط : (ابتلاء : جرّبه وعرفه . والبلاء : الحادث ينزل بالمرء ليختبر به ، والبلاء : الغم والحزن ، والبلاء : مبالغة الجهد في الأمر . البلي : القَدَمُ والتقرب إلى الفناء . البلوى : المصيبة . البلي : الشديد البلي . البليّة : المصيبة ، وجمعها بلايا . البليّة في الجاهلية : الناقة يموت صاحبها فتُحبس على قبره حتى تموت)^(٤) .

ويظهر مما سبق ذكره : أن البلاء هو الابتلاء ، وهما بمعنى الاختبار والامتحان ، وأن التكليف يسمّى بلاء ، ويسمى الغم والحزن بلاء ، وتارة ينصرف معنى البلاء إلى مبالغة الجهد في الأمر .

هذا ، وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى أن البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وذلك عندما زاد وجهاً ثالثاً علي ما ذكر الفيروزابادي من أسباب تسمية التكليف بلاء . قال الراغب : (والثالث : أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا ، وتارة بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء ، فالمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة مقتضية

٢ - المرجع السابق ص ٨٣ .

١ - لسان العرب المجلّد ١٤ ص ٨٣ .
٣ - في مختار الصحاح ص ٦١٧ : (المحنة) واحدة (المِحن) التي يمتحن بها الإنسان من بلية . (ومحنة) من باب قطع ، و (امتحنه) اختبره ، والاسم : (المِحنة) .

٤ - القاموس المحيط ج ٤ ص ٣٠٥ .

٥ - المعجم الوسيط ج ١ ص ٧٠ .

لشكر ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فصارت المنحة أعظم البلاءين^(١) . ثم أورد أمثلة على ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ الآية (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ الآية (٣) (راجع إلى الأمرين : إلى المنحة التي في قوله عز وجل : ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾^(٢) وإلى المنحة التي أنجاهم^(٣)) أى نجاهم الله تعالى من فرعون وعمله .

وفي قاموس القرآن إشارة إلى أن المقصود بالبلاء في الآية - المذكورة أعلاه - النعمة . قال الحسين بن محمد الدامغانى : (البلاء بمعنى النعمة . قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ يعنى في إنجائكم من آل فرعون)^(٤) .

وقال القرطبى : (قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسناً ، ويكون سيئاً ، وأصله المنحة ؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره ، فقليل للحسن بلاء ، وللسيئ بلاء ؛ حكاه الهروى)^(٥) .

ويتضح من ذلك أن البلاء أصله المنحة ، أى الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان . وأن البلاء يكون حسناً ويكون سيئاً . وهو نفس المعنى الذى ذهب إليه الفيروزابادى والراغب الأصفهاني في أن البلاء يكون منحة ويكون محنة .

هذا ، وقد بين الراغب الأصفهاني الفرق بين فعل الله تعالى وفعل الإنسان عند إطلاق الفعل (ابتلى) فقال : (وإذا قيل : ابتلى فلان كذا وأبلاه ، فذلك يتضمن أمرين : أحدهما - تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره . والثاني - ظهور جودته ورداءته . وربما قصِدَ به الأمران . وربما يقصد به أحدهما . فإذا قيل في الله تعالى : بلى كذا أو أبلاه ، فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره ، إذ كان الله سبحانه علام الغيوب ، وعلى هذا قوله عز وجل : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ الآية (٨) . ويقال : أبليت فلاناً يميناً - إذا عرضت عليه اليمين لتبلو بها)^(٦) .

١ - المفردات في غريب القرآن ص ٦١ .

٢ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٣٥ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٤٩ .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٤٩ .

٥ - المفردات في غريب القرآن ص ٦١ .

٦ - قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٧٧ .

٧ - الجامع لأحكام القرآن الكريم ج ١ ص ٣٨٧ .

٨ - من سورة البقرة : آية رقم ١٢٤ .

٩ - المفردات في غريب القرآن ص ٦١ - ٦٢ .

وقد وُضِّحَ القرطبي أيضاً استعمال الفعل : بلى يبلو وابتلى ، فقال : (وقل ابن
كيسان : ويقال في الخير : أبلاه الله وبلاه ؛ وأنشد :
جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم

وأبلاههما خير البلاء الذي يبلو^(١)
فجمع بين اللغتين . والأكثر في الخير : ابتليته ، وفي الشر : بلوته ، وفي الاختبار : ابتليته
وبلوته ؛ قاله النحاس^(٢) .

وفرق أبو هلال العسكري بين التكليف والابتلاء ، كما فرق بين الابتلاء والاختبار .
وعرف التكليف بأنه : إلزام ما يشق إرادة الإنسانية عليه ، وأصله في العربية اللزوم . أما
الابتلاء فهو استخراج ما عند المبتلى وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة .
ويقول : وليس هو من التكليف في شيء ، فإن سمي التكليف ابتلاءً في بعض المواضع فقد
يجرى على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى ، واستعمال الابتلاء في صفات الله تعالى مجاز معناه
أنه يعامل العبد معاملة المبتلى المستخرج لما عنده ، ويقال للنعمة بلاء ؛ لأنه يستخرج بها
الشكر ، والبلى يستخرج قوة الشيء بإذهابه إلى حال البال ، فهذا كله أصل واحد^(٣) .

ثم قال : (الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكارة والمشاق . والاختبار يكون بذلك
وبفعل المحبوب ، ألا ترى أنه يقال : اختبره بالإنعام عليه ، ولا يقال : ابتلاه بذلك ولا هو
مبتلى بالنعمة كما قد يقال : اختبره بالإنعام عليه ، ولا تقول : ابتلاه بذلك لا وهو مبتلى
بالنعمة كما قد يقال : إنه مختبر بها ، ويجوز أن يقال : إن الابتلاء يقتضي استخراج ما عند
المبتلى من الطاعة والمعصية ، والاختبار يقتضي وقوع الخبر بحاله في ذلك ، والخبر : العلم
الذي يقع بكنه الشيء وحقيقته ، فالفرق بينهما بين^(٤) أى بين الابتلاء والاختبار .

ويبدو مما سبق ذكره من الأقوال : أن البلاء هو الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان ، أى
استخراج ما عند المبتلى وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة أو بتحميله المكارة
والمشاق . وأن التكليف يسمى بلاء ، وأن البلاء أصله المحنة ، وأنه يكون حسناً ويكون
سيئاً ، يكون منحة ويكون محنة . ولعل هذا هو المعنى الذي نرمى إليه ونعنيه ونقصده من
الابتلاء في هذا البحث .

١ - قائله زهير ، قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٨٧ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٨٧ .

٣ - الفروق في اللغة ص ٢١٠ بتصرف .

٤ - المرجع السابق ص ٢١١ .

الفتنة :

من معاني الفتنة : الابتلاء ، والبلاء ، والمحنة . وأصلها مأخوذ من (فتن المعدن فتناً وفتنوا : صهره في النار ليختبره)^(١) . و (أصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته)^(٢) .

وفي لسان العرب : (جامع معنى الفتنة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذهب ، إذا أذبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد)^(٣) .

وفي المعجم الوسيط : (وفتن فلاناً : عذبه ليحوله عن رأيه أو دينه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾^(٤) . وفتنه : رماه في شدة ليختبره . قال تعالى : ﴿ أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾^(٥) ويقال : فتنه به ، وفيه . وفتن الشيء فلاناً : أعجب به واستهواه ، يقال : فتنه المال ، وفتنته المرأة : وهنته . وفتن فلاناً عن الشيء : لواه وصرفه . قال تعالى : ﴿ واحذرهم أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ الآية^(٦) . فهو فتن وفتان . والمفعول : مَفْتُونٌ وَفَتِينٌ^(٧) .

وقد عدد ابن الأعرابي معاني الفتنة فقال : (الفتنة : الاختبار ، والفتنة : المحنة ، والفتنة : المال ، والفتنة : الأولاد ، والفتنة : الكفر ، والفتنة : اختلاف الناس بالآراء ، والفتنة : الإحراق بالنار)^(٨) .

وبين الراغب الأصفهاني مشابهة الفتنة للبلاء من حيث الاستعمال ، فقال : (وجعلت الفتنة كالبلاء في أنها يستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان ، من شدة ورخاء ، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً)^(٩) . ثم وضع أن إطلاق كلمة الفتنة على فعل الله سبحانه يختلف عن إطلاقها على فعل الإنسان فقال : (والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ، ومن

- ١ - المعجم الوسيط ٢ ص ٦٨٠ .
- ٢ - المفردات في غريب القرآن ص ٣٧١ .
- ٣ - لسان العرب المجلد ١٣ ص ٣١٧ .
- ٤ - من سورة البروج : آية رقم ١٠ .
- ٥ - من سورة التوبة : آية رقم ١٢٦ .
- ٦ - من سورة المائدة : آية رقم ٤٩ .
- ٧ - المعجم الوسيط ٢ ص ٦٨٠ .
- ٨ - لسان العرب المجلد ١٣ ص ٣١٧ .
- ٩ - المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٢ .

العبد ، كالبليّة والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريمة . ومتى كان من الله تعالى يكون على وجه الحكمة . ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك . ولهذا يَدُمُّ الله تعالى الإنسان بأنواع الفتنة في كل مكان ، (١) نحو قوله : (والفتنة أشد من القتل) (٢) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ الآية (٣) ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ (٤) أى بمضلين (٥) .

وقال العلامة ابن القيم في معنى الفتنة : ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان الذى لم يفتن صاحبه ، بل خلع من الافتتان ، ويراد بها الامتحان الذى حصل معه افتتان . فمن الأول : قوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ (٦) ، ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ (٨) . ويطلق على ما يتناول الأمرين ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٩) ، ومنه قول موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تُشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ (١٠) أى امتحانك وابتلاؤك تضل بها من وقع فيها ، وتهدى من نجا منها (١١) .

واعتبر الفتنة نوعين : فتنة الشبهات ، وفتنة الشهوات . وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بأحدهما . وقال : (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهناك الفتنة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سىء القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته ، وقلة

١ - ولعل الراغب يقصد من هذا الكلام أن الفتنة تكون من الأعمال الصادرة من الله تعالى ومن العبد . فإن كانت من الله فهي على وجه الحكمة ، وإن كانت من الإنسان بغير أمر الله فهي مذمومة . فقد ذم الله سبحانه الإنسان بإيقاع الفتنة ، كما في الآيات المذكورة .

- ٢ - من سورة البقرة : آية رقم ١٩١ .
- ٣ - من سورة البروج : آية رقم ١٠ .
- ٤ - من سورة الصافات : آية رقم ١٦٢ .
- ٥ - المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٢ .
- ٦ - من سورة طه : آية رقم ٤٠ .
- ٧ - من سورة الأنفال : آية رقم ٣٩ .
- ٨ - من سورة التوبة : آية رقم ٤٩ .
- ٩ - من سورة العنكبوت : آية رقم ١ و ٢ و ٣ .
- ١٠ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٥٥ .
- ١١ - إغاثة اللهنان من مصائد الشيطان ج ٢ ص ١٥٩ .

علمه بما بعث الله به رسوله^(١) . وقال أيضاً : (وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من حق ثابت خفى على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع ، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة)^(٢) .

وبين أصل كل فتنة فقال : (وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع ، والهووى على العقل . فالأول : أصل فتنة الشبهة ، والثاني : أصل فتنة الشهوة . ففتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر)^(٣) .

هذا ، وقد وردت الفتنة في القرآن الكريم على أحد عشر وجهاً . قال الحسين بن محمد الدامغانى في قاموس القرآن^(٤) : (فوجه منها - الفتنة بمعنى الشرك . قال تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾^(٥) وقال سبحانه : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾^(٦) .

الثاني - الفتنة بمعنى الكفر . قال تعالى : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾^(٧) يعنى ابتغوا الكفر . كقوله تعالى : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾^(٨) كقوله تعالى : ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾^(٩) أى كفرتم .

الثالث - الفتنة بمعنى العذاب . قال الله تعالى : ﴿ فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾^(١٠) يعنى جعل عذاب الناس كعذاب الله تعالى . وقال سبحانه : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾^(١١) يعنى عذبوا .

الرابع - الفتنة بمعنى الابتلاء . قال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾^(١٢) . أى لا يبتلون . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا الذين من

١ - إغائة اللهفان من مصايد الشيطان ج٢ ص ١٦٥

٢ - المرجع السابق ص ١٦٦ .

٣ - المرجع السابق ص ١٦٧ .

٤ - قاموس القرآن الكريم ص ٣٤٧ - ٣٤٨ بتصرف .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ١٩١ .

٦ - من سورة البقرة : آية رقم ١٩٣ .

٧ - من سورة التوبة : آية رقم ٤٨ .

٨ - من سورة التوبة : آية رقم ٤٩ .

٩ - من سورة الحديد : آية رقم ١٤ .

١٠ - من سورة العنكبوت : آية رقم ١٠ .

١١ - من سورة النحل : آية رقم ١١٠ .

١٢ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٢ .

قبلهم ﴿١﴾ يعنى ابتلينا . كقوله تعالى : ﴿ وفتناك فتونا ﴾ (٢) يعنى ابتليناك ابتلاءً .

الخامس - الفتنة بمعنى الإحراق بالنار . قال تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ (٣) يعنى : أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ؛ كقوله تعالى : ﴿ ذوقوا فتنكم ﴾ (٤) يعنى : عذابكم بالإحراق بالنار .

السادس - الفتنة بمعنى القتل . قال تعالى : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ (٥) أى يقتلكم . كقوله تعالى : ﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ (٦) . يعنى أن يقتلهم .

السابع - الفتنة بمعنى الصد . قال سبحانه : ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (٧) . يعنى يصدوك . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك ﴾ (٨) يعنى يصدونك .

الثامن - الفتنة بمعنى الضلال . قال تعالى : ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ (٩) يعنى مضلين . كقوله تعالى : ﴿ ومن يرد الله فتنته ﴾ (١٠) يعنى ضلالته .

التاسع - الفتنة بمعنى المعذرة . قال تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنهم ﴾ (١١) يعنى معذرتهم .

العاشر - الفتنة بمعنى الإعجاب بالشئ . قال تعالى : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ (١٢) أى لا تسلط علينا فرعون وقومه فيقولون : لولا أننا أمثل منكم ما سلطنا عليكم . فيكون ذلك فتنة .

-
- ١ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٣ .
 - ٢ - من سورة طه : آية رقم ٤١ .
 - ٣ - من سورة البروج : آية رقم ١٠ .
 - ٤ - من سورة الذاريات : آية رقم ١٤ .
 - ٥ - من سورة النساء : آية رقم ١٠١ .
 - ٦ - من سورة يونس : آية رقم ٨٣ .
 - ٧ - من سورة المائدة : آية رقم ٤٩ .
 - ٨ - من سورة الأسراء : آية رقم ٧٣ .
 - ٩ - من سورة الصافات : آية رقم ١٦٢ .
 - ١٠ - من سورة المائدة : آية رقم ٤١ .
 - ١١ - من سورة الأنعام : آية رقم ٢٣ .
 - ١٢ - من سورة يونس : آية رقم ٨٥ .

الحادى عشر - الفتنة بمعنى الجنون . قال تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾^(١) يعنى المجنون .

وقد بين أبو هلال العسكرى الفرق بين الفتنة والاختبار فقال : (الفرق بين الفتنة والاختبار : أن الفتنة أشد الاختبار وأبلغه ، وأصله عرض الذهب على النار ليتبين صلاحه من فساده . ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾^(٢) . ويكون فى الخير والشر ، ألا تسمع قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ﴾^(٤) فجعل النعمة فتنة ؛ لأنه قصد بها المبالغة فى اختبار المنعم عليه بها كالذهب إذا أريد المبالغة فى تعرف حاله فيراى أدخل النار ، والله تعالى لا يختبر العبد لتغيير حاله فى الخير والشر ، وإنما المراد بذلك شدة التكليف .^(٥)

هذا . وما سبق ذكره فى تعريف الفتنة يلاحظ أن هناك معانى شتى للفتنة ، وأنها وردت فى القرآن الكريم على أحد عشر وجهاً ، وتنقسم إلى نوعين كما قال العلامة ابن القيم ، وأن هناك فرقاً بينها وبين الاختبار . ويظهر أبى هلال العسكرى . وعلى أية حال فالفتنة بمعنى الابتلاء هى المقصودة فى هذا البحث . وسنستبر على ذلك حسب موضوع البحث وأهدافه إن شاء الله تعالى .

-
- ١ - من سورة القلم : آية رقم ٦ .
 - ٢ - من سورة الذاريات : آية رقم ١٣ .
 - ٣ - من سورة التغابن : آية رقم ١٥ .
 - ٤ - من سورة الجن : آية رقم ١٦ - ١٧ .
 - ٥ - الفروق فى اللغة ص ٢١١ .

المبحث الثاني

ابتلاء المؤمنين سنة ربانية جارية

من سنن الله تعالى في خلقه الابتلاء . (ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا ، وطبيعة البشر فيها ، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه ، وشدائد تخل بساحته . فكم يخفق له عمل ، أو يخيب له أمل ، أو يموت له حبيب ، أو يمرض له بدن ، أو يفقد منه مال ، أو . . إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة . . حتى قال الشاعر يصف الدنيا :
جبلت على كدر وأنت تريدها

صفواً من الأقدار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها

•
متطلب في الماء جذوة نار^(١)

هذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا . وهو سبحانه إنما خلق السموات والأرض ، وخلق الموت والحياة ، وزين الأرض بما عليها ؛ لابتلاء عباده ، وامتحانهم ؛ ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها .

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾^(٢) .

قال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أى : خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ولم يخلق ذلك عبثاً ، كقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ الآية^(٥) وقوله : (ليبلوكم) أى ليختبركم (أيكم أحسن عملاً) ولم

١ - كتاب الإيمان والحياة ص ١٧٨ .

٢ - من سورة هود : آية رقم ٧ .

٣ - من سورة المؤمنين : آية رقم ١١٥ - ١١٦ .

٤ - من سورة ص : آية رقم ٢٧ .

٥ - من سورة الذاريات : آية رقم ٥٦ .

يقول أكثر عملاً ، بل أحسن عملاً ، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل ، على شريعة رسول الله ﷺ فمضى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل (١) .

وقال تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً . وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرراً ﴾ (٢) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة ، وأنه جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ قال قتادة : عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) (٣) . ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرراً ﴾ أى وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شيء عليها هالكاً (٤) .

والقرآن الكريم يحدثننا عن خلق الإنسان وما حف به من ابتلاء وشدة . يقول الله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (٥) .

وقد بين سبحانه وتعالى الحكمة في خلق الموت والحياة فقال : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ (٦) أى أن يبلو الخلق أيهم أحسن عملاً وأيهم أكثر ذكراً للموت وأكثر استعداداً له .

قال الطبرى : وقوله : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ فأما من شاء وما شاء ، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) يقول : ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع وإلى طلب رضاه أسرع (٧) .

و (يقسم سبحانه بالبلد الأمين والبلد الحرام " مكة " الذى شرفه الله بمكانة الرسول ﷺ فيه ، ويقسم بالوالد آدم ، وما ولد من الصالحين من ذريته ، وجواب القسم : أن الإنسان مخلوق في شدة وعناء ، وهكذا حياته ما بقى في دنياه) (٨) .

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

٢ - من سورة الكهف : آية رقم ٧ - ٨ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النورى ج ١٧ ص ٥٥ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٧٢ .

٥ - من سورة الإنسان : آية رقم ٢ .

٦ - من سورة الملك : آية رقم ٢ .

٧ - تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١ .

٨ - الموسوعة القرآنية المجلد السادس ص ٧٩٧ .

قال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾^(١) أى فى شدة ومشقة لما يعانیه منذ طفولته من شدائد الحياة المختلفة للذات والآلام ، وما يعانیه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف ، ومكابهه أمر الدنيا والآخرة ، ولما يعانیه من أذى الناس .

قال الطبرى : (واختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ فقال بعضهم : معناه : لقد خلقنا ابن آدم فى شدة وعناء ونصب)^(٢) .

وإذا كان هذا سنة الله تعالى فى الحياة عامة وفى الناس كافة ، فإن أصحاب الرسالات - خاصة - وأتباعهم ، المؤمنين الداعين بدعوتهم ، هم أشد تعرضاً للأذى والمحن والابتلاء فى أموالهم ، وأنفسهم ، وأعراضهم ، وأبدانهم ، وأهليهم ، وكل عزيز لديهم . فقد جرت سنة الله تعالى أن يكون لهم أعداء يكرهون بهم ، ويكيدون لهم ، ويتربصون بهم الدوائر .

إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دعاة الطاغوت ، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل ، ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر ، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر . . . وبهذا يحيون فى دوامة من المحن ، وسلسلة من المؤامرات والفتن . سنة الله الذى خلق آدم وإبليس ، وإبراهيم ونمرود ، وموسى وفرعون ، ومحمداً ﷺ وأبا جهل^(٤) .

روى الترمذى فى سننه قال : حدثنا قتيبة ، أخبرنا شريك ، عن عاصم عن مصعب بن سعد ، عن أبيه سعد بن أبى وقاص ، قال : قلت : يا رسول الله ﷺ ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . يبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلواً اشتد بلاءه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة)^(٥) .

فمن قال : آمنت ، لا بد أن يمتحنه الله تعالى وبيئته ؛ ليتبين : هل هو صادق فى قوله : آمنت أو كاذب ؟ فإن كان كاذباً رجع على عقبيه وقر من الامتحان . وإن كان صادقاً

١- قال أبو عبيدة فى عجاز القرآن ص ١٨٧ : (خلقنا الإنسان فى كبد) : فى شدة
قال ليبد : عَيْنٌ هَلَا بِكَيِّتٍ أَرِيدُ !

مِنَّا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبِدٍ

وفى لسان العرب : (كبد الرجل يكابد ابنه . - ركب هوله وصعوبته ويقال : كابدت ظلمة هذه الليلة مكابدة شديدة . وقال ليبد : (عين هلا . . .) البيت أى فى شدة وعناء . - يقال تكبدت الأمر : قصدته) .

٢- من سورة البلد : الآيات رقم ١ - ٤ .

٣- تفسير الطبرى ج ٣٠ - ص ١٩٦ .

٤- كتاب الإيمان والحياة ص ١٧٨ .

٥- سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ثبت على قوله ولم يزدہ الابتلاء والامتحان إلا إيماناً على إيمانه ، ومن ثم يكفر الله عنه سيئاته ويغفر له ذنوبه وخطاياہ بهذا الابتلاء .

وطريق الدعوة إلى الله تعالى محفوف بالمكاره والفتن . وأشد الناس بلاء في هذا الطريق هم الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . يقول الدكتور يوسف القرضاوى نقلاً عن العلامة ابن القيم : (يا منحن العزم . الطريق تعب فيه آدم ، ونوح فيه نوح ، وألقى في النار إبراهيم ، وتعرض للذبح إسماعيل ، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد الحصور يحيى ...)^(١) . هذا ، ومن الآيات القرآنية التي تدل على أن ابتلاء المؤمنين سنة ربانية جارية قوله سبحانه وتعالى :

أ - ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾^(٢) .

ب - ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾^(٣) .

ج - ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصني إليهم أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون ﴾^(٤) .

د - ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾^(٥) .

هـ - ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعلمون ﴾^(٦) .

و وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً^(٧) .

١- كتاب الإيمان والحياة ص ١٨١ .

٢- من سورة البقرة : الآيات رقم ١٥٥ - ١٥٧ .

٣- من سورة آل عمران : الآية رقم ١٨٦ .

٤- من سورة الأنعام : آية رقم ١١٢ - ١١٣ .

٥- من سورة الأنعام : آية ١٢٣ .

٦- من سورة التوبة : آية رقم ١٦ .

٧- من سورة الفرقان : آية رقم ٣١ .

ز - ﴿الم﴾ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿١﴾ .

ح - ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ ﴿٢﴾ .

ويبدو من هذه الآيات الكريمة أنه لا بد من ابتلاء الأنبياء والذين آمنوا معهم . وهذه سنة الله تعالى في أصحاب العقائد والدعوات . وهو الطريق لإنشاء الجماعة المسلمة التي تتحرك بعقيدة التوحيد ، وتحاول تحقيق منهج الله سبحانه في الأرض .

وسيتضح ذلك من تفسير هذه الآيات . وسنسلك في تفسيرها مسلكين : نتكلم أولاً - عن سنة الله تعالى في ابتلاء الأنبياء . وثانياً - عن سنة الله في ابتلاء المؤمنين أتباع الرسل .

(أ) ابتلاء الأنبياء :

ما بعث الله تعالى من نبي إلا كان له أعداء ، هم شياطين الإنس والجن . وهذا من سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه . بإرادة الله عز وجل وتقديره ومشيئته جعل لكل نبي عدواً . هذا العدو هو شياطين الإنس والجن . وقدر الله تعالى أن يوحى بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض زخرف القول ؛ ليخدعهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . كما قدر سبحانه أن تميل إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضوه ويقترفوا ما يقترفونه من الضلال والفساد في الأرض ومن العداوة للرسل والحق الذي معهم .

قال تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ ﴿٣﴾ .

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مسلياً بذلك عما لقي من كفره قومه في ذات الله ، وحاتاً له على الصبر على ما نال فيه : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً) يقول : وكما ابتليناك يا محمد ، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك ، والإيمان بك ، وبما جئتهم به من عند ربك ، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل بأن جعلنا لهم أعداء من قومهم يؤذونهم بالجدال والخصومات . يقول : فهذا الذي امتحنتك به لم تخصص به من بينهم وحداً ، بل قد دعمتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم ، مع قدرتي على منع من أذاهم من

١- من سورة العنكبوت : آية رقم ١ - ٣ .

٢- من سورة محمد : آية رقم ٣١ .

٣- من سورة الأنعام : آية رقم ١١٢ - ١١٣ .

إيذائهم ، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولى العزم منهم من غيرهم . يقول : فأصبر أنت كما صبر أولو العزم من الرسل^(١) .

وقال ابن كثير : (يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمد ، أعداء يخالفونك ويعادونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يحزنك ذلك . كما قال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ﴾... الآية^(٢)) وقال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾^(٣)) وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ الآية^(٤) ، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله (ﷺ) : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي^(٥) .

(ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء : أن سنة الله قد جرت بأن يكون الشرير (المتمرد العاق عن الحق والمعروف) الذي لا ينقاد للحق كبراً وعناداً أو جوداً على ما تعود - عدواً للداعى إليه من الأنبياء وورثتهم وناشرى دعوتهم ، وهكذا الحال في كل ضدين يدعو أحدهما إلى خلاف ما عليه الآخر ، في الأمور الدينية أو الاجتماعية ، وهذا ما يعبر عنه بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التي تدعو إلى التنافس والجهاد وتكون العاقبة انتصار الحق ، وبقاء الأمثل الأصلى ، كما قال تعالى : ﴿ ... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾... الآية^(٦)) فالحياة جهاد لا يثبت فيه إلا الصابرون المجدون ، وليس العمل للأخرة إلا كذلك : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾... الآية^(٧))^(٨)

جاء في تفسير المنار : (والعدو ضد الصديق والحبيب ، وهو يطلق على المفرد والمثنى والجمع والذكر والأنثى ؛ قال تعالى في آية أخرى : ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾^(٩)) ولذلك بين العدو هنا بأنهم شياطين الإنس والجن . فشياطين بيان لعدو أو بدل منه . ويجوز أن يكون المعنى : جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء لكل نبي بعثه الله تعالى^(١٠) .

والشياطنة - وهي العتو والتمرد والغواية والتمحض للشر ، صفة تلحق بالإنس كما تلحق بالجن . بمعنى أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ؛ وذلك لقوله تعالى : ﴿ وإذا

٧ - من سورة البقرة : آية رقم ٢١٤ .
٨ - تفسير المزاغى ج ٥ ص ٦ .
٩ - من سورة الشعراء : آية رقم ٧٥ - ٧٧ .
١٠ - تفسير المنار ج ٥ ص ٥ .

١ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٥٠ - ٥١ .
٢ - من سورة الأنعام : آية رقم ٢٤ .
٣ - من سورة فصلت : آية رقم ٤٣ .
٤ - من سورة الفرقان : آية رقم ٣١ .
٥ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ١٦٦ .
٦ - من سورة الرعد : آية رقم ١٧ .

لقوا الدين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴿١﴾ .
وقد رُوِيَ هذا القول عن مجاهد وقتادة والحسن ، ورجَّحه الطبري بحديث أبي ذر
(رضي الله عنه) - حيث قال ابن جرير : حدثني الثني قال ، حدثنا أبو صالح قال ، حدثني
معاوية بن صالح ، عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة ، عن ابن عائذ ، عن
أبي ذر أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ في مجلس قد أطال فيه الجلوس ، قال : فقال : (يا أبا
ذر ، هل صليت ؟) قال : قلت : لا يا رسول الله . قال : (قم فاركع ركعتين) قال : ثم
جثت فجلست إليه فقال : (يا أبا ذر ، هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟)
قال : قلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : (نعم ، شر من شياطين
الجن !) ﴿٢﴾ .

ثم بين الله عز وجل كيفية عداء هؤلاء الشياطين للأنبياء - وذلك بوقوفهم ضد الرسل
بالعداوة ، ومقاومتهم للهداية والدعوة إلى الحق . فقال تعالى :

﴿ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ ﴿٣﴾ أى يلقي بعض شياطين
الإنس والجن إلى بعض القول المزين المزوق الموه الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره ، والذى
به يظنون أنهم يسترون قبيح باطلهم ويؤدونه بطرق خفية دقيقة لا يفتن إلى باطلها كل أحد ،
حتى يغفروا غيرهم ويخدعوه ويميلوه إلى ما يريدون . فهم يخدع بعضهم بعضاً ويضله ، ثم
يقومون جميعاً بفعل التمرد والغواية وعداء الأنبياء والحق الذى معهم .

(وأول مثل لهذا الغرور ما وسوس به الشيطان للإنسان الأول وزوجه الكريم (آدم
وحواء) . فزَيَّن لهما الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها ، كما قال : ﴿ وقاسمهما
إني لكما لمن النصحين ﴾ ﴿٤﴾ وهكذا يوسوس شياطين الإنس والجن لمن يجترحون السيئات

ذكر ابن كثير حديث أبي ذر هذا في تفسيره ج ٢ ص ١٦٦ ثم قال : (وهذا أيضاً فيه انقطاع ، وروى متصلاً كما قال الإمام
أحمد : حدثنا وكيع حدثنا المسعودي ، أنبأنا ابن أبي عمير الدمشقي عن عبيد بن الحسيحاس عن أبي ذر قال : أتيت النبي ﷺ وهو
في المسجد فجلست فقال : (يا أبا ذر ، هل صليت ؟) قلت : لا . قال : (قم فصل) قال : فقممت فصليت ثم جلست فقال :
(يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن .) قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : (نعم) . وذكر
تمام الحديث بطوله) والحديث في مسند أحمد ج ٨ ص ٧٨ - ١٧٩ . ثم ذكر ابن كثير طرقاً أخرى للحديث ثم قال : (فهذه طرق
لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته ، والله أعلم) .

٣ - جاء في تفسير المراغي ج ٨ ص ٣ : (قال ابن عباس : (كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان .) والإيحاء : الإعلام
بالأشياء من طريق خفى سريع كالإيحاء . والزخرف : الزينة كالأزهار للرياض والذهب للنساء - وما يصرف السامع عن الحقائق
إلى الأوهام . والغرور : الخداع بالباطل) .
٤ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢١ .

ويرتكبون المعاصي ، فيزينون لهم ما فيها من عظيم اللذة والتمتع بالحرية ، ويمنهم بعفو الله ورحمته وشفاعة أنبيائه وأوليائه (١) .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .

(يقول تعالى ذكره : ولو شئت ، يا محمد ، أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعداء من شياطين الإنس والجن ، فلا ينالهم مكرهم ، ويأمنوا غوائلهم وأذاهم ، فعلت ذلك ، ولكني لم أشأ ذلك ، لأبتلى بعضهم ببعض ، فيستحق كل فريق منه ما سبق له في الكتاب السابق (فذرهم) يقول : فدعهم يعني الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك ويخاصمونك بما يوحي إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن (وما يفترون) يعني وما يختلقون من إفك وزور) (٢) .

وذهب ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ إلى أن إجماع هؤلاء الشياطين بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ووقوفهم بالعداوة للأنبياء ، كل هذا بقدر الله ومشيتته ، فقال : (وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيتته ، أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء (فذرهم) أي فدعهم (وما يفترون) أي يكذبون أي دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصد عليهم) (٣) .

ثم يستمر سياق الآيات ليوضح لنا أن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين تميل قلوبهم إلى ما يغروهم به شياطين الإنس والجن من القول المزخرف الموافق لأهوائهم وشهواتهم . أما الذي ينظرون إلى عواقب الأمور ، وينهون أنفسهم عن الهوى ، فلا تغرنهم تلك الزخارف ولا تعجبهم تلك الأباطيل .

قال تعالى : ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتربوا ما هم مقتربون ﴾ .

قال ابن جرير : (يوحي بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المزيّن من القول بالباطل ، ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء ، فيفتنهم عن دينهم ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) (٤) .

١ - تفسير المراغي ج ٨ ص ٧ .

٢ - تفسير الطبري ج ١٢ ص ٥٧ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ١٦٧ .

٤ - تفسير الطبري ج ١٢ ص ٥٧ و ٥٨ .

وورد في تفسير المراغى : (وليرضوه وليقتربوا ما هم مقتربون) أى وليترتب على ذلك أيضاً أن يرضوه لأنفسهم بلا بحث ولا تحميص فيه ، وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصي ما هم مكتسبون بغرورهم به ورضاهم عنه ^(١) .

هذا ، وقد قرر الأستاذ سيد قطب تقريرات في تفسير هذه الآية : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ ^(٢) .

هذه التقريرات نلخصها فيما يلي :

(أولاً - أن الذين يفتنون بالعداوة لكل نبي ، وبالأذى لأتباع الأنبياء ، هم شياطين من الإنس ومن الجن . وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

ثانياً - أن هؤلاء الشياطين لا يقدرّون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم ، بقدرّة ذاتية فيهم . إنما هم في قبضة الله عز وجل . وهو يبتلى بهم أوليائه لأمر يريده من تحميص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء . فإذا اجتازوا الامتحان بقوة ، كفّ الله عنهم الابتلاء ، وكفّ عنهم هؤلاء الأعداء . وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا أيديهم بالأذى وراء ما قدّر الله . (ولو شاء ربك ما فعلوه) .

ثالثاً - أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا . ولقد كان الله عز وجل قادراً - لو شاء - ألاّ يتمردوا ، وألاّ يتمحضوا للشر ، وألاّ يعادوا الأنبياء ، وألاّ يؤذوا المؤمنين وألاّ يضلوا الناس عن سبيل الله . . . كان الله سبحانه قادراً أن يقهرهم قهراً على الهدى ، أو أن يهديهم لو توجهوا للمهدى ، أو أن يعجزهم عن التصدى للأنبياء والحق والمؤمنين به . ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم هذا القدر من الاختيار ، وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله - بالقدر الذي تقضى به مشيئته ويجرى به قدره - وقدّر أن يبتلى أوليائه بأذى أعدائه ، كما يبتلى أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذي أعطاهم إياه .

فهو إنما يبتلى أوليائه كذلك لينظروا : أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق ، بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أيخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها ببيعة واحدة لله تعالى ، على السراء وعلى الضراء سواء ، وفي النشاط والمكره سواء ؟

١ - تفسير المراغى ج ٨ ص ٨ .

٢ - من سورة الأنعام : آية رقم ١١٢ .

رابعاً - أن شياطين الإنس والجن لا يستطيعون بقوة ذاتية لهم ، وما يملكون أن يتجاوزوا حدود ما أذن الله تعالى به على أيديهم من الكيد والأذى . ولذلك فالمؤمنون الذين يعلمون أن ربهم هو الذى يقدر ، وهو الذى يأذن ، جديرون بأن يستهينوا بأعدائهم من الشياطين ، مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعى ، وجديرون بأن يملأوا قلوبهم بالثقة والطمأنينة واليقين ، ويعلّقوا قلوبهم وأبصارهم بالقدره القاهرة والقدر النافذ وبالسلطان الحق الأصيل فى هذا الوجود . وأن يطلقوا وجدانهم من التعلّق بما يريد أو لا يريد الشياطين ، وأن يمضوا فى طريقهم بينون الحق فى واقع الخلق ، بعد بنائه فى قلوبهم هم وفى حياتهم . أما عداوة الشياطين وكيد الشياطين فليدعوها للمشية المحيطة والقدر النافذ . (ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) (١) .

ويظهر مما سبق ذكره : أن عداة شياطين الإنس والجن للرسل سنة يجرى بها قدر الله تعالى . وأن هؤلاء الشياطين ، على كل ما يرتكبونه ، هم فى قبضة الله عز وجل . وهو سبحانه يتلى بهم الأنبياء وأتباعهم ؛ لأمر يريده ويجرى به قدره ، لما وراءه من التمحيص والتجربة ، ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ، ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس . وأن الله تعالى يتلى أوليائه كما يتلى أعداءه من شياطين الإنس والجن ؛ لتصلح الحياة بالدفع ، ويتميز الحق بالمفاصلة ، ويتمحض الخير بالصبر ، ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة ، وليجرى هذا الأمر كله - أمر أعداء الله تعالى وأمر أوليائه على السواء - وفق مشيئة الله سبحانه وتعالى وسنته فى الخلق . والله عز وجل يفعل ما يشاء ، وهو : (فعّال لما يريد) (٢) .

إنها سنة جارية أن يرسل الله تعالى رسله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله - لتكون كلمة الله هى العليا ، ولتكون الربوبية والحاكمية والسلطان كلها لله وحده لا شريك له . وفى هذا تجريد لأكابر أهل القرى من كل ما يدعونه من الألوهية والتسلط على رقاب البشر . ومن ثم تنشب المعركة وتطرد بين الرسل ، والحق الذى معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم ، ويزين هؤلاء الشياطين ، بحسب سنة الله تعالى فى البشر ، يزينون للكافرين سوء أعمالهم فى عدوان الرسل وأتباعهم ، ومقاومة الإصلاح ؛ إتباعاً للهوى واستكباراً فى الأرض ، حتى يخرجونهم من النور إلى الظلمات .

إنها قاعدة وسنة أن يجعل الله عز وجل فى كل قرية زعماء مجرمين يكرهون بالرسول وبسائر المصلحين من بعدهم ، ليتم الابتلاء وينفذ القدر وتحقق الحكمة ويمضى كل فيما هو ميسر له ، وينال كل جزاءه العادل فى يوم الفصل .

١ - فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١١٨٨ - ١١٩١ بتصرف .

٢ - من سورة البروج : آية رقم ١٦ .

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ (١).

قال الجكني : (ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة : أنه جعل في كل قرية أكابر المجرمين منها ليمكروا فيها ، ولم يبين المراد بالأكابر هنا ، ولا كيفية مكروهم ، وبين جميع ذلك في مواضع أخر : فبين أن مجرميها الأكابر هم أهل الترف ، والنعمة في الدنيا ، بقوله : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (٣) ونحو ذلك من الآيات . وبين أن مكر الأكابر المذكور : هو أمرهم بالكفر بالله تعالى ، وجعل الأنداد له بقوله : ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ... ﴾ الآية (٤) وقوله : ﴿ ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تدرن أهتكم ... ﴾ (٥) (٦) .

وقد اختلف في وجه التشبيه في هذه الآية : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ... ﴾ فاستنبطه بعض المفسرين من قرينة الحال التي نزلت فيها سورة الأنعام ، وهي بيان حال أهل مكة في كفرهم وعداوتهم للنبي ﷺ بإغراء أكابرهم المستكبرين . قال ابن كثير : (يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك ، يا محمد ، أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ (٧) (٨) .

وذهب بعض المفسرين إلى أن وجه التشبيه في الآية مستمد من الآية السابقة لها ، وهي قوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ (٩) وتبدو العلاقة بين

١ - من سورة الأنعام : آية رقم ١٢٣ .
وفي تفسير المراعي ج ٨ ص ١٨ : (الأكابر واحدهم أكبر أو كبير : وهو الرئيس والمجرمون : فاعلوا الإجرام . والإجرام : هو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال . والقرية : البلد الجامع للناس - العاصمة في عرف هذا العصر) وقال المراعي في ص ٢٠ من نفس الجزء المشار إليه : (والمراد بالأكابر المجرمين : من يقامون دعوة الإصلاح ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم) .
وجاء في تفسير الطبري ج ١٢ ص ٩٥ : (وأما المكر : فإنه الخديعة والاحتيال للمكور به بالغدر ، ليورطه الماكر به مكروهاً من الأمر .)

٢ - من سورة صبا : آية رقم ٣٤ .
٣ - من سورة الزخرف : آية رقم ٢٣ .
٤ - من سورة صبا : آية رقم ٣٣ .
٥ - من سورة نوح : آية رقم ٢٢ - ٢٣ .
٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٢ ص ٢٠٩ .
٧ - من سورة الفرقان : آية رقم ٣١ .
٨ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ١٧٢ .
٩ - من سورة الأنعام : الآية رقم ١٢٢ .

الآيتين واضحة في تفسير الطبرى ، حيث يقول ابن جرير : (يقول جل ثناؤه : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون ، كذلك جعلنا بكل قرية عظاءها مجرميها ، يعنى أهل الشرك بالله والمعصية له (ليمكروا فيها) بغرور من القول ، أو بباطل من الفعل بدين الله وأنبيائه (وما يمكرون) أى ما يحيق مكرهم ذلك (إلا بأنفسهم) ؛ لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدهم عن سبيله (وهم لا يشعرون) يقول : لا يدرون ما قد أعد الله لهم من أليم عذابه ، فهم فى غيهم وعتوهم على الله يتمادون^(١) .

وقال ابن الجوزى : (قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ، وكما جعلنا فساق مكة أكابرها ، فكذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها . وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية ، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة^(٢) .

وقال المرازى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ قال : (أى وما يكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل فى عصرهم ودعاة الإصلاح من ورثتهم من بعدهم - إلا بأنفسهم . وهكذا شأن من يعادون الحق والعدل ليبقى لهم ما هم عليه من فسق وفساد ؛ لأن سنة الله قد جرت بأن عاقبة المكر السيئ تحقيق بأهله فى الدنيا والآخرة . (أما فى الآخرة فالأمر واضح والنصوص متظاهرة على ذلك)^(٣) وأما فى الدنيا فبما ثبت فى القرآن الكريم من نصر المرسلين وهلاك الكافرين المعاندين ، ومن علو الحق على الباطل ، ومن هلاك القرى الظالمة ، وبما أيده الاختبار ودلت عليه نظم العمران من أن تنازع البقاء يقضى ببقاء الأمثل والأصلح ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ... ﴾^(٤) (٥) .

وذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن وقوف نفر من أكابر المجرمين فى كل قرية موقف العداء من دين الله تعالى وهو سنة جارية ومعركة محتومة . ويعلل ذلك ويصوره بقوله : (إنها سنة جارية ومعركة محتومة ، لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى فى دين الله - وهى رد الحاكمية كلها لله - وبين أطماع المجرمين فى القرى . بل بين وجودهم أصلاً .. معركة لا مفر للنبي أن يخوضها ، فهو لا يملك أن يتقيها ، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها ، وأن يمضوا إلى النهاية فيها ... والله سبحانه يطمئن أوليائه .. إن كيد أكابر

١ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٩٣ .

٢ - زاد المسير فى علم التفسير ج ٣ ص ١٧٧ .

٣ - تفسير المرازى ج ٨ ص ٢١ .

٤ - من سورة الرعد : آية رقم ١٧ .

٥ - تفسير المرازى ج ٨ ص ٢٠ .

المجرمين - مهما ضخم واستطال - لا يحيق إلا بهم في نهاية المطاف . إنَّ المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها ، وهو حسبهم ، وهو يرد على الكائدين كيدهم : (وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) فليطمئن المؤمنون^(١) .

هذا ، والناظر في تاريخ البشرية ، والمتدبر القرآن الكريم ، يجد أنَّ الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولاً . وكان كل رسول يدعو قومه ليعبدوا الله وحده ، وليجتنبوا الطاغوت . فهدى الله سبحانه من قَدَّر له الهداية وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء ، وأضل الله عز وجل من قَدَّر له الضلال ، وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويتأى عنه . فالفرق الذي حق عليهم الضلالة ، شأنهم في جميع الأمم واحد ، وهو أنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، وكذبوا الرسل . واستهزؤا بهم وسخروا منهم ووقفوا بالعداوة والبغضاء لكل نبي أرسل إليهم ، بل قتلوا بعض الأنبياء . وكانوا يصدون عن سبيل الله من آمن ييغونها عوجاً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن الصراط المستقيم . ولو شاء الله تعالى أن يجعل الدنيا مع رسله فلا يخالفون لفعل ، ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يتلى عباده بالرسل ويمتنح الرسل بالمرسل إليهم . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾^(٢) .

من سياق الآيات السابقة لهذه الآية في سورة الفرقان يبدو واضحاً أنَّ النبي ﷺ لما جاء بالهدى ودين الحق ، كذَّبه الذين كفروا وافترؤا عليه واستهزؤا به حتى إنهم اعترضوا على بشرية الرسول ﷺ وأكله الطعام ومشيه في الأسواق . وفي هذه الآية تسليية له ﷺ وتأسيسية بأنه لم يكن بدعاً من الرسل ، فكلهم يمشون على سواء . (فقال تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة القاهرة ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ... ﴾ الآية^(٣) وقوله : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾^{(٤)(٥)} .

١- تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣١٣ .

١- في ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٠٢ .

٢- من سورة الفرقان : آية رقم ٢٠ .

٣- من سورة يوسف : آية رقم ١٠٩ .

٤- من سورة الأنبياء : آية رقم ٨ .

(فإذا كان هناك اعتراض ، فليس هو اعتراضاً على شخصه ﷺ . إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله تعالى . سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ . ليعترض من لا يدركون حكمة الله وتدييره وتقديره . وليصبر من يثق بالله وحكمته ونصره . ولتمضى الدعوة تغالب وتغلب بوسائل البشر وطرائق البشر . وليثبت من يثبت على هذا الابتلاء : (أتصبرون ؟) .. ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ . بصيراً بالطباع والقلوب ، والمصائر والغايات . وهذه الإضافة هنا (وكان ربك) إيجازاً وظلها ونسبتها الرخية على قلب الرسول ﷺ في مقام التأسية والتسلية والإيواء والتقريب .. والله بصير بمدخل القلوب .. (١) .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ قال الحافظ ابن كثير : (أى اخترنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ؛ ولهذا قال : ﴿ أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ أى بمن يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ الآية (٢) ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك . وقال محمد ابن إسحق في قوله : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ قال : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت ، ولكنى قد أردت أن ابتلى العباد بهم وأبتليكم بهم (٣) .

وفي صحيح مسلم : عن عياض بن حمّار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : (ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا ، كل مال نحلته عبداً حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتيك بك ... (٤) .

ويتضح مما سبق أن الله تعالى بعث الرسل بالهدى ودين الحق . وفى طريق الدعوة ابتلاهم وامتحانهم بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم وتحمل المشاق فى تبليغهم رسالات ربهم ، وجعلهم أشد الناس بلاء . كذلك امتحن المرسل إليهم بالرسول وهل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم أو يكفرون بهم ويردون عليهم ويقاتلونهم ؟ وهذه إرادة الله وستته فى الخلق . ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ (٥) الآية .

٤- صحيح مسلم يشرح النووى ج١٧ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

٥- من سورة الأحزاب : آية رقم ٦٢ .

١- فى ظلال القرآن ج١ ص ٢٥٥٦ .

٢- من سورة الأنعام : آية رقم ١٢٤ .

٣- تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٣١٣ .

يقول الأستاذ سيد قطب : (وبرزوا المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي . فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية . فساد في القلوب وفساد في النظم ، وفساد في الأوضاع ، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون ، الذين ينشئون الفساد من ناحية ، ويستغلون من ناحية . والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد ، وتتغنى شهواتهم في جوه الوبر . والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها . . فطبعي إذن أن يبرزوا للأنبياء . . . وللدعوات دفاعاً عن وجودهم ، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه) (١) .

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ (٢) .

لما لاقى النبي ﷺ من المشركين ما لاقى من الشدائد والأهوال ، وشكا إلى ربه بأن قومه اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، أنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة يسليه ويعزيه بأن له في سلفه من الأنبياء قبله أسوة . فتلک هي السنة الجارية في جميع الرسالات . فقد جعل الله عز وجل لكل نبي أعداء يهجرون الهدى الذي يجيئهم به ويصدون عن سبيل الله . ولكن الله يهدي رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين .

جاء في أضواء البيان : لما شكى النبي ﷺ إلى ربه في قوله : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ (٣) أنزل الله قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ الآية ، تسليه له ﷺ . أي كما جعلنا الكفار أعداء لك ، يكذبوك ، ويتخذون القرآن الذي أنزل إليك مهجوراً ، كذلك الجعل جعلنا لكل نبي عدواً : أي جعلنا لك أعداء ، كما جعلنا لكل نبي عدواً (٤) .

وقال الطبري : وقوله : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه : وكفالك يا محمد ، بربك هادياً يهديك إلى الحق ويبصرك الرشد . ونصيراً : يقول : ناصراً لك على أعدائك ، يقول : فلا يهولنك أعداؤك من المشركين ، فإن ناصرك عليهم ، فاصبر لأمرى ، وامض لتبليغ رسالتى إليهم (٥) .

وذهب الحافظ ابن كثير إلى أن الهداية والنصر من الله تعالى لمن اتبع الرسول ﷺ وآمن بكل ما جاء به من عند الله تعالى . فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ قال (ر) من اتبع رسوله و من يكتبه وصدقته واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره في

١ - في ظلال القرآن ج ١٩ ص ٢٥٦٢ .
٢ - من سورة الفرقان : آية رقم ٣١ .
٣ - من سورة الفرقان : آية رقم ٣١ .
٤ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٦ ص ٣٢٠ .
٥ - تفسير الطبري ج ١٩ ص ١٠ .

الدنيا والآخرة ، وإنما قال : (هادياً ونصيراً) ؛ لأنَّ المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ؛ لثلاثي هدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ﴾ الآية (١) .

هذا ، والملاحظ فيما سبق ذكره ، أنَّ أعداء الأنبياء هم أنفسهم أعداء للذين آمنوا معهم . إنهم يقفون بالعداوة والبغضاء لكل من آمن بالرسول وسار على طريقهم في الدعوة إلى الله تعالى . وطبيعة أعداء النبي ﷺ وأصحابه (رضى الله عنهم) ، هي نفس طبيعة أعداء كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق لإعادة نظام الإسلام ، ولاستئناف حياة إسلامية في ظل منهج الله . إنَّ الأعداء يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، ولا يرقبوا فيهم إلاَّ ولا ذمَّة متى ظهروا عليهم وتمكَّنوا منهم . إنهم يحسدون المؤمنين ويودون لو يكفروا كما كفروا فيكونون سواء . ويود كثير من أهل الكتاب لو يردون المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم . إنَّ أعداء الله يحاربون المؤمنين في عقيدتهم بالدس والتشكيك ونثر الشبهات وتدبير المناورات وإثارة الفتن بين المسلمين . إنهم يعمدون إلى العقيدة ويعملون فيها بشتى الأساليب لهدمها وتوهينها ؛ لأنهم يدركون ، ويعلمون علم اليقين ، أنَّ الأمة الإسلامية لا تؤقِّ إلا من هذا المدخل ، ولا تن إلا إذا وهنت عقيدتها ، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان ، مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه ، حاملة لرايته ، منتسبة إليه . ولهذا نجد أعداء المسلمين اليوم - من مشركين ، وملحدين ، وشيوعيين ، وأهل كتاب : من اليهود والنصارى - نجدهم يستهدفون الشباب المسلم ؛ لإفساد عقيدته بشتى المغريات والأساليب . والشباب هو مستقبل الأمة ، فإذا فسد الشباب فسدت الأمة .

تلك هي بعض أساليب أعداء الإسلام لمحاولة محو العقيدة الإسلامية وللسيطرة على المسلمين . ولا يزالون يقاتلون المؤمنين ، ويؤلبون عليهم من يحاربهم ، ويزرعون بذور الخلاف والشقاق في صفوفهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٢) .

وبعد : فقد تكلمنا فيما مضى عن شياطين الإنس والجن ، وسنة الله تعالى في جعلهم أعداء للأنبياء . وفيما يلي - في المسلك الثاني - نتكلم عن ضرورة ابتلاء المؤمنين والتوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة التي تحمل الدعوة وتنهض بتكاليفها ، والتي تحاول تحقيق منهج الله تعالى في الأرض .

(ب) ابتلاء المؤمنين :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (١) .

بعد تقرير القبلة - في سياق الآيات السابقة لهذه الآيات في سورة البقرة - وإفراد الإمامة المسلمة بشخصيتها المميزة ، التي تتفق مع حقيقة تصورها المميزة كذلك . . كان أول توجيه لهذه الأمة ذات الشخصية الخاصة والكيان الخاص ، هذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس . . كان أول توجيه لهذه الأمة هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم . والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، والخوف ، والجوع ، ومكابدة أهوال الجهاد ، لإقرار منهج الله في الأنفس ، وإقراره في الأرض بين الناس . وربط قلوب هذه الأمة بالله ، وتجردها له ، ورد الأمور كلها إليه . . كل أولئك في مقابل رضى الله ورحمته وهدايته ، وهى وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن الذى يدرك قيمة هذا الجزاء (٢) .

لقد بين الله سبحانه وتعالى ما ينتظر المؤمنين من ألوان البلاء ، مؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد ، حيث قال : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ (٣) .

قال المراغى في معنى هذه الآية : (أى والله لنمتحننكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء ، وبعض المصائب المعتادة في المعاش ، كالجوع ونقص الثمار ، إذ كان أحدهم يؤمن فيفصل من أهله وعشيرته ، ويخرج صفر اليدين ، حتى لقد بلغ من جوعهم أن كانوا يتبلغون بثمرات يسيرات ، ولا سيما في غزوى الأحزاب وتبوك . ونقص الأنفس بالقتل والموت من اجتواء المدينة ، فقد كانت حين الهجرة بلد وباء وحى ، ثم حسن مناخها . وفى الآية إيماء إلى أن الإنتساب إلى الإيمان لا يقتضى سعة الرزق وبسط النفوذ وانتفاء المخاوف ، بل كل ذلك يجرى بحسب السنن التى سننها الله لخلقه ، فتقع المصائب متى وجدت أسبابها ؛ وكامل الإيمان يتأدب بمقاومة الشدائد ، ويتهدب بوقوع الكوارث) (٤) .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ١٥٥ .

٤ - تفسير المراغى ج١ ص ٢٤ .

١ - من سورة البقرة : الآيات رقم ١٥٣ - ١٥٧ .

٢ - في ظلال القرآن ج٢ ص ١٤١ .

قال الطبرى : (يقول تعالى ذكره : لنختبرنكم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم ، وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة ، وتتعذر المطالب عليكم ، فتنقص لذلك أموالكم ، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار ، فينقص لها عددكم ، وموت ذراريكم وأولادكم ، وجدوب تحدث فتنقص لها ثماركم . كل ذلك امتحان منى لكم ، واختبار منى لكم فيتبين صادقكم فى إيمانهم من كاذبيكم فيه ، ويعرف أهل البصائر فى دينهم منكم من أهل النفاق فيه والشك والارتياب . كل ذلك خطاب منه لأتباع رسول الله ﷺ وأصحابه) (١) .

ومن لطف الله تعالى ورحمته بعباده أنه جعل البلاء : (بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال ...) الآية ، أى بقليل من ذلك . وتكثير لفظ (شيء) هنا - كما يبدو من السياق - للتقليل ؛ لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فمسهم بشيء قليل من البلاء تخفيفاً عنهم ورحمة بهم واعتباراً لضعفهم .

قال القرطبي - نقلاً عن الإمام الشافعى - فى معنى قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف ... ﴾ قال : (هو خوف الله عز وجل) (٢) . واستبعد صحة هذا المعنى صاحب تفسير المنار مستدلاً بأن الخوف من الله تعالى . (من أعظم ثمرات الإيمان ، لا من مصائب الامتحان ، فهو نعمة تعين على الصبر ، لا مصيبة يطلب الصبر عليها أو فيها لأجل تهوين خطبها) (٣) .

ولعل الحافظ ابن كثير يستبعد كذلك صحة ما نقله القرطبي عن الإمام الشافعى فى تفسير : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ... ﴾ الآية ، حيث قال ابن كثير : (وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وينقص الأموال الزكاة ، والأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، وفى هذا نظر ، والله أعلم) (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم ﴾ إخبار من الله تعالى للمؤمنين أنه مبتليهم ومنتحنهم . (وفائدة الإخبار بالبلاء قبل وقوعه توطين النفس عليه واستعدادها لتحمله ، والاستفادة منه ، (ما من دهمي بالأمر كالمعتد) هذا إن لم يقترن بالخبر إرشاد وتعليم ، فكيف إذا اقترنت به هداية العزيز العليم ؟) (٥) .

ويتضح مما سبق ذكره ، أن الله تعالى بعد أن ذكر فضل الشهادة التى استهدف لها المؤمنين فى سبيل الدعوة إلى الحق والدفاع عنه ، بين أن الدنيا دار بلاء ، وأخبر المؤمنين -

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٩٧ .

٥ - تفسير المنار ج ٢ ص ٤١ .

١ - تفسير الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ص ١٧٣ - ١٧٤ .

٣ - تفسير المنار ج ٢ ص ٤٠ .

مؤكداً الخبر بصيغة القسم - أنه عز وجل مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور ، ليعلم من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه . وهكذا علمت الجماعة المسلمة الأولى ما ينتظرها من تضحيات وآلام ، وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال والثمرات ، ولكنها سارت في الطريق ولم تتخاذل ولم تتراجع ولم تنكص على أعقابها ، رغم ما لاقت من البلاء وضروب المحن .

والخطاب في الآية وإن كان موجهاً لأتباع النبي ﷺ وأصحابه (رضى الله عنهم) فإنه يشمل جميع المؤمنين في أي زمان وفي أي مكان ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فأى جماعة مسلمة تنهض بتكاليف الدعوة إلى الله تعالى ، وتحاول تحقيق منهج الله سبحانه في الأرض ، لا بد أن يتبليهم الله عز وجل بلاء يصيب القلوب بالخوف ، والبطون بالجوع والأموال بالنقص ، والأنفس بالموت ، والثمرات بالآفات . وهذه هي سنة الله في العقائد والدعوات .

أما أثر هذا البلاء ، فلعل الأستاذ سيد قطب قد أشار إليه حين قال : (ولا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، لا بد من هذا البلاء ، ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة ، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف . والتكاليف هي الثمن النفسى الذى تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين . وكلما تألوا في سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها .. كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها . كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها . وحين يرون ذلك ، ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها ، مقدرين لها ، مندفعين إليها أفواجاً أفواجاً .

(ولا بد من البلاء كذلك ؛ ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى . فالشدائد عبارة عن دروس وعبر وكسب للخبرات . والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتصدق وتستقيم إلا في جو المحنة التى تزيل الغش عن العيون والران عن القلوب .

(ومن أثر البلاء : الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها ، وتتوارى الأوهام وهى شتى ، ويخلو القلب إلى الله وحده . لا يجد سنداً إلا سنده . وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات ، وتفتح البصيرة ، وينجلي الأفق على مد البصر .. لاشئ إلا الله .. لا قوة إلا قوته .. لا حول إلا حوله .. لا إرادة إلا إرادته .. لا ملجأ إلا إليه .. وعندئذ تلتقى الروح بالحقيقة الواحدة التى يقوم عليها تصور صحيح ..)^(١) .

١ - في ظلال القرآن ج ٢ ص ١٤٥ ، بتصرف .

فما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى ، ضرورة لهم ؛ لأن فيه تربية وتمحيصاً لنفوسهم ، وحملها على الصبر ، الذى جزاؤه الأجر بغير حساب ، وفيه ترويض للنفوس على تحمل الأذى ، والمشاق ، واكتساب التجارب والخبرات ، واكتشاف مالا يخطر على البال .

هذا ، وقد أشار العلامة ابن القيم إلى ضرورة البلاء للمؤمن فقال : (إن ابتلاء المؤمن كاللداء له يستخرج منه الأدواء التى لوبقيت فيه أهلكته ، أو نقصت ثوابه ، وأنزلت درجته ، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ، ويستعد به لتمام الأجر ، وعلو المنزلة ، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه ، كما روى صهيب قال : قال رسول الله ﷺ : (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .)^(١) فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته^(٢) .

ومن الآيات التى فيها تأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين ، قوله تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾^(٣) .

قال الحافظ ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ إلى آخر الآيتين . أى لا بد أن يتلى المؤمن فى شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلماً لهم عما يناله من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمراً لهم بالصبر والعفو حتى يفرج الله ، فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾^(٤) .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا ، نقلاً عن الأستاذ الإمام فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾ الآية ، قال : يصح اتصال هذه الآية بما قبلها من قوله تعالى : ﴿ ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ﴾^(٥) الآية ، فإن فيها ذكر البخل بالمال ، وذكر حال اليهود ، وهذه تذكر البلاء بالمال وما سيلقى المؤمنون من أولئك اليهود وغيرهم . ويصح أن يكون ما قاله بعضهم متصلاً بما هو قبل ذلك من أول واقعة أحد إلى

١ - صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ١٢٥ .

٢ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ج ٢ ص ١١٨ - ١٨٩ .

٣ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٨٦ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٣٥ .

٥ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٨٠ وما بعدها .

هنا ، كأنه يقول : إنَّ ما وقع من الابتلاء في الأنفس والأموال ، والظعن في تلك الواقعة ، ليس آخر الابتلاء ، بل لابد أن تبتلوا بعد ذلك بكل هذه الضروب منه ، وتجري فيكم سنته تعالى في خلقه ، فلا تظنوا أنكم جلستم على عرش العزة ، واعتصمتم بالمنعة ، وأمتتم حوادث الكون ، فإنه لابد أن يعاملكم الله تعالى كما يعامل الأمم ، معاملة المختبر المبتلى لا ليعلم ما لم يكن يعلم من أمركم فهو علام الغيوب ، بل ليميز الخبيث من الطيب من بعد ، كما ماز الكثيرون في واقعة أحد^(١) .

وقال المراغي في تفسير : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذنى كثيراً ﴾ الآية ، قال : (هذا سبيل آخر من الابتلاء في الأنفس ، وخصه بالذكر لأهميته ، أى إنكم ستسمعون إيذاء كثيراً من اليهود والنصارى والمشركين ، ومن ذلك حديث الإفك (كذب أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها) وتألب اليهود عليهم ونقض عهودهم ، ومحاولتهم قتل النبي ﷺ حتى أجلاهم عن المدينة فأمن شرهم ، واتفاق اليهود مع أحزاب المشركين وزحفهم على المدينة لاستئصال المسلمين ، فقد حاصروهم وأوقعوا بهم شديد البلاء وضيقوا عليهم^(٢) .

وهذه الآية - التي نحن بصددھا - قيل : نزلت بسبب أن أبا بكر (رضى الله عنه) سمع يهودياً يقول : إنَّ الله فقير ونحن أغنياء ، رداً على القرآن واستخفافاً به حين أنزل الله : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ الآية^(٣) ، فلطمه ، فشكاه إلى النبي ﷺ فنزلت . قيل : إنَّ قائلها فنحاص اليهودى ، عن عكرمة . وقال الزهري : هو كعب بن الأشرف ، نزلت بسببه ، وكان شاعراً ، وكان يهجو النبي ﷺ وأصحابه ويؤلب عليه كفار قريش ، ويشبب بنساء المسلمين ، حتى بعث إليه رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة وأصحابه فقتله القتل المشهورة في السير وصحيح الخبر . وقيل غير هذا^(٤) .

وروى البخارى بسنده : عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة ابن زيد حدثه ، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فذكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عباد بنى الحارث ابن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مرَّ على مجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي ، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود ، والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم

١ - تفسير المنار ج٤ ص ٢٧٤ .

٢ - تفسير المراغى ج٤ ص ١٥٤ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٤٥ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص ٣٠٣ .

رسول الله ﷺ ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل قرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه) : بلى يا رسول الله ، فاعشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك . فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا ، ثم ركب النبي ﷺ دابته فصار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي ﷺ : (يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب ؟) يريد عبد الله بن أبي ، قال كذا وكذا . فقال سعد : يا رسول الله ﷺ ، أعف عنه واصفح ، فوالذي أنزل عليك الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصطاح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصاة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شراً بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ (١) .

قال القرطبي - بعد أن ذكر هذا الحديث : (ونزلت هذه الآية - يعني بهذا السبب نزلت الآية - قيل : هذا كان قبل نزول القتال ، وندب الله عباده إلى الصبر والتقوى وأخبر أنه من عزم الأمور . وكذا في البخاري في سياق الحديث ، أن ذلك كان قبل نزول القتال . والأظهر أنه ليس بمنسوخ ، فإن الجدال بالأحسن والمدارة أبداً مندوب إليها ، وكان ﷺ مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويدارهم ، ويصفح عن المنافقين ، وهذا بين . ومعنى : (عزم الأمور) شدتها وصلابتها (٢) .

(وكان رسول الله ﷺ وأصحابه (رضي الله عنهم) يعفون عن المشركين ، وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَرًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الآية (٣) . وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم . فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد قريش ، قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبد الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا . فكل من قام بحق ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، فلا بد أن يؤدي ، فماله دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله (٤) .

١ - فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ج ١٠ ص ١٢٢ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٣٠٤ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ١٠٩ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٣٦ .

وخلاصة ما سبق ذكره : أَنَّ الله تعالى خاطب المؤمنين بأنهم مبتلون في أموالهم وأنفسهم ، والأذى سينالهم من أعدائهم المشركين وأهل الكتاب ، فلا عاصم لهم إلا الصبر والتقوى والمضى مع منهج الله تعالى الذى يرحمهم عن النار . خاطبهم بذلك ليوطنوا أنفسهم على ما سيلقون من الأذى والشدائد والمحن والصبر عليها ، حتى إذا تلقوها وهم مستعدون لها لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه . والآية : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم . . ﴾ وإن كانت نزلت بسبب من الأسباب سالفة الذكر ، إلا أنها تعتبر توجيهاً إلهياً لكل المؤمنين في أى مكان وعلى مدار التاريخ . هذا التوجيه الإلهى يبصر كل جماعة مسلمة تسلك طريق الدعوة الإسلامية كما سلكه أصحاب رسول الله ﷺ يبصرها بطبيعة أعدائها ، وهم من مشركين وملحدين وأهل كتاب - اليهود والنصارى ، والشيعية الدولية ، وغيرهم من المشركين - الذين نجدهم يختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف ، ثم يتناسون هذا كله حين يكون العدو هو الإسلام ، فتجتمع كلمتهم على حرب المسلمين والدعوة الإسلامية - هذا التوجيه الإلهى يبصر كل جماعة إسلامية بهذا العدو المختلف الاتجاهات والاعتقادات ، المتحد في ملة الكفر لحرب المسلمين . ويبدو ذلك واضحاً من سياق الآية حين قرنت بين الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومن على شاكلتهم ، مع اختلاف الفريقين في الدين والوجه . هذا التوجيه الإلهى يبصر كل جماعة إسلامية تحاول تطبيق منهج الله تعالى في الأرض ، يبصرها بطبيعة العقبات والمكر والخديعة المرصودة في طريقها ، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء ، ويعلق قلوبها بما عند الله عز وجل ويهون عليها الأذى والموت والفتن في النفس والمال ، وينادى بها - كما نادى الجماعة المسلمة الأولى - : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (١) .

هذا ، والملاحظ هنا أن الآية جمعت بين الصبر والتقوى ، وذلك لعله توجيه إلى المؤمنين بأن يلتزموا ويحافظوا على التقوى ، في ثنایا الصراع المرير ، مع تحملهم بالصبر وتحمل الأذى . وكما يبدو من السياق ، ينصرف معنى التقوى هنا إلى التعفف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الخبيثة ، فلا يواجه الدس بالدس ولا الخيانة بالخيانة ولا المكر بالمكر ولا التحريف بالتحريف ، ولا الافتراء بالافتراء إلى غير ذلك من الأساليب الدنيئة ؛ لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية في السلم والحرب ، والرخاء والشدة . والرسول ﷺ إنما بُعث رحمة للعالمين وليتمم مكارم الأخلاق . وفي كثير من أحاديثه ﷺ يحثنا على العفو والحلم والصبر والرحمة ولين

الجانب وتحمل الأذى والجود وبسط الوجه وبذل المعروف إلى غير ذلك من الصفات الكريمة .
وقدوتنا في حسن الخلق القرآن الكريم ونبينا الأمين ﷺ الذي شرفه الله تعالى بهذا الوصف
الكريم : ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) . والله سبحانه وتعالى يوجِّهنا في آيات كثيرة من
القرآن الكريم - على أي حال كنا ، في سلم أو حرب - إلى التجمُّل بمكارم الأخلاق ومعاملة
الناس المعاملة الحسنة .

أما أعداء المؤمنين - أهل الكتاب والذين أشركوا - فلا مُثل لهم ولا أخلاق ، ولا
تحكمهم قيم كالمسلمين ؛ ولذلك نجدهم لا يباليون بالمكر والخيانة والخديعة والافتراء
والتحريف ، وبكل أسلوب خبيث وسلاح دنيء . إنهم يقفون بالمرصاد لكل داعية إلى الحق ،
أو أمر بمعروف ، أو ناه عن منكر . وتختلف وسائل دعايتهم ضد الجماعة المسلمة ، ووسائل
إيذائها في سمعتها وفي مقوماتها وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها باختلاف الزمان . ولكن
القاعدة واحدة : ﴿ لتبْلُوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعْنَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾ الآية (٢) . وهكذا يكشف الله لنا عن طبيعة الدعوة
وطبيعة الأعداء الراصدين لها في الطريق .

(ويبقى هذا التوجيه القرآني رصيذاً للجماعة المسلمة كلما همَّت أن تتحرك بهذه
العقيدة ، وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض ، فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة ،
ووسائل الدعاية الحديثة ، لتشويه أهدافها ، وتمزيق أوصالها . . يبقى هذا التوجيه القرآني
حاضراً يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة ، وطبيعة طريقها . وطبيعة أعدائها الراصدين لها في
الطريق . ويبث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك ؛ فتعرف حين تناوشها
الذئاب بالأذى ، وحين تعوى حولها بالدعاية ، وحين يصيبها الابتلاء والفتنة . . أنها سائرة في
الطريق ، وأنها ترى معالم الطريق ! ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء الباطل
عليها وإسماعها ما يكره وما يؤدي . . تستبشر بهذا كله ، لأنها تستيقن منه أنها ماضية في
الطريق التي وصفها الله لها من قبل . وتستيقن أن الصبر والتقوى هما زاد الطريق . ويبطل
عندها الكيد والبلبله ويصغر عندها الابتلاء والأذى ، وتغضى في طريقها الموعود إلى الأمل
المنشود . . في صبر وفي تقوى . . وفي عزم أكيد) (٣) .

١ - من سورة القلم : آية رقم ٤ .

٢ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٨٦ .

٣ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

المبحث الثالث

الطريق إلى الجنة مخفوف بالمكاره

كان رسول الله ﷺ وأصحابه (رضى الله عنهم) يعانون في واقعهم مشقة الاختلاف بينهم وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب . وكان هذا الخلاف يجر إلى حروب ومتاعب وويلات وفتن ومصائب . وكان الوحي ينزل بالتوجيهات الإلهية التي تنير لهم الطريق ، وتكشف لهم عما ينتظرهم في طريقهم الشائك من البأساء والضراء والجهد الذي لقيته كل جماعة - قَبْلَهُمْ - آمنت بما جاءهم به نبيهم واتبعت الهدى معه . وكانت هذه التوجيهات الإلهية تتوالى عليهم هادية ومرشدة لهم لإعداد أنفسهم لتكاليف الأمانة التي لا مفر منها ولا محيص عنها ، ولكي يقبلوا عليها راضية نفوسهم ، مستقرة ضمائرهم .

إن هذه التوجيهات الإلهية عبارة عن منهج للتربية من حكيم خبير ، يبين لهم أن ما يلاقونه في طريقهم من الشدائد إنما هو سنة الله تعالى في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلاً . فالجنة أعدت للمتقين ، المحسنين ، الصابرين ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله عز وجل . الذين دافعوا عن عقيدتهم وتحملوا في سبيلها العنت والألم والشدّة والضرر . الذين لم ترهبهم قوة ولم ترعزعهم شدة ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة والبلاء . هؤلاء الثابتون على عقيدتهم الذين تحررت أرواحهم من الخوف من كل شيء سوى الله تعالى ، وتحررت من الذل للعباد ، ومن الحرص على الحياة أو الدعة والراحة ، هؤلاء عسى أن يكونوا من الذين يدخلون الجنة ، المستحقين لها ، الجديرين بها ، بعد الجهاد والامتحان ، والصبر والثبات ، والتجرد لله وحده ، والشعور به وحده ، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه سبحانه وتعالى . فالجنة سلعة غالية ، ولا بد لها إذن من ثمن ، ولا مفر من الثمن ، وقد دفعه أصحاب الدعوات من قبل ، فلا بد أن يدفعه إخوانهم من بعد :

قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (١) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٢١٤ .

جاء في تفسير المراغي ج ٢ ص ١٢٦ ما يلي : (المثل : الوصف العظيم والحال التي لها شأن بحيث يضرب بها المثل . والبأساء : الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه ويدنه كأخذ المال ، والإخراج من الديار ، وتهديد الأمن ، ومقاومة الدعوة . والضراء : ما يصيب الإنسان في نفسه ، كالجرح والقتل والمرض . والزلازل : الاضطراب في الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه) .

(هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجَّهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، وإلى سنته سبحانه في تربية عباده المختارين الذين يكل إليهم رايته ، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم ..)^(١)

هذا الخطاب من الله تعالى لأهل الصدر الأول من المسلمين ، فيه العبرة لكل من يظن أنَّ في انتسابه إلى الإسلام الكفاية في دخول الجنة . فبين سبحانه وتعالى أنَّ هذا الحساب والوهم جهل بسنة الله في احتمال دعاة الحق والهدى للشدائد والأذى . ووضح أنَّ طريق الجنة إنما هو الصبر على البلاء ، والصبر على البأساء تصيب الأموال ، والضراء تصيب الأبدان ، والزلزلة تصيب النفوس . ولا بد أن يبلغ هذا الزلزال النفس من الشدة إلى حد ما بلغ البلاء والجهد بالأمم المتقدمة ، حين كان يقول الرسول - أي رسول - والذين آمنوا معه : (متى نصر الله ؟) . وإنه لسؤال من الرسول الموصول بالله تعالى ومن الذين آمنوا بالله ، سؤال يصور مدى الشدة والمحنة التي تزلزل مثل تلك القلوب الموصولة بالله عز وجل ، يصور الضيق والحنق والشدة والعسر والبلاء الذي هو واقع بهم حتى يعتقدوا أنَّ النصر الذي وعد الله به من ينصره قد أبطأ . فينبعث من هاتيك القلوب ذلك السؤال المكروب : (متى نصر الله ؟ ...)

وعندما تصل المحنة إلى ذروتها ، حيث تمتحن القلوب وتمحص وتصفى ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، والصادق في إيمانه من الكاذب فيه ، وعندما يثبت المؤمنون الصادقون على مثل هذه المحنة المزلزلة ، عندئذ تتم كلمة الله وينجز وعده وينصر المؤمنين ويثبت أقدامهم .

(وهذا هو الطريق - إلى الجنة - كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى ، وللجماعة المسلمة في كل جيل . هذا هو الطريق : إيمان وجهاد .. ومحنة وإبتلاء . وصبر وثبات .. وتوجه إلى الله وحده . ثم يجيء النصر . ثم يجيء النعيم ..)^(٢)

هذا ، وقد ذكر ابن الجوزي في سبب نزول الآية عدة أقوال ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فهي هدى للجماعة المسلمة في أي مكان وعلى مدار التاريخ . أما ما أورده ابن الجوزي فهو : (قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ﴾ الآية ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها : أنَّ الصحابة أصابهم يوم الأحزاب بلاء وحصر ، فنزلت هذه الآية ، ذكره السدي عن أشياخه ، وهو قول قتادة . والثاني : أنَّ النبي ﷺ لما دخل المدينة

١ - في ظلال القرآن جـ ٢ ص ٢١٨ .

٢ - المرجع السابق ص ٢١٩ .

وهو وأصحابه اشتد بهم الضر ، فنزلت هذه الآية ، قاله عطاء . والثالث : أن المنافقين قالوا للمؤمنين : لو كان محمد نبياً لم يُسلط عليكم القتل ، فأجابوهم : من قتل منا دخل الجنة ، فقالوا : لم تمنون أنفسكم بالباطل ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . وزعم أنها نزلت يوم أحد^(١) .

وقال الحافظ ابن كثير : (البأساء) الفقر (والضراء) السقم (وزلزلوا) خوَّفوا من الأعداء ، زلزالاً شديداً ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟ فقال : (إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه)^(٢) الحديث^(٣) . ثم قال ابن كثير : (ولما سأل هرقل أبا سفيان : هل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال : سجلاً ، يدال علينا وندال عليه . قال : كذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة)^(٤) وقوله : ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أى سبَّهم . وقوله : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ أى يستفتحون على أعدائهم ، ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة . قال الله تعالى : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ كما قال : ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾^(٥) وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ؛ ولهذا قال : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾^(٦) .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾^(٧)

روى البخارى بسنده عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة أنه سأل عائشة زوج النبي ﷺ : أرايت قول الله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ أو كذبوا ؟ قالت : بل كذبهم قومهم . فقلت : والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم وما هو بالظن . فقالت : يا عِزَّة لقد استيقنوا بذلك . قلت : فلعلها (أو كذبوا) قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، وأما هذه الآية قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم

١ - زاد السير في علم التفسير ج١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٥١ .

٤ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج٦ ص ١١٠ .

٥ - من سورة الشرح : آية رقم ٦ - ٥ .

٦ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٥١ .

٧ - من سورة يوسف : آية رقم ١١٠ .

وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استياست ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله (١) .

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . مصداق ذلك في كتاب الله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٢) (٣) .

فهذه الجنة العالية ذات القطوف الدانية ، التي يُرزق فيها أصحابها بغير حساب ، والتي فيها ما فوق الوصف مما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، تلکم الجنة حُفَّت بالمكارة . ولا سبيل إلى دخولها إلا الجهاد والصبر .

روى الترمذی قال : حدثنا أبو كريب ، أخبرنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو ، أخبرنا أبو سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرئيل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحُفَّت بالمكارة ، فقال : ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالمكارة ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لقد حُفَّت ألا يدخلها أحد . قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها (٤) .

وروى مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (حُفَّت الجنة بالمكارة وحُفَّت النار بالشهوات) (٥) .

وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) (٦) .

١ - فتح الباری بشرح صحيح البخاری ج ٦ ص ٤١٨ - ٤١٩ .

٢ - من سورة السجدة : آية رقم ١٦ - ١٧ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ - ص ١٦٦ .

٤ - سنن الترمذی ج ٤ ص ٩٧ . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٥ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٦٥ .

٦ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٤٦ .

فطريق الجنة إذن محفوف بالمكاره . وزاده التقوى والصبر على مشاق الطريق ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء . وليس زاده التمنى والأمانى الطائفة التي لا تثبت على المحنة والشدائد والبلاء .

قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾^(١) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (أى أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ؟ كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ... ﴾^(٢) . وقال تعالى : ﴿ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾^(٣) الآية ؛ ولهذا قال ههنا : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ أى لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء)^(٤) .

ولفظ (أم) في الآية - للاستفهام المجرد أو للمعادلة ، وهو المعنى الذى اختاره الأستاذ الإمام ، وهو ما جرى عليه أبو مسلم الأصفهاني . فقد قال الأستاذ المراغي نقلاً عن صاحب تفسير المنار^(٥) : قال الإمام الرازي : (وقال أبو مسلم الأصفهاني في : (أم حسبتم) إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذى يأتى للتبكيك^(٦) وتلخيصه - لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد . وهو كقوله تعالى : ﴿ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾^(٧) . وعادة العرب أن يأتوا بهذا الجنس من الاستفهام تأكيداً ، فلما قال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾^(٨) كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك واقع كما تؤمرون ؟ أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة ولا صبر ؟ وإنما استبعد هذا ؛ لأن الله تعالى لما أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة - واقعة أحد - وأوجب الصبر على تحمل متاعبه ، وبين وجوه المصالح فيه في الدين والدنيا ، كان من البعيد أن يظن الإنسان أنه يصل إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة . أه ، بتصرف)^(٩) .

١ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٤٢ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٢١٤ .

٣ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٢-١ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ٨ - ٤٠٨ - ٤٠٩ .

٥ - تفسير المنار ج ٤ ص ١٥٤ .

٦ - جاء في مختار الصحاح ص ٦١ : (بَكَّتْ) - (التَّبَكُّيْتُ) كالتقريع والتعنيف و (بَكَّتْهُ بِالْحِجَةِ) (تَبَكُّيْتُ) غلبه .

٧ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٢-١ .

٨ - من سورة آل عمران : آية ١٣٩ .

٩ - تفسير المراغي ج ٤ ص ٨٤ - ٨٥ .

ويعتبر الأستاذ سيد قطب في : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) الآية ، سؤال استنكارى يصحح الله به تصورات المسلمين عن سنة الله تعالى في الدعوات . فيقول : (إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور : تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان . أسلمت ، وأنا على استعداد للموت . فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان ، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان ! إنما هي التجربة الواقعية ، والامتحان العمل . وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد ، وعلى معاناة البلاء)^(١) .

هذا ، وقد ذهب الأستاذ الإمام إلى أن الجهاد المذكور في الآية يُراد به معنى أعم من الجهاد في ميدان القتال . وذلك حين قال : ربما قاتل يقول : إن الآية تفيد أن من لم يجاهد ويصبر لا يدخل الجنة ، مع أن الجهاد فرض كفاية^(٢) . ونقول : نعم ، إنه لا يدخل الجنة من لم يجاهد في سبيل الحق . ولكن الجهاد في الكتاب والسنة يستعمل بمعناه اللغوي ، وهو : احتمال المشقة في مكافحة الشدائد .^(٣) ومنه جهاد النفس الذي روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر . ومن أمثلة ذلك مجاهدة الإنسان لشهوته لاسيما في سن الشباب ، وجهاده ماله ، وما يبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق ...^(٤)

إن الجهاد الإسلامى في ميدان القتال في هذا الزمان ليس فرض كفاية كما يبدو من طبيعة الدين الإسلامى . بل لعل الجهاد اليوم أصبح فرض عين - على كل مسلم ليست به علة - منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض ، ومنذ غروب شمس الخلافة

١ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٤٨٣ .

٢ - تحدّث الدكتور الحسنى أبو فرحة في كتابه (فلسفة البلاء في ضوء الكتاب والسنة - غزوة أحد -) ص ٥٢ - ٥٥ تحدّث عن حكم الجهاد فقال : (في عهد الرسول ﷺ) : (أ) يحتمل أن يكون الجهاد فرض عين على كل مسلم . (ب) ويحتمل أن يكون فرض عين على الصحابة فقط . (ج) وقيل : كان عيناً في الغزوة التي يخرج فيها النبي ﷺ دون غيرها . (د) والراجح لدى الرأى القائل : إنه كان في عهده ﷺ عيناً على من عينه عليه النبي ﷺ وإن لم يخرج النبي ، كفاية في حق غيره . وأما بعد عهده ﷺ فهو فرض كفاية على المشهور ، إلا أن تدعو الحاجة ، كان يدهم العدو ، فيكون فرض عين حيثئذ ، كما يتعين على من عينه الإمام . هذا بالإضافة إلى أن جنس جهاد الكفار يتعين على كل مسلم ، إما بيده وإما بلسانه وإما بقلبه . ويتأتى فرض الكفاية بفعله في السنة مرة عند الجمهور . وقيل : يجب كلما أمر الإمام) أ هـ . بتصرف .

٣ - قال الدكتور رموف شلى في كتابه (الجهاد في سبيل الله) ص ٩ - ١٠ : (في المفردات للراغب الأصفهاني : (الجهاد) هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو . وهو في الاستعمال الفقهي : استفراغ الوسع في مدافعة الأعداء وقتالهم .

(والجهاد الإسلامى يشتمل على عدة مجالات : (١) مجال الجهاد النفسى . (٢) ومجال الجهاد الأسرى . (٣) ومجال الجهاد للحاكم الظالم . (٤) ومجال الجهاد للانحرافات في المجتمع . (٥) ومجال الجهاد لمواجهة خصوم الدعوة الإسلامية) أ هـ . بتصرف .

٤ - تفسير المنار ج٤ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الإسلامية . ذلك أنه لابد للمسلمين من إيجاد المجتمع المسلم - الأمة المسلمة^(١) - الذى تقوم عليه حكومة إسلامية . ولابد لهذا المجتمع من إمام عادل ، ولابد أن تكون شريعة الله هى الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة .

إنَّ الإسلام جاء ليردَّ الناس إلى ربهم ، ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . (والعبودية الكبرى - فى نظر الإسلام - هى خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر . . وهذه هى (العبادة) التى يقرر أنها لا تكون إلا لله ، وأنَّ من يتوجَّه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه فى هذا الدين . ولقد نصَّ رسول الله ﷺ على أنَّ الاتِّباع فى الشريعة والحكم هو (العبادة) التى صار بها اليهود والنصارى (مشركين) مغالين لما أمروا به من (عبادة) الله وحده . .

(أخرج الترمذى - بإسناده - عن عدى بن حاتم (رضى الله عنه) أنه لما بالخته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام ، وكان قد تنصَّر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أخته فأعتقها ، فرجعت إلى أخيها فرغبت فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ فتحدَّث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنقه (أى عدى) صليب من فضة ، وهو (أى النبى ﷺ) يقرأ هذه الآية : (اتَّخَذُوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) الآية^(٢) . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : (بل ! إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلَّوا لهم الحرام ، فاتَّبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم)^(٣) .

(وتفسير رسول الله ﷺ لقول الله سبحانه ، نصُّ قاطع على أنَّ الاتِّباع فى الشريعة والحكم هو العبادة التى تخرج من الدين ، وأنها هى اتِّخاذ بعض الناس أرباباً لبعض . . الأمر الذى جاء هذا الدين ليلغيه ، ويعلن تحرير (الإنسان) فى (الأرض) من العبودية لغير الله . .)^(٤)

ومن المعلوم شرعاً أنَّ الجنة لا يدخلها كافر ولا مشرك وإن جاهد نفسه وهواه ، وجاهد ماله وقاتل مع المسلمين ؛ لأنَّ العبرة بصدق الإيمان والإخلاص فى العبادة لله وحده . وشرط

١ - فى معالم فى الطريق ص ٦ : (الأمة المسلمة) جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامى .

٢ - من سورة التوبة : آية رقم ٣١ .

٣ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٨ ص ٤٩٢ - ٤٩٤ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب .

٤ - معالم فى الطريق ص ٦٢ - ٦٣ .

الإيمان وحد الإسلام هو أن يتحاكم الناس إلى منهج الله - شريعته ومنهجه - ممثلاً في حياة الرسول ﷺ - في أحكام الرسول ، وواقعياً بعده في مصدره : القرآن والسنة . فإن لم يفعلوا ذلك لا يكونون مؤمنين ابتداء . ولا يكفي أن يتحاكموا إلى منهج الله تعالى ليحسبوا مؤمنين ، بل لابد أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين :

قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ (١) .

(وإذا كان يكفي لإثبات (الإسلام) أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله .. فإنه لا يكفي في (الإيمان) هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسى ، والقبول القلبى ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان ! هذا هو الإسلام .. وهذا هو الإيمان .. فلتنظر نفس أين هى من الإسلام ، وأين هى من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان !) (٢)

فلا بد إذن للمسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يفرقوا ، وأن يجاهدوا ويعملوا لإيجاد الأمة المسلمة التى تقوم عليها الحكومة الإسلامية - والإمام العادل - التى تقود البشرية في طريق الله وفق المنهج المنزل من عند الله سبحانه وتعالى .

والجهاد - القتال - في سبيل الله ضرورة للدعوة الإسلامية ، ولا يكفي البيان الفلسفى النظرى لتبليغ الدعوة ؛ لأن (غاية القتال هى ضمانه ألا يفتن الناس عن دين الله ، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها ، كقوة الوضع الذى يعيشون فيه بوجه عام ، وتسلب عليهم فيه المغريات والمضلللات والمفسدات . وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ، وبهابه أعداؤه ، فلا يجرءوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة ، ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحق به الأذى والفتنة .. والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضى على هذه القوى المعتدية الظالمة وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) (٣) .

(وإذا كان النص - عند نزوله - يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة ، وهى التى كانت تفتن الناس وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . ففى كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين

١ - من سورة النساء : آية رقم ٦٥ .

٢ - في ظلال القرآن ج ٥ ص ٦٩٧ .

٣ - من سورة البقرة . آية رقم ١٩٣ .

سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الإقتناع ، والاحتفاظ بها في أمان . والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ، وتطلق الناس أحراراً من قهرها ، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله (١) .

هذا ، ويظهر عما سبق ذكره : أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وزاده الصبر والتقوى ، وأن المقصود من الصبر في الآية : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٢) ، المقصود الصبر على مقاومة الأعداء ، والصبر على متاعب الجهاد وتكاليفه ، وما يترتب على القتال من آثار ومصائب ، كإتلاف المال ، وهلاك الأهل والأنفس والثمرات وكل حبيب وعزيز . . الصبر على هذا كله وعلى معاناة البلاء . هذا ملخص ما سبق ذكره عن المراد من الصبر الذي هو صفة الصابرين المذكورين في الآية . إلا أنه يلاحظ أن الأستاذ سيد قطب يذهب أبعد من ذلك في المراد من الصبر في هذه الآية ، حيث يقول : (وفي النص القرآني لفظة ذات مغزى : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ ويعلم الصابرين ﴾ فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون . إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضاً . التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان . فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ، ويختبر بها الإيمان . إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي : معاناة الاستقامة على أفق الإيمان . والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك ، والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني : في النفس وفي الغير ، ممز يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية . والصبر على الفترات التي يستعلى فيها الباطل ، ويهتفش ويبدو كالمنتصر ! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات . والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال . . والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحداً منها ، في الطريق المحفوف بالمكاره . طريق الجنة التي لا تنال بالأمانى وبكلمات اللسان ! (٣) .

والجنة درجات . وأصحاب الدرجات العلى هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ولقد نالوا تلك المنازل والمقامات بعد الصبر على الشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات ، بعد أن مستهم البأساء والضراء وزلزلوا زلزالاً شديداً .

روى الترمذی قال : حدثنا قتيبة ، أخبرنا شريك عن عاصم ، عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء ثم الأمثل

٣ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٤٨٣ .

١ - في ظلال القرآن ج٢ ص ١٩٠ .

٢ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٤٢ .

فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صُلْباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة (٢) .

والمؤمنون المجاهدون في سبيل الله - لتكون كلمة الله هي العليا - هم من أصحاب الدرجات العلى في الجنة ؛ ذلك لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى ، وصبروا واستقاموا على أفق الإيمان ، وأطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ وابتغوا الله حق تقاته وقاتلوا وقتلوا :

قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بمعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٣) .

فالطريق إلى تلك الدرجات العلى هو الجهاد - بذل الأموال والأنفس - والصبر - والقتل والقتال . فقد روى البخارى بإسناده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال النبي ﷺ : (إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) الحديث (٤) .

والأحاديث في فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله كثيرة . منها : ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيل وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لو ددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل (٥) .

١ - سنن الترمذى ج٤ ص٢٨ .
٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج١٣ ص١٩ - ٢٠ .

٣ - من سورة النساء : آية رقم ٩٥ - ٩٦ .

٤ - من سورة التوبة : آية رقم ١١١ .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٦ ص١١ .

وروى مسلم بإسناده عن قتادة قال سمعت أنس بن مالك يحدث عن النبي ﷺ قال :
(ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد
فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة)^(١) .

وروى مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : (إن أهل الجنة
ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو
المغرب لتفاضل ما بينهم) قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال :
(بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)^(٢) .

هذا ، ومما سبق ذكره : يتضح أن بالإيمان والعمل الصالح ينال المؤمنون رحمة الله
ورضوانه ويدخلون الجنة . ولكن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان ، إنما هو ما قرى في القلب
وصدقه العمل ، والصبر على المكاره والفتن والتكاليف التى تكشف عن معدنه فى النفوس .
ففى صورة استفهام استنكارى لمفهوم الناس للإيمان وحسابهم أنه كلمة تقال باللسان ، وعن
الإيمان والفتنة التى يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ، وكشف الصادقين والكاذبين
بالفتنة والابتلاء ، يقول الله تعالى :

﴿ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من
قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾^(٣) .

قال الأستاذ المراغى فى تفسير هذه الآية : يقول تعالى : أيها الناس ، لا تظنوا أنى
خلقتكم سدى ، بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم ، وأرقى منه فى كل شئونه ، ولا
يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل ، واختباركم من أن إلى آخر بإنزال النوازل والمصائب ، فى
الأنفس والأموال والثمرات ، والتخلى عن بعض الشهوات ، وفعل التكاليف من الزكاة
والصيام والحج ونحوها . فحياتكم حياة جهاد وشدة ، شتم أم أبيتم . وبمقدار ما تصبرون
على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب ، وتلك سنة الله فيكم وفى
الأمم من قبلكم ، وتاريخ الأديان ملئ بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين
بالرسل^(٤) .

وقال الأستاذ سيد قطب : (إن الإيمان ليس كلمة تقال ، إنما هو حقيقة ذات تكاليف ،
وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفى أن يقول

١ - صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٣ ص ٢٤ .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٧ ص ١٦٩ .

٣ - من سورة العنكبوت : آية رقم ١ - ٣ .

٤ - تفسير المراغى ج ٢٠ ص ١١٣ - ١١٤ .

الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم ، خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوى وله دلالة وظله وإيحاؤه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

(هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، في ميزان الله سبحانه : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه ! ﴾ (٢) .

ويظهر مما سبق ذكره : أن الناس لا يدخلون الجنة حتى يؤمنوا . وإذا قالوا : آمنا ، فهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة ، أى لابد أن يتبليهم الله تعالى حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين . وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى المؤمن على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلأاً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه ، كما جاء في الحديث الشريف .

هذا البلاء مع الإيمان أمر لابد منه . وقد ابتلى الأنبياء وأصحاب الرسالات والذين آمنوا معهم ، من لدن آدم (عليه السلام) إلى رسول الله ﷺ . فقد روى البخارى بإسناده عن خباب بن الأرت (رضى الله عنه) قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة . فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟ فقال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ثم يؤق بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) (٣) .

وروى ابن ماجه في سننه قال : حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا ابن أبي فديك حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدرى قال :

١ - في ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٧٢٠ .

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك (١) فوضعت يدي عليه ، فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف . فقلت يا رسول الله ، ما أشدها عليك ! قال : (إنا كذلك يُضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر) قلت : يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء) قلت يا رسول الله ، ثم من ؟ قال : (ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العبادة يحويها (٢)) وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء (٣) .

وابتلاء المؤمنين رحمة من الله لهم وإحسان إليهم . (وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة . فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء (٤) .

روى الترمذى في سننه قال : حدثنا قتيبة ، أخبرنا بالليث عن يزيد ابن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة) . وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط (٥) .

وفي البلاء رحمة للمؤمنين وتكفير لذنوبهم . قال الترمذى : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا يزيد بن زريع ، عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : وما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة (٦) .

وروى مسلم بسنده عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها (٧) .

١ و ٢ - في سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٥ : (وهو يوعك) الوعك : الحمى ، وقيل : ألها . وقد وعكه المرض وعكاً . ووعك فهو موعوك . (يحويها) في النهاية : التحوية ، أن يدبر كساء حول ستام البعير ثم يركبه . والاسم الحوية . والجمع الحوايا . ٣ - سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٥ . وقال : (في الزوائد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات (٤ - في ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٧٢١ .

٥ - سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٧ . وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

٦ - سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٧ . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٧ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٢٧ .

وروي البخارى بإسناده عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) قال : سمعت النبی ﷺ يقول : (إنَّ الله قال : (إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منها الجنة) يريد عينيه)^(١) .

وعن أبي سعيد الخدرى وعن أبي هريرة عن النبی ﷺ : (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياہ)^(٢) .

والمؤمن الذى يخشى الله تعالى ويتقه ، ويتعد عن الذنوب التى يسوق إليها الهوى والشهوات ويزينها الشيطان ، إنَّ مثل هذا الذى يجاهد نفسه وهواه ويصبر فعسى أن يكون من الفائزين الناجين من عذاب الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ فاما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإنَّ الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإنَّ الجنة هى المأوى ﴾^(٣) .

وروى الترمذى قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، أخبرنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة)^(٤) .

وفى ختام هذا المبحث نقول : إنَّ طريق الجنة ليس مفروشاً بالأزهار والرياحين ، بل محفوف بالمكاره والشدائد والمحن والابتلاءات . والزاد فى هذا الطريق هو الصبر والتقوى . فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار .

قال تعالى : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فثمم عقبى الدار ﴾^(٥) .

١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ١١٦ .

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ١٠٣ .

٣ - من سورة النازعات : الآيات رقم ٣٧ - ٤١ .

٤ - من تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٧ ص ٩٠ وقال هذا حديث حسن صحيح .

٥ - من سورة الرعد : الآيات رقم ٢٢ - ٢٤ .

وقال تعالى عن ﴿عباد الرحمن﴾ بعد أن وصفهم بصفاتهم المميزة ومقوماتهم الخاصة :
﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ (١) .

وقال سبحانه عن الأبرار بعد أن وصف حالهم وقيامهم بالمعزائم والتكاليف وابتغاءهم
وجه الله وحده في كل أعمالهم الصالحة ، قال عنهم : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة
وحريراً ﴾ (٢) .

١ - من سورة الفرقان : آية رقم ٧٥ .

٢ - من سورة الإنسان : آية رقم ١٢ .

المبحث الرابع

تحذير المؤمنين من فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها

في توجيه تربوى للجماعة المسلمة الأولى - وللجماعة المسلمة في كل جيل - يكشف الله سبحانه وتعالى عن البواعث الفطرية الخفية التي من عندها يبدأ الانحراف ، إذا لم تضبط باليقظة الدائمة وقوة الإرادة ، وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى ، وإذا لم تتعلق بما عند الله عز وجل ، وهو خير وأبقى .

قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبثكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾^(١) .

أى هذا الذى عرضه من اللذائذ المحببة : النساء والبنين والأموال المقدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام ، ذلك كله - وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات - هو متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وهو ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتميل إليه الطباع . ويبدو من صياغة الفعل للمجهول : (زُين) أن تغلغل الشهوة في النفوس وتمكنها من القلوب حقيقة واقعة . ومن ثم يوجه الله تعالى المؤمنين إلى ضبط نفوسهم عن الاسترسال في هذه الشهوات المحببة المزينة ، وعن الركون إليها والانهماك فيها حتى لا ينحرفوا عن الطريق المستقيم .

يقول الأستاذ سيد قطب : (إنَّ الاستغراق في شهوات الدنيا ، ورغائب النفوس ، ودوافع الميول الفطرية ، هو الذى يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ، ويدفع بالناس إلى الفرق في لجة اللذائذ القريبة المحسوسة ، ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى ، ويغفل الحس فيحرمه متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة ؛ ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللاتئة بدور الإنسان العظيم في هذه الأرض ؛ واللاتئة كذلك بمخلوق يستخلفه الله في هذا الملك العريض .

(ولما كانت هذه الرغائب والدوافع - مع هذا - طبيعية وفطرية ومكلفة من قبل الباريء - جل وعلا - أن تؤدى للبشرية دوراً أساسياً في حفظ الحياة وامتدادها . ، فإن

١ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٤ - ١٥ .

الإسلام لا يشير بكتبها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ، وإلى أن يكون الإنسان مالكا لها متصرفاً فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ؛ وإلى تقوية روح التسامى فيه والتطلع إلى ما هو أعلى^(١) .

وقد زُين للناس حب الشهوات من متاع الحياة الدنيا ؛ لحفظ الحياة ونموها واطرادها ، ولتكون هذه الشهوات موضع ابتلاء واختبار وامتحان للناس . فهي من مشتبهات النفوس التي يسوق إلى الاسترسال فيها الهوى ، ويزينها الشيطان بوعوده المغرية الخادعة ، ويتخذها ميداناً فسيحاً يصول ويجول فيه ؛ ليضل الناس عن سبيل الله . قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجدت لربك فأمرني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال أأرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال أذهب فمَنْ تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركتهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾^(٢) .

فمن اتقى الله تعالى ، وصبر عن الشهوات ، وجاهد نفسه وهواه ، وقهر شيطانه ، وأخضع قواه لصوت العقل عند إثارة الشهوات وتكالب وسائل الإغراء ، وإذا ما صرف طاقته إلى عيادة الله عز وجل ، كان حرياً به أن يكون من الأمنين يوم القيامة ، الذين يشملهم الله تعالى بعطفه ورحمته ورعايته . قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى ﴾^(٣) .

هذا ، وهناك آيات أخر في القرآن الكريم يبدو فيها واضحاً تحذير المؤمنين من فتنة أموالهم وأزواجهم وأولادهم . من تلك الآيات قوله تعالى :

١ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾^(٤) .

٢ - ﴿ يا أيها الناس آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾^(٥) .

١ - في ظلال القرآن ج ٣ ص ٣٧٣ .

٢ - من سورة الإسراء : الآيات رقم ٦١ - ٦٥ .

٣ - من سورة النازعات : آية رقم ٤٠ - ٤١ .

٤ - من سورة الأنفال : آية رقم ٢٧ - ٢٨ .

٥ - من سورة المنافقين : آية رقم ٩ .

٣ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ (١) .

إنَّ الأموال والأولاد والأزواج والأقارب الآخرين من ذوى الأرحام ، هذه الوشائج وتلك الزينة قد تقعّد الناس عن الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحبيهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ (٢) .

(إنَّ رسول الله ﷺ إنما يدعو الناس إلى ما يحبيهم . ومجمل ما يدعوهم إليه هو :

(عقيدة تحمى القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن العبودية لغير الله تعالى والمذلة للعبد أو للشهوات . ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم وبربهم والجهاد في سبيل الله ، والانطلاق في الأرض كلها لتحرير الإنسان بجملته وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده .

(إنه يدعوهم إلى شريعة من عند الله ، تعلن تحرر الإنسان وتكرمه بصدورها عن الله وحده ، ووقوف البشر كلهم صفاً متساوين في مواجهتها . كما يدعوهم إلى منهج للحياة ، ومنهج للفكر ، ومنهج للتصور ، يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان ، العليم بما خلق ، هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ، ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء . وبالجملّة يدعوهم دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة) (٣) .

إنَّ الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن المريحة قد تُقعّد الناس عن الاستجابة خوفاً وبخلاً ؛ ولذلك يضع الله سبحانه وتعالى كل هذه الوشائج والمطامع واللذائذ في كفة ، وفي الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله ،

١ - من سورة التغابن : آية رقم ١٤ - ١٥ .

٢ - من سورة الأنفال : آية رقم ٢٤ - ٢٥ .

٣ - في ظلال القرآن ج٩ ص ١٤٩٤ بتصرف .

ليحذر المؤمنون فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها . قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (٢) فيه تنبيه للمؤمنين إلى فتنة الأموال والأولاد - فهي موضع ابتلاء واختبار وامتحان - ومن ثم يحذرهم الله تعالى من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان ، ومن التخلف عما يدعوهم إليه الرسول ﷺ .

يقول الأستاذ سيد قطب : (وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف في هذه الكينونة البشرية ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها . . ومن هنا ينبها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد . . لقد وهبها الله للناس ليلوهم بها ويفتنهم فيها . فهي من زينة الحياة الدنيا التي تكون موضع امتحان وابتلاء ؛ ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه . . أشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها ؟ أم يشتغل بها حتى يعمل عن أداء حق الله فيها ؟ فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار كان ذلك عوناً له على الحذر واليقظة والاحتياط ؛ أن يستغرق وينسى ويخفق في الامتحان والفتنة . ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ إنه سبحانه هو الذى وهب الأموال والأولاد . . وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلى على فتنة الأموال والأولاد ، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمة وتضحيات الجهاد . . وهذا هو العون والممدد للإنسان الضعيف الذى يعلم خالقه مواطن الضعف فيه : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (٣) (٤) .

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن الله عنده أجر عظيم ﴾ : أى ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغنى عنك شيئاً ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان أن

١ - من سورة التوبة : آية رقم ٢٤ .

٢ - من سورة الأنفال : آية رقم ٢٨ .

٣ - من سورة النساء : آية رقم ٢٨ .

٤ - فى ظلال القرآن ج٩ ص١٤٩٨ ، بتصرف .

يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه (١). بل حب رسول الله ﷺ مقدّم على الأولاد والأموال والنفوس كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين) (٢) (٣) .

وكما خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين ونبههم إلى فتنة الأموال والأولاد وحذّره منها ، كذلك وجه النداء للذين صدّقوا الله ورسوله ، أمراً لهم بكثرة ذكره ، وناهياً لهم أن تشغلهم الأموال والأولاد ، وغبراً لهم بأنه من شغل بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة الله - عز وجل - وذكره ، فإنه يكون من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تهلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٤) .

قال الأستاذ المراغى في معنى هذه الآية : (أى لا يشغلكم تدبير أموالكم والعناية بشئون أولادكم عن القيام بحقوق ربكم وأداء فرائضه التى طلبها منكم ، واجعلوا للدنيا حظاً من اهتمامكم وللآخرة مثله ﴾ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ (٥) . ثم توعد من تلهيه أمواله وأولاده فقال : ﴿ ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ أى ومن تلهي بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه ، وخسرت تجارته ؛ إذ باع خالداً باقياً ، واشترى فانياً زائلاً ، وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة ؟ (٦)

وفي قوله تعالى : ﴿ لا تهلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ قال الطبرى : (وقيل : عنى بذكر الله جل ثناؤه في هذا الموضع : الصلوات الخمس) (٧) .

هذا ، وقد حذّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ونبههم إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون لهم عدواً ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ (٨) .

١- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج١ ص ٦٠ .

٢- صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص ١٥ .

٣- تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٣٠١ .

٤- من سورة المنافقين : آية رقم ٩ .

٥- من سورة القصص : آية رقم ٧٧ .

٦- تفسير المراغى ج٢٨ ص ١١٥ - ١١٦ بتصرف .

٧- تفسير الطبرى ج٢٨ ص ١١٧ .

٨- من سورة الحديد : آية رقم ١٤ - ١٥ .

(يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله ، (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) يصدونكم عن سبيل الله ، ويشبطونكم عن طاعة الله (فاحذروهم) أن تقبلوا منهم ما يأمرونكم به من ترك طاعة الله) (١) .

قال ابن كثير : (وقال مجاهد : (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن خلف الصيدلاني ، حدثنا الفريابي ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ . وكذا رواه الترمذي عن محمد بن يحيى عن الفريابي وهو محمد بن يوسف ، وقال حسن صحيح (٢) .

وقال الطبري : (وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا أرادوا الإسلام والهجرة فبسطهم عن ذلك أزواجهم وأولادهم) (٣) . ثم أورد عدة أقوال في سبب نزول الآية ، تدور كلها حول أن من أسلم وأراد الهجرة أو أراد الجهاد أو أراد أن يأتي للنبي ﷺ تمنعه زوجته وولده من ذلك . على أنه مهما جاء في سبب نزول الآية من أقوال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والنص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمداً . فالتحذير - في الآية - من فتنة الأزواج والأولاد والأموال هو تحذير للمؤمنين في أي زمان وفي أي مكان ، وتنبيه لهم إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً .

وقد وضّح الأستاذ سيد قطب كيفية هذه العداوة فقال : (الأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقيه المجاهد في سبيل الله ! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده . فيخل ويحجن ؛ ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدواً له ؛ لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا . كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعون من النهوض بواجبه ؛ اتقاء لما يصيبهم من

١ - تفسير الطبري ج ٢٨ ص ١٢٤ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٣٧٦ .

٣ - تفسير الطبري ج ٢٨ ص ١٢٤ .

جرائه ، أو لأنهم قد يكونوا في طريق غير طريقه ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . . . وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات - وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن (١) .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٢) أى إنما الأموال والأولاد اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ؛ ليعلم من يطيعه من يعصيه .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (٣) الآية .

فالله عز وجل امتحن الرجل بأمرائه وأولاده ، وأمرائه به ، وامتحن الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وأعلم المؤمنين أن الأموال والأولاد مما يفتنون به . فالإنسان مفتون بزوجه وولده ؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببهم ، وتناول الحرام لأجلهم ، ووقع في العظام ، إلا من عصمه الله تعالى .

روى الترمذى قال : حدثنا الحسين بن حُرَيْث ، حدثنا على بن الحسين ابن واقد ، حدثني أبي ، حدثني عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبا بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران . فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : (صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما) (٤) .

فالمال والبنون ابتلاء ومحنة ، إلا أنهما زينة الحياة الدنيا : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ (٥) .

(أى الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : الباقيات الصالحات : الصلوات الخمس ، وقال عطاء ابن أبي رباح وسعيد ابن جبير عن ابن عباس : الباقيات الصالحات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن

١ - في ظلال القرآن ج ٢٨ ص ٣٥٨٩ - ٣٥٩٠ .

٢ - من سورة التغابن : آية رقم ١٥ .

٣ - من سورة الفرقان : آية رقم ٢٠ .

٤ - سنن الترمذى ج ٩ ص ٣٣٤ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد .

٥ - من سورة الكهف : آية رقم ٤٦ .

الباقيات الصالحات ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (١) .

ويقول الأستاذ سيد قطب : (المال والبنون زينة الحياة ، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات . ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد . إنها زينة ولكنها ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة . إنما القيمة الحققة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات . وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثواباً وخير أملاً . عندما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتائجها وثمارها يوم الجزاء (٢) .

هذا ، والمال في الإسلام ليس مذموماً لذاته ، بل هو مذموم فيما إذا اتخذ غاية وسبباً ، ويكون صاحبه حريصاً على اكتنازه وادخاره ومنع الآخرين من الانتفاع به بدورانه من يد إلى أخرى . ومن ثم يلهمه عن العمل للأخرة ويكون مقترراً شحيحاً بخيلاً .

روى مسلم بإسناده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع النبي ﷺ يقول : (إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس . قال : فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال : فأتى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل - أو قال : البقر . شك إسحق ، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما : الإبل ، وقال الآخر : البقر - قال : فأعطى ناقة عشراء . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع ، فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قدرني الناس . قال : فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً . قال : فأتى المال أحب إليك ؟ قال : البقر . فأعطى بقرة حاملاً . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصري فأبصر به الناس . قال : فمسحه ، فرد الله إليه بصره . قال : فأتى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والدأ . فأنج هذا وولد هذا . قال : فكان لهذا وإد من الإبل ولهذا وإد من البقر ولهذا وإد من الغنم . قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيبته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بغيراً أتبلغ عليه في سفري . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له :

١ - تفسير القرآن العظيم ٣ ص ٨٥ .

٣ - في ظلال القرآن ج ١٥ ص ٢٢٧٢ .

كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرأ عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل مارد على هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى في صورته وهيبته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسالك بالذى رد عليك بصرك ، شاة أتبلغ بها في سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته الله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضى عنك وسخط على صاحبك (١) .

إن اكتناز الأموال خوفاً من الوقوع في الفقر هو من وسوسة الشيطان ، فهو يخوف الناس بالفقر ويأمرهم بالشح والبخل ، ويزين لهم أعمال الشر على أنها خير ، ومن ثم يضلهم عن سواء السبيل .

يبدو ذلك في قصة ثعلبة الذى كان ملازماً لمسجد الرسول ﷺ ، وما أصبح عليه بعد الغنى . وهى قصة مشهورة في كتب التفسير . وقد قيل : إنه نزل فيها قوله تعالى :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ (٢) .

قال الحافظ ابن كثير : (يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة ، عياداً بالله من ذلك . وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصارى) (٣) .

وقال الطبرى : (واختلف أهل التأويل في المعنى بهذه الآية . فقال بعضهم : عني بها رجل يقال له : (ثعلبة بن حاطب) من الأنصار . ذكر من قال ذلك :

١ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ٩٧ - ١٠٠

٢ - من سورة التوبة : الآيات رقم ٧٥ - ٧٨ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٧٤ - ٣٧٤ .

(حدثني المثنى قال : حدثنا هشام بن عمار قال : حدثنا محمد بن شعيب قال : حدثنا معان بن رفاعة السلمى عن أبي عبد الملك على بن يزيد الألهاني : أنه أخبره عن القاسم بن عبد الرحمن : أنه أخبره عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري : أنه قال لرسول الله ﷺ : أدع الله أن يرزقني مالاً ، قال : فقال رسول الله : (ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه) قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : (أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت) قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : (اللهم ارزق ثعلبة مالاً) قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود ، فضاقت عليه المدينة ففتحني عنها فتزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتفتحني حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ : (ما فعل ثعلبة ؟) فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة ، فأخبروه بأمره فقال : (ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة) وأنزل الله جل ثناؤه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ ^(١) الآية ، ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين : رجلاً من جهينة ، ورجلاً من سليم . وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : (مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما) فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى ، فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزله للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة إنما هي له ، فأخذها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي . فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال : (ياويح ثعلبة) قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة . فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمى . فأنزل الله عز وجل : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ الآية ، قال : وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا . فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : (إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك) فجعل يحشو على رأسه التراب . فقال له رسول الله ﷺ : (هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني) فلما أبى الرسول

الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر (رضي الله عنه) حين استخلف فقال : قد علمت منزلي من رسول الله وموضعى من الأنصار ، فأقبل صدقتى فقال : أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها . فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولى عمر (رضي الله عنه) أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أقبل صدقتى . فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها ، فلما ولى عثمان (رضي الله عنه) أتاه فقال : أقبل صدقتى فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة في خلافة عثمان رحمة الله عليه (١) .

(وسواء كانت هذه الواقعة مصاحبة لنزول الآيات أو كان غيرها ، فإن النص عام ، وهو يصور حالة عامة ، ويرسم نموذجاً مكرراً للنفوس التي لم تستيقن ، ولم يبلغ الإيمان فيها أن يتمكن . وإذا كانت الرواية صحيحة في ربط الحادثة بنزول الآيات ، فإن علم الرسول ﷺ أن نقض العهد والكذب على الله قد أورث المخلفين نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، يكون هو الذى منعه من قبول صدقة ثعلبة وتوبته التي ظهر بها ، ولم يعامله بالظاهر حسب الشريعة . إنما عامله بعلمه بحاله الذى لاشك فيه ، لأنه إخبار من العليم الخبير . وكان تصرفه ﷺ تصرفاً تأديبياً برد صدقته . مع عدم اعتباره مرتداً فيؤخذ بعقوبة الردة ولا مسلماً فتقبل منه زكاته . ولا يعنى هذا إسقاط الزكاة عن المنافقين شريعة . إن الشريعة تأخذ الناس بظواهرهم فما ليس فيه علم يقينى ، كالذى كان في هذا الحادث الخاص ، فلا يقاس عليه (٢) .

١ - تفسير الطبرى ج ١٤ ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

وفي صفحة ٣٧٢ - ٣٧٣ من نفس الجزء يقول الأستاذ محمود محمد شاكر - في تخريج هذا الحديث - : (هشام بن عمار بن نصير السلمى) ثقة ، روى له البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه . وتكلموا فيه قالوا : لما كبر تغير . (و محمد بن شبيب بن شابور الأموى) ثقة . (و معان بن رفاعه السلمى) أو (السلامى) وهو المشهور ، لين الحديث ، يكتب حديثه ولا يحتج به . مترجم في التهذيب ، والكبير ٧٠/٢/٤ وفي إحدى نسخه (السلمى) كما جاء في الطبرى وابن أبى حاتم ، ولذلك تركته على حاله . (و على بن يزيد الألهان ، أبو عبد الملك) ضعيف بمرة ، روى من القاسم بن عبد الرحمن صاحب أبى أمامة ، نسخة كبيرة وأحاديث هذه ضعاف كلها . (و القاسم بن عبد الرحمن الشامى) تقدم بيان توثيقه ، وأن ما أنكر عليه إنما جاء من قبل الرواة عنه الضعفاء .

(وأما ثعلبة بن حاطب الأنصارى ففى ترجمته خلط كثير . أهو رجل واحد ، أم رجلان ؟ أولها : هو الذى أخى رسول الله ﷺ بينه وبين معتب بن الحمراء . والذى شهد بدرأً وأحدأً . والآخر : هو صاحب هذه القصة . يقال : إن الأول قُتل يوم أحد . وجعلها بعضهم رجلاً واحداً ، ونفوا أن يكون قتل يوم أحد . انظر ترجمته فى الإصابة والاستيعاب : ٧٨ ، وأسد الغاية : ١ : ٢٣٧ ، وابن سعد : ٣٢/٢/٣ .

(وهذا الخبر رواه بهذا الإسناد ابن الأثير فى أسد الغاية : ٢٣٧ و ٢٣٨ ، وخُرجه الميثمى فى مجمع الزوائد ٧ : ٢١ ، ٣٢ . وقال : (رواه الطبرى وفيه على بن يزيد الألهان وهو متروك) .

(وهو ضعيف كل الضعف ليس له شاهد من غيره وفى بعض رواه ضعف شديد) بتصرف .

٢ - فى ظلال القرآن ج ١٠ ص ١٦٨٠ .

إن قصة ثعلبة هذه ، وإن كان الحديث الوارد فيها ضعيفاً من جهة الإسناد ، وهناك من لا يقبل أن تكون في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقد تكون في غيره ، مع ذلك كله فإنها قصة مشهورة وفيها كثير من العبر . وفيما يلي نشير إلى بعض تلك الدروس والعبر :

أ - من القصة يظهر مدى تكالب الإنسان على المال وحبه الشديد له والخروج به عن الغاية التي أبيع من أجلها ، وهي أن يكون عوناً على قضاء الحاجة بمقدار هذه الحاجة .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض)^(١) .

وروى أيضاً بإسناده عن عطاء قال : سمعت ابن عباس (رضي الله عنه) يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : (لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب)^(٢) .

وروى البخاري أيضاً بسنده عن حكيم بن حزام قال : سألت النبي ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : (إن هذا المال - وربما قال سفيان : قال لي : يا حكيم ، إن هذا المال - خضرٌ حلوٌ فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى)^(٣) .

(ب) لعل ثعلبة كان مؤمناً عندما كان معسراً وحين عاهد الله ورسوله لئن رزقه الله مالاً ليعطين كل ذي حق حقه . فلما آتاه الله من فضله بخل به وأخلف وعده ولم يطع الله والرسول ﷺ ونأى عن المدينة وفارق جماعة المسلمين وأصبح من المنافقين . ولعل الشيطان استحوذ عليه فأنساه ذكر الله . وزين له عمله وأعمى بصيرته وقلبه وأغراه بالمال ووعد الفقر إن أخرج شيئاً منه : صدقة أو زكاة . ومن ثم شغله ولهاه عن العمل للأخرة وأضله عن سواء السبيل .

قال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾^(٤)

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١١ ص ٢٥٣ .

٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١١ ص ٢٥٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٥٨ .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٦٨ .

وقال تعالى : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إثناً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً . لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ (١) .

وكون القرآن ينزل يكشف حالة ثعلبة ، وكون الرسول ﷺ يرفض صدقته ولا يقبلها منه ، ويردها أبو بكر وعمر وعثمان (رضى الله عنهم) ولا يقبلونها منه ، كل ذلك يعتبر درساً وعظة وعبرة لمن يعتبر . كما يعتبر تحذيراً عاماً من البخل وخلف الوعد والكذب ، وهذه من أرذل الصفات التى يتحلّى بها المنافقون .

(ج) (غير أن رواية الحادث تكشف لنا كيف كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الزكاة المفروضة . إنهم كانوا يحسبونها نعمة عليهم ، من يحرم أداءها أو يحرم قبولها منه ، فهو الخاسر الذى يستحق الترحم مما أصابه من رفض زكاته ! مدركين لحقيقة المعنى الكامن فى قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (٢) فكانت لهم غنماً ينالونه لا غرماً يحملونه . وهذا هو الفارق بين فريضة تؤدى ابتغاء رضوان الله ، وضريبة تدفع ؛ لأن القانون يحتمها ويعاقب عليها الناس !) (٣) .

(د) إن ثعلبة ، كما يبدو من القصة ، قد ظلم نفسه ، وحرمها من فضل صلاة الجماعة ومن شرف مجلس الرسول ﷺ . فأتبعه الشيطان فكان من الخاسرين . ولعل هذا مصير كل من يتهاون فى الصلوات ويتكاسل عنها وينأى عن جماعة المسلمين . فالتهاون فى الفرائض والتكاسل عن الصلاة صفة مذمومة لا يتجمل بها إلا المنافقون .

قال تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون . فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴾ (٤) .

(هـ) إن ما يصيب الإنسان فى هذه الحياة الدنيا من خير أو شر فهو فتنة له وابتلاء . وقد يتلى المؤمن بالشر ؛ ليتكشف مدى احتماله ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته فى ربه ، ورجائه فى رحمته . وما ابتلى به ثعلبة لون آخر من الابتلاء . إنه الابتلاء بالسراء لا بالضراء ، وبالفقر لا بالغنى .

١ - من سورة النساء : الآيات رقم ١١٧ - ١٢٠ .

٢ - من سورة التوبة : آية رقم ١٠٣ .

٣ - فى ظلال القرآن ج ١٠ ص ١٦٨٠ .

٤ - من سورة التوبة : الآيات رقم ٥٣ - ٥٥ .

وقد قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ (١) .

قال الحافظ ابن كثير : (وقوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أى نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم تارة أخرى ، فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط ، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (ونبلوكم) يقول : نبتليكم (بالشر والخير فتنة) بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال ، وقوله : ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ أى فنجازيكم بأعمالكم) (٢) .

روى الترمذى قال : حدثنا قتيبة ، أخبرنا أبو صفوان عن يونس عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن عوف قال : (ابتلينا مع رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا ، ثم ابتلينا بعده بالسراء فلم نصبر) (٣) أى اختبرنا بالفقر والشدة والعذاب فصبرنا عليه ، فلما جاءتنا الدنيا والسعة والراحة بطرنا .

وروى مسلم بسنده عن عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة أخبره أن عمرو بن عوف أخبره أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتهما . وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي . فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ؛ فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف ، فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ، ثم قال : (أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين) فقالوا : أجل يا رسول الله . قال : (فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما تبسط على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما اهلكتهم) (٤) .

(إنَّ الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر . . إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير . كثيرون يصبرون على الفقر والحرمات فلا تنهاوى نفوسهم ولا تذلل . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان ، وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات وأطماع ! فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر . والصلة بالله فى الحالين هى وحدها الضمان ...) (٥)

١ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٣٥ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ١٧٨ .

٣ - تحفة الأحوى بشرح جامع الترمذى ج٧ ص ١٦٤ . وقال : هذا حديث حسن .

٤ - صحيح مسلم بشرح النووي ج١٨ ص ٩٥ .

٥ - فى ظلال القرآن ج١٧ ص ٢٣٧٧ - ٢٣٧٨ بتصرف .

الباب الأول

صور من ابتلاء الأولين

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : الابتلاء بالطاعة .

الفصل الثاني : ابتلاء في مرحلة الإعداد للدعوة .

الفصل الثالث : ابتلاء بالإعراض والأذى من المكذّبين بالدعوة .

الفصل الرابع : ابتلاء بالنعم .

الفصل الخامس : ابتلاء قوة العقيدة .

الفصل الأول

الابتلاء بالطاعة

وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول : ابتلاء آدم عليه السلام .
- المبحث الثاني : ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بتكاليف خاصة .
- المبحث الثالث : ابتلاء بني إسرائيل .
- المبحث الرابع : ابتلاء قوم طالوت .
- المبحث الخامس : ابتلاء يونس عليه السلام .

المبحث الأول

ابتلاء آدم عليه السلام

قبل أن نتكلم عن ابتلاء آدم (عليه السلام) يجمل بنا أن نشير إلى قصته منذ بداية تكوينه إلى أن أمره الله تعالى أن يسكن هو وزوجه الجنة . ثم بعد ذلك نفصل القول في موضوع ابتلائه (عليه السلام) .

وفي مستهل الحديث عن قصة آدم (عليه السلام) نلفت النظر إلى أن الله عز وجل أخبرنا في القرآن الكريم أن آدم (عليه السلام) هو أول مخلوق من البشر ظهر على سطح الأرض في هذا الوجود : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾^(١) الآية : فهو أبو الناس جميعاً ، وإليه ينتمى جميع سكان الأرض من الإنس ، وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني على الإطلاق . أما من غير البشر فقد كان هناك مخلوقات قبله من الملائكة والجن .

ولما اقتضت حكمة الله تعالى ، وشاءت إرادته أن يخلق آدم (عليه السلام) ، أنبأ ملائكته بذلك وأخبرهم بأن هذا البشر سيجعله خليفة في الأرض ، بحيث يكون له سلطان عليها ، ويتصرف في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته . وبعبارة أخرى : يقوم هذا الخليفة بعمارة الأرض وسكناها ، ويكون من بنيه من يناط به أمر الزعامة والتوجيه ، وتنفيذ الأحكام الشرعية التي تأتي لهم من الله تعالى .

علم الملائكة بهذا النبأ ، فاستفهموا عن سر ذلك ، وعن الحكمة في استخلاف من هو من شأنه أن يفسد في الأرض ؛ فقالوا : كيف تخلق غيرنا ، ونحن دائبون على التسييح بحمدك ، وتقديس اسمك ! أتعجل في الأرض من يفسد فيها بالمعاصي ويسفك الدماء غزيرة ويزهق الأرواح طاهرة بريئة ؟

(قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شبهتهم وينزع الوسواس من صدورهم . وامتد رجاؤهم إلى الله أن يستخلفهم في الأرض ؛ لأنهم أسبق إلى رعاية نعمته ، وأولى بمعرفة حقه : ولم يكن سؤالهم ذلك إنكاراً لفعله ولا شكاً في حكمته ، ولا تنقصاً لخليفته أو ذريته ، لأنهم أولياؤه المقربون ، وعباده المكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون)^(٢) .

١ - من سورة النساء : آية رقم ١ .

٢ - قصص القرآن ص ٦ .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة (١) قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (٢) .

(فأخبرهم الله تعالى أنه يعلم في هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون ، ويعلم ما يبدون وما يكتُمون ، وأنهم غير عالمين بالسر في استخلافه آدم ، وأنه اختصه بعلم ما لا يعلمون) (٣) .

قال القرطبي : (قد علمنا قطعاً أنَّ الملائكة لا تعلم إلا ما علَّمها الله ، ولا تسبق بالقول ؛ لأنَّ قوله تعالى : ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ (٤) الآية ، خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟ والجواب : إنَّ الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ؛ وذلك لأنَّ الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وأحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فجاء قولهم : ﴿ أتجعل فيها ﴾ ؟ على جهة الاستفهام المحض ، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدَّم من الجن أم لا ؟ وقيل : إنَّ الله تعالى أعلمهم أنَّ الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ، ويسفكون الدماء ؛ فقالوا لذلك هذه المقالة ، إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه ؟ أو التعجب من عصيان من يستخلفه الله في أرضه ...) (٥)

وعلى هذا ينبغي أن نفهم أنَّ سؤال الملائكة لم يكن اعتراضاً على الله تعالى فيما شاء وأراد ، وإنما كان بغرض الاستفسار عن الحكمة الإلهية في خلق هذا الإنسان . وهذا كسؤال

١ - قال الطبري في تفسيره ج١ ص ٤٥٠ : (حدثنا أبو كريب قال : حدثنا عثمان بن سعيد قال : حدثنا بشر بن عمار عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال : أول من سكن الأرض الجن ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا فيها الدماء ، وقتل بعضهم بعضاً . فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم إبليس ومن معه حتى أحرقهم بجزائر البحور ، وأطراف الجبال . ثم خلق آدم ، فأسكنه إياها ، فلذلك قال : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ الآية . ثم قال الطبري : (فعل هذا القول : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ من الجن يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها) . ويقول الأستاذ أحمد محمد شاكر معلقاً على هذه الرواية : (الخبر : في ابن كثير : ١٢٧ . وقد روى الحاكم في المستدرک ٢ : ٢٦١ خبراً يشبه في بعض المعنى ويخالفه في اللفظ ، قال : (أخبرنا عبد الله بن موسى الصيدلاني حدثنا إسماعيل بن قتيبة حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن بكير بن الأخنس ، عن مجاهد عن ابن عباس : . . .) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وأما إسناد الطبري هنا فضعيف ؛ لأنَّ بشر بن عمار ضعيف . قال البخاري في التاريخ الكبير ١/٢١/٨١ : (تعرّف وتكرّر) وقال النسائي في الضعفاء ص ٦ : (ضعيف) وقال الدارقطني : (متروك) . أهد بتصرف .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٠ .

٣ - قصص الأنبياء : ص ٤١ .

٤ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٢٧ .

٥ - تفسير القرطبي ج١ ص ٢٧٤ ، بتصرف .

المتعلّم عما ينقدح في ذهنه من شبهة يريد من معلّمه أن يزيحها عنه لا أن يعترض عليه . وقد وصف الله سبحانه الملائكة بقوله : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(١) الآية .

أجابهم الله تعالى بما اطمأنت له نفوسهم ، وثلجت به صدورهم ، فقال : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ الآية . ثم سوى آدم (عليه السلام) من تراب ، أمر الملائكة بجمعه من أنحاء الأرض : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون ﴾^(٢) . أخذ هذا التراب وعجن بالماء فأصبح طيناً متماسكاً بعضه ببعض : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾^(٣) الآية . ، إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين^(٤) ثم بقى آدم (عليه السلام) مدة طويلة من الزمن في الصورة الطينية حتى جف ويبس فأصبح له صوت يشبه الفخار إذا ضرب باليد : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ^(٥) مسنون ﴾^(٦) ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾^(٧)

(وواضح أنّ الصلصال متولّد من الحمأ المسنون ، وأنّ الحمأ المسنون متولّد من الطين . . إذن فالطين طور من أطوار خلق آدم ، ثم الحمأ المسنون مرحلة تالية له ، ثم الصلصال طور يجيء بعد الحمأ المسنون . . .)^(٨)

ولمّا أصبح هذا الصلصال كالفخار ، توجّهت إرادة الله العلى القدير لجعله بشراً سوياً . فنفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان حي من لحم ودم وعظم وعصب ، يتحرك بإرادته ويفكر . ثم أمر تعالى الملائكة بالسجود له تحية وتكريماً ، لا سجود عبادة .

١ - من سورة التحريم : آية رقم ٦ .

٢ - من سورة الروم : آية رقم ٢٠ .

٣ - (من طين لازب) : لاصق .

٤ - من سورة الصافات : آية رقم ١١ .

٥ - من سورة ص : آية رقم ٧١ .

٦ - في مختار الصحاح ص ٣٦٨ : (والصلصال) الطين الحُر خلط بالرمل فصار (يتصلصل) إذا جف ، فإذا طُبخ بالنار فهو الفخار .

٧ - في المرجع السابق ص ١٥٣ : (الحمأ) بفتح الحاء و (الحمأة) بسكون الميم : الطين الأسود .

٨ - في المرجع السابق ص ٣١٧ : (والحمأ) (المسنون) المتغير المتين .

٩ - من سورة الحجر : آية رقم ٢٦ .

١٠ - من سورة الرحمن : آية رقم ١٤ .

١١ - من كتاب : قصتا آدم ويوسف (عليهما السلام) ص ١١ .

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار : (إن الله تعالى أخبر ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين ، وأمرهم إن سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين ، سجود تكريم بالطبع ، لا سجود عبادة ؛ لأن الله تعالى لا يأمر أحداً أن يتوجه بالعبادة إلى سواه . وبعبارة أخرى : كان ذلك احتفالاً بتعام تكوين آدم بشراً سوياً^(١) .

فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، امتثالاً لأمر الله تعالى ، إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، وامتنع عن السجود ، واستكبر وكان من الكافرين .

قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾^(٢) .

سأل الله عز وجل إبليس عن السبب الذي منعه من السجود لآدم بعد أن أمره به : ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾^(٣) .

(فرغم أنه خير من آدم عنصراً ، وأزكى منه جوهرأ ، وظن أن لا أحد يباريه في علو قدره ، ولا يستشرف إلى سمو مكانته ، وقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . لقد جهر بالعصيان ، وصرح عن المخالفة والبهتان ، واستكبر عن أمر ربه ، واستنكف أن يسجد لمن خلقه بيده ، فصار من الكافرين)^(٤) .

فجازاه الله تعالى على عناده وتكبره وتمرده بالطرد من الجنة ، ذليلاً مهاناً . وناداه معلناً له جزاؤه الأوفى : ﴿ قال فاخرج منه فإنك رجيم^(٥) . وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾^(٦) .

علم إبليس بأنه لا مفر من أهل النار ؛ لاستكباره ، وبأنه مطرود من الجنة . فطلب من الله تعالى أن يمهل حياً إلى يوم القيامة . فأجاب الله عز وجل طلبه هذا ؛ لحكمة أرادها سبحانه وتعالى . ولما استجيب طلبه ، لم يشكر الله فضله ، بل تمادى في غيّه ، وجعل تحديه لله سبحانه متجهاً إلى آدم (عليه السلام) وذريته . وأقسم لربه ليحسنن لهم المعاصي وليحبينها

١ - قصص الأنبياء ص ٢ .

٢ - من سورة ص الآيات رقم ٧١ - ٧٤ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٢ .

٤ - قصص القرآن ص ٦ - ٧ .

٥ - فإنك رجيم : مشتم طعون .

٦ - من سورة الحجر : آية رقم ٣٤ - ٣٥ .

إليهم ، جاهدوا في إضلالهم ، ساعياً في أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله تعالى ، إلا عباده المؤمنين حقاً . فوعده الله عز وجل هو كل من أطاعه وانضم إلى حزبه من الناس بالنار .

قال تعالى : ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ (١) .

ثم أقبل الله تعالى على آدم (عليه السلام) فأتاه من علمه ، وأفاض عليه من نوره ، وعلمه أسماء الكائنات كلها ، كما علمه حقائقها ، وخواصها ؛ ليتمكن في الأرض ويستفيع بها حق الانتفاع . ولكي يحقق الله سبحانه للملائكة بالفعل ويكشف لهم بالعمل ما غاب عنهم من أن هذا الكائن الجديد أكثر منهم علماً ، وأوسع معرفة ، عرض هذه الكائنات عليهم - أطلعهم عليها - وطلب إليهم أن يخبروه سبحانه بأسمائها إن كانوا صادقين في دعوى أنهم أحق بالخلافة من غيرهم .

قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (٢) .

أقر الملائكة بعجزهم . واعترفوا بقصور علمهم ، وخاطبوا ربهم قائلين : نقديسك يا ربنا ، التقديس اللائق بك ، ولا نعترض على مشيئت وإرادتك ، إذ لا علم عندنا إلا الذي وهبتنا إياه ، وأنت العليم بكل شيء ، الحكيم في كل أمر تفعله .

حينئذ أمر الله تعالى آدم (عليه السلام) أن يخبرهم بما عجزوا عن معرفته ، فقال : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (٣) .

ولما أنباهم بأسمائهم ؛ أدرك الملائكة السر في خلق آدم (عليه السلام) وتبينوا فضله ، وظهرت لهم حكمة استخلافه . فناداهم ربهم قائلاً : ألم أقل لكم : إن علمي أحاط بكل شيء في السموات والأرض ، وأعلم ما تظهرون من أقوالكم ، وما تحفون في نفوسكم ؟

١ - من سورة الحجر : الآيات رقم ٣٦ - ٤٣ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٣١ - ٣٢ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٣ .

(وهنا يسكن الملائكة ويطمثون .. وهنا يكون سجودهم لآدم سجوداً قائماً على معرفة عيانية بمنزلته ومكانته : إنه ذو علم يفيض عن ذاته التي أودع الله فيها ما أودع من عقل وعلم ..) (١) .

وبعد : تلك هي قصة آدم (عليه السلام) قبل ابتلائه وامتحانه . فقد كرمه الله تعالى ، وأنعم عليه ، إذ خلقه بيديه سبحانه ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وعلمه أسماء كل الأشياء . وحين خرج إبليس عن طاعته ، وأبى أن يكون مع الساجدين لآدم (عليه السلام) ، لعنه تعالى ، وطرده من رحمته ، وأبعده من جنته .

ثم أقبل الله عز وجل على آدم (عليه السلام) فأسكنه وزوجه الجنة وأباح لهما كل شيء فيها إلا شجرة واحدة عينها لهما ، ونهاهما أن يقرباها ، وحذّرها من إبليس وكيده أشد الحذر ، حيث نادى آدم (عليه السلام) قائلاً له : إن إبليس هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .

وفىما يلي نعرض الآيات التي جاءت في هذا الموضوع :

﴿ ولقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢) .

﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنها من سوءاتها وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (٣) .

١ - من كتاب : قصتا آدم ويوسف (عليهما السلام) ص ١٠ .

٢ - من سورة البقرة : الآيات رقم ٣٥ إلى رقم ٣٨ .

٣ - من سورة الأعراف : الآيات رقم ١٩ إلى رقم ٢٥ .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإذا يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (١) .

لقد صوّرت هذه الآيات حياة آدم (عليه السلام) وزوجه في الجنة وخروجهما منها ، وما لقياه من عدو الله إبليس من كيد ومكر وخدعة . وسننظر فيها كلها نظرة واحدة ، باعتبار أنها صورة واحدة في معرض واحد . ويمكننا حصر ألوانها وتقسيمها إلى عناصر كما يلي :

أ - وَصَاةُ الله تعالى لآدم (عليه السلام) وزوجه وتحذيرهما من إبليس عند سكناهما في الجنة .

ب - إغواء إبليس لآدم (عليه السلام) وإغراؤه أن يأكل هو وزوجه من الشجرة التي نهاهما الله عن الاقتراب منها .

ج - عتاب الله سبحانه وتعالى لآدم (عليه السلام) وندم آدم وتوبته وقبول الله لتوبته .

د - خروج آدم (عليه السلام) وزوجه من الجنة وتحذيرهما وذريتهما من إبليس وما يدبر لهم من كيد وإغواء .

وفىما يلي نتكلّم عن هذه العناصر بالترتيب ، ونورد الآيات المتعلقة بكل قسم ثم نشرحها :

أولاً - وَصَاةُ الله لآدم وزوجه وتحذيرهما من إبليس :

قال تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ (٢) .

﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ (٣) .

١ - من سورة طه : الآيات رقم ١١٥ إلى ١٢٣ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٥ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٩ .

﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تطعمها فيها ولا تضحى ﴾ (١) .

فى هذه الآيات يبدو واضحاً امتحان الله تعالى لآدم (عليه السلام) وابتلاؤه إياه بما امتحنه به من طاعته . فقد عهد إليه بالالتزام بالطاعة والتمسك بالوصاة والاهتمام بأمره سبحانه وتعالى وعدم الاقتراب من الشجرة التى عيّن لها . والأيّتان الأوليان تبدوان كأنهما قول واحد ، ولعله تكرر للتأكيد . وفى الآيات الأخرى بيان عداوة إبليس لآدم (عليه السلام) وزوجه ، وتحذيرهما من كيده ومكره وعمله ، حتى لا يفتتنا بزخرف قوله ، ويزلا بإغوائه ويخرجا عن أمر ربهما ، فيخرجان من الجنة ونعيمها إلى نكد عيش أهل الأرض .

ولعل ما فى هذه الآيات من أمر ونهى وتحذير هو الذى عناه الأستاذ البهى الخولى (بالعهد الخاص) فى قصة آدم (عليه السلام) حيث قال : (وفى القصة عهدان عهد الله بهما إلى آدم (عليه السلام) ، أحدهما خاص ، والآخر عام . فالعهد الخاص : حيث أمره الله .. ونهاه .. وحذره ..

(أمره أن يسكن الجنة هو وزوجه ، وأن يأكلا منها رغداً حيث شاء ، ونهاه أن يقرب شجرة بذاتها بيّنهما له ، وحذره الشيطان بقوله : ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ .

(والعهد العام : يتعلق بفطرته (عليه السلام) إذ يقول تعالى فى تقويمه الروحى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ (٢) الآية ، وإذ يقول تعالى فى تقويمه العقلى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (٣) الآية (٤) .

وقال الإمام الفخر الرازى : (اختلفوا فى أن قوله : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن .. ﴾ أمر تكليف أو إباحة ؟ فالمروى عن قتادة أنه قال : إن الله تعالى ابتلى آدم بإسكان الجنة ، كما ابتلى الملائكة بالسجود ؛ وذلك لأنه كلّفه بأن يكون فى الجنة يأكل منها حيث شاء ، ونهاه عن شجرة واحدة أن يأكل منها . فما زالت به البلايا حتى وقع فيما نهى عنه ، فبدت سوائه عند ذلك وأهبط من الجنة وأسكن موضعاً يحصل فيه ما يكون مشتهى له مع أن منعه من تناوله من أشد التكليف . وقال آخرون : إن ذلك إباحة ؛ لأن الاستقرار فى المواضع الطيبة النزهة التى

١- من سورة طه : الآيات رقم ١١٧ - ١١٩ .

٢- من سورة الحجر : آية رقم ٢٩ .

٣- من سورة البقرة : آية رقم ٣١ .

٤- آدم عليه السلام - فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ص ١٨٠ .

يتمتع فيها لا يدخل تحت التعبد ، كما أن أكل الطيبات لا يدخل تحت التعبد ، ولا يكون قوله : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (١) الآية ، أمراً وتكليفاً ، بل إباحة . والأصح أن ذلك الإسكان مشتمل على ما هو إباحة ، وعلى ما هو تكليف . أما الإباحة فهو أنه ﷺ كان مأذوناً في الانتفاع بجميع نعم الجنة ، وأما التكليف فهو أن المنهى عنه كان حاضراً ، وهو كان ممنوعاً عن تناوله (٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً ﴾ (٣) حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ (٤) . قال صاحب الكشف : (السكنى من السكون ؛ لأنها نوع من اللبث والاستقرار . و (رغداً) وصف للمصدر : أى أكلا رغداً واسعاً رافهاً . و (حيث) للمكان المبهم : أى أى مكان من الجنة (شئتما) أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ، ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة حتى لا يبقى لهما عذر في تناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفائتة للحصر (٥) .

وقال الأستاذ المرافي في معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ الآية ، قال : (إن النهي كان لحكمة ، كأن يكون في أكلها ضرر ، أو يكون ذلك ابتلاء من الله تعالى لآدم واختباراً له ؛ ليظهر به ما في استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها ، ولو كان في ذلك معصية يترتب عليها ضرر . وقد علق النهي بالقرب منها ، وهو مقدمة الأكل ، تنبيهاً إلى أن القرب من الشيء يورث ميلاً إليه يلهى القلب عما يوجبه العقل والشرع .

(وقوله تعالى : ﴿ من الظالمين ﴾ أى لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها من المعصية ، أو بنقصان حظوظكما بفعل ما يمنع الكرامة والنعيم ، أو بتعدى حدود الله تعالى (٦) .

وعلى ما سبق ذكره يكون المعنى : وقلنا يا آدم ، اتخذ الجنة مسكناً لك ولزوجك ، وتمتعاً بكل ما فيها ، وكلا من ثمارها وزروعها وأشجارها كل ما تشتهي أنفسكما ، أكلاً هنيئاً مريئاً ، ولكن أوصيكم بالألأ تدبوا من هذه الشجرة فتكونا من العصاة المخالفين لأمرى ، الظالمين

١- من سورة البقرة : آية رقم ١٧٢ .

٢- التفسير الكبير جـ ٣ ص ٢ بتصرف .

٣- ورد في تفسير الطبري جـ ١ ص ٥١٥ : (قال أبو جعفر : أما الرغد : فإنه الواسع من العيش المهنى الذى لا يعنى صاحبه) .

٤- من سورة البقرة : آية رقم ٣٥ .

٥- الكشف جـ ١ ص ٢٧٣ .

٦- تفسير المرافي جـ ١ ص ٩١ ، بتصرف .

لأنفسهم . أى أنه سبحانه وتعالى نهاهما عن الاقتراب من شجرة واحدة من بين أشجار الجنة الكثيرة ؛ ابتلاء منه جل وعلا .

(وليزيل كل إيهام في شأنها ، وشك في معرفتها ، أشار إليها ، تعييناً لها ، وإزالة لكل ريب قد يتسرب إلى نفسيهما ؛ وتوعدهما بالدخول في زمرة الظالمين إن قربا منها ، أو تناولا شيئاً من ثمارها . ووعدهما أن يمد لهما في أسباب النعيم إن اجتنبا الشجرة التى نهاهما عنها ، فلا يمسهما جوعٌ ولا عُرى ، ولا ينالهما ظمأٌ ولا نصب ، ولا يؤذيها حر الشمس ، فقال : ﴿ ولقنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ ^(١) ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ ^(٢) ^(٣) .

ويلاحظ أنَّ النهى كان عن الاقتراب من الشجرة ، وهذا أشد من لو كان النهى منصّباً مباشرة عن الأكل منها ؛ لأنَّ النهى عن قرب الشيء أبلغ أثراً من النهى عن الشيء نفسه ، إذ أنه يقتضى البعد عن موارد الشبهات التى تغرى به ، كما جاء فى الحديث الصحيح : عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال : سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ؛ ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب) ^(٤) .

وقال ابن الجوزى : (فإن قيل : ما وجه الحكمة فى تخصيص تلك الشجرة بالنهى ؟ فالجواب : أنه ابتلاء من الله تعالى بما أراد) ^(٥) .

ولعل فى قول الطبرى الإجابة على مثل هذا السؤال ، حيث قال : (فلمَّا أسكن الله عز وجل آدم (عليه السلام) وزوجه الجنة ، أطلق لهما أن يأكلا كل ما شاء أكله من كل ما فيها من ثمارها ، غير ثمر شجرة واحدة ؛ ابتلاء منه لهما بذلك ، وليمضى قضاء الله فيهما وفى ذريتهما) ^(٦) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٥ .

٢ - من سورة طه : آية رقم ١١٨ - ١١٩ .

٣ - قصص القرآن ص ٩ .

٤ - صحيح مسلم بشرح النووى ج ١١ ص ٢٧ - ٢٨ .

٥ - زاد المسير فى علم التفسير ج ١ ص ٦٧ .

٦ - تاريخ الطبرى ج ١ ص ١٠٦ .

وقد أشار الأستاذ عبد الكريم الخطيب إلى وجه الحكمة في النهي عن الاقتراب من تلك الشجرة ، ثم صور كيف كان وقع هذا النهي من نفس آدم (عليه السلام) ، فقال : (ثم إنَّ نهي آدم عن الاقتراب منها إنما هو امتحان له وابتلاء لعزيمته أمام الإغراء وحب الاستطلاع - وقد وقع هذا النهي من نفس آدم في موقعين :

(أ - موقع الخوف من الله تعالى الذي ألقى إليه بهذا النهي ، والحذر من أن يخالف ما نهي عنه) .

(ب - الرغبة الصارخة في مدانة هذه الشجرة والتعرف عليها ، وعلى ما يكمن فيها) .

(ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة كانت وسوسة إبليس لآدم وإغراؤه له)^(١) .

هذا ، وقد اختلف المفسرون في هذه الشجرة ؛ ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى أبهمها ، ولم يضع لنا في القرآن الكريم دلالة على أيِّ أشجار الجنة كان نهي آدم (عليه السلام) أن يقربها ، لا نصَّ عليها باسمها ولا بدلالة عليها ، فهي غير معروفة النوع ولا الصفة لنا ، وإن كانت معروفة لآدم (عليه السلام) وزوجه حيث عيَّنهما الله عز وجل لهما وأشار إليهما بقوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ الآية .

قال الألوسي : (ووقع خلاف في هذه الشجرة ، ف قيل : الحنطة ، وقيل : النخلة ، وقيل : شجرة الكافور - ونسب إلى علي (كرم الله وجهه) - وقيل : التين ، وقيل : الحنظل ، وقيل : شجرة المحبة ، وقيل : شجرة الطبيعة والهوى (وقيل غير ذلك) والأولى عدم القطع والتعيين - كما أنَّ الله تعالى لم يعيَّنهما باسمها في الآية - ولا أرى ثمرة في تعيين هذه الشجرة)^(٢) .

وقال ابن جرير : (فالصواب في ذلك أن يقال : إنَّ الله جل ثناؤه نهي آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها .. ولا علم عندنا بأيِّ شجرة كانت عليَّ التعيين ؛ لأنَّ الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ، ولا في السنة الصحيحة ، فأني يأتي ذلك ؟ وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به)^(٣) .

١ - قصتا آدم ويوسف (عليهما السلام) ٣٨ ، بتصرف .

٢ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ..

٣ - تفسير الطبري ج١ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

وكما اختلفَ في الشجرة التي نهى آدم (عليه السلام) عن الاقتراب منها ، اختلف في الوقت الذي خُلِقَتْ فيه زوجته ، فالذى تطمئن إليه النفس هو أن حواء خُلِقَتْ قبل دخول آدم (عليه السلام) الجنة ؛ لأنَّ سياق الآية يقتضى ذلك : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ الآية ، وهذا ما ذهب إليه الألوسى ، حيث قال : (وقال كثيرون - ولعلى أقول بقولهم - : إنها خُلِقَتْ قبل الدخول ودخلاً معاً . وظاهر الآية الكريمة يشير إليه ، وإلا توجه الأمر إلى معدوم ، وإن كان في علمه تعالى موجوداً ، وأيضاً في تقديم (زوجك) على (الجنة) نوع إشارة إليه ، وفي المثل : (الرفيق قبل الطريق) . وأيضاً هي مسكن القلب ، والجنة مسكن البدن ، ومن الحكمة تقديم الأول على الثاني)^(١) .

هذا ، وقد اختلفت آراء العلماء في الجنة التي أسكنها آدم (عليه السلام) أهى في السماء أم في الأرض ؟

قال الشيخ عبد الوهاب النجار : (وحاصل الخلاف فيها على أقوال :

- أ - أنها جنة المأوى .
- ب - أنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها لآدم وحواء .
- ج - أنها جنة من جنات الأرض .
- د - التوقف في أمرها^(٢) .

والجمهور على أنها جنة المأوى التي في السماء ؛ لظاهر الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ الآية .

قال الإمام الرازى : (قول جمهور أصحابنا : إنَّ هذه الجنة هي دار الثواب ، والدليل عليه أنَّ الألف واللام في لفظ (الجنة) لا يفيدان العموم ؛ لأنَّ سكناً جميع الجنات محال ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق . ، والجنة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب ، فوجب صرف اللفظ إليها)^(٣) .

وقال الألوسى : (والجنة في المشهور دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة ؛ لأنها المتبادر عند الإطلاق ، ولسبق ذكرها في السورة (٤) ، وفي ظواهر الآثار ما يدل عليه ، ومنها ما في

١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٢٣٤ .

٢ - قصص الأنبياء ص ٩ .

٣ - التفسير الكبير جـ ٣ ص ٤ .

٤ - يقصد سورة البقرة .

الصحيح من محاجة آدم وموسى (عليهما السلام) ، فهي إذن في السماء حيث شاء الله تعالى (١) .

روى البخارى بإسناده عن طاووس ، سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : (احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : يا آدم ، أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . قال له آدم : يا موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدّره الله علىّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى) (٢) .

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة وأبو مالك عن ربهى عن حذيفة قالاً : قال رسول الله ﷺ : (يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُرْلَف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة . فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى أبني إبراهيم خليل الله ...) (٣) الحديث .

قال الحافظ ابن كثير تعليقاً على هذين الحديثين ، بعد أن أوردهما في البداية والنهاية : (وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى ، وليست تخلو من نظر) (٤) .

(وذهب المعتزلة وأبو مسلم الأصفهاني وأناس إلى أنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم (عليه السلام) وكانت بستاناً في الأرض بين فارس وكرمان ، وقيل : بأرض عدن ، وقيل : بفلسطين كورة بالشام ، ولم تكن الجنة المعروفة) (٥) .

قال الأستاذ المراغي : (وعلى هذا جري أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات ، فقال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعّمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم) (٦) .

وقال العلامة القرطبي : (ولا التفات لما ذهب إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخلد وإنما كان في جنة بأرض عدن واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما

١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٣٣ .

٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج١١ ص ٥٠٥ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص ٧٠ .

٤ - قصص الأنبياء ج١ ص ١٥ .

٥ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٣٣ .

٦ - تفسير المراغي ج١ ص ٩٠ .

وصل إليه إبليس ، فإنَّ الله يقول : (لا لغو فيها ولا تأثيم)^(١) وقال : (لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً)^(٢) وقال : (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قِيلاً سلاماً سلاماً)^(٣) . وأنه لا يخرج منها أهلها ؛ لقوله : (وما هم منها بمخرجين)^(٤) وأيضاً فإنَّ جنة الخلد هي دار القدس ، قدَّست عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها . وقد لغا فيها إبليس وكذب ، وأخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

(وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها ، وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أنَّ الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها . وقد دخلها النبي ﷺ ليلة الإسراء ثم خرج منها ، وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقاً . وأما قولهم : إنَّ الجنة دار القدس ، وقد طهرها الله تعالى من الخطايا فجهل منهم ؛ وذلك أنَّ الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدَّسة وهي الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أنَّ الله تعالى قدَّسها وقد شوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ، ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي ؛ وكذلك دار القدس)^(٥) .

وقد ذكر الألوسي ما ذكره القرطبي من الأدلة التي استدلل بها المعتزلة ومن قال بقولهم على أنَّ المقصود بالجنة شيء آخر غير الجنة المعروفة ، ذكر هذه الأدلة وزاد عليها بعض أدلتهم ، ثم قال : (والتزام الجواب عن ذلك كله لا يخلو عن تكلف ، والتزام مالا يلزم - وما في حيز الحاجة يمكن حمله على هذه الجنة ، وكون حملها على ما ذكر يجري مجرى الملاعبة بالدين والمراغمة لإجماع المسلمين - غير مسلم)^(٦) .

١- من سورة الطور : آية رقم ٢٣ .

٢- من سورة النبا : آية رقم ٣٥ .

٣- من سورة الواقعة : آية رقم ٢٥ - ٢٦ .

٤- من سورة الحجر : آية رقم ٤٨ .

- الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ . بتصرف

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٢٣٣ .

أغواء إبليس لآدم (عليه السلام) وزوجه :

أسكن الله تعالى آدم (عليه السلام) وزوجه الجنة ، بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه منها . وأباح لها أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة بعينها ، فقد نهاهما أن يقربا ثمرها . وزودهما سبحانه بتحذير شديد من عدوهما الشيطان الرجيم ، حيث نادى آدم ، قائلاً له : لا تنس أن إبليس هذا عدوٌ مضل مبين لك ولزوجك : ﴿ فلا يخرجكما من الجنة فتشقى ﴾^(١) . (أى إياك أن تسعى فى إخراجك منها بطاعته فتتعب وتعنى وتشقى فى طلب رزقك ، فإنك ههنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة)^(٢) .

قال الأستاذ محمد أحمد جاد المولى : (حَزَّ ذلك فى نفس إبليس وعَزَّ عليه أن ينعم آدم وزوجه ، وهو مطرود من رحمة الله ، مبعد عن جنته . فصَحَّت نيته على أن يَقْوُصَ عرش سعادته ، ويسلبه نعمته . أليس هو الذى أنزله من عليائه ، وأبعده عن نعمة الله ورضائه ، واستبان بسببه جحوده ونكرانه ! فليُقدم على الثأر لنفسه ، وليحاول أن يتنقَّص ذلك الذى أمر بالسجود له والاعتراف بفضلِهِ . فدلَف إلى الجنة وحَدَّثه فى سر وخفاء ، وأوهمه بأنه صادق الودِّ ، مخلص فى النصح ، ثم جَدَّ فى استمالته إليه ، فلم يترك سبيلاً لذلك إلا ولجِه ، أو باباً إلا طرُقَه . وأظهر له ولزوجهِ عطفه عليهما ، وإشفاقه من زوال نعمتهما)^(٣) .

قال تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما ﴾^(٤) الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ... ﴿^(٥) .

قال الحافظ ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ يصح أن يكون الضمير فى قوله : (عنها) عائداً إلى الجنة ، فيكون معنى الكلام - كما قرأ عاصم - فأزلهما ، أى فنحاهما . ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة ، فيكون معنى الكلام - كما قال الحسن وقتادة - فأزلهما ، أى من قبل الزلل ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى بسببها ، كما قال تعالى : ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾^(٦) .

١ - من سورة طه : آية رقم ١١٧ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٦٧ .

٣ - قصص القرآن ص ٩ .

٤ - ورد فى تفسير القرطبي ج ١ ص ٣١١ . (قوله تعالى : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ قرأ الجماعة (فأزلهما) بغير ألف ، من الزلة وهى الخطيئة ، أى استزلها وأوقعها فيها . وقرأ حمزة (فأزلهما) بألف ، من التنحية أى نحاهما . يقال : أزله فزال . قال ابن كيسان : فأزلهما من الزوال ، أى صرفها عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية) .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

٦ - من سورة الذاريات : آية رقم ٩ . وقال صاحب القاموس المحيط فى ج ٣ ص ٢٩٣ : (العاجز القليل الحيلة والحزم والمخلوع ع : رآه كالمفوك ، وهو الضعيف العقل) .

أى يصرف بسببه من هو مأفوك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أى من اللباس
والمنزّل الرحب والرزق الهنىء والراحة (١) .

ومن هذا يُفهم أنّ الشيطان حملهما على الزلة - السقوط - بسبب الشجرة ، وأوقعهما فى
المخالفة التى ترتب عليها خروجهما من النعيم والتكريم . وكان ذلك بكذبه عليهما ومقاسته ،
على ما قصّ الله تعالى فى القرآن الكريم :

﴿ فوسوس (٢) لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنها من سوءاتها وقال ما نهاكما ربكما
عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن
الناصحين . فدلّاهما بغرور ... ﴾ (٣) .

(فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (٤) .

قال الطبرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنها
من سوءاتها ﴾ : يعنى جل ثناؤه بقوله : ﴿ فوسوس لها ﴾ فوسوس إليهما ، وتلك الوسوسة
كانت قوله لها : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من
الخالدين ﴾ ، وإقسامه لها على ذلك . ومعنى الكلام : فجذب إبليس إلى آدم وحواء ، وألقى
إليهما : ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة ، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من
الخالدين ؛ ليبدى لها ما واره الله عنها من عوراتهما ففضّاه بستره الذى ستره عليهما (٥) .

ويبدو مما سبق ذكره أنه لما أذن الله تعالى لآدم (عليه السلام) وزوجه بالمتاع الحلال ،
ووصاهما بالامتناع عن الاقتراب من الشجرة ، وأنها إن فعلا ذلك يكونان من الظالمين
لنفسيهما بمخالفة أمر الله سبحانه وما يترتب على ذلك من العقوبة ، وجد إبليس فى ذلك النهى
منفذاً ينفذ فيه إلى آدم (عليه السلام) وزوجه ؛ ليتزلهما من طاعة الله إلى معصيته . وكان
هدفه إسقاط آدم (عليه السلام) من مرتبته ومنزلته عند الله تعالى وإبعاده كما أبعد هو .

١ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٨٠ . . .

٢ - ورد فى تفسير المنار ج٥ ص ٣٤٧ : (قال الراغب : الوسوسة : الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلى ،
والهمس الخفى ، قال : (فوسوس إليه الشيطان) وقال : (من شر الوسواس) ويقال لهمس الصائد وسواس . أه .
فوسوسة الشيطان للبشر هى ما يجذونه فى أنفسهم من الخواطر الرديئة التى تزين لهم ما يضرهم فى أبدانهم أو أرواحهم
ومعاملاتهم) . وجاء فى الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٣١٢ . (والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزلل بالمعصية ؛ وليس
للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان ، إنما قدرته على إدخاله فى الزلل ؛ فيكون ذلك سبباً إلى زواله من مكان إلى
مكان بذنبه) . وفى القاموس المحيط ج٢ ص ٢٥٧ : (والوسوسة : حديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير . . . وقد
وسوس له وإليه) .

٣ - من سورة الأعراف : الآيات ٢٠ - ٢٢ .

٤ - من سورة طه : آية رقم ١٢٠ .

٥ - تفسير الطبرى ج١٢ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ بتصرف .

هذا ، وقد علم الشيطان أنها إذا أكلت من الشجرة بدت لها عوراتها وارتكبا المعصية ، وتبدلت أحوالهما ، وانتهك السر الذي بين الله تعالى وبينهما ؛ وبالتالي يكون عدو الله إبليس وصل إلى هدفه ، وتحقق أمله المنشود . فطفق يكرر ويكيد لها ، ولكنه بطبيعة الحال لم يكشف لها هدفه ، ولم يظهر لها عداوته ، بل جاءها من ناحية رغائبها العميقة : حب الخلود وحب الملك . وتمثل لها صديقاً حميماً وناصحاً أميناً ، ووقف يزيّن لها الأكل من الشجرة : ﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ (١) الآية .

(أى وقال فيما وسوس به لها : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا منها إلا لأحد أمرين : اتقاء أن تكونا بالأكل منها ملكين ، أى كالملاكين فيما أوق الملائكة من الخصائص كالقوة وطول البقاء وعدم التأثير بفواعل الكون المؤلفة والمتعبة وغير ذلك ، أو اتقاء أن تكونا من الخالدين فى الجنة ، أو الذين لا يموتون البتة) (٢) .

قال أبو جعفر : (يقول جل ثناؤه : وقال الشيطان لآدم وزوجته حواء : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها ، إلا لثلا تكونا ملكين . وأسقطت (لا) من الكلام ، لدلالة ما ظهر عليها ، كما أسقطت من قوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ (٣) الآية . والمعنى : يبين الله لكم ألا تضلوا . وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يزعم أن معنى الكلام : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين ، كما يقال : (إياك أن تفعل) كراهية أن تفعل . (أو تكونا من الخالدين) فى الجنة ، الماكثين فيها أبداً ، فلا تموتا) (٤) .

وهكذا أوهم الشيطان الرجيم آدم (عليه السلام) وزوجه ، أن الأكل من الشجرة المحظورة إما أن يعطى الأكل صفات الملائكة وغرائزهم أو يقتضى الخلود فى الحياة .

فإن قيل : كيف أطمع إبليس آدم (عليه السلام) أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة ، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، وكان آدم (عليه السلام) أعلم بنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه ؟

١ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٠ .

٢ - تفسير المنار ج ٨ ص ٣٤٨ .

٣ - من سورة النساء : آية رقم ١٧٦ .

٤ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٣٤٨ .

(فالجواب : إنَّ آدم (عليه السلام) وزوجه لم يطمعا في ذلك أصلاً ، وإنما كذبها عدو الله ، وغرَّهما ، وخدعهما بأن سُمِّي تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهذا أول المكر والكيد ، فلَمَّا سَمَّاهما شجرة الخلد قال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ، ولا تموتا ، فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون . ولم يكن آدم (عليه السلام) قد علم أنه يموت بعد ، واشتهى الخلود في الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما ، فاجتمعت الشبهة والشهوة ، وساعد القدر ، فأخذتهما سِنَّة الغفلة ، واستيقظ لهما العدو ، كما قيل :

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم لينفذ القدر المحتوم في الأزل

إلا أنَّ هذا الجواب يعترض عليه قوله : ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ فيقال : الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده . فهو - الشيطان - لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا من الشجرة صارا ملكين ، وإنما ردَّد الأمر بين أمرين : أحدهما ممنوع ، والآخر ممكن . وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ؛ ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يرده . فقال : ﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ ^(١) فلم يدخل أداة الشك ههنا كما أدخلها في قوله : ﴿ إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ ^(٢) الآية (٣) .

لقد أغراهما بالملك الخالد والعمر الطويل الخالد إذا أكلا من الشجرة . ولَمَّا لم يقبلا منه مقاتلة ، وأحس منها مجافاة لرأيه ، وبعداً عن قبول نصحه ، وهو يعلم أنَّ الله عز وجل نهاهما عن الاقتراب من الشجرة ، وأنَّ هذا النهي له ثقله وقوته في نفسيهما ، ولكي يستعين على زعزعة هذا النهي ، لجأ إلى اليمين المغلظة ؛ ليؤكد صحة قصده وصواب رأيه ، فحلف لهما بالله العظيم إنه لمن الناصحين الصادقين .

﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ ^(٤) .

قال الطبري ؛ (يعني جل ثناؤه بقوله : (وقاسمهما) وحلف لهما ، وقوله : ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ أى لمن ينصح لكما في مشورته لكما ، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي

١ - من سورة طه : آية رقم ١٢٠ .

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٠ .

٣ - إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ج ١ ص ١١٢ - ١١٣ بتصرف .

٤ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢١ .

نهيتما عن أكل ثمرها ، وفي خبرى إياكما بما أخبركما به ، من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين أو كنتما من الخالدين^(١) .

وقال الحافظ ابن كثير : أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله . وقال قتادة فى الآية : حلف بالله إني خلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما . وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له^(٢) .

إنَّ عدو الله - الشيطان الرجيم - أكثر وألحّ وتغادى فى إغوائه وألحق ، وأكَّد كيده ومكره لأبويننا بأشد المؤكدات وأغلظها ، إذ كان عندهما محل الظنة فى نصحه ؛ لأنَّ الله أخبرهما أنه عدو لهما .

قال ابن القيم فى قوله تعالى : ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ فتضمن هذا الخبر أنواعاً من التأكيد :

أحدهما - تأكيده بالقسم :

الثانى - تأكيده بـ"إنَّ" .

الثالث - تقديم المعمول على العامل ، إيذاناً بالاختصاص ، أى نصيحتى مختصة بكما ، وفائدتها إليكما لا إلى .

الرابع - إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم دون الفعل الدال على التجدد : أى النصيح صفتى وسجيتى ، ليس أمراً عارضاً لى .

الخامس - إتيانه بلام التأكيد فى جواب القسم .

السادس - أنه صوّر نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين ، فكأنه قال لهما : الناصحون لكما فى ذلك كثير ، وأنا واحد منهم ، كما تقول لمن تأمره بشيء : كل أحد معى على هذا ، وأنا من جملة من يشير عليك به^(٣) .

قال الأستاذ سيد قطب : (ونسى آدم وزوجه - تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر - أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلّهما على خير ! وأنَّ الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفاه علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والمُلْك الذى لا يبلى فلن ينالاه ! نسيا هذا كله ، واندفعا يستجيبان للإغراء !)^(٤) .

١ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٣٤٩ - ٣٥١ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٠٦ .

٣ - إغائة اللهفان من مصايد الشيطان ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

٤ - فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٦٩ .

(فدلأهما بغرور (١) . . .) (٣) الآية . (أى فما زال يخدعهما بالترغيب فى الأكل من الشجرة ، والقسم على أنه ناصح لهما ، حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة البارئ جل وعلا ، بما غرهما به وزينه لهما ، وقد اغترا بقوله وانخدعا بقسمه ، وصدّقا ؛ اعتقاداً منها أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً) (٣) .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا : (واستنكر بعضهم أن يكونا صدّقا ، واستكبر أن يقع ذلك منها ، وزعم أن تصديقه كفر . ورجّح هؤلاء أن يكون الغرور بتزيين الشهوة ، فإن من غرائز البشر حب التجربة واستكشاف المجهول ، والرغبة فى الممنوع . فجاء الوسواس نافخاً فى نار هذه الشهوات الغريزية مذكياً لها ، مشيراً للنفس بها إلى مخالفة النهى ، حتى نسى آدم عهد ربه ، ولم يكن له من العزم ما يصرفه عن متابعة امرأته ، ويعتصم به من تأثير شيطانه ، كما قال تعالى فى سورة طه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾ (٤) (٥)

هذا ، وإن قيل : إننا نعلم أن إبليس طرد من الجنة عقب إبائه السجود ، فكيف وصل إلى آدم (عليه السلام) وزوجه فى الجنة حتى أغواهما ودلأهما بغرور ؟ وكيف كانت كيفية الإغواء ؟

فى الإجابة على هذا السؤال نقول : إنه لا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء الأبوين . ولكن اختلف فى كيفية ذلك ، كما اختلف فى كيفية وصوله إليهما ، لا سيما بعد أن طرد من الجنة . وفيما يلى نعرض بعض الأقوال فى هذا الموضوع :

١ - فى إغائه اللهفان من مصايد الشيطان ج ١ ص ١١٤ : (فدلأهما بغرور) خذلها وخلأها ، من تدلية الدلو ، وهو إرسالها فى البشر . وجاء فى تفسير المنار ج ٨ ص ٣٤٩ : (دلّ الشيء تدلية - أرسله إلى الأسفل رويداً رويداً ؛ لأنّ فى الصيغة معنى التدرج أو التكرير) . وقد تحدّث أبو هلال العسكري عن الفرق بين الخدع والغرور فقال : (الغرور إيهام بحمل الإنسان على فعل ما يضره مثل أن يرى السراب فيحسبه ماء فيضيقّ ماءه فيهلك عطشاً ، وتضييع الماء فعل أداه إليه غرور السراب إياه ، وكذلك غر إبليس آدم ففعل آدم الأكل الضار له . والخدع أن يستر عنه وجه الصواب فيوقعه فى مكروه ، يظهر له خلاف ما يظن ليضره . وقال على بن عيسى : الغرور إيهام حال السرور فيما الأمر بخلافه فى المعلوم ، وليس كل إيهام غروراً ؛ لأنه قد يوهّم خوفاً ليحذر منه فلا يكون قد غرّه . والاعتراض ترك الحزم فيما يمكن أن يتوقّف فيه فلا عذر فى ركوبه . ويقال فى الغرور : غرّه فضيّع ماله وأهلك نفسه . والغرور قد يسمّى خدعاً ، والخدع يسمّى غروراً على التوسع ، والأصل هو ما قلناه . وأصل الغرور الغفلة . والغرّ : الذى لم يجرب الأمور ، يرجع إلى هذا ، فكان الغرور يقع المغرور فيها هو غافل عنه من الضرر ، والخدع مرجع يستر عنه وجه الأمر) . الفروق فى اللغة ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٢ .

٣ - تفسير المراغى ج ٨ ص ١٣٠ .

٤ - من سورة طه : آية رقم ١١٥ .

٥ - تفسير المنار ج ٨ ص ٣٤٩ .

ذكر الألوسى عدة أقوال في كيفية توصيل إبليس إلى آدم (عليه السلام) وزوجه في الجنة ، فقال : (قيل : دخل الجنة ابتلاء لآدم وحواء ، وقيل : قام عند الباب فناداهما وأفسد حالهما ، وقيل : أرسل بعض أتباعه إليهما ، وقيل : بينما هما يتفرجان في الجنة إذ راعهما طاووس تجلّ لها على سور الجنة ، فدنت حواء منه وتبعها آدم ، فوسوس لهما من وراء الجدار ، وقيل : توصّل بحية تسوّرت الجنة ...)^(١) .

قال الشيخ عبد الوهاب النجار : (إنّ طرد إبليس من الجنة لا يجعل دخولها مستحيلاً عليه ، وأنه قد دخلها عاصياً أثماً ؛ لإغواء من حسده من أول يوم . على أنّ إبليس تصل وسوسته إلى النفس وإن كان بعيداً ، كما يصل تأثير السحر إلى الغائب والبعيد ، وكما يصل صوت البعيد بوساطة (التليفون واللاسلكي) ، فلا مانع من أن يصل تأثير وسوسته إلى آدم من خارج الجنة إلى داخلها . وإنّ أميل إلى أنه دخلها أثماً وعاصياً أمر ربه ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾^(٢) .

وقال القرطبي : (قالت طائفة : إنّ إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها ، وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التي أعطاه الله تعالى ، كما قال ﷺ : (إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)^(٤) والله أعلم)^(٥) .

وقال الأستاذ سيد قطب : (ووسوسة الشيطان لا ندرى نحن كيف تتم ؛ لأننا لا ندرى كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله ، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه . ولكننا نعلم بالخبر الصادق - وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أنّ إغواء على الشريعة في صورة من الصور ؛ وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات . وأنّ هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان . وأنّ هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر ؛ حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر ؛ وما يكون لكيدة الضعيف حينئذ من تأثير ...)^(٦) .

أما الذين ذهبوا إلى أنّ الجنة التي أسكنها آدم (عليه السلام) وزوجه هي جنة أخرى غير جنة المأوى التي في السماء ، فقد قرروا أنّ إبليس بعد أن طُرد من جنة المأوى وأبعد منها ،

١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٢٣٥ .

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٣ .

٣ - قصص الأنبياء ص ٨ .

٤ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

٥ - الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ بتصرف .

٦ - في ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٦٨ .

ليس له أن يدخلها مرة أخرى ، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز . ثم استظهروا من سياق الآيات القرآنية أن إبليس وصل إلى آدم (عليه السلام) وزوجه في الجنة التي أعدت لهما وخاطبهما مشافهة .

نقل ذلك الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ، فقال : (وقال تعالى : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم ﴾ ^(١)) والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزل . وأياً ما كان ، فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً في المكان الذي طُرد عنه وأبعد منه ، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز .

(قالوا : ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن الكريم أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له : ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ ^(٢) الآية ، ويقول : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلّاهما بغرور ﴾ ^(٣) الآية . وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما .

(وقد أجبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة ^(٤) على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها ، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء ^(٥) .

ولعل الراجح فيما سبق ذكره من أقوال هو ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن إبليس أغوى الأبوين مشافهة ؛ لأنّ في إخباره تعالى عن الشيطان الرجيم أنه قاسم آدم (عليه السلام) وزوجه بقيله لهما : ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ ^(٦) الآية ، الدليل الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه . وفي القسم أيضاً دليل آخر على مثوله بنفسه أمامهما ؛ لأنه لا يتصور في أداء القسم النيابة عن الغير . وهذا ظاهر في دخوله جنة المأوى واجتماعه معهما . ولعل ذلك كان على سبيل المرور في الجنة ، لا على سبيل التكريم والاستقرار بها ، أو لعله دخلها أثماً وعاصياً أمرربه . أو لعل الله تعالى أراد أن يبتليهما بهذا العدو ، لينظر مدى طاعتها وصبرهما وتمسكهما بالعهد ، وانعقاد قلوبهما على طاعة الله سبحانه وثبوتها على أمره عز وجل . وظاهر سياق الآية : ﴿ فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ ^(٧) يدل على أن الله تعالى يعلم أن إبليس

١ - من سورة الحجر : آية رقم ٣٤ .

٢ - من سورة طه : آية رقم ١٢٠ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٠ - ٢٢ .

٤ - المقصود جنة المأوى .

٥ - قصص الأنبياء ج ١ ص ١٧ .

٦ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢١ .

٧ - من سورة طه : آية رقم ١١٧ .

سيدخل الجنة عاصياً أمر ربه ليغويهما . ولو شاء الله تعالى ألا يدخل الشيطان عليهما في الجنة لصرفه عنهما ، ولكن شاء الله أن يبتليهما ، والله أعلم .

عتاب الله لآدم وتوبته (عليه السلام) وقبولها :

لما وسوس إبليس لآدم (عليه السلام) وزوجه ، وكلمهما بزخرف من القول غروراً ، وخدعهما ، نسيا أنه هو عدوهما الذي كان ينبغى عليهما أن يتخذاه عدواً . فاغترا بقوله وافتتنا بزخرف لفظه ، ووقعنا في حبال الفتنة ، وأكلا من الشجرة المحظورة ، فخرجنا عن أمر ربهما . وعندئذ تمت الخدعة وآت ثمرتها المرة ، ووصل اللعين إلى هدفه وتحقيق أمله . فانكشفت لها عوراتهما المستورة عنها قبل اقتراف الذنب . ولحيائهما الشديد وخجلهما ، جعلنا يجمعان بعض أوراق شجر الجنة ليعطيا به ما انكشف . حينئذ ناداهما الله عز وجل معاتباً إياهما على خطيئتهما : ألم أنهيكما عن الاقتراب من تلك الشجرة ، وأحذركما من كيد الشيطان ومكره وأقل لكم : إنه عدو مضل مبين ؟ وهنا أحس آدم (عليه السلام) وزوجه بما اقترفا من إثم في مخالفتها أمر الله تعالى ، فندما ندماً شديداً ، وتحسراً على ما فرطاً في جنب الله ، وتضرعاً إليه ، وطلباً منه الغفران ، فغفر الله لهما .

قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (١) .

﴿ فدلأهما بفرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما (٢) وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكم إن الشيطان لكما عدو مبين . قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٣) .

﴿ فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان (٤) عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى (٥) . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (٦) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٧ .

٢ - في القاموس المحيط ج١ ص ١٨ : (السواة : الفرج والفاحشة والحلة القبيحة) وعليه يكون المقصود من (سواتهما) في الآية فروجهما .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٢ - ٢٣ .

٤ - في القاموس المحيط ج٣ ص ١٣٤ : (خصف النعل يخصفها : خرزها ، والورق على بدنه : ألزقها وأطبقتها عليه ورقة) .

٥ - في القاموس المحيط ج٤ ص ٣٧٢ : (غوى يغوى غياً : ضل) .

٦ - من سورة طه : آية رقم ١٢١ - ١٢٢ .

يلاحظ في هذه الآيات الكريمة أن قوله تعالى : ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (٢) كقوله تعالى : ﴿ فأكلتا ﴾ (٣) منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (٤) الآية . يبدو أن معنهما واحد ، إلا أن الآية الأولى يتضح منها أن مجرد ذوقهما لثمر الشجرة كشف عن سواتهما ، على حين الآية الأخرى تجعل هذا الذوق أكلاً .

والمعنى : (فلما ذاقا الشجرة) ، (يقول : فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة ، يقول : طعمهما (بدت لهما سواتهما) يقول : انكشفت لهما سواتهما ؛ لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة ، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطأ ، والمعصية التي ركباً ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ يقول : أقبلأ وجعلأ يشدان عليهما من ورق الجنة ؛ ليواريا سواتهما كما (٥) : -

(حدثني المثنى قال : حدثنا إسحق قال : حدثنا عبد الله بن الزبير ، عن ابن عيينة قال : حدثنا عمرو قال : سمعت وهب بن منبه يقول : ﴿ ينزع عنها لباسهما ليريهما سواتهما ﴾ (٦) الآية ، قال : كان لباس آدم وحواء عليهما السلام نوراً على فروجهما ، لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا . فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سواتهما (٧) .

قال الحافظ ابن كثير : (وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهى التى حشته على أكلها ، والله أعلم .

(وعليه يُحمل الحديث الذى رواه البخارى : حدثنا بشر بن محمد حدثنا عبد الله ، أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه : (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها) (٨) (٩) .

- ١ - فى القاموس المحيط ج٣ ص ٢٣٤ : (ذاقه ذوقاً ووافقاً ومذاقاً ومذاقة : اختبر طعمه) .
- ٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٢ .
- ٣ - فى القاموس المحيط ج٣ ص ٣٢٩ : (أكله أكلاً ومأكلاً فهو أكل وأكيل من أكلة والأكلة المرة وبالضم اللقمة والقرصة والطعمة ، وأكله الشيء أطعمه إياه) .
- ٤ - من سورة طه : آية رقم ١٢١ .
- ٥ - تفسير الطبرى ج١٢ ص ٣٥١ - ٣٥٢ .
- ٦ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٧ .
- ٧ - تفسير الطبرى ج١٢ ص ٣٥٥ . وقال ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٢٠٦ ، قال : (رواه ابن جرير بسند صحيح إليه) .
- ٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج٦ ص ٣٦٣ .
- ٩ - قصص الأنبياء ج١ ص ٢١ .

(واختلف العلماء في معصية آدم بالأكل ، فقال قوم : إنه نهي عن شجرة بعينها فأكل من جنسها . وقال آخرون : تأول الكراهة في النهي دون التحريم) (١) .

والظاهر من سياق القرآن أنه (عليه السلام) أكل من الشجرة المحظورة ناسياً الوعيد الإلهي ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ﴾ (٢) ولم نجد له عزماً (٣) ﴿ (٤) .

قال الأستاذ المراغي : (وقد عاتبه الله على تركه التحفظ والحيلة والتدبر في عواقب الأمور فقال : ﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ (٥) الآية ، أى : وناداهما ربهما معاتباً لهما وموبخاً لهما ، وقال : ألم أنهكما عن أن تقربا هذه الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعتماه أخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء في العيش والتعب والنصب في الحياة . ونحو الآية في قوله في سورة طه : ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ (٦) (٧) .

(وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية على إغفال النصيحة .. أما كيف كان النداء وكيف سمعاه ؟ فهو كما خاطبهما أول مرة . وكما خاطب الملائكة . وكما خاطب إبليس . كلها غيب لا ندرى عنه إلا أنه وقع . وأن الله يفعل ما يشاء) (٨) .

لقد سمع آدم (عليه السلام) وزوجه عتاب الله عز وجل لهما ، فشعرا بخطئهما وأدركا ما وقعا فيه ، فرجعا إليه سبحانه تائبين منيبين ، معترفين عى أنفسهما بالذنب ، وسألاه تعالى المغفرة منه والرحمة .

﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٩) .

١ - زاد المسير في علم التفسير ج ١ ص ٦٨ .

(٢) و (٣) قال الأستاذ البهي الخولي في كتابه (آدم عليه السلام) ص ٨٣ إلى ١٨٤ : (إن النسيان المسند إلى آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة هو بمعنى أن قلبه صار إلى لحظة من الفتور عن عهد الله جل شأنه) . ثم قال : فإذا نظرنا في معنى العزم في قوله تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً) كان معناه : لم نجد له ضميراً منعقداً على الفعل ، أو كما يقول البيضاوي : لم نجد له تصميم رأى وثباتاً على الأمر .. ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور) .

٤ - من سورة طه : آية رقم ١١٥ .

٥ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٢ .

٦ - من سورة طه : آية رقم ١١٧ .

٧ - تفسير المراغي ج ٨ ص ١٢١ .

٨ - في ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٦٩ .

٩ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٣ .

(ومعنى قوله تعالى : (قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا) قال آدم وحواء لربهما : يا ربنا ، فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك ، وبطاعتنا عدونا وعدوك فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه ، من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها (وإن لم تغفر لنا) يقول : وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا ، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه (وترحمنا) بعطفك علينا ، وتركت أخذنا به (لنكونن من الخاسرين) يعنى : لنكونن من الهالكين ^(١) .

فتاب الله تعالى عليهما وغفر لهما ، لأنه سبحانه كثير القبول للتوبة وهو الرحيم بعباده .
قال تعالى : ﴿ فتلقى ^(٢) آدم من ربه كلمات فتاب ^(٣) عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ ^(٤) .

(واختلف أهل التأويل فى الكلمات ، فقال ابن عباس والحسن وسعيد ابن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ^(٥) . وعن مجاهد أيضاً : سبحانه اللهم لا إله إلا أنت ، ربى ظلمت نفسى ، فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوباً على ساق العرش (محمد رسول الله) فتشقق بذلك ، فهى الكلمات ^(٦) . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والاستغفار والحزن . قال ابن عطية : وهذا يقتضى أن آدم (عليه السلام) لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود . وعن ابن عباس ووهب بن منبه : أن الكلمات : (سبحانه اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسى ، فاغفر لى إنك خير الغافرين . سبحانه اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسى ، فاغفر لى إنك خير الغافرين . سبحانه اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسى ، فاغفر لى إنك أنت التواب الرحيم) . وقال محمد بن كعب : هى قوله : (لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسى ، فتاب على إنك أنت التواب الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسى فارحمنى) .

١ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

٢ و ٣ - فى تفسير القرطبى ج ١ ص ٣٢٣ قوله : (تلقى قيل معناه : فهم وقطن . وقيل : قبل وأخذ . وقيل : معنى نفى : تلقن . وهذا فى المعنى الصحيح ، ولكن لا يجوز أن يكون التلقى من التلقن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا مثل تلقن من تظن . . . وحكى مكى أنه ألهمها فانتفع بها) . وفى ص ٣٢٤ من هذا المرجع جاء : (قوله تعالى : (فتاب عليه) أى قبل توبته ، أو وفقه للتوبة) .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٧ .

٥ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٣ .

٦ - ورد فى قصص الأنبياء ج ١ ص ٢٩ حديث فى هذا المعنى ، رواه الحاكم والبيهقى وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال ابن كثير : (قال البيهقى : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف . والله أعلم) .

إنك أنت الغفور الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانه وبحمده عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أرحم الراحمين . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : الحمد لله ^(١) .

وقد حكى هذه الأقوال الطبرى وزاد عليها ، ولاحظ أنها وإن كانت مختلفة الألفاظ ، فإنها متفقة المعاني . ثم قال : (والذى يدل عليه كتاب الله ، أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، من الكلمات التى أخبر الله عنه أنه قالها متصلاً بقليلها إلى ربه ، معترفاً بذنبه ، وهو قوله : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ^(٢) . وليس ما قاله من خالف قولنا هذا - من الأقوال التى حكيناها - بمدفوع قوله ، ولكنه قول لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها ، فيجوز لنا إضافته إلى آدم وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه ^(٣) .

(وقوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ ^(٤) أى أنه يتوب على من تاب إليه وأتاب ، كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ الآية (٥) . وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ^(٦) . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب . وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده لا إله إلا هو التواب الرحيم ^(٧) .

(وإن قيل : لم قال : (فتاب عليه) ولم يقل : عليهما ، وحواء مشاركة له فى الذنب بإجماع ، وقد قال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ^(٨) . و ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ^(٩) . فالجواب : أن آدم (عليه السلام) لما خوطب فى أول القصة بقوله : (اسكن) خصه بالذكر فى التلقى ، فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضاً فلأن المرأة حرمة ومستورة ، فأراد الله الستر لها ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ^(١٠) . وأيضاً لما كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تذكر ، وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تعالى تاب عليهما ؛ إذ أمرهما سواء . قاله الحسن ^(١١) .

- | | |
|-------------------------------------|--|
| ١ - الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٣٢٤ . | ٧ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٨١ - ٨٢ . |
| ٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٣ . | ٨ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٥ . |
| ٣ - تفسير الطبرى ج١ ص ٥٤٦ . | ٩ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٣ . |
| ٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٧ . | ١٠ - من سورة طه : آية رقم ١٢١ . |
| ٥ - من سورة التوبة : آية رقم ١٠٤ . | ١١ - الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٣٢٥ . |
| ٦ - من سورة النساء : آية رقم ١١٠ . | |

وقال البيضاوى : (واكتفى بذكر آدم ؛ لأنَّ حواء كانت تبعاً له في الحكم . ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن)^(١) .

هذا ، ويلاحظ أنَّ قوله : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾^(٢) كقوله تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه^(٣) ربه فتاب عليه وهدى ﴾^(٤) .

وبعد ، فقد يقال : هل آدم (عليه السلام) من الأنبياء ؟ وإذا كان منهم فكيف عصى أمر الله ، والأنبياء معصومون عن المعصية ؟

والجواب : أنَّ آدم (عليه السلام) من الأنبياء . وهذا رأى جمهور العلماء . فقد ورد في الكتاب والسنة ما يدل على أنه نبي . إلا أنَّ الأدلة على نبوته في الكتاب لم تكن صريحة .

قال الشيخ عبد الوهاب النجار : (إنَّ القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء كإسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم (عليهم السلام) . ولكن ذكره أنه خاطبه بلا واسطة ، وشرع له في ذلك الخطاب ، فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً ، وهذا هو كل معاني النبوة ، فمن هذه الناحية نقول : إنه نبي وتطمئن أنفسنا بذلك)^(٥) .

ومن الأدلة على نبوته (عليه السلام) ما يلي :
قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٦) .
وظاهر من الآية أنَّ المراد الإصطفاء بالنبوة .

وقوله سبحانه : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾^(٧) . والظاهر أنَّ اجتباء الله له وتوبته عليه ، إنما هو اصطفاء الله إياه بالنبوة .

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ١ ص ٥٠ .

٢ - من سورة البقرة : آية ٣٧ .

٣ - جاء في مختار الصحاح ص ٩٢ : (واجتباه) أى اصطفاه . وقال الراغب في المفردات ص ٨٧ - ٨٨ : (واجتباء الله العبد : تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصّل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد ، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء) .

٤ - من سورة طه : آية رقم ١٢١ - ١٢٢ .

٥ - قصص الأنبياء ص ١٠ .

٦ - من سورة آل عمران : آية رقم ٣٣ .

٧ - من سورة طه : آية رقم ١٢٢ .

وقد ورد في السنة ما يدل صراحة على نبوته (عليه السلام) . من ذلك ما رواه الترمذي ، قال : حدثنا ابن أبي عمر ، أخبرنا سفيان عن بن جدهان عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، ويبدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يؤمّد ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تشق عنه الأرض ولا فخر)^(١) .

لهذه الأدلة وغيرها من الكتاب والسنة ، يرجح القول بأن آدم (عليه السلام) من الأنبياء .

أما مسألة كيف عصى ربه والأنبياء معصومون من المعصية ؟ فالجواب عن ذلك من وجوه :

أ - قيل : إنه (عليه السلام) إنما أكل من الشجرة ناسياً ، لقوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾^(٢) . وسمى ما أتاه ناسياً معصية ؛ لأن النبي يلزمه التنبيه والحذر عن مخالفة أمر الله ، فإذا نسى عُدَّ ذلك معصية في حقه ، وإن كان غير معصية إذا صدر من غيره ، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ب - قيل : إنَّ ما فعله آدم (عليه السلام) ليس معصية ، وإنما هو فعل خلاف الأولى ، إذ فهمَّ الأمر والنهى ليسا جازمين بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة ، ولعله فهمَّ ذلك الأمر والنهى للإرشاد فقط ، وما كان من هذا القبيل لا يجرم مخالفته .

ج - وقيل : إنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة المستلزمة للعصمة من المعصية ؛ لقوله تعالى ﴿ ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ﴾^(٣) . والاجتباء هو اصطفاء الله تعالى له بالنبوة ، فتكون المعصية وقعت منه (عليه السلام) قبل النبوة .

د - وقيل : إنَّ آدم (عليه السلام) لما نهى عن الأكل من الشجرة ، ظنَّ أنَّ المراد عين هذه الشجرة لا جنسها ، فأكل من شجرة أخرى من جنسها ولعل ذلك كان خطأ في اجتهاده ، ولم يُقرَّ عليه .

ومن العلماء الذين ذهبوا إلى بعض ما قررناه في هذه الوجوه ، القرطبي وابن العربي وصاحب تفسير المنار .

١ - سنن الترمذي ج ٥ ص ٢٤٧ ، وقال : (روى الحديث قصة ، وهذا حديث حسن) .

٢ - من سورة طه : آية رقم ١١٥ .

٣ - من سورة طه : آية رقم ١٢٢ .

فذهب ابن العربي إلى أن المخالفة وقعت من آدم (عليه السلام) بسبب النسيان ، حيث قال : (كم قيل في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمزلتهم مما ينسب الجهلة إليهم من وقوعهم في الذنوب عمداً منهم إليها ، واقتحاماً لها مع العلم بها ، وحاش لله ، فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك ، فكيف بالنبين ؟ ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم آدم إلى المخالفة ، فوقع فيها متعمداً ناسياً ، فقيل في تعمده : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾^(١) . وقيل في بيان عذره : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾^(٢) . ونظيره من التمثيلات : أن يحلف الرجل لا يدخل داراً أبداً ، فيدخلها متعمداً ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً في تأويله ، فهو عامد ناس . ومتعلق العمد غير متعلق النسيان . وجاز للمولى أن يقول في عبده : عصى ، تحقيراً وتعذيراً ، ويعود عليه بفضله فيقول : نسي ، تنزيهاً^(٣) .

وقال القرطبي : (واختلفوا كيف أكل منها - أى الشجرة - مع الوعيد المقترن بالقرب ، وهو قوله تعالى : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾؟^(٤) فقال قوم : أكلنا من غير التي أشير إليها ، فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها ، كأن إبليس غره بالأخذ بالظاهر . وقيل : أكلها نسياً ، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد . وهو الصحيح ؛ لإخبار الله تعالى في كتابه بذلك حتماً وجزماً ، فقال : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾^(٥) . ولكن لما كان الأنبياء (عليهم السلام) يلزمهم من التحفظ والتيقظ ، لكثرة معارفهم وعلومنازهم ، ما لا يلزم غيرهم ، كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعاً صار به عاصياً ، مخالفاً^(٦) .

واختار الأستاذ محمد رشيد رضا القول بأن المعصية وقعت من آدم (عليه السلام) قبل النبوة ، فقال : (وأما مسألة عصمة آدم ، فالجری على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من التشابه ، كسائر ما ورد في القصة مما لا يركن العقل إلى ظاهره . (ويجب تفويض أمره إلى الله تعالى)^(٧) . ولنا أن نقول : إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة ، كما قال جل شأنه : (فنسى ولم نجد له عزماً) الآية . والاتفاق إنما هو على

١- من سورة طه : آية رقم ١٢١ .

٢- من سورة طه : آية رقم ١١٥ .

٣- أحكام القرآن ، القسم الثالث ص ١٢٤٩ .

٤- من سورة البقرة : آية رقم ٣٥ .

٥- من سورة طه : آية رقم ١١٥ .

٦- الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ بتصرف .

٧- الزيادة من الأستاذ المراعى في تفسيره ج ١ ص ٩٤ .

العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة . وقد يكون الذى وقع من آدم نسياناً ، فسمى تفخياً
لأمره عصياناً ، والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة (١) .

ويبدو مما سبق ذكره : أن أرجح الأقوال فى هذا الصدد هو أن آدم (عليه السلام) أكل
من الشجرة ناسياً ؛ لإخبار الله تعالى بذلك فى القرآن الكريم حتماً وجزماً : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ
لَهُ عِزْماً ﴾ الآية . والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل ، كما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ
نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٢) الآية . فلا يجوز لنا أن نرميه (عليه السلام) بالعصيان فى كلام من قبل
أنفسنا ، مجرد عن قول الله تعالى عنه أو قول رسوله ﷺ ؛ لأن ما وقع منه (عليه السلام) لم
يكن إلا بسبب النسيان ، وقد عذره الله تعالى وتاب عليه وغفر له : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ
عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) .

خروج آدم وزوجه من الجنة وتحذيرهما من الشيطان الرجيم :

لما كان من آدم (عليه السلام) وزوجه ما كان من أكلهما من الشجرة التى نُهيا عنها ،
وما أعقب ذلك من الحسرة والندم ، تابا إلى الله تعالى ، فتاب عليهما وغفر لهما ، ثم أمرهما
بالمهبوط من الجنة إلى الأرض ، محل الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعى والنكد ،
والابتلاء والاختبار والامتحان . وأخبرهما بأنهما سيقيمان فى هذه الأرض هما وذريتهما ،
يعمرونها ويتمتعون فيها تمتعاً مؤقتاً إلى حين انتهاء آجالهم . وحذرهما من الشيطان الرجيم ،
وبين لهما أن العداوة بينهما وبين إبليس ستظل قائمة ؛ ليحذرا فتنته ولا يصغيا إلى إغوائه . ثم
أنبأهما بأنه سبحانه سيمدهم بالهدى والرشاد ، فمن تبع هدى الله تعالى ، وسلك الصراط
المستقيم الذى حدده ، فلا خوف عليه من كيد الشيطان ومكره وإغوائه ، وسيسعد فى حياته
ولا يشقى ، ويكون من الفائزين الأمنين يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ فَأَزَلُّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هَدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥) .

١ - تفسير المنار ج١ ص ٢٨٠ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٨٦ .

٣ - من سورة طه : آية رقم ١٢٢ .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٦ .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٣٨ .

﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها حيون وفيها تمتوتون ومنها تخرجون ﴾^(١) .

﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾^(٢) .

في هذه الآيات الكريمة ، يلاحظ أن الأمر الأول بالهبوط موجه إلى آدم (عليه السلام) وزوجه وإبليس ، وكذلك الأمر الثاني والثالث ، جاء كل منهما مطابقاً للأمر الأول لفظاً ومعنى ؛ ولعل ذلك للتوكيد . أما الأمر الرابع فهو موجه إلى آدم (عليه السلام) وزوجه من جهة ، وإبليس وجنوده من جهة أخرى .

ففى قوله تعالى : ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾^(٣) الآية ، (الخطاب لآدم (عليه السلام) وحواء وللشيطان . أى اهبطوا من هذه الجنة ، بعضكم : وعدو لبعض : وهو الإنسان . ويجب عليه هو الآخر أن يتخذ الشيطان عدواً ، بأن لا يغفل عن عداوته له ، ولا يأمن وسوسته وإغواءه ، كما قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾^(٤) . وقيل : إن الخطاب لهما بالذات ولذريتهما بالتبع ، وفيه خطاب المعلوم . قيل : هو خطاب لهما فقط ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾^(٥) الآية ، وفى هذه الشئنة قولان للمفسرين : أحدهما - أنها لآدم وحواء . والثاني - أنها لآدم وإبليس ، وحواء تبع لآدم ، وهذا أقوى ؛ لأنه جعل بعض المخاطبين عدواً لبعض ، وإنما العداوة بين الإنسان والشيطان ، ولا بين آدم وزوجه التى خلقت ليسكن إليها وتكون بينهما المودة والرحمة . ويحتمل أن تكون الشئنة للفريقين : فريقى الإنسان ، والشيطان . والمتبادر أن هذا الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية ، وتأويل لكونها ظليماً منها لأنفسهما)^(٦) .

هذا ، وقد استبعد العلامة القرطبي أن يكون إهباط آدم (عليه السلام) من الجنة عقوبة له ، فقال : (لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبِل توبته ، وإنما أهبطه إما تأديباً وإما تغليظاً للمحنة . والصحيح فى

١ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٤ - ٢٥ .

٢ - من سورة طه : آية رقم ١٢٣ - ١٢٤ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٤ .

٤ - من سورة فاطر : آية رقم ٦ .

٥ - من سورة طه : آية رقم ١٢٣ .

٦ - تفسير المنار ج ٨ ص ٣٥١ بتصرف .

إهباطه وسكنائه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك ، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخرى ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . والله أن يفعل ما يشاء . وقد قال : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ الآية (٤) وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة (١) .

ونجد الأستاذ البهي الخولي - أيضاً - يستبعد اعتبار خروج آدم (عليه السلام) من الجنة عقوبة على معصية . ثم ذهب في تفسير ذلك مذهباً آخر فقال : (إن خروج آدم من الجنة يشير إلى أنه قد صار إلى حال من التغير أو التطور لا يلائمها البقاء في الملأ الأعلى . . . فإن خروجه منها لا يمكن أبداً أن يكون عقوبة على معصية ، وجزاء على خطيئة . فإنه قد تاب إلى الله ، وتاب الله عليه ، ولا عقوبة مع توبة ولا ذنب مع مغفرة ، بل إن مقتضى التوبة والمغفرة أن يظل على ما كان فيه . . . ولكن كيف يظل فيه وقد نابه (٢) الموضع وفقد التجانس معه ، ولكل شيء سنته ، ولكل أفق نظام حياته ؟ .. فإلى الأرض - إذن - فهي المأوى الجديد والمقام العتيد ، بعد أن فقد تجانسه مع الجنة (٣) .

ونختم هذا المبحث بما لاحظته واستنتجته الأستاذ سيد قطب من ابتلاء آدم (عليه السلام) وما جرى في القصة من أحداث . ولعلها ملاحظة منه جدية بالتنبيه إليها والتسجيل . فهو يقول : (لقد قال الله تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ الآية ، وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

(لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً . كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه . كانت تدريباً له على تلقي الغواية وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين .

(إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحو من بعد الغفلة ، والندم وطلب المغفرة . . إنها هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة ! لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافة ، مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً ، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً . (٤) .

١ - الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٢١ .

٢ - في مختار الصحاح ص ٦٤٤ : (نبا الشيء عنه : تجافى وتباعد . ونبأ بفلان منزله : إذا لم يوافقته) .

٣ - آدم عليه السلام - فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ص ١٨٩ .

٤ - في ظلال القرآن ج ١ ص ٥٩ .

المبحث الثاني

ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بتكاليف خاصة

لقد ابتلى الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) بأنواع من الابتلاء ، وامتحنه بضروب من الامتحان فصبر ؛ وكان في إيمانه قوياً ثابتاً ، لم يتزعزع ولم يضطرب ، ولم يدخل إليه وهن أو ضعف . ولعل أشد هذه المحن عليه كان حين أمر بذبح ابنه ، ولكنه كان عبداً شكوراً ، طائعاً لله تعالى ، مدعناً لأوامر ربه ، ومن ثم جعله الله عز وجل أمةً بمفرده : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١) .

فلا غرو أن نرى الثناء العظيم من الله تعالى عليه . فهو أبُ الأنبياء (٢) ، ومن أولى العزم من الرسل ، ابتلى فصبر ، وانتصر فشكر ، فكان عبد الله الوفي ؛ ولذلك اختاره الله خليلاً . قال سبحانه : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (٣) .

وفي هذا المبحث سنقصر الحديث في ابتلائه (عليه السلام) على لونين :
(أ) الكلمات التي ابتلاه الله بها . (ب) وابتلاء الله له بذبح ابنه . وفيما يلي نتكلم أولاً عن ابتلائه (عليه السلام) بالتكاليف والأوامر والنواهي .

(أ) وفاء إبراهيم لله سبحانه وتعالى :

من الاختبارات التي تعرّض لها خليل الرحمن أن اختبره الله تعالى وابتلاه بتكاليف شرعية وأوامر ونواه ، فأتمها وقام بواجبها حق القيام . قال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريقى قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (٤) .

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بسياق الآيات التي قبلها والآيات التي بعدها . فقبلها

١ - من سورة النحل : الآيات رقم ١٢٠ - ١٢٢ .

٢ - في كتاب قصص الأنبياء ج ١ ص ١٩١ قال ابن كثير : (فكل نبي بعث بعد إبراهيم فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعل أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة الله عز وجل ودعوة الخلق إليه) .

٣ - من سورة النساء : آية رقم ١٢٥ .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ١٢٤ .

استقصى الله تعالى في شرح نعمه على بنى إسرائيل ، حيث بدأ ذلك بقوله : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ (١) .

ثم شرح تعالى أعمالهم فى أديانهم ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ، ومن مواعيقهم وعهودهم . وكان أكثر الشرح عن اليهود وأقله من النصارى مع إشارات إلى المشركين عند الصفات التى يشاركون فيها أهل الكتاب . وختم سبحانه هذا البيان بما بدأ به ، وهو قوله : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ (٢) .

ثم شرع سبحانه وتعالى فى بيان قصة إبراهيم (عليه السلام) وكيفية أحواله . والحكمة فيه ، أن خليل الرحمن (عليه السلام) يعترف بفضله أهل الكتاب والمشركون من العرب . فأهل الكتاب يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحق (عليهما السلام) ويعتزون بنسبتهم إليه . والمشركون من قریش يرجعون بأصولهم كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل (عليهما السلام) ويتشرفون بنسبتهم إليه ، وبأنهم من ساكنى الحرم ومن القائمين بعمارة المسجد الحرام .

قال الفخر الرازى : (فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم (عليه السلام) أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه ، وبيانه من وجوه :

(أولاً - أن الله تعالى لما أمره ببعض التكليف ، فلما وفى بها وخرج عن عهدها ، لا جرم أن نال النبوة والإمامة . وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل فى الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد ، والانقياد لحكم الله تعالى وتكليفه . وثانياً - أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة فى الدين لا يصل إلى الظالمين ، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل . ثالثاً - أن من المفسرين من فسر الكلمات التى ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمر يرجع حاصلها إلى تنظيف البدن ، وذلك مما يوجب على المشركين اختيار هذه الطريقة ؛ لأنهم كانوا معترفين بفضل إبراهيم (عليه السلام) ويوجب عليهم ترك ما كانوا عليه من التلطيخ بالدماء وترك النظافة (٣) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٤٧ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ١٢٢ - ١٢٣ .

٣ - التفسير الكبير ج٤ ص ٣٣ ، بتصرف .

وقال ابن العربي : (ابتلى : معناه اختبر ، ومعناه أمر ليعلم من الامثال أو التقصير مشاهدة ما علم غيباً ، وهو عالم الغيب والشهادة ، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه تعالى لا يختلف ، بل يتعلق بالكل تعلقاً واحداً . وقوله تعالى : (بكلمات) هى جمع كلمة ، يرجع تحقيقها إلى كلام البارئ سبحانه ، لكنه تعالى عبر بها عن الوظائف التى كلفها إبراهيم (عليه السلام) ، ولما كان تكليفها بالكلام سُميت به كما يسمّى عيسى (عليه السلام) كلمة ، لأنه صدر عن الكلمة وهى (كن)^(١) .

(يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله (عليه السلام) وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به فى التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ؛ ولهذا قال : ﴿ واذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ أى واذكريا محمد ، لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذى هو عليها مستقيم فانت والذين معك من المؤمنين :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾^(٢) . اذكر هؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين ، ابتلاء الله إبراهيم ، أى اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي (فأتهم) أى قام بهن كلهن كما قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾^(٣) أى وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه)^(٤) .

(وهو مقام عظيم ذلك المقام الذى بلغه إبراهيم . مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل . والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفى ولا يستقيم !)^(٥) .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم (عليه السلام) على أقوال ، حصرها ابن العربي فى قولين : (أحدهما - أنها شريعة الإسلام ، فأكملها إبراهيم (عليه السلام) والثانى - أنها الفطرة التى أوعز الله تعالى بها إليه ورتبها عليه)^(٦) .

١ - أحكام القرآن القسم الأول ص ٣٦ .

٢ - من سورة آل عمران : آية رقم ٦٧ - ٦٨ .

٣ - من سورة النجم : آية رقم ٣٧ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٦٤ .

٥ - فى ظلال القرآن ج ١ ص ١١٢ .

٦ - أحكام القرآن القسم الأول ص ٣٦ .

وذكر القرطبي سبعة أقوال في المراد بالكلمات^(١) وهي نفس الأقوال التي فصل الكلام فيها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، حيث قال : (وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم ، اختباراً بفرائض فرضها عليه ، وأوامر أمره بها - وذلك هو الكلمات التي أوحاهن إليه ، وكلفه العمل بهن ، امتحاناً منه له واختباراً . ثم اختلف أهل التأويل في صفة الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليله صلوات الله عليه . فقال بعضهم : هي شرائع الإسلام وهي ثلاثون سهماً - أي خصلة وشعبة .

(ذكر من قال ذلك : حدثنا عبد الله بن أحمد بن شويه قال : حدثنا علي بن الحسن قال : حدثنا خارجة بن مصعب عن دود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : الإسلام ثلاثون سهماً ، وما ابتلى بهذا الدين أحد فأقامه إلا إبراهيم ، قال الله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾^(٢) فكتب الله له براءة من النار^(٣) .

(وقال آخرون : هي خصال عشر من سنن الإسلام . ، ذكر من قال ذلك : حدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرازق قال : أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . في الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء^(٤) .

(وقال بعضهم : بل الكلمات التي ابتلى بهن عشر خلال ، بعضهم في تطهير الجسد ، وبعضهم في مناسك الحج . ذكر من قال ذلك : حدثني المثنى قال : حدثنا إسحق قال : حدثنا محمد بن حرب قال : حدثنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن حنش عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ قال : ستة في الإنسان ، وأربعة في المشاعر ، فالتى في الإنسان : حلق العانة والختان ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب والغسل يوم الجمعة . وأربعة في المشاعر : الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة^(٥) .

١ - الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص ٩٧ - ٩٨ .

٢ - من سورة النجم : آية رقم ٣٧ .

٣ - في تفسير الطبري ج٣ ص ٨ قال الأستاذ أحمد محمد شاكر في تخريج هذا الأثر : (وهذا الإسناد صحيح) .

٤ - تفسير الطبري ج٣ ص ٩ قال الأستاذ أحمد محمد شاكر في تخريج هذا الحديث : (وهذا الإسناد صحيح أيضاً) .

٥ - في المرجع السابق ص ١٠ قال الأستاذ أحمد محمد شاكر في تخريج هذا الخبر : (وهذا الخبر رواه أيضاً ابن أبي حاتم عن يونس عبد الأعلى عن ابن وهب عن ابن لهيعة بهذا الإسناد كما في ابن كثير ج١ ص ٣٠٢ ، وهو إسناد صحيح) .

(وقال آخرون : بل ذلك : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ في مناسك الحج . وقال آخرون : بل ذلك الخلال الست : الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان ، التي ابتلى بهن فصبر عليهن .

(قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه ، وأمره أن يعمل بهن فأتهمن ، كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل . وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل الكلمات ، وجائز أن تكون بعضه ، لأن إبراهيم صلوات الله عليه قد كان امتحن فيها بلغنا بكل ذلك ، فعمل به ، وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه . وإذا كان ذلك كذلك ، فغير جائز لأحد أن يقول : عني الله بالكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء ولا عني به كل ذلك ، إلا بحجة يجب التسليم لها : من خبر عن الرسول ﷺ أو إجماع من الحجة . ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول ﷺ بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته (١) .

فلما أكمل إبراهيم (عليه السلام) الكلمات التي ابتلاه الله تعالى بها وقام بها وفاء وقضاء خير قيام ، وأدى ما عليه من تكاليف على الوجه الأحسن والمطلوب ، طاعة لله تعالى وامثالاً لأوامره عز وجل ، كان جزاؤه من الله جل جلاله أن جعله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه :

﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ الآية (٢) .

(أى قال : إني جاعلك للناس رسولاً يؤتم بك ويقتدى بهديك إلى يوم القيامة . فدعا الناس إلى الخنيفة السمحة ، وهي الإيمان بالله وتوحيده والبراءة من الشرك . وما زال هذا جارياً في ذريته ، فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولأجل هذا وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم (٣) .

قال الفخر الرازي : (قال القاضي : هذا الابتلاء إما كان قبل النبوة ؛ لأن الله تعالى نبّه على أن قيامه ﷺ بهن كالسبب لأن يجعله الله إماماً ، والسبب مقدم على المسبب ، فوجب كون هذا الابتلاء متقدماً في الوجود على صيرورته إماماً ، وهذا أيضاً ملائم لقضايا العقول ؛ وذلك لأن الوفاء من شرائط النبوة لا يحصل إلا بالإعراض عن جميع ملاذ الدنيا وشهواتها ، وترك المداينة مع الخلق ، وتقبيح ما هم عليه من الأديان الباطلة والعقائد الفاسدة ، وتحمل الأذى

١ - تفسير الطبري ج ٢ من صفحة ٧ إلى صفحة ١٥ ، بصرف .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ١٢٤ .

٣ - تفسير المراغي ج ١ ص ٢٠٩ .

من جميع أصناف الخلق ، ولا شك أنَّ هذا المعنى من أعظم المشاق وأجل المتاعب ؛ ولهذا السبب يكون الرسول ﷺ أعظم أجراً من أمته ، وإذا كان كذلك فالله تعالى ابتلاه بالتكاليف الشاقة ، فلمَّا وفي ﷺ بها لا جرم أعطاه خلعة النبوة والرسالة . وقال آخرون : إنه بعد النبوة ؛ لأنه ﷺ لا يعلم كونه مكلفاً بتلك التكاليف إلا من الوحي فلا بد من تقدم الوحي على معرفته بكونه كذلك . أجاب القاضي عنه بأنه يحتمل أنه تعالى أوحى إليه على لسان جبريل (عليه السلام) بهذه التكاليف الشاقة فلمَّا تم ذلك جعله نبياً مبعوثاً إلى الخلق (١) .

وذهب صاحب تفسير المنار إلى أنَّ ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بالكلمات كان بعد النبوة ، فقال : (ذكر تعالى أنَّ إبراهيم أتم الكلمات وأنه تعالى قال له : (إني جاعلك للناس إماماً) . وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينة . ولم يقل : فقال إني جاعلك ؛ للإشعار بأنَّ هذه الإمامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فإنَّ الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تنال بكسب الكاسب . وليس في الكلام دليل على أنَّ الابتلاء كان قبل النبوة . وأما فائدة الابتلاء فهي تعريف إبراهيم (عليه السلام) بنفسه ، وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه (٢) .

وما سبق ذكره يبدو أنَّ ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بالكلمات كان وقت النبوة ؛ لأنه (عليه السلام) لا يعلم كونه مكلفاً بتلك التكاليف إلا من الوحي . وإذا أوحى الله تعالى إليه على لسان جبريل (عليه السلام) بشيء ، فهو نبي ؛ لأنَّ النبي هو إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع ، ولكنه لم يُكلف بالتبليغ . ولعل فيما نقله الرازي عن القاضي من إجابة على ما ذهب إليه الآخرون ، دليل على أنه (عليه السلام) كان نبياً وقت الابتلاء بالكلمات . فلمَّا أتمها ترقى في مرتبة أعلى من النبوة ، بأن جعله الله تعالى رسولاً إماماً للناس ، يأتمون به ويقتدى به الصالحون .

ولمَّا رفع الله تعالى منزلته وكرَّمه فأعلمه ما هو صانع به من تصديره إماماً للناس ، من في عصره ولمن جاء بعده ، يهتدى بهديه ، ويستن بسنته ويقتدى بأفعاله وأخلاقه قال : يارب فاجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم كالذي جعلتني به من الإمامة للناس :

﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ الآية (٣)

١- التفسير الكبير ج٤ ص٣٨ ، بتصرف .

٢- تفسير المنار ج١ ص٤٥٥ .

٣- من سورة البقرة : آية رقم ١٢٤ .

قال الحافظ ابن كثير : (لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم . والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ الآية ، ^(١) فكل نبي أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه) ^(٢) .

قال الطبري : (واختلف أهل التأويل في العهد الذي حرم الله جل ثناؤه الظالمين أن ينالوه . فقال بعضهم : ذلك العهد هو النبوة . بمعنى لا ينال النبوة أهل الظلم والشرك . وقال آخرون معنى العهد : عهد الإمامة ، فتأويل الآية على قولهم : لا أجعل من كان من ذريتك بأسرهم ظالماً ، إماماً لعبادي يقتدى به . وقال آخرون : معنى ذلك : أنه لا عهد عليك لظالم أن تطيعه في ظلمه . وقال آخرون : معنى العهد في هذا الموضع : الأمان . فتأويل الكلام على معنى قولهم ، قال الله : لا ينال أمان أعدائي وأهل الظلم لعبادي ، أى لا يؤمنهم من عذابي في الآخرة . وقال آخرون : بل العهد الذي ذكره الله تعالى في هذا الموضع : دين الله يقول : لا ينال دينه الظالمين ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ ^(٣) يقول : ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق . قال لا ينال عهدي عدولي يعصيني ، ولا أنحلها إلا ولياً لي يطيعني . وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر خبر ، عن أنه لا ينال من ولد إبراهيم (عليه السلام) عهد الله من كان منهم ظالماً متعدياً جائراً عن قصد سبيل الحق ، فهو إعلام من الله تعالى ذكره لإبراهيم : أن من ولده من يشرك بالله تعالى ويجور عن قصد السبيل ويظلم نفسه وعباد الله سبحانه وتعالى) ^(٤) .

(والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغي .. والإمامة المنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة : إمامة الرسالة وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة ، .. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة . فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها . ومن ظلم - أى لون من الظلم - فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها) ^(٥) .

١- من سورة العنكبوت : آية رقم ٢٧ .

٢- تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١٦٧ .

٣- من سورة الصافات : آية رقم ١١٣ .

٤- تفسير الطبري ج٣ من صفحة ٢٠ إلى صفحة ٢٤ .

٥- في ظلال القرآن ج١ ص ١١٢ .

(ب) ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل :

من نماذج الابتلاء بالطاعة ، والصبر على تكميل النفس وعلى طاعة الله تعالى فيما أمر ، مهما يكن وراء أمره سبحانه من مخاطر وتضحيات - من هذا اللون ، ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بذبح ابنه إسماعيل . فقد كان هو ولده البكر وابنه الوحيد في ذلك الوقت من الزمان . فلما شب إسماعيل (عليه السلام) وأطاق السعى والعمل ، رأى والده الخليل (عليه السلام) في المنام أنه يذبحه . و (رؤيا الأنبياء وحى)^(١) ففهم الإشارة وعرف المراد ، فعزم على تنفيذ أمر الله تعالى ، ولم يشنه عن عزمه أنه ابنه الذى لا ابن له سواه في ذلك الحين .

(فتنة إثر فتنة ، ومحنة تتلوها محنة : شيخ هرم ، جالِد الأيام ، وعرك الدهر ، وأحنته السنون ، قد كان طول حياته يأمل الولد ، حتى إذا بلغ من الكبر عتياً ، رزقه الله بغلام وحيد : قرت به عينه ، وأشرقت له نفسه ، ثم أمر بأن يسكنه بواد غير ذى زرع ، ويتركه وأمه في مكان قفر ، ليس به حسيس ولا أنيس . وامثل لأمر الله ، وتركهما هناك ثقة بالله ، وإيماناً به ، وإطاعة لأمره . فجعل الله لهما من ضيقهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان ، ثم يؤمر بذبح الولد العزيز ، الذى هو بكره ووحيده ! إن هذه المحنة تنوء بها الجبال الراسيات ، ولكن العظام كفؤها العطاء ، فعلى قدر إبراهيم ، وعلو منزلته ، وعلى مقدار ثبات يقينه ، وكمال إيمانه - يكون ابتلاؤه واختباره)^(٢) .

قال تعالى : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . ونادياه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحق ومن فريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾^(٣) .

فى هذه الآيات الكريمة أخبر الله تعالى عن إبراهيم الخليل أنه فارق قومه وهاجر من بينهم . ويبدو أن ذلك كان بعد ما غلبهم وانتصر عليهم ويش من إيمانهم . ولما هاجر من أرض قومه سأل الله العظيم أن يهبه أولاداً صالحين . فاستجاب له ربه وبشره بغلام حليم .

١- فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، حديث رواه البخارى بسنده عن عمرو قال أخبرنى كريب عن ابن عباس . وذكر الحديث . وفى نهايته قال : (قال عمرو : سمعت عبيد بن عمير يقول : رؤيا الأنبياء وحى) .

٢- قصص القرآن ص ٥٢ .

٣- من سورة الصافات : الآيات ٩٩ - ١١٣ .

(قال تعالى : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربِّي سيهدين ﴾ ^(١) أى وقال : إني مفارق لتلك الديار ، ومهاجر إلى مكان أنفرغ فيه لعبادة ربِّي ، وإنه سيهدينى إلى ما فيه صلاح ديني ، وهذا المكان هو الأرض المقدسة) ^(٢) .

قال الفخر الرازي : (دلَّت هذه الآية على أنَّ الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ؛ وذلك لأنَّ إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أنَّ الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لمَّا أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأنَّ يجب ذلك على الغير كان أولى) ^(٣) .

وقوله : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ ^(٤) يعنى أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقههم ، قال الله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ ^(٥) ^(٦) وهذا الغلام هو إسماعيل (عليه السلام) فإنه أول ولد بُشِّرَ به إبراهيم (عليه السلام) وهو أكبر من إسحق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل في نص كتابهم أنَّ إسماعيل (عليه السلام) وُلِدَ لإبراهيم (عليه السلام) ست وثمانون سنة ، وَوُلِدَ إسحق وعمر إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) تسع وتسعون سنة) ^(٧) .

ولمَّا نشأ إسماعيل (عليه السلام) وترعرع ، واشتد ساعده ، وصلب عوده ونضر شبابه ، وأصبح في سن يستطيع معها أن يسعى ويعمل ، رأى أبوه إبراهيم (عليه السلام) في المنام أنَّ الله عز وجل يأمره بذبحه . فاستجاب الخليل (عليه السلام) لربه ، وامثل لأمره ، وسارع إلى طاعته ، فعرض الأمر على ولده عرضاً في غاية من الإيجاز والسهولة ، ولكن يتضمن أمراً في غاية الخطر ، وهو بذل الحياة والروح طاعة لله جل جلاله . لقد طلب من الفتى تقديم عنقه للسكين ، فلم يتردد ولم يضطرب ، بل لميَّ طائعاً مستسلماً لحكم الله تعالى ، وحسم الموقف بجملتين خلدتاه في سجل الأنبياء الصابرين ، وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين .

١- من سورة الصافات : آية رقم ٩٩ .

٢- تفسير المراغي ج٣ ص ٧١ .

٣- التفسير الكبير ج٢٦ ص ١٥٠ .

٤- من سورة الصافات : آية رقم ١٠٠ .

٥- قال الراغب الأصفهاني في المفردات ط . دار المعرفة ص ١٢٩ : (الحلم : ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب ، وجمعه أحلام . قال الله تعالى في سورة الطور / ٣٢ :

﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ قيل : معنى أحلامهم هنا عقولهم . وليس الحلم في الحقيقة هو العقل ، لكن فسروه بذلك ، لكونه من مسببات العقل . وقوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أى وجدت فيه قوة الحلم .

٦- من سورة الصافات : آية رقم ١٠١ .

٧- تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ١٤ .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتُ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

قال الحافظ ابن كثير : (وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴾ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴿ أى امضى لما أمرك الله من ذبحي . ﴾ سجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴿ أى سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل . وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾ (٢) ﴿ (٣) .

قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ من الرأى ؛ وإنما شاوره في ذلك وهو حتم ؛ ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل ، فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم ، وليوطن نفسه عليه فيهبون عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله ، وليكون سنة في المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم (عليه السلام) الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك ﴿ (٤) .

وفي قوله : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر سجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ (٥) الآية ، فيها توفير وبر عظيم بوالده ، وتوفيق من الله كبير ، وإيمان وثيق ، ونفس راضية بما قضى الله وقدر . وهنا تبدو عظمة التضحية والطاعة والاستسلام لله والرضا واليقين . إنها العبودية لله تعالى على أكمل صورها من الأب والابن . الأب يصمم على تنفيذ أمر ربه ، والابن يبادر بالطاعة ، ويكون عوناً على أمر الله ، ويحض والده على تنفيذ الأمر بقوله : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ ولم يقل : ﴿ افعل بى ما تؤمر ﴾ تضحية بنفسه ونسياناً لذاته ، كأن الأمر لا علاقة له برقبته وإنهاء حياته . ويظهر من قوله : ﴿ سجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ أنه لا يدعى بطولة ولا شجاعة ، ولا يتناول بقدرته على التحمل ، بل يكل الأمر إلى الله تعالى ، ويستند في صبره إلى إذنه ومشيتته ؛ لأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

هكذا استسلم لقضاء الله عز وجل ، هذا في قررة عينه وهذا في نفسه . أسلم الوالد ولده وأسلم الولد عنقه ، وصرعه أبوه للجبين . وتباً للذبح بالسكين . وهنا كان الابتلاء قد وصل

١ - من سورة الصافات : آية رقم ١٢٢ .

٢ - من سورة مريم : آية رقم ٥٤ - ٥٥ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ١٥ .

٤ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج٢٣ ص ١٢٩ .

٥ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٢ .

غايته ، وحقق ثمرته . لقد نجح الخليل وابنه إسماعيل (عليهما السلام) في الامتحان ، ونفذ ما أمر الله تعالى به دون تردد أو ارتياب . عندئذ جاء النداء الإلهي : يا إبراهيم ، كف عن ذبح ابنك ، فقد حصل المقصود من اختبارك ، وقمت بالواجب ولم تخالف أمر ربك ، فهذا هو الاختبار العظيم الظاهر للبين الذي امتحنا به إيمانك ، فكنت من الفائزين ، فخذ هذا الكبش واذبحه فداء لابنك .

قال تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾^(١) . ونادينه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المين . وفديناه بذبح عظيم ﴿^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾^(٣) يصورُ مرحلة تنفيذ الأمر . قال الأستاذ سيد قطب : (وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حققا الأمر والتكليف . ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل ويسيل دمه وتزهق روحه . . وهذا أمر لا يعنى شيئاً في ميزان الله ، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .

(كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدني . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح)^(٤) .

(وعرف الله تعالى من إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) صدقهما ، فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا . فنادى خليله : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾^(٥) أى ناداه من خلفه ملك من قِبَلِ تعالى : أن قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح . فقد بان امتثالك للأمر ، وصبرك على القضاء : وحيثُ استبشرا وشكرا الله على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله ، والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله ، مع إظهار فضلها ، واحراز المثوبة من ربها . ثم علل رفعه لذلك البلاء وإزالته لتلك الغمة بقوله : ﴿ إنا كذلك نجزي

١ - في مختار الصحاح ص ٣١١ : (أسلم أمره إلى الله ، أى سلم . وأسلم دخل في (السَّلم) بفتحين وهو الاستسلام . وأسلم من الإسلام) .

قال الراغب في المفردات ط . دار المعرفة ص ٧٥ : (تل : أصل التل المكان المرتفع ، والتليل العتيق (وتله الجين) أسقطه على التل ، وقيل : أسقطه على تليله) . وفي مختار الصحاح ص ٧٨ : (التل) واحد (التلال) و (التليل) العتيق . و (تله) للجبين : صرعه ، كما تقول كُبه لوجهه) وفي المفردات ص ٨٧ قال الراغب : (الجبينان : جانباً الجبهة) .

٢ - من سورة الصافات : الآيات رقم ١٠٣ - ١٠٧ .

٣ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٣ .

٤ - في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٩٩٦ .

٥ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٤ - ١٠٥ .

المحسنين ﴿١﴾ أى إنا كما عفونا عن ذبحه لولده بعد استبانة إخلاصه في عمله ، حين أعد العدة ، ولم تتغلب عليه عاطفة البنوة ، فرضى بتنفيذ القضاء - نجزي كل محسن على طاعته ، ونوفيه من الجزاء ما هو له أهل ، وبمثله جدير ﴿٢﴾ .

وقال الحافظ ابن كثير : (إن الله تعالى شرع لإبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إن هذا هو البلاء المبين ﴾ ﴿٣﴾ أى الاختبار الواضح الجلى ، حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ .

(وقوله تعالى : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ ﴿٦﴾ (٧) أى وفديناه بوعلى أهبط عليه من جبل ثبير ، قاله الحسن البصرى . ولا علينا أن نزيد على ما جاء به الكتاب ، ومكان نزوله لا يهم فى بيان هذه المنة التى امتن بها عليه . وقوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ ﴿٨﴾ أى وأبقينا له ذكراً حسناً بين الناس فى الدنيا فصار محبباً بين الناس جميعاً من كل ملة ومذهب ﴿٩﴾ . هذا ، وقد بين الفخر الرازى الحكمة فى ورود تكليف الخليل (عليه السلام) بذبح ابنه فى النوم ، لا فى اليقظة فقال : (وبيانه من وجوه :

(الأول - أن هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبح ، فورد أولاً فى النوم ؛ حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً .

(الثانى - أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء (عليهم السلام) حقاً . قال الله تعالى فى حق محمد ﷺ : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ﴾ ﴿١٠﴾ الآية ، وقال عن يوسف (عليه السلام) : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى

١ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٥ .

٢ - تفسير المراعى ج٢٣ ص ٧٤ - ٧٥ .

٣ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٦ .

٤ - من سورة النجم : آية رقم ٣٧ .

٥ - تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ١٦ .

٦ - قال الراغب فى المفردات ص ١٧٧ : (ذبح : أصل الذبح شق حلق الحيوان ، والذبح : المذبح) .

٧ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٧ .

٨ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٨ .

٩ - تفسير المراعى ج٢٣ ص ٧٥ .

١٠ - من سورة الفتح : آية رقم ٢٧ .

ساجدين ﴿١﴾ الآية ، وقال في حق إبراهيم (عليه السلام) : ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ (٢) الآية . والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ؛ لأنَّ الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال ، والله أعلم (٣) .

من هو الذبيح ؟

يدعى أهل الكتاب أنَّ الذبيح هو إسحق بن إبراهيم (عليهما السلام) . ولكن الرأي الصحيح المعتمد عند المسلمين ، والذي عليه أكثر العلماء ، هو أنَّ الولد الذي أمر بذبحه الخليل هو إسماعيل (عليهما السلام) ؛ وذلك لعدة أوجه :

أحدهما : أنه يبدو واضحاً من سياق الآيات القرآنية الخاصة بهذه الحادثة أنَّ الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام) : وبين ذلك هو أنَّ إبراهيم (عليه السلام) سأل ربه الولد : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ (٤) فأجاب الله دعاءه وبشره بغلام حلیم ، فلما بلغ - هذا الغلام - معه السعى أمره المولى عز وجل بذبحه . وهذا الولد الحلیم ، المبره به ، هو بكره ووحيد ، وهو إسماعيل (عليه السلام) باتفاق الملل الثلاث . فالجمع بين كونه مأموراً بذبح بكره وتعيينه بإسحق ، جمع بين النقيضين .

وبعد أن أمره بذبحه ، استمر سياق الآيات حيث ذكر الله تعالى قصة الذبيح ، ثم بشر إبراهيم (عليه السلام) بولد آخر هو إسحق (عليه السلام) . وهذا صريح في أنَّ إسحق (عليه السلام) غير الغلام الحلیم الذي ابتلى إبراهيم الخليل بذبحه .

قال الله تعالى بعد قصة الذبيح : ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ (٥) .

قال الشيخ عبد الوهاب النجار : (ولا شك أنَّ الضمير في (عليه) راجع إلى الذبيح . فالإتيان بالبشرى بإسحق بعد ذكر القصة صريح في أنَّ إسحق (عليه السلام) غير الغلام الذي ابتلى الله إبراهيم بذبحه . وعود الضمير إلى الغلام الذبيح ، وذكر اسم إسحق معه صريحاً يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحق) (٦) .

١ - من سورة يوسف : آية رقم ٤ .

٢ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٢ .

٣ - التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٥٦ .

٤ - من سورة الصافات : آية رقم ١٠٠ .

٥ - من سورة الصافات : الآية رقم ١١٢ - ١١٣ .

٦ - قصص الأنبياء ص ١٠٢ .

الثاني : قال الحافظ ابن كثير : (ومن ادعى أنَّ الذبيح إسحق فقد اعتمد على روايات إسرائيلية . وكتّابهم فيه تحريف ، ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه ، فإنَّ عندهم أنَّ الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً . وفي نسخة من المعربة : بكره إسحق . فلفظة إسحق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر ، وإنما ذلك إسماعيل .

(وإنما حملهم على هذا حسد العرب . فإنَّ إسماعيل أبُ العرب الذين يسكنون الحجاز ، الذين منهم رسول الله ﷺ ؛ وإسحق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه ، وهم قوم بهت ولم يقرأوا بأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

(وقد قال بأنه إسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار ، أو من صحف أهل الكتاب . وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يُفهم هذا من القرآن الكريم ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل)^(١) .

الثالث : أنَّ الله تعالى بشر إبراهيم الخليل وامرأته سارة بإسحق (عليه السلام) . وفي حياة والديه يولد له هو الآخر ابن اسمه يعقوب (عليه السلام) . قال تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾^(٢) . وقال سبحانه : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فضكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾^(٣) . فجاءت البشارة لهما بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، فلا يجوز عقلاً أن يؤمر إبراهيم (عليه السلام) بذبح إسحق وهو صغير ، وقد بشر أبواه بولد يولد له . ثم إنه يلاحظ أن إسماعيل وصف بالخليل ، وإسحق وصف بالغلام العليم . ومن وصف بالحللم منهما (عليه السلام) فهو المناسب لمقام مسألة الذبح .

قال الأستاذ المراغي : (وأتى حلم مثل حلمه ؟ عرض عليه أبوه وهو مراهق أن يذبحه ، فقال : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾^(٤) الآية . فما

١- ففصل الأنبياء ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

٢- من سورة هود : آية رقم ٧١ .

٣- من سورة الذاريات : الآيات رقم ٢٨ - ٣٠ .

٤- من سورة الصافات : آية رقم ١٠٢ .

ظنك به بعد بلوغه ؟ وما نَعَتَ الله تعالى نبياً - في القرآن الكريم - (٣) بالحلم غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام (٤) .

وهذا الحلم والصبر دخل إسماعيل (عليه السلام) ديوان الصابرين وسجل الله تعالى كل ذلك في القرآن الحكيم : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ (١) .

الرابع : روى البخارى بسنده عن سعيد بن جبير : (قال ابن عباس : (أول ما اتخذ النساء المنطق من قِبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيّعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم عليه السلام ...) (٢) الحديث .

وعلى هذا يفهم أن الله تعالى أمر إبراهيم الخليل أن ينقل أم إسماعيل بابنها إلى مكة المكرمة ، بعيداً عن سارة التى تُعْتَبَرُ ضرة لها ؛ دفعاً لأذى الغيرة عنها . وليس من الجائز عقلاً أن يذهب إبراهيم (عليه السلام) بابن سارة ليزبحه بموضع أم إسماعيل في بلدها ويدع إسماعيل (عليه السلام)

١ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٨٥ - ٨٦ .

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٦ ص ٣٩٦ .

٣ - في القرآن الكريم نعت شعيب (عليه السلام) أيضاً بالحلم : ﴿ إنك لأنت الحلم الرشيد ﴾ الآية ٨٧ من سورة هود وكذلك (نبينا محمد ﷺ) كان أوفر الناس حِلماً وعقلاً كما قال القرطبي في تفسيره ج١ ص ٣٠٧ .

٤ - تفسير المراغى ج- ٢٣ ص ٧٢ .

المبحث الثالث

ابتلاء بنى إسرائيل

بعد ما جاوز بنو إسرائيل البحر ، ونجاهم الله تعالى من فرعون وقومه ، أورثهم سبحانه أرض الشام . وبذلك أصبحوا في نعيم ، بعيدين من الذل والاستعباد الذى كان واقعاً بهم في مصر . ولكى يصوغ الله عز وجل منهم أمة ذات رسالة وذات تكاليف ، وليجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، ابتلاهم بأنواع من الأوامر والنواهي ، كما اختبرهم بألوان من النعم . ولعل ذلك كان لإظهار مدى طاعتهم لله تعالى وإخلاصهم له في العبادة ، وشكرهم لنعمه سبحانه ، وليرى مدى أهليتهم لاستحقاق الخلافة في الأرض ، ومدى استعدادهم لتحمل مسؤولية قيادة البشرية وفق هدى الله وشرعه .

(ولكن الاستعباد الطويل ، والذل الطويل في ظل الفرعونية الوثنية ، كان قد أفسد طبيعة القوم ، وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف والصبر عليها ، والوفاء بالعهد والثبات عليه ؛ وترك في كيانهم النفسى خلخلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح . . فما يكاد موسى يتركهم في رعاية هرون ويبعد عنهم قليلاً ، حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار . ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسى) ^(١) .

وفي هذا المبحث سنتناول بالشرح ابتلاء بنى إسرائيل بالأوامر والنواهي . وسوف نبين ذلك بصورة منه ، نبرزها في أربعة معارض كما يلي :

- أ - فتنة قوم موسى بالعجل وتوبتهم من عبادته .
- ب - قصة بقرة بنى إسرائيل .
- ج - ابتلاء بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة .
- د - قصة أصحاب السبت .

فتنة قوم موسى بالعجل وتوبتهم من عبادته :

إن المستعرض لتاريخ بنى إسرائيل ، والمتدبر آيات القرآن الحكيم ، يقف على الأحوال التى لقيها موسى (عليه السلام) من قومه في سبيل دعوتهم إلى عبادة الله وحده ، كما يقف على المعجزات التى أيده الله تعالى بها ، ويستيقن أنها كانت كافية لأن تنزع منهم كافة روااسب

الوثنية . ولكن برغم هذا كله فقد كانت آثار الوثنية متأصلة في قلوب بني إسرائيل ، بسبب ملازمتهم الطويلة لقوم فرعون في مصر ، الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان . فمن مظاهر ذلك : أن القوم لما جاوزوا البحر ومروا على قوم آخرين يعبدون أصناماً لهم ، طلب جهلة بني إسرائيل من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنماً يعبدونه مثل هؤلاء القوم أصحاب الأصنام . فتعجب (عليه السلام) من جهلهم بعظمة الله تعالى ، وما يجب أن ينتزه عنه من الشريك والمثيل . تعجب كيف يطلبون معبوداً سوى الله جل جلاله الذي خلقهم وخصهم بإكرامه وفضلهم على كثير من الأمم التي كانت معاصرة لهم . ثم أكد لهم أن هؤلاء القوم العاكفين على أصنامهم ، هم في ضلال ، وليس لهم في الآخرة إلا النار وسيحبط الله أعمالهم .

قال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾^(١) .

ولعل السامري استغل هذه الظاهرة الوثنية ، وتلك الضلالة العمياء ، وصنع لهم في غيبة موسى (عليه السلام) عجلاً جسداً من الذهب له خوار . فأقبل عليه جهلة القوم وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب لملاقاته وقد نسيه هنا ! لقد نسوا الله رب العالمين ، وعكفوا على الوثن معظمين مع أنه لا يكلمهم ولا يضرهم ولا ينفعهم . آنذاك تصدى لهم

هرون (عليه السلام) وحاول إنقاذهم من الهاوية والضلال الميين إلى نور الإيمان . ثم نبههم إلى أن هذا ابتلاء وفتنة ، وأن الله سبحانه وتعالى هو وحده ربهم الذي خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وقد نصح لهم (عليه السلام) - وهو نبههم - باتباعه والالتزام بطاعته . ولكنهم خالفوا أمره ، وتملصوا من نصحه وأصرروا على عبادة الصنم حتى يرجع إليهم موسى (عليه السلام) .

قال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا

أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفصيت أمرى . قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولي . قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يصبروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقته ثم لتنسفته فى اليم نسفاً . إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً ﴿١﴾ .

بيّنت هذه الآيات الكريمة قصة اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه فى غيبة موسى (عليه السلام) ، حيث واعده الله تعالى تمام أربعين ليلة . فذهب (عليه السلام) لميقات ربه واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هرون (عليه السلام) وكان موسى على رأس سبعين نقيباً ذهبوا معه للميقات إلى جانب الطور .

قال تعالى ﴿٢﴾ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴿٣﴾ .

(والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتهم بكتاب من عند الله ، فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل ، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ؛ فعذّوا - فيما ذكر المفسرون - عشرين يوماً وعشرين ليلة ، وقالوا : قد أخلفنا مواعده . فاتخذوا العجل) ﴿٣﴾ .

ولما قارب موسى (عليه السلام) الميقات تعجّل من بين النقباء شوقاً لربه ، فقل له : ﴿٤﴾ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴿٤﴾ أى ما الذى حملك على العجلة حتى تركت النقباء وخرجت من بينهم مع أنك مأمور باستعجالهم وإحضارهم معك .

قال أبو السعود عند تفسير هذه الآية : ﴿ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة . أى قلنا له : أى شئ أعجلك منفرداً عن قومك ؟ وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لإنكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من تخايل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه

١ - من سورة طه : الآيات رقم ٨٣ إلى ٩٨ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٥١ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٩٥ .

٤ - من سورة طه : آية رقم ٨٣ .

مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه لا لإنكاره نفس العجلة الصادرة عنه عليه السلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ؛ ولذلك أجاب عليه السلام ينفي الانفراد المنافي للاستصحاب والمعية حيث : ﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ ^(١) الآية ، يعنى : أنهم معى ، وإنما سبقتهم بخطى يسيرة ظننت أنها لا تحل بالمعية ولا تقدر فى الاستصحاب فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلاً ^(٢) .

(وقوله : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ ^(٣) الآية ، أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنه . يقال : رجل عَجِلَّ وَعَجُلَّ وَعَجُولٌ وَعَجَلان : بين العجلة ، والعجلة خلاف البطء ^(٤)) .

هنالك أخبر الله عز وجل رسوله موسى (عليه السلام) بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل وعبادتهم العجل الذى عمله لهم السامرى : ﴿ قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك ﴾ الآية ^(٥) .

قال الشوكانى : (كأنه قيل : فماذا قال الله له ؟ فقيل : قال : إنا قد فتننا قومك من بعدك : أى ابتليناهم واختبرناهم والقيناهم فى فتنة ومحنة . قال ابن الأنبارى : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقتك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هرون ^(٦)) .

قال البيضاوى : (وكانوا ستمائة ألف ، وما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً ﴾ وأضلهم السامرى ﴾ الآية ^(٧) باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته ، وقرىء (وأضلهم) أى أشدهم ضلالة ؛ لأنه كان ضالاً مضلاً . والسامرى منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة ، وقيل : كان علجاً من كرمان ، وقيل : من أهل باجرما ، واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقاً ^(٨)) .

وبهذا الخبر علم موسى (عليه السلام) ابتلاء القوم بالعجل ، فرجع إلى بنى إسرائيل شديد الغضب ، حزيناً لما صار إليه حال بعضهم من الكفر والضلال .

قال الحافظ ابن كثير : (وقوله : ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ ^(٩) الآية ،

١ - ٣ - من سورة طه . آية رقم ٨٤ .

٢ - تفسير أبى السعود ج٣ ص ٦٥٥ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص ٢٣٣ .

٥ - ٧ - من سورة طه : آية رقم ٨٥ .

٦ - فتح القدير ج٣ ص ٣٨٠ .

٨ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٢ ص ٥٧ .

٩ - من سورة طه : آية رقم ٨٦ .

أى بعدما أخبره الله تعالى بذلك - الابتلاء - فى غاية الغضب والحق عليهم ، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التى فيها شريعتهم وفيها شرف لهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ؛ ولهذا قال رجع إليهم غضبان أسفاً ، والأسف شدة الغضب (١) .

(هذه هى الفتنة ، بكشف السياق عنها فى مواجهة موسى بقومه ، وقد أخرج كشفها عن موقف المناجاة ، واحتفظ بتفصيلاتها لتظهر فى مشهد التحقيق الذى يقوم به موسى . . لقد رجع (عليه السلام) ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار ، يقولون : هذا إلهكم وإله موسى ، وقد نسى موسى فذهب يطلب ربه على الجبل وربّه هنا حاضر !) (٢) .
لقد راح (عليه السلام) يسألهم فى حزن وغضب : ﴿ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ (٣) الآية .

قال القرطبي : (وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أنه يسلمهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : وعده قوله : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن ﴾ (٤) الآية . (أفتال عليكم العهد) الآية ، أى أفنسيتم ؛ كما قيل : والشئ قد ينسى لطول العهد . ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ الآية ، (يحل) أى يجب وينزل . والغضب : العقوبة والنقمة . والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأنّ أحداً لا يطلب غضب الله ، بل قد يرتكب ما يكون سبباً للغضب . ﴿ فأخلفتم موعدى ﴾ الآية ؛ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور . وقيل : وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا) (٥) .

هكذا أنبهم موسى (عليه السلام) وقرعهم ووبخهم ، ولم يقرهم على المنكر ، بل استنكر بشدة ما هم فيه من الكفر والضلال والشرك . آنذاك تاب القوم إلى أنفسهم ، وأدركوا خطأهم ، وندموا على ما وقع منهم من مخالفات ثم طفقوا يعتذرون : (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) (٦) الآية .

١ - تفسير الف - العظيم ج٣ ص ١٦١ - ١٦٢ .

٢ - فى ظلال القرآن ج١٦ ص ٢٣٤٧ .

٣ - من سورة طه : آية رقم ٨٢ .

٤ - من سورة طه : آية رقم ٨٦ .

٥ - الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص ٢٣٤ .

٦ - من سورة طه : آية رقم ٨٧ .

قال الأستاذ المراغى : (أى قالوا : ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك ؛ إلا لأننا لم نملك أمرنا ، فلو خُلينا وأنفسنا ، ولم يسؤل لنا السامرى ما سؤلّه ، لما أخلفناه . وفى هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ . وأنهم لم يطبقوا حمل أنفسهم على الصواب . ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة) (١) .

﴿ ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ (٢١) الآية ، حملنا أحمالاً من حلى القبط التى استعرتها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل : استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عن الخروج مخافة أن يعلموا به ، قيل : هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه . ولعلمهم سموها أوزاراً لأنها آثام ، فإن الغنائم لم تكن تحل بعد ، أو لأنهم كانوا مستأمنين ، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربى (فقدناها) أى فى النار (فكذلك ألقى السامرى) أى ما كان معه منها . روى أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت ، قال لهم السامرى : إنما أخلف موسى ميعادكم لما معكم من حلى القوم ، وهو حرام عليكم فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر بها ناراً ، ونقذف كل ما معنا فيها ، ففعلوا (٣) .

لقد طُرح كل ما حمله بنو إسرائيل من زينة القوم فى النار ، وأسرع السامرى فرمى ما معه من حلى على حليهم فى اللهب ، ثم صاغ لهم تمثالاً فى صورة عجل ، له تجويف بحيث إذا تعرض للريح افعل صوتاً كخوار البقر ، ففتن القوم به وضلوا ضلالاً مبيناً .

قال الشوكانى : (وصاغ لهم من الحلى عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول ، وهو جبريل ، فصار ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ (٤) الآية ، أى يخور كما يخور الحى من العجول ، والخوار صوت البقر ، وقيل : خواره كان بالريح ؛ لأنه كان عمل فيه خروفاً ، فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ، ولم يكن فيه حياة ، ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ﴾ (٥) الآية ، أى قال السامرى ومن وافقه هذه المقالة ﴿ فنسى ﴾ (٦) أى فضل موسى (عليه السلام) ولم يعلم مكان إلهه هذا وذهب يطلبه فى الطور ، وقيل : المعنى فنسى موسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم ، وقيل : الناسى هو السامرى ، أى ترك السامرى ما أمر به موسى من الإيمان وضل (٧) .

ما أجهل هؤلاء القوم وما أضل عقولهم ! أفلا يرون أن هذا الصنم - الذى صنعه

١ - تفسير المراغى ج ١٦ ص ١٤٠ .

٢ - سورة طه : أية رقم ٨٧ .

٣ - تفسير البضاوى ج ٢ ص ٥٨ .

٤ - و (٥) و (٦) من سورة طه : أية رقم ٨٨ .

٥ - فتح القدير ج ٣ ص ٣٨٠ - ٣٨١ .

السامري أمامهم - لا يرد عليهم جواباً ، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً ، ولا يجلب لهم نفعاً ، فكيف يتخذونه إلهاً ؟

قال الحافظ ابن كثير : (قال الله تعالى ردّاً عليهم ، وتقريعاً لهم ، وبياناً لفضيحتهم ، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾ ^(١) أى العجل ، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، أى فى دنياهم ولا أخراهم ^(٢) .

هكذا ردّ الله تعالى عليهم ضلالهم ، واستنكر ذهولهم عن خالق السموات والأرض ، رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، وأبان لهم فساد آرائهم ، وقرعهم على جهلهم وعبادتهم معدن الذهب حين صورّ عجلاً - لا روح له - لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، وقرر أنهم ظلموا أنفسهم بذلك الاعتقاد الفاسد .

قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ ^(٣) .

ثم يضى السياق بين موقف هرون (عليه السلام) من الذين عبدوا العجل قبل أن يرجع موسى (عليه السلام) إليهم . لقد حذرهم (عليه السلام) من الكفر والضلال ، ونصح لهم بقوله : يا قوم ، إنما ابتلاكُم الله تبارك وتعالى بهذا الصنم ليختبر إيمانكم فانتبهوا لا يفتننكم الشيطان ، فإن الإله الحق الذى ينبغى عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً هو ربكم الرحمن . فاثبتوا على دينكم القويم ، دين الله الذى لا إله إلا هو ، ولا تتبعوا السامري المنافق الضال المضل . يا قوم ، امثلوا أمرى واجتنبوا ما أنهاكم عنه واتبعون أهدكم سبيل الرشاد .

قال تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى ﴾ ^(٤) .

قال أبو السعود فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل ﴾ : جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الإنكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول ، أى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبّههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى - عليه الصلاة والسلام - إليهم وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات ^(٥) .

١ - من سورة طه : آية رقم ٨٩ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٦٢ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٤٨ .

٤ - من سورة طه : آية رقم ٩٠ .

٥ - تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٦٥٩ .

(قوله تعالى : ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ أى ابتليتكم وأضللتكم به ، أى العجل . ﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ لا العجل ﴿ فاتبعوني ﴾ فى عبادته ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ لا أمر السامرى . أو فاتبعوني فى مسيرى إلى موسى ودعوا العجل ؛ فعصوه و ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين ﴾^(١) أى لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾^(٢) فننظر هل يعبده كما عبدناه . فتوهّموا أن موسى يعبد العجل ، فاعتزلهم هرون فى اثنى عشر ألفاً ، الذين لم يعبدوا العجل . فلما رجع موسى وسمع الصباح والجلبة ، وكانوا يرقصون حول العجل ، قال لل سبعين معه : هذا صوت الفتنة)^(٣) .

وبعد بيان موقف هرون (عليه السلام) من الفتنة ، يعود الآن السياق لمواصلة التحقيق - فى عبادة العجل - الذى قام به موسى (عليه السلام) مع القوم . لقد رجع (عليه السلام) إلى بنى إسرائيل غضبان أسفاً ، وعابن ضلالهم وعكوفهم على الوثن ، فقرعهم وأنبههم . ثم استمع إلى حجتهم الواهية التى تدل على جهلهم وفساد تفكيرهم . عندئذ التفت (عليه السلام) إلى أخيه هرون (عليه السلام) وشرع يلومه - وهو مغتاظ ، قد أخذ ببلحيته ورأسه - وقال له :

﴿ ... يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبين أفعصيت أمرى . قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾^(٤) .

(والمعنى : أن موسى لما وصل إليهم أخذ بشعور رأس أخيه هرون وبلحيته وقال : ﴿ ما منعك ﴾ من اتباعي والالحوق بي عندما وقعوا فى هذه الضلالة ودخلوا فى الفتنة ، وقيل : معنى ﴿ ما منعك ألا تتبين ﴾ : ما منعك من اتباعي فى الإنكار عليهم ، وقيل : معناه : هلاً قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم ، وقيل : معناه : هلاً فارقتهم ، أو أى شئ منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي . والاستفهام فى ﴿ أفعصيت أمرى ﴾ للإنكار والتوبيخ . والمعنى : كيف خالفت أمرى لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ، وقيل : المراد بقوله : (أمرى) هو قوله الذى حكى الله عنه : ﴿ وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ الآية^(٥) . فلما أقام معهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبته إلى عصيانه)^(٦) .

١- و (٣) من سورة طه : آية رقم ٩١ .

٣- الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٤- من سورة طه : الآيات رقم ٩٢ - ٩٤ .

٥- من سورة الأعراف : آية رقم ١٤٢ .

٦- فتح القدير ج٣ ص ٣٨٢ .

وقد قرر سياق الآيات السالفة ما كان موقف هرون (عليه السلام) من القوم . فهو هنا يحاول يطلع أخاه على موقفه ، ويهدئ من غضبه باستجاشة عاطفة الرحم في نفسه ويحييه بأنه رأى من الحكمة اتخاذ هذا الموقف الذى وقفه منهم ، وهو أن يحفظ الناس على وجه لا يختل به نظامهم ولا يشتت جمعهم ، وأنه خشى لومه وعتابه من إحداث ما يفرق بين بنى إسرائيل ، ولم يكن بد من مراقبة القوم وجمع شملهم حتى يعود ويرجع موسى (عليه السلام) فيتدارك الأمر حسب ما يرى .

(قال يا ابن أمّ : ترفق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ؛ لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ؛ ولهذا قال : ﴿ يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ الآية ، هذا اعتذار من هرون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم . قال : إني خشيت أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لى : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴾ ولم ترقب قولى ﴾ أى وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس : وكان هرون هائباً مطيعاً له ^(١) .

لقد رجع موسى (عليه السلام) إلى قومه غضبان أشد الغضب ، حتى إنه أخذ برأس أخيه يجره إليه ، وذلك خشية أن يكون قد قصر في نهى من عبد العجل . هنالك بين له هرون (عليه السلام) بهدوء ما حدث في غيبته . ثم ما انفك يستعطفه بالقول اللين ، ويحرك في نفس موسى (عليه السلام) عاطفة الأخوة الرحيمة ؛ ليسكن غضبه ويكشف له عن حقيقة موقفه ، وأنه لم يقصر في نصح القوم ومحاولة هدايتهم ، حتى اطمأن موسى وتحقق براءة ساحة أخيه ، فرضى عنه ، وتوجه إلى الله العظيم يطلب لنفسه ولأخيه المغفرة والرحمة .

قال تعالى : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى ﴾ بيان بصور حقيقة موقف هرون (عليه السلام) والقوم حين عكفوا على العجل . ندرك من هذا كيف كان بنو إسرائيل في هياجهم واندفاعهم إلى الصنم ، حتى لقد استضعفوا نبههم هرون (عليه السلام) وهموا بقتله ، إذ حاول ردّهم عن التردى والانتكاس . وقوله : ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ﴾ مقالة يحرك بها هرون (عليه السلام) وجدان الأخوة الناصرة المعينة ، حين يكون هناك

١ - تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٦٣ .

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٥٠ - ١٥١ .

الأعداء الذين يفرحون ببليّة غيرهم . ﴿ ولا تجعلنى من القوم الظالمين ﴾ أى القوم الذين ضلّوا وكفروا بالله تعالى ، فأننا لم أضل ولم أكفر معهم ، وأنا برىء منهم .

بهذا اطمأن موسى (عليه السلام) إلى سلامة ناحية أخيه ، فترك تحاوره ، وأقبل على السامرى قائلاً له فى عنف وتأنيب : ما شأنك يا سامرى ؟ وما الذى دهاك حتى فعلت فعلتك التى فعلت !؟

﴿ قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يصبروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ﴾ (١) .

قال أبو السعود فى تفسير الآية : (قال فما خطبك (٢) يا سامرى) (قال) استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامرى واعتذار هرون (عليه السلام) كأنه قيل : فما صنع موسى (عليه السلام) بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار الفتنة على السامرى ؟ فقيل : قال موبخاً له : هذا شأنهم ﴿ فما خطبك يا سامرى ﴾ أى ما شأنك وما مطلوبك مما فعلت ؟ خاطبه (عليه السلام) بذلك ؛ ليظهر للناس بطلان كيدہ باعترافه ، ويفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولن خلفهم من الأمم (٣) .

قال السامرى لموسى (عليه السلام) : ﴿ بصرت بما لم يصبروا به ﴾ الآية ، قال البيضاوى : (أى علمت بما لم يعلموه وفطنت لما لم يفطنوا له ، وهو أن الرسول الذى جاءك روحانى محض لا يمس أثره شيئاً إلا أحياه ، أو رأيت ما لم يرو ، وهو أن جبريل (عليه السلام) جاءك على فرس الحياة (فقبضت قبضة من أثر الرسول) من تربة موطنه ، والقبضة المرة من القبض ، فأطلق على المقبوض . والرسول جبريل (عليه السلام) ولعله لم يسمه ؛ لأنه لم يعرف أنه جبريل ، أو أراد أن ينبّه على الوقت ، وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور (فنبذتها) (٤) فى الحلى المذاب أو فى جوف العجل حتى حصى (وكذلك سولت لى نفسى) زيتته وحسنته لى (٥) .

قال الحافظ ابن كثير فى قوله : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ : أى من أثر فرسه ، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم (٦) .

١- من سورة طه : آية رقم ٩٥ - ٩٦ .

٢- قال الراغب الأصفهاني فى المفردات ص ١٥٠ : (والخطب : الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب .

٣- تفسير أبى السعود ج ٣ ص ٦٦١ .

٤- قال الراغب فى المفردات ص ٤٨٠ . (النبذ : إلقاء الشيء وطرحه لقلة الإعتناء به)

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٢ ص ٥٩ .

٦- تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٦٣ .

يُبد أن الأستاذ سيد قطب ذهب إلى أن : (القرآن الحكيم لا يقرر هنا حقيقة ما حدث ، إنما هو يحكى قول السامرى مجرد حكاية . . ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامرى وتملصاً من تبعة ما حدث . وأنه هو صنع العجل من الذهب الذى قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التى أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت فى فراغه فتحدث صوتاً كالخوار . ثم قال حكاية أثر الرسول يبرر بها موقفه ، ويرجع الأمر إلى فطنته إلى أثر الرسول ! وعلى أية حال فقد أعلنه موسى (عليه السلام) بالطرد من جماعة بنى إسرائيل ، مدة حياته ، ووكل أمره بعد ذلك إلى الله . وواجهه بعنف فى أمر إله الذى صنعه بيده ليرى قومه بالدليل المادى أنه ليس إلهاً ، فهو لا يحمى صانعه ولا يدفع عن نفسه)^(١) .

قال تعالى ﴿ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وأن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنك فى اليوم نفساً . إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً ﴾^(٢) .

قال الشوكانى : (فلما سمع موسى من السامرى قوله : ﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ قال : ﴿ فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ أى فاذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك فى الحياة : أى ما دمت حياً ، وأطول حياتك أن تقول : لا مساس . المساس مأخوذ من المماس . أى لا يمسك أحد ولا تمس أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك ، بل بموجب الاضطراب الملجئ إلى ذلك ؛ لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفى السامرى عن قومه ، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه ؛ عقوبة له)^(٣) .

(وإن لك موعداً لن تخلفه : يعنى يوم القيامة . والموعود مصدر ، أى أن لك وعداً لعذابك لن يخلفك الله إياه . وقوله تعالى : ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً ﴾ أى انظر إلى إلهك الذى ظللت ، بمعنى دمت وأقمت عليه ملازماً ، و(لنحرقنه) أى بالنار . وقيل : لنبردنه بالمبارد . وقيل : عرف موسى (عليه السلام) ما صير به الذهب رماداً ، وكان ذلك من آياته . ومعنى (لننسفنك) لنطيرنه . والنسف : نفث الشئ ليذهب به الريح وهو التذرية)^(٤) .

وعلى مشهد العجل يُحرق ويُنسف ، يُعلن موسى (عليه السلام) حقيقة التوحيد : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً ﴾^(٥) .

١ - فى ظلال القرآن ج١٦ ص ٢٣٤٩ .

٢ - من سورة طه آية رقم ٩٧ - ٩٨ .

٣ - فتح القدير ج٣ ص ٣٨٣ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ بتصرف

٥ - من سورة طه : آية رقم ٩٨ .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : ﴿ يقول لهم موسى (عليه السلام) : لينش هذا العجل إلهكم ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، أى لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه ، عبد له . وقوله : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ أى هو عالم بكل شيء ، أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ﴾ (١) .

وهكذا حسم موسى (عليه السلام) ذلك الموقف المضطرب ، وجمع الناس صفاءً ، واحداً ، فى صعيد واحد ، فى ظلال عقيدة التوحيد . وبذلك آل إليه زمام الأمر ، وكل أصبح فى طاعته .

ومن الجهة الأخرى : ندم بنو إسرائيل على ظلمهم أنفسهم باتخاذهم العجل إلهاً ، وتحسروا على ما فرطوا فى جنب الله تعالى ، وعلى مخالفتهم نبيهم هرون (عليه السلام) ، وعرفوا أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تدرهمهم رحمة الله الخليل الرحيم ومغفرته . ومن ثم لجأوا إلى الله عز وجل معترفين بذنوبهم مقربين بما وقع منهم من كفر وضلال ، متضرعين إليه سبحانه أن يعفو عنهم .

قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط (٢) فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٣) .

قال الأستاذ المراعى : (لما اشتد ندمهم وازدادت حسرتهم على ما فرطوا فى جنب الله ، وعلموا أنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً بعبادة العجل ، قالوا : إن ذنبنا لعظيم ، وإن جرمنا لكبير ، وإنه لن يسعنا بعد هذا الذنب إلا رحمة الله التى وسعت كل شيء ، ولئن لم يرجعنا ربنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جرميتنا لنكونن من - الهالكين - الذين خسروا سعادة الدنيا ، وهى الحرية والاستقلال فى أرض الموعد ، وخسروا سعادة الآخرة ، وهى دار الكرامة والنعيم المقيم وجنات النعيم) (٤) .

وهكذا عرف بنو إسرائيل أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ولعل موسى (عليه السلام) هو الذى أمرهم بالمراجعة من ذنبهم ، والإنابة إلى خالقهم من ردتهم بالتوبة إليه والتسليم لطاعته فيما أمرهم به . ثم أخبرهم (عليه السلام) أن توبتهم من الذنب الذى قارفوه هى قتلهم أنفسهم . هنالك استجاب القوم لما أمرهم به موسى (عليه السلام) من التوبة من ارتدادهم باتخاذهم العجل إلهاً ، فتابوا إلى ربهم ، ونفذوا ما أمرهم به ، فتاب الله عليهم .

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٦٤ .

٢ - قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ج ١ ص ٢٢٨ : (يقال لكل من ندم وعجز عن شيء ونحو ذلك : سقط فى يد فلان) .

٣ - من سورة الأعراف آية رقم ١٤٨ - ١٤٩ . ٤ - تفسير المراعى ج ٩ ص ٦٩ .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (١) .

قال أبو السعود في تفسير قوله : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ : بيان لكيفية وقوع العفو عنهم ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ أى معبوداً . . (فتوبوا) أى فاعزموا على التوبة (إلى بارئكم) أى إلى من خلقكم بريئاً من العيوب والنقصان والتفاوت ، وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة ، وقد بلغوا من الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذى خلقهم بلطف حكيمته بريئاً من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغبوة ، وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تسترد هى منه ؛ ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب ﴾ (٢) .

قال القرطبي : (لما قال لهم : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ ؛ قالوا : كيف ؟ قال : (فاقتلوا أنفسكم) . والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . والإجماع على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزهري : لما قيل لهم : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ ، قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً ، حتى قيل لهم : كفوا . فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحى . وقال بعض المفسرين : (أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفاً ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوه ، وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا - إذ لم يعبدوا العجل - من عبد العجل . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم - على القول الأول - لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبده ، وإنما اعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا عن عبده ، وهذه سنة الله فى عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع . روى جرير قال : قال رسول الله ﷺ : (وما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيرون ، إلا عمهم الله بعقاب) (٣) . فلما استحرق فيهم القتل ، وبلغ سبعين ألفاً ، عفا الله عنهم . وإنما رفع الله عنهم القتل ؛ لأنهم أعطوا المجهود فى قتل أنفسهم) (٤) .

قال ابن جرير الطبرى : (أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالحال التى كرهوا أن

١ - من سورة البقرة آية رقم ٥٤ .

٢ - تفسير أبى السعود ج١ ص ١٧٥ .

٣ - سنن ابن ماجه ج٢ ص ١٣٢٩ . وفى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٧ ص ٢٦٨ : (عن العرس بن عميرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى تعمل الخاصة بعمل العامة أن تغيّره ولا تغيّره ، فذاك حين يأذن الله فى هلاك العامة والخاصة) رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٤٠١ - ٤٠٢ بتصرف .

يقاتلوهم حين عبدوا العجل ، فقال لهم موسى : ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ الآية ، قال : فصفا صفين ثم اجتلدوا بالسيوف فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قتل من الفريقين شهيداً ، حتى كثرت القتل ، حتى كادوا أن يهلكوا ، حتى قتل بينهم سبعون ألفاً ، حتى دعا موسى وهرون : (ربنا هلكت بنو إسرائيل ! ربنا البقية البقية ! فأمرهم أن يضعوا السلاح ، وتاب عليهم . فكان من قتل شهيداً ، ومن بقى كان مكفراً عنه)^(١) .

وقال الأستاذ سيد قطب . (اقتلوا أنفسكم : ليقتل الطائع منكم العاصي ؛ ليظهره ويظهر نفسه . . هكذا وردت الراويات عن تلك الكفارة العنيفة . . وإنه لتكليف مرهق شاق أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه . ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التي لا تتماسك عن شر ، ولا تتناهى عن نكر . ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبينهم ، ما عبدوا العجل . وإذا لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام ، وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيههم)^(٢) .

(وأما قوله : ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾^(٣) فإنه يعنى بذلك : توبتكم بقتلكم أنفسكم ، وطاعتكم ربكم ، خير لكم عند بارئكم ؛ لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة على ذنوبكم ، وتستوجبون به الثواب منه . وقوله : (فتاب عليكم) أى رجع لكم ربكم إلى ما أحبيتم ، من العفو عن ذنوبكم ، وعظيم ما ركبتم ، والصفح عن جرمكم ، (إنه هو التواب الرحيم) يعنى : الراجع لمن تاب إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو عنه . ويعنى بالرحيم : العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته)^(٤) .

والخلاصة : أن بنى إسرائيل ، الذين عبدوا العجل ، لما تابوا إلى الله جميعاً ، توبة نصوحاً ، وأخلصوا دينهم لله عز وجل ، وأطاعوا الله ونبينهم موسى (عليه السلام) آنذاك عفا الله سبحانه وتعالى عنهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ؛ لكى يشكروا نعمة العفو ، ويستمروا بعد ذلك على الطاعة وعقيدة التوحيد .

قال تعالى : ﴿ وإذا وعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾^(٥) .

١ - تاريخ الطبرى ج١ ص ٤٢٤ .

٢ - في ظلال القرآن ج١ ص ٧١ .

٣ - قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ج١ ص ٤٠ : (بارئكم : خالفكم ، من برأت)

٤ - تفسير الطبرى ج٢ ص ٧٩ بتصرف .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٥١ - ٥٢ .

(أى ثم محونا تلك الجريمة بقبول التوبة ولم نعاجلكم بالإهلاك ، بل أمهلناكم حتي جاءكم موسى وأخبركم بكفارة ذنوبكم ، ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ، فإن الإنعام يوجب الشكر على النعم)^(١) .

قصة بقرة بنى إسرائيل :

يري جمهور المفسرين أنَّ بداية هذه القصة هي أن قوم موسى (عليه السلام) كانوا قد قتلوا نفساً منهم ، ثم اختلفوا فيها ، وتنازعوا في شأن القاتل المجهول الاسم والشخصية ، وطلق كل فريق يدفع عن نفسه التهمة وينكر أن يكون هو الجاني . ولم تكن هناك بيّنة على جريمة القتل التي حصلت . فأراد الخالق سبحانه وتعالى أن يكشف ما كانوا يكتُمون ، وأن يظهر الحق بآية من آياته الدالة على قدرته تعالى ، وهي إحياء القتيل ليخبر بنفسه عن قاتله . وكانت الوسيلة إلى إحيائه هي ذبح بقرة ، ثم ضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح .

ومن أجل هذا ، أمر الله عز وجل بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة . والبقرة لا شك أنها من جنس العجل الذي عبده . ولعل الحكمة في أمرهم بذبحها هي تهوين لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وأحبوه . وهي كذلك اختبار لمدى طاعة القوم وتسليمهم واستجابتهم . ولكن بنى إسرائيل كما هو شأنهم مع أنبيائهم ، وكما رسمتهم القصة يتسمون باللجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة وتمحل المعاذير .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا ألتخذنا هزواً قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتهم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾^(٢) .

يتضح من هذه الآيات الكريمة تشدد وتعمق بنى إسرائيل في الدن ، ومحاولتهم تضيق ما وسعه الله عليهم ، وتهربهم من الانقياد لكلمة الحق ، وتشككهم في صدق نبيهم موسى

١ - تفسير المراغى ج ١ ص ١١٨ .

٢ - من سورة البقرة : الآيات من ٦٧ - ٧٣ .

(عليه السلام) وتعتهم في السؤال . ولعل ذلك كله يرجع لما اتصف به القوم من عدم الالتزام بالطاعة لله تعالى ولأنبيائهم (عليهم السلام) ولما اعتادوا من فسوق عن أمر الله عز وجل ومخالفته .

(إن السمات الرئيسية لطبيعة بنى إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه : انقطاع الصلة بين قلوبهم ، وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الإيمان بالغيب ، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم من الرسل . ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلطة اللسان !

(لقد قال لهم نبيهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ . فنيهم ينيهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه ، إنما هو أمر الله الذى يسير بهم على هذه . . فماذا كان الجواب ؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم ! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله - فضلاً على أن يكون رسول الله - أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس : ﴿ قالوا أتتخذنا هزواً ﴾ (الآية)^(١) .

ومعنى هذا أنه لما طلب بنو إسرائيل إلى موسى (عليه السلام) الفصل في النزاع الذى كان قائماً بينهم في واقعة القتل ، وبيان القاتل ، أمرهم أن يذبحوا بقرة . فاستغربوا هذا الأمر ؛ لما في ظاهره من المباينة لما يطلبون ، والبعد بينه وبين ما يريدون . وقد كان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الامتثال والطاعة ، وأن يقابلوا أمره بالتجلة والاحترام ؛ لأنه نبيهم ولا يليق به أن ينطق عن الهوى . فبدلاً من طاعته رموه (عليه السلام) بالسفه والجهالة ، حيث قالوا له : (أتتخذنا هزواً) .

قال أبو السعود : (لما أمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ، (قالوا أتتخذنا هزواً) أى أتجعلنا مكان هزؤ ، أو أهل هزؤ ، أو مهزواً بنا ، أو الهزؤ نفسه ؛ استبعاداً لما قاله واستخفافاً به . ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ لأن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه ، فنفى عنه (عليه السلام) ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وأكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعانة منه ؛ استفظاعاً له ، واستعظاماً لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه (عليه السلام) بها)^(٢) .

وقال القرطبي : (والهزؤ : اللعب والسخرية . وقرأ الجحدري : (أتتخذنا هزواً) بالياء ، أى قال ذلك بعضهم لبعض . فأجابهم موسى (عليه السلام) بقوله : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ؛ فاستعاذ منه

١ - في ظلال القرآن ج١ ص ٧٧ .

٢ - تفسير أبي السعود ج١ ص ١٨٧ .

(عليه السلام) ؛ لأنها صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقض العلم . فاستعاذ من الجهل ، كما جهلوا في قولهم : أتخذنا هزواً ، لمن يخبرهم عن الله تعالى . وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله (١) .

﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ بهذا القول الفصل ، التجأ موسى (عليه السلام) إلى الله تعالى واعتصم به ، ووجه القوم إلى أن أمر الله عز وجل بذبح بقرة هو جدّ وحق . وكان في هذا القول كفاية لينفذوا أمر نبيهم ويطيعوا ربه . وقد كان في وسعهم أن يذبحوا أى بقرة فيصبحوا بما فعلوا مطيعين لأمر الله تعالى ، منفذين لإشارة رسوله . ولكنهم لم يفعلوا ، بل قالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ الآية .

قال الحافظ ابن كثير : (أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، وهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس وعبيد وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ أى ما هذه البقرة وأى شيء صفتها ؟ (٢) .

قال ابن جرير الطبري : (حدثنا أبو كريب قال : حدثنا هشام بن علي عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لو أخذوا أذن بقرة اكتفوا بها ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم) (٣) .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي : (وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله تعالى ومع نبيهم موسى (عليه السلام) ؛ لأنهم قالوا : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ فكأنما هو سبحانه رب موسى وحده لا ربهم كذلك ، وكان المسألة لا تعنيهم هم وإنما تعني موسى وربه . ومع هذا فقد أجابهم إجابة الربى الحكيم للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ الآية) (٤) .

قال صاحب الكشف : (الفارض : المسنة ؛ وسميت فارضاً لأنها فرضت سنّها ، أى قطعتها وبلغت آخرها . والبكر : الفتية ، والعوان : النصف) (٥) .

(فمعنى الكلام : قال : إنه يقول إنها بقرة لا مسنة هرمة ، ولا صغيرة لم تلد ، ولكنها بقرة نصف قد ولدت بطناً بعد بطن ، بين الهرم والشباب ، ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ يقول الله

١ - الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٤٤٦ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١١٠ .

٣ - تفسير الطبري ج٢ ص ٢٠٤ - قال ابن كثير في المرجع السابق : (إسناده صحيح) .

٤ - التفسير الوسيط للقرآن الكريم ص ٣٠٦ .

٥ - الكشف ج١ ص ٢٨٧ .

لهم جل ثناؤه : افعلوا ما أمركم به ، تدرکوا حاجاتکم وطلباتکم عندی ، واذبحوا البقرة التي أمرتكم بذبحها ، تصلوا - بانتهائکم إلى طاعتي بذبحها - إلى العلم بقاتل قتيلکم (١) .

(ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية ؛ وكان حسبهم وقد ردهم نبیهم إلى الجادة مرتين ، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقى أن يعمدوا إلى أى بقرة من أبقارهم ، لا عجوز ولا صغيرة ، متوسطة السن ، فيخلصوا بها ذمتهم ، وينفذوا بذبحها أمر ربهم ، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق . . . ولكن بنو إسرائيل هم بنو إسرائيل !) (٢) .

لقد أبوا إلا تنظعاً واستقصاء في السؤال ، فشرعوا في تعرّف حال لون البقرة بعدما عرفوا حال سنّها ، فأخذوا يسألون : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ (٣) .

قال أبو السعود : (وقوله تعالى : (قالوا) استئناف كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافي والأمر المكرر ؟ فقيل : قالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ﴾ حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها . (قال) أى موسى (عليه السلام) بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجيء البيان (إنه) تعالى ﴿ يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴾ . إسناد البيان في كل مرة إلى الله عز وجل ؛ لإظهار كمال المساعدة في إجابة مستوهم بقولهم : يبين لنا ، وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة . والفقوع : نصوع الصفرة وخلوصها ؛ ولذلك يؤكد به ، ويقال : أصفر فاقع كما يقال : أسود حالك ، وأحمر قاني . وفي إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال الملون للملاسته به ما لا يخفى من فضل تأكيد ، كأنه قيل : صفراء شديدة الصفرة صفرتها ، كما في جد جده (٤) .

قال الرازي : (وقوله تعالى : (تسر الناظرين) أى أن هذه البقرة لحسن لونها تسر من نظر إليها . وأما السرور فإنه حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيد أو نافع (٥) .

ومعنى ذلك : أن القوم لما سألوا موسى (عليه السلام) عن لون البقرة ، أجابهم : بأن الله تعالى يقول : إن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراء شديدة الصفرة ، تعجب في هيئتها ومنظرها الناظرين إليها ، وتجلب السرور لمن يشاهدها .

١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢ ص ١٩٧ .

٢ - في ظلال القرآن ج ١ ص ٧٨ .

٣ - قال أبو عبيدة في جاز القرآن ج ١ ص ٤٤ : (بقرة صفراء : إن شئت صفراء ، وإن شئت سوداء ، كقوله : (جملة صفر) أى

سود . فاقع لونها : أى ناصع) .

٤ - تفسير أبي السعود ج ١ ص ٨٨ .

٥ - التفسير الكبير - ٣ ص ١٢٠ ، بتصرف .

لقد حضهم بهذا البيان على الطاعة والامثال ، فلم يمتثلوا الأمر . والظاهر أنَّ ما وصلهم من أوصاف البقرة المطلوب ذبحها لم يغنهم ، ولم يكتفوا به ، بل طالبوا بأوصاف تميّزها أكثر . فعادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إنَّ البقر تشابه علينا وإننا إن شاء الله لمهتدون ﴾ .

قال الشوكاني : (ثم لم ينزعوا عن غوايتهم ولا ارجعوا من سفههم وجهلهم ، بل عادوا إلى تعنتهم ، فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إنَّ البقر تشابه علينا ﴾ أى أن جنس البقر يشابه عليهم ؛ لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة ، ووعدوا من أنفسهم بالاهتداء إلى مادهم عليه ، والامثال لما أمروا به)^(١) .

(وأما قوله : ﴿ وإننا إن شاء الله لمهتدون ﴾ فإنهم عنوا : وإننا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها . ومعنى (اهتدائهم) في هذا الموضع معنى (تبينهم) أى ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر)^(٢)

ويبدو مما سبق ذكره أنَّ بنى إسرائيل أبوا تنفيذ الأمر إلا أن تكون البقرة المأمور بذبحها معروفة لهم بنوعيتها ، مبيّنة بأوصافها التى تفرّق بينها وبين سائر بقر الأرض . وبهذا يكونوا قد شدّدوا على أنفسهم ، وزادوا الأمر مشقة وتعقيداً ، فى حين أنهم كانوا فى سعة من ذلك كله ، وفى غنى عنه . ولهذا التشديد والتعنت ، ولكثرة سؤاَلهم نبينهم واختلافهم عليه ، زادهم الله عز وجل عقوبة وتشديداً .

قال تعالى : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جثت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾^(٣) .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ قال : أى أنها ليست مدللة بالحرث ولا معدة للسقى فى الساقية ، بل هى مكرومة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها ، (لا شية فيها) أى ليس فيها لون غير لونها^(٤) .

(هنا فقط .. وبعد أن تعقد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار :

١ - فتح القدير ج١ ص ٩٨ .

٢ - تفسير الطبرى ج٢ ص ٢١١

٣ - قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ج١ ص ٤٤ : (لاشية فيها : أى لا لون فيها سوى لون جميع جلدها . (قالوا الآن جثت بالحق) : أى الآن تبيننا ذلك ، ولم تزل جائياً بالحق) .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١١١ .

﴿ قالوا الآن جثت بالحق ﴾ . . الآن ! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً . أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة ! (١)

قال الطبرى : (وأولى القول عندنا في تأويل قوله تعالى : ﴿ قالوا الآن جثت الحق ﴾ هو أن تأويله : الآن بينت لنا الحق في أمر البقر ، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها ؛ لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها بعد قيلهم هذا ، مع غِلظ مؤونة ذبحها عليهم ، وثقل أمرها ، فقال : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أى قاربوا أن يدعوا ذبحها ، ويتركوا فرض الله عليهم في ذلك (٢) .

هذا ، وقد تحدّث صاحب الكشاف عن السبب الذى من أجله كادوا أن يضيعوا فرض الله عليهم في ذبح ما أمرهم الله بذبحه فقال : (وقوله تعالى : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ استقال لاستقصائهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ، ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهى سؤالاتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم ، وقيل : ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها ، وقيل : لخوف الفضيحة في ظهور القاتل (٣) .

ثم بعد ذلك يأتى السياق على أول القصة ، حيث تبدو واضحة الغاية التى من أجلها أمر الله سبحانه وتعالى القوم بذبح البقرة ، وحيث يتغيّر السياق من أسلوب الحكاية إلى الخطاب والمواجهة ، فيقول الله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ (٤)

قال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ مقدّم في التلاوة ، وقوله : ﴿ قتلتم نفساً ﴾ مقدّم في المعنى على جميع ما ابتداء به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : (قتلتم) في النزول مقدّماً ، والأمر مؤخراً . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها . فكان الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها . ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأمروا أن يضربوه ببعضها ، ويكون : ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ مقدّماً في المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ؛ لأنّ الواو لا توجب الترتيب (٥) .

وعلى ذلك يكون المعنى : أنه لما وقعت لهم واقعة القتل ، أمرهم الله تعالى بذبح البقرة ،

١ - في ظلال القرآن ج١ ص ٧٩ .

٢ - تفسير الطبرى ج١ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

الكشاف ج١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

٤ - قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ج١ ص ٤٥ : (فادارأتم فيها : اختلفتم فيها من التدارى والدراء . (فقلنا اضربوه ببعضها) أى القتل ببعض البقرة . (ويرىكم آياته) أى عجائبه .

٥ - الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٤٤٥ .

فلما ذبحوها قال : ﴿ وإذ قتلتم نفساً من قبل واختلفتم وتنازعتم ، وإن مظهر لكم القاتل الذى سترتموه ، بأن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة .

قال أبو السعود : (كأنه قيل : وإذ قتلتم نفساً فادأرتهم فيها ، فقلنا : اذبحوا بقرة ، فاضربوه ببعضها . وإنما غير الترتيب عند الحكاية ، لتكرير التوبيخ وتثنية التقرير ، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء برسول الله (عليه السلام) والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به ، جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها ، ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع ، لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ)^(١) .

(وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم ﴾ مع أن القاتل بعضهم ؛ للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . وأسند القتل أيضاً إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوى ؛ لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل ، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب ؛ للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف والضلال)^(٢) .

قال الشوكاني : (واختلف في تعيين البعض الذى أمروا بأن يضربوا القتيل به ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفينا أن نقول : أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها ، فأتى بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان . وقوله : ﴿ كذلك يحى الله الموتى ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ فأحياه الله تعالى ﴿ كذلك يحى الله الموتى ﴾ أى إحياء كمثل هذا الإحياء ﴿ ويريكهم آياته ﴾ أى علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته . وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة ، ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن)^(٣) .

قال الطبرى : (فإن قال قائل : وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها ؟ قيل : ليحيا فينبئ نبي الله موسى (عليه السلام) الذين اداروا فيه - من قاتله . فإن قال : وأين الخبر عن أن الله جل ثناؤه أمرهم بذلك لذلك ؟ قيل : ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه . والمعنى : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا ، فضربوه فحى - دل على ذلك قوله : ﴿ كذلك يحى الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون ﴾ الآية)^(٤) .

١ - تفسير أبى السعود ج١ ص ١٩٢ .

٢ - تفسير الوسيط للقرآن الكريم ص ٢١٣ .

٣ - تفسير الطبرى ج٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

٤ - فتح القدير ج١ ص ١٠٠ .

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوى ، نقلاً عن الشيخ الطاهر بن عاشور . (وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه ليس أول قتيل طل دمه في الأمم - إكراماً لموسى (عليه السلام) ، أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم ، وبمراى ومسمع منه ، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه . فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم ويبين سافكه ، لضعف يقين القوم برسولهم موسى (عليه السلام) ، ولكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين . فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى لموسى (عليه السلام) ورحمة بالقوم لثلا يضلوا)^(١) .

(وقوله تعالى : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشرعية ، فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله تعالى في كل وقت بالقبول من غير تعنت)^(٢) .

إبتياء بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة :

أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام) أن يقود بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام للإقامة بها . فخاطب (عليه السلام) قومه مذكراً بإياهم بالنعم التى أنعمها الله تعالى عليهم ، بأن جعل فيهم أنبياء كثيرين هدايتهم من الضلال ، وأنه جعلهم أحراراً كالمملوك ، مالكين زمام أمورهم وتدير شئونهم ، بعد أن كانوا عبيداً أذلاء لفرعون وقومه . وأنه تعالى حباهم بالخير وآثرهم بالبركات ، وآتاهم من النعم الكثيرة التى اختصهم بها على العالمين في زمانهم . فكان ينبغى عليهم إزاء ذلك أن يشكروا الله عز وجل ، ويتلقوا أوامره بقبول حسن .

هكذا ذكرهم موسى (عليه السلام) بنعم الله عليهم ، وأبانها لهم . ثم أمرهم بدخول الأرض المقدسة ومجاهدة العدو ، ووعدهم بأن الله تعالى ناصرهم ما نصره .

هذا ، ويذكر المؤرخون أن موسى (عليه السلام) كان قبل أن يطلب إلى بنى إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قبله أناساً يأتونه بالأخبار . ويقول المفسرون : إنهم كانوا اثني عشر رجلاً . فأروا من ضخامة أجسام أولئك القوم ما أدخل في نفوسهم الرعب والفرع . فلما عادوا أخبروا بنى إسرائيل بما وقفوا عليه من حال القوم المقيمين بالأرض المقدسة ، فضعفت نفوسهم وخارت قواهم ولم يعد لديهم طاقة للقتال أو الجهاد . ومن ثم امتنعوا عن

١ - التفسير الوسيط للقرآن الكريم ص ٢١٣ - ٢١٤ .

٢ - تفسير النار ج ١ ص ٣٥١ .

تنفيذ أمر الله تعالى ؛ جنباً وضعفاً واستسلاماً ، وخالفوا ما آتاهم نبيهم موسى (عليه السلام) ، وأصروا على ألا يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها القوم الجبارون .

قال الشيخ عبد الوهاب النجار : (والسر في ذلك كما أوضحه ابن خلدون : أن نفس بني إسرائيل كانت صغيرة ضئيلة ؛ لأنهم رثموا الذل والهوان في ملك المصريين ! ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال ! ولذلك ذابت قلوبهم في صدورهم ، وملأ الخوف أنفسهم حين أمروا بقتال أولئك الجبارين)^(١) .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنا محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين)^(٢) .

هكذا كانت نهاية المطاف بموسى (عليه السلام) ، نهاية الجهد والسفر الطويل : إعراضاً من بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة ، وذلك لما جبلوا عليه من جبن شديد وعزيمة خوارة وعصيان لأنبيائهم ، وإيثار للذلة مع الراحة على العزة والجهاد . ولما كان هذا موقف اليهود أمام الأرض المقدسة ، فقد أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام) بأنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم .

قال الحافظ ابن كثير : (إن موسى (عليه السلام) لما انفصل من بلاد مصر ، وواجه بلاد بيت المقدس ، وجد فيها قوماً من الجبارين ، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين ، فأمرهم موسى (عليه السلام) بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلათهم عن البيت المقدس ؛ فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلب الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه ، يسرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويحيثون مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ... ﴾ (الآيات)^(١) .

١ - قصص الأنبياء ص ٢٢٧ .

٢ - من سورة المائدة : الآيات رقم ٢٠ - ٢٦ .

قال الطبرى فى تأويل قوله عز ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ قال : (وهذا أيضاً من الله تعريف لنبىه محمد ﷺ ، قديم تمادى هؤلاء اليهود فى الغى ، وبعدهم عن الحق ، وسوء اختيارهم لأنفسهم ، وشدة خلافهم لأنبيائهم ، وبطء إنابتهم إلى الرشاد ، مع كثرة نعم الله عندهم ، وتتابع أباديه وآلائه عليهم ، مسلياً بذلك نبىه محمداً ﷺ عما يحل به من علاجهم ، وينزل به من مقاساتهم فى ذات الله . يقول الله له ﷺ : لا تأس على ما أصابك منهم فإنّ الذهاب عن الله ، والبعد عن الحق ، وما فيه لهم الحظ فى الدنيا والآخرة من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم - وتعزّ بما لاقى منهم أخوك موسى ﷺ - واذكر إذ قال موسى لهم : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ يقول : اذكروا أبادى الله عندكم . وآلاءه قبلكم) (١) .

وقال الأستاذ المراغى عند تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ واذكر أيها الرسول الكريم ، لنبى إسرائيل وسائر من تبلّغهم دعوتك ، حين قول موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه ، وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله : يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه على ذلك بالطاعة له ؛ لأن ذلك يوجب مزيدها ، كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (٢) الآية ، وتركها يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ (٣) الآية .

(وقد بينّ لهم موسى أصناف هذه النعم التى منحها لهم مولاها ، وحصرها فى ثلاثة أشياء :

- أ - وهو أرفعها قدرأ وأعلاها ذكرأ ، أنه جعل كثيراً منهم أنبياء كموسى وهرون ومن كان قبلهما (عليهم السلام) .
- ب - أنه جعلهم ملوكأ ، والمراد من الملك هنا الحرية فى تدبير أمورهم وأمور أسرهم بأنفسهم ، وفى هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى .
- ج - أنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، أى عالمى زمانهم وشعوبه التى كانت مستعبدة للطغاة من الملوك ؛ فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام ، فقد فلق البحر لهم ، وأهلك عدوهم ، وأورثهم أموالهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وأظّل فوقهم الغمام) (٤) .

١ - تفسير الطبرى ج ١٠ ص ١٥٩ .

٢ - ٣ من سورة إبراهيم : آية رقم ٧ .

٣ - تفسير المراغى ج ٦ ص ٨٨ - ٨٩ ، بتصرف .

(ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى (عليه السلام) لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف (عليه السلام) . ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها . فأمرهم رسول الله موسى (عليه السلام) بالدخول إليها ويقتال أعدائهم ، ويشرهم بالنصرة والظفر عليهم ، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتماذي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى . فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال : (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة) أى المطهرة (١) .

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ قال : (كر النداء بالإضافة التشريفية ، اهتماماً بشأن الأمر ومبالغة في حثهم على الامتثال به . والأرض هى أرض بيت المقدس ؛ سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين . وقيل : هى الطور وما حوله ، وقيل : دمشق فلسطين وبعض الأردن ، وقيل : هى الشام . (التى كتب الله لكم) أى كتب فى اللوح المحفوظ أنها تكون مسكناً لكم إن آمنتم وأطعتم ؛ لقوله تعالى لهم بعد ما عصوا : (فإنها محرمة عليهم) . وقوله تعالى : ﴿ ولا تردوا على أديباركم فتتقلبوا خاسرين ﴾ فإن ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة قطعاً ، أى لا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجابرة ، أو لا تردوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى) (٢) .

قال صاحب تفسير المنار : (والخسران على هذا ، قيل : هو خسران ثواب الجهاد ، وخيبة الأمل فى امتلاك البلاد ، والذى أجزم به أن المراد بالخسران تحريم الأرض المقدسة على المخاطبين وحرمانهم من خيراتها وبركاتها ، وعقابهم بالتية أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أديبارهم . فإن هذا الخسران هو الذى وقع بالفعل وبينه الله فى الكتاب ، فلا معدل عنه . ولا يعارضه كون الله تعالى كتبها لهم ، فإن هذه الكتابة ليست لأولئك الأفراد بأعيانهم ، وإنما هى لشعبهم وأمتهم) (٣) .

ويظهر مما سبق ذكره أن الله تعالى جعل لبني إسرائيل الأرض المقدسة ، وقضى أن تكون مساكن لهم دون الجبارين ؛ ذلك بشرط الإيمان بالله تعالى ، وامتنال أوامره ، والقيام بواجب الجهاد فى سبيله ، والطاعة لرسوله موسى (عليه السلام) . ولكن القوم لم يطيعوا الله

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٧ .

١ - نفس أبو السعود ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥ .

٢ - تفسير المنار ج ٦ ص ٣٢٩ .

ونبيهم ، برغم ما وعدهم الله به من النصر ، وبرغم ما حذرهم من عاقبة تولى الأدبار وما سيحيق بهم من الندم والخسران المبين . لقد شكّوا في وعد الله تعالى مع أنه حق وصدق ويقين ، وخالفوا الله ورسوله ، وجبنوا وتذرّعوا بالمعاذير . ومن ثم لم يتحقق لهم التمكين في الأرض المقدسة ، فانقلبوا خاسرين .

قال تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ أى قالوا : إن هذه الأرض التى أمرتنا بدخولها - يا موسى - فيها قوماً أولى بأس وقوة ، ولا قدرة لنا على قتالهم ، فهم قوم عظام الأجسام ، يغلبون كل من يقاتلهم ، وليس من الحكمة أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة بالدخول عليهم ، وإننا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، فإن سلّموها لنا من غير قتال وخرجوا منها ، فنحن حينئذ على استعداد لدخولها .

قال الأستاذ محمد أحمد جاد المولى : (وكأنهم طمعوا أن يخرج القوم منها بما ألفوا من المعجزات ، وخوارق العادات ، ثم يدخلوا موفرين لم يكلم أحد منهم فى سبيل الله بكلم ، ولم يصب بجرح ، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان !)^(١)

وبما أن كل أمة لا تخلو من أفراد مؤمنين ، صالحين ، ذوى فطر سليمة ، فقد انبرى رجلان ممن طبعهم الله تعالى على الإيمان والتقوى ، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان ، انبرى هذان الرجلان إلى قومهما ناصحين ، وقاما فيهم مرشدين ، وحرصاهم على طاعة نبيهم (عليه السلام) . قال تعالى : ﴿ قال رجلان^(٢) من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

(هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه .. فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ! ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم ! وهذان هما شهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ؛ وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس . فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين : مخافته جل جلاله ، ومخافة الناس .. والذى يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ، ولا يخاف شيئاً سواه)^(٣) .

قال البيضاوى : (ادخلوا عليهم الباب : باب قريتهم ، أى باغثوهم وضاغطوهم فى المضيق وامنعوهم من الأصحار) فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴿ لتعسر الكر عليهم فى المضائق من عظم أجسامهم ، ولأنهم أجسام لا قلوب فيها . ويجوز أن يكون علمهما بذلك من إخبار

١ - جاء فى الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ١٢٧ : (قال ابن عباس وغيره : هما يوشع وكالب بن يوقنا) .
٢ - فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٨٧٠ .

موسى عليه الصلاة والسلام ، وقوله تعالى : ﴿ كتب الله لكم ﴾ . أو مما علما من عادة الله سبحانه وتعالى في نصرته رسله ، وما عهدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه (١) .

وقال الطبرى في تأويل قوله جل ثناؤه : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ قال : (وهذا أيضاً خبر من الله عز وجل عن قول الرجلين اللذين يخافان الله ، أنها قالا لقوم موسى يشجعانهم بذلك ، ويرغبانهم في المضي لأمر الله بالدخول على الجبارين في مدينتهم - توكلوا أيها القوم ، على الله في دخولكم عليهم ، فيقولان لهم : ثقوا بالله ، فإنه معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم . وعنيا بقولهما : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كنتم مصدقي نبيكم ﷺ فيما أنبأكم عن ربكم من النصر والظفر عليهم ، وفي غير ذلك من إخباره عن ربه - ومؤمنين بأن ربكم قادر على الوفاء لكم بما وعدكم من تمكينكم في بلاد عدوه وعدوكم) (٢) .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من الرجلين المؤمنين لم تعها أذن واعية ، ولم تصادف من بنى إسرائيل قلوباً صافية مملوءة بالتقوى والطاعة واليقين ، بل قابلوها بالاستهزاء والاستهانة بأوامر الله تعالى ، وصمموا على النكول عن الجهاد ، وأصرروا على التمرد والمخالفة والعصيان ، وأكدوا لموسى (عليه السلام) أنهم لا يدخلون الأرض المقدسة أبداً ، أيام حياتهم ، إذا توقف دخولها على الحرب والقتال ، ظناً منهم وجبناً بأنهم لا طاقة لهم بحرب الجبارين وقتالهم ، إذ ليسوا أهلاً لذلك .

قال تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ .

قال القرطبي : (ثم قالوا لموسى : (إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها) ، وهذا عناد وحيد عن القتال ، وإياس من النصر . ثم جهلوا صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ وصفوه بالذهاب والانتقال ، والله متعال عن ذلك . وهذا يدل على أنهم كانوا مشبهة ، وهو معنى قول الحسن ؛ لأنه قال : هو كفر منهم بالله ، وهو الأظهر في معنى هذا الكلام . وقيل : أى إن نصرته ربك أحق من نصرتنا ، وقتاله معك - إن كنت رسوله - أولى من قتالنا ؛ فعلى هذا يكون ذلك منهم كفر ؛ لأنهم شكوا في رسالته . وقيل : المعنى : اذهب أنت فقاتل وليعنتك ربك . وبالجملية فقد فسقوا بقولهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ أى لا تحزن عليهم . ﴿ إنا ههنا قاعدون ﴾ أى لا نبرح ولا نقاتل) (٣) .

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج١ ص ٢٧٠ .

٢ - تفسير الطبرى ج١٠ ص ١٨٤ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، بتصرف .

هكذا كان موقف قوم موسى من أمر الله تعالى بدخول الأرض المقدسة والجهاد في سبيل الله . فأين هذا من الصحابة الأجلاء رضى الله عنهم أجمعين ؟ إنهم كانوا (رضى الله عنهم) مؤمنين حقاً ، شجعاناً ، مطيعين لله ورسوله ، ولم يخشوا أحداً سوى الله تعالى .

قال الحافظ ابن كثير - يصف حالهم يوم بدر - : (وما أحسن ما أجاب به من الصحابة (رضى الله عنهم) يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفيـر الذين جاءوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان ، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفيـر ، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب . فتكلم أبو بكر (رضى الله عنه) فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول الله ﷺ يقول : (أشيروا على أيها المسلمون) وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار ؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ . فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرّض بنا يا رسول الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضضنا معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ؛ إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله أن يرثك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك)^(١) .

وروى البخارى بسنده عن طارق بن شهاب قال : (سمعت ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إلىّ مما عدلّ به : أتى النـبى ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ، وخلفك . فرأيت النـبى ﷺ أشرق وجهه وسره ، يعنى قوله)^(٢) .

هــ ، وبعد أن استيقن موسى (عليه السلام) من جبن بنى إسرائيل ، ووهن عزائمهم ، وتأكد من إصرارهم على النكول عن الجهاد في سبيل الله ، وسمع منهم الأقوال المنكرة ، بعد ذلك لجأ إلى ربه يشكو إليه سوء صنيع قومه ، فدعا : يارب ، إني لا أقدر على أحد أن أحمله على ما أحب وأريد من طاعتك ، واتباع أمرك ونهيك إلا نفسى وأخى ، فافصل بيننا وبين القوم الخارجين عن طاعتك ، المصـرّين على عصيانك ، بقضاء منك تقضيه فينا وفيهم ، فتبعدهم عنا .

قال تعالى : ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾^(٣) .

١ - تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٣٨ - ٣٩ .

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٧ ص ٢٨٧ .

٣ - قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ج١ ص ١٦٠ : (الفاسقين مهنا : الكافرين) .

(دعوة فيها الألم ، وفيها الالتجاء ، وفيها الاستسلام وفيها - بعد ذلك - المفاصلة والحسم والتصميم !

(وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه . . . ولكن موسى (عليه السلام) في ضعف الإنسان المخدول ، وفي إيمان النبي الكليم ، وفي عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجهاً إلا الله ، يشكوله بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين . فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق . . ما يربطه بهم نسب ، وما يربطه بهم تاريخ ، وما يربطه بهم جهد سابق ، إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله ، وهذا الميثاق مع الله . وقد فصلوه ، فأنبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق . وما عاد يربطه بهم رباط . . إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون . . إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون . .

(هذا هو أدب النبي ، وهذه هي خطة المؤمن ، وهذه هي الأصرة التي يجتمع عليها أو يفترق المؤمنون . . لا جنس ، لا نسب ، لا قوم ، لا لغة ، لا تاريخ ، لا وشيجة من كل وشائج الأرض ، إذا انقطعت وشيجة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق)^(١) .

وفي الآية تصريح بأنه (عليه السلام) يملك أمر أخيه هرون كما يملك أمر نفسه ؛ ولعل ذلك لمؤازراته التامة له في كفاحه ظلم فرعون ، ولوقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة في كل موطن من مواطن الشدة ، وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله عز وجل .

قال الزمخشري : (فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران ؟ قلت : كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ، ولم يطمئن إلى ثباتهما ؛ لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه ، وتلونهم وقسوة قلوبهم ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره . ويجوز أن يكون قال ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم قليلاً لمن يوافقه ، ويجوز أن يريد : ومن يؤاخيني على ديني)^(٢) .

هذا ، وقد استجاب الله تعالى لموسى (عليه السلام) دعاءه وقضى بالجزاء العدل على القوم الفاسقين ، بأن منعهم من دخول الأرض المقدسة مدة أربعين سنة - عقوبة لهم - يحارون في الأرض ويضلون ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون . ثم قال تعالى لموسى (عليه السلام) : فلا تحزن عليهم بسبب هذه العقوبة ؛ لأننا ما ظلمناهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، نخرجهم عن الطاعة ومخالفة الأوامر وجنهم عن القتال . فلينالوا ما يستحقون من تأديب ، وليعلموا أن للنصر ثمناً يناسبه ، وأن عاقبة النصر للمتقين .

١ - في حواشي القرآن ج ١ ص ٨٧١ .

٢ - الكشف ج ١ ص ٦٠٥ .

قال تعالى : ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ (١) .

قال الطبرى : (فإن قال قائل : فكيف قال : (التى كتب الله لكم) وقد علمت أنهم لم يدخلوها بقوله : ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ ؟ فكيف يكون مثبتاً فى اللوح المحفوظ أنها مساكن لهم ومحرماً عليهم سكنها ؟

(قيل إنها كتبت لبني إسرائيل داراً ومساكن ، وقد سكنوها ونزلوها وصارت لهم ، كما قال الله عز وجل . وإنما قال لهم موسى : (ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) يعنى بها : كتبها الله لبني إسرائيل - وكان الذين أمرهم موسى بدخولها من بني إسرائيل - ولم يعن (عليه السلام) أن الله تعالى ذكره كتبها للذين أمرهم بدخولها بأعيانهم . .
(ولو قال قائل : قد كانت مكتوبة لبعضهم ولخاص منهم - فأخرج الكلام على العموم ، المراد منه الخاص ، إذ كان يوشع وكالب قد دخلا ، وكانا ممن خوطب بهذا القول - كان أيضاً وجهاً صحيحاً) (٢)

والظاهر ما سبق ذكره أن الأرض المقدسة كانت هبة من الله تعالى لقوم موسى (عليه السلام) . ثم حرّمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم ، إذ كان الوعد بقوله تعالى : ﴿ كتب الله لكم ﴾ مشروط بقيد الإيمان بالله تعالى وطاعته والجهاد فى سبيله ، وتنفيذ وامثال أوامر رسوله (عليه السلام) . فلما لم يوجد الشرط ، لا جرم منعهم الله تعالى من دخولها - وهم على أبوابها - وأسلمهم إلى التيه .

قال ابن خلدون : (فعاقبهم الله بالتية ، وهو أنهم تاهوا فى قفر فى الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران ، ولا نزلوا مصر ، ولا خالطوا بشراً كما قصه القرآن ، لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه . ويظهر من مساق الآية الكريمة ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة ، وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به ، وأفسدوا من عصيتهم ، حتى نشأ فى التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاستعباد والقهر ، ولا يسام المذلة والخسف ، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى ، اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة ، أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر ، سبحانه الحكيم العليم) (٣) .

١ - قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ج١ ص ١٦٠ : (يتيهون فى الأرض : يحارون ويضلون . فلا تأس على القوم الفاسقين : لا تحزن ؛ يقال : أسيت عليه) .

٢ - تفسير الطبرى ج١ ص ١٦٩ .

٣ - مقدمة ابن خلدون ج٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، الفصل ١٩ الباب الثانى من الكتاب الاول .

ثم لما انقضت السنون التي حرم الله عز وجل عليهم فيها دخول الأرض المقدسة ، أذن سبحانه لمن بقي منهم وذرائعهم بدخولها ، حيث افتتحوا قرية الجبارين . ثم أباح تعالى لهم كل ما فيها من الطيبات ، موسعاً عليهم بغير حساب ، وأمرهم أن يدخلوا الباب سجداً ، ويقولوا : سجدونا هذا لله حطة من ربنا لذنوبنا يحط به آثامنا . ولعل هذه الكلمات كانت رحمة من الله لهم ؛ ليتوب عليهم ، ويتغمد لهم ذنوب المذنب منهم فيسترها عليه ، ويحط أوزاره عنه ، وليزيد المحسن منهم إحساناً إلى إحسانه . ولكن الظالمين منهم لم يتلقوا هذه الكلمات على الوجه المطلوب ، ولم يقابلوا هذه النعمة الجليلة بالطاعة والشكر ، بل قابلوها بالجحود والبطر . فكانت عاقبة أمرهم أن أنزل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب فسوقهم وظلمهم .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ (٢) .

يبدو من سياق هذه الآيات الكريمة أنها متفقة فى المعنى ؛ ولهذا سنتناول بالشرح آيتى سورة البقرة ، وبالتالي سيكون فى ذلك الشرح بيان للمقصود من آيتى سورة الأعراف .

(والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ، وأبعناهم أن يأكلوا من خيراتها أكلاً هنيئاً ذا سعة وقلنا لهم : ادخلوا من بابها راكعين شكراً لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة ، متوسلين إليه سبحانه بأن يحط عنكم ذنوبكم) (٣) .

قال الحافظ ابن كثير : (وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون (عليه السلام) ، وفتحها الله عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب ، باب البلد (سجداً) أى شكراً لله تعالى

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٥٨ - ٥٩ .

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٦١ - ١٦٢ .

٣ - التفسير الوسيط للقرآن الكريم ص ١٧٦ .

على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، وردّ بلدهم عليهم ، وإنقاذهم من التيه والضلال (١) .

قال الطبري : (يعنى بقوله تعالى : ﴿ نغفر لكم خطاياكم ﴾ نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم ، ونسترها عليكم ، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها) (٢) .

وقال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص ، وسيزيد فى إحسان من هو محسن ، أى نزيدهم إحساناً على الإحسان المتقدم عندهم . والمحسن : من صحح عقد توحيدهِ وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه وكفى المسلمين شره . وفى حديث جبريل عليه السلام : (ما الإحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال صدقت) (٣) الحديث (٤) .

وعلى هذا يُفهم أن الله تبارك وتعالى نصر بنى إسرائيل على أعدائهم فدخلوا القرية ، وأباح لهم الأكل من كل طيباتها ، ولكن أمرهم أن يدخلوها فى هيئة خشوع وخضوع وأن يدعوا الله العظيم ، الذى أنعم عليهم بهذا النصر ؛ ليغفر لهم ذنوبهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم . ووعدهم إن امتثلوا هذا الأمر ، أن يغفر خطاياهم ، وأن يزيد المحسنين منهم من فضله ونعمته . فماذا كان منهم بعد هذا كله ؟

لقد جهلوا أعظم جهالة ، وأساءوا طاعة ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، مع عظيم آلاء الله عز وجل عندهم ، ورعايته لهم ، وعجيب ما أراهم من آياته وعبره . إنهم لم يفعلوا ما أمروا به عند دخولهم القرية ، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله ، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل ، فذاق الظالمون منهم وبال أمرهم ، وكان عاقبة أمرهم خسراً .

قال تعالى : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (٥) .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال : (قيل لبنى إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا ، وقالوا : حطة حبة فى شعرة) (٦) .

١ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٩٨ .

٢ - تفسير الطبري ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٥٧ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٤١٥ .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٥٩ .

٦ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ١٦٤ .

قال الحافظ ابن كثير : (وحاصل ما ذكره المفسرون ، ومادل عليه السياق ، أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمرُوا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رءوسهم ، وأمرُوا أن يقولوا : حطة ، أى أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا ، فاستهزؤوا فقالوا : حطة في شعيرة . وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم ، وهو خروجهم عن طاعته (١) .

فقوله تعالى : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ بيان للسبب الذى من أجله نزل عليهم العذاب ، وتوبيخ لهم على انحرافهم ومعصيتهم وجحودهم . والمعنى : فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به قولاً آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان .

(ويخص الذين ظلموا بالذكر ؛ إما لأنهم كانوا فريقاً منهم هو الذى بدّل وظلم ، وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعاً ، إذا كان قد وقع منهم جميعاً) (٢) .

والظاهر أنه فريق منهم هو الذى بدّل وظلم ؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ الآية (٣) .

قال الزخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ قال : (أى وضعوا مكان (حطة) قولاً غيرها ، يعنى أنهم أمرُوا بقول معناه التوبة والاستغفار ، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمرُوا به ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمرُوا بلفظ بعينه وهو لفظ (الحطة) فجاءوا بلفظ آخر ؛ لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمرُوا به لم يؤخذوا به ، كما لو قالوا مكان حطة : نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم اعف عنا ، وما أشبه ذلك) (٤) .

وقال البيضاوى : (فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم : بدّلوا بما أمرُوا به من التوبة والاستغفار طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ، (فأنزلنا على الذين ظلموا) كرهه مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه ، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها ، (رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم ، والرجز في الأصل ما يعاف عنه ، وكذلك الرجز ، والمراد به الطاعون . رُوى أنه مات به في ساعة أربعة وعشرون ألفاً) (٥) .

١ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٩٩ .

٢ - في ظلال القرآن ج١ ص ٧٣ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٦٢ .

٤ - الكشف ج١ ص ٢٨٣ .

٥ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج١ ص ٥٨ .

هذا ، وللدكتور محمد سيد طنطاوى كلام حسن فى ما تضمنته الآيتان الكريمتان - من سورة البقرة - اللتان نحن بصدد تفسيرهما ، نرى من المناسب تسجيله هنا ، فقد قال : (إن بنى إسرائيل مُكِّنُوا من النعمة ، فنفروا منها . وفتحت لهم أبواب الخير ، فأبوا دخولها . وأرشدوا إلى القول الذى يكفر سيئاتهم فخالفوا ما أرشدوا إليه مخالفة لا تقبل التأويل ، فكانت نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله حرمانهم من تلك النعمة إلى حين ، ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم . وفى هذا التذكير امتنان عليهم ببذل النعمة ؛ لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة . وفيه إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم . وفيه أيضاً تحذير لهم من سلوك طريق آبائهم ، حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من عذاب أليم) (١) .

وخلاصة ما سبق ذكره فى هذا المعرض هو : أن الله تعالى قضى بأن تكون الأرض المقدسة مساكن لبنى إسرائيل دون القوم الجبارين . ولكن لن ينالوا ذلك الشرف إلا بشرط أن يؤمنوا بالله العظيم ، ويمثلوا أوامره ، ويجاهدوا فى سبيله ، ويلتزموا له بالطاعة . ولكى تتبين حقيقة ذلك منهم ، أراد الله تبارك وتعالى أن يبتليهم ، فأمرهم على لسان رسوله موسى (عليه السلام) بدخول الأرض المقدسة وقتال القوم المقيمين فيها ، ووعدهم بأن الله تعالى ناصرهم ما نصره . ولكن بنى إسرائيل - لشدة خوفهم من القوم الجبارين - خالفوا الله ورسوله ولم يطيعوا أمره ، ونكلوا عن الجهاد فى سبيله ، وأصروا على عنادهم ، فكان جزاؤهم أن حرم الله عز وجل عليهم الأرض المقدسة مدة أربعين سنة ، يحارون فى الأرض ويضلون ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون .

ثم لما انتهت الأربعون سنة ، أذن الله تبارك وتعالى لمن بقى منهم وذرائعهم بدخول الأرض المقدسة ، ونصرهم على القوم الجبارين ، وأمرهم بأن يدخلوا الباب سجداً ويقولوا : (حطة) . ولكن الظالمين منهم قابلوا هذه الكلمة بالجحود والبطر ، فأنزل الله عز وجل عليهم عذاباً من السماء عقاباً لهم على ظلمهم وفسقهم .

قصة أصحاب السبت :

من خساسات بنى إسرائيل التى وقعوا فيها ، نتيجة ضعف إرادتهم أمام الأهواء والأطماع والمنافع القريبة ، خسة التحايل على الأوامر والنواهي الشرعية ؛ ذلك ليصلوا إلى مطامعهم

وشهواتهم . ولعل هذا كان ظناً منهم - لجهلهم وعدم فقههم - أنهم عن طريق التحايل على النصوص سيفلتون من المؤاخذة والعقوبة . وقصة أصحاب السبت ، كما جاءت في القرآن الكريم ، وهى صورة حية ناطقة ، تصوّر هذا الفسوق والجشع والتلاعب بالدين والتهالك على متاع الحياة الدنيا .

والحديث عن هذه الواقعة جاء مفصلاً في سورة الأعراف ، وبصورة مجملة في سورة البقرة . وفي سورة النساء ورد تصريح بعقوبة اللعن التى حاقت ببني إسرائيل ؛ بسبب تحايلهم على استحلال محارم الله تعالى ، كما ورد نص صريح فى نهى القوم عن الاعتداء يوم السبت . وفى سورة النحل إشارة إلى العقوبة التى حلت بهم بسبب تعديهم فى ذلك اليوم من أيام الأسبوع .

وفىما يلى نعرض الآيات التى تدل على قصة أصحاب السبت . قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ (١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾ (٢) .

﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ (٣) .

﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين . وإذا تأذن ربك ليمعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (٤) .

﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٥) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٦٥ - ٦٦ .

٢ - من سورة النساء : آية رقم ١٥٤ .

٣ - من سورة النحل : آية رقم ١٢٤ .

٢ - من سورة النساء : آية رقم ٤٧ .

٤ - من سورة الأعراف : الآيات من رقم ١٦٣ - ١٦٧ .

الظاهر من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى ابتلى بنى إسرائيل بالحيتان ، تكثروا السبت وتختفى في غيره . وقد نهاهم عن صيدها في ذلك اليوم ، وأمرهم ألا يأكلوها ولا يعرضوا لها . ولكن قوماً منهم تجاوزوا حدَّ الله تعالى وركبوا ما نهاهم عنه في يوم السبت ، وعصوا أمره تعالى ، فغضب سبحانه عليهم ومسحهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ، ولمن أتى بعدهم ، وموعظة للمتقين .

قال الأستاذ سيد قطب : (كان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة ؛ يتخذونه عيداً للعبادة ، ولا يشتغلون فيه بشئون المعاش ، فجعل لهم السبت . . ثم كان الابتلاء ، ليربهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ، وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع . . وكان ذلك ضرورياً لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً ؛ ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية ، ولتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضرورى لكل من يحملون دعوة الله ، ويؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض . . وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء . . فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذى لا بد أن تحتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف في الأرض . . إنما يختلف شكل الابتلاء ولا تتغير فحواه !

(ولم يصمد فريق من بنى إسرائيل - في هذه المرة - للابتلاء الذى كتبه الله عليهم ، بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تراءى لهم على الساحل ، قريبة المأخذ ، سهلة الصيد . فتفوتهم وتفلت من أيديهم ؛ بسبب حرمة السبت التى قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل ، لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة ، كما كانوا يجدونها يوم الحرم ! . . . وهذا ما أمر رسول الله ﷺ أن يذكرهم به ، ويذكرهم ماذا فعلوا ، وماذا لا قوا)^(١) .

قال تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيمهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيمهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾^(٢)

١ - فى ظلال القرآن ج٩ ص ١٣٨٣ . تصرف .

٢ - قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ج١ ص ٢٣٠ : (إذ يعدون فى السبت : إذ يتعدون فيه عما أمروا به ويتجاوزونه . (شرعاً) أى شوارع) .

(هذا السياق هو بسط لقوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ الآية . يقول تعالى لنبيه (صلوات الله وسلامه عليه) : (واسألهم) أى واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم . وهذه القرية هى أيلة على شاطئ بحر القلزم ^(١) .

قال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ أى واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم ، وما مسخ الله منهم قردة وخنازير . وهذا سؤال تقرير وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبي ﷺ ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم . وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ؛ لأننا من سبط خليله إبراهيم ، ومن سبط إسرائيل ، ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزيز ^(٢) ، فنحن من أولادهم . فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ : سلهم يا محمد ، عن القرية ، أما عذبتم بذنوبهم ؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة ؟ ^(٣) .

واختلف في المراد بهذه القرية ، ف قيل : هى قرية أيلة ، وهو قول كثير من المفسرين ، وقيل : هى قرية طبرية ، وقيل : هى مدين ، بين أيله والطور ، وقيل : هى مقناة . قال أبو جعفر : (والصواب من القول فى ذلك أن يقال : هى قرية حاضرة البحر ، وجائز أن تكون أيلة ، وجائز أن تكون مدين ، وجائز أن تكون مقناة ؛ لأن كل ذلك حاضرة البحر ، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأى ذلك من أى ، والاختلاف فيه على ما وصفت . ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه ، إلا بخبر يوجب العلم . ولا خبر كذلك فى ذلك) ^(٤) .

وعلى أية حال فهذه القرية : (كانت حاضرة البحر) أى بقرب البحر وعلى شاطئه . وكان أهلها يتجاوزون أمر الله تعالى إلى ما حرّمه عليهم من صيد الحيتان يوم السبت ، حيث كانت تأتهم فى ذلك اليوم شوارع ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية . أما فى سائر الأيام غير يوم السبت فلا تأتهم حيتانهم ؛ وذلك ابتلاء من الله تعالى واختبار لهم فى يومهم المعظم .

١ - تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

٢ - زعمت اليهود أن عزيز ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . قال سبحانه - فى سورة التوبة آيه رقم ٣٠ - : ﴿ وقال اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أن يؤفكون ﴾ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج٧ ص ٣٠٤ .

٤ - تفسير الطبرى ج١٣ ص ١٨٢ .

قال تعالى : ﴿... إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ الآية .

(قال ابن عباس ومجاهد : إن اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به ، يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت ، فابتلاهم الله به وحرم عليهم الصيد فيه ، وأمروا بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر . فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل . وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله : ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ الآية (١) .

وقال القرطبي : (روى في قصص هذه الآية أن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض . فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها ؛ لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ أى مثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور الحيتان على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيدها ، واختفائها في أيام الحل ، بمثل هذا نبتليهم ؛ وذلك بسبب فسقهم عن طاعة الله تعالى وخروجهم عنها . وهذا يدل على أن من أطاع الله عز وجل خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة : ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن . وبهذا جرت سنة الله تعالى ، واقتضت حكمته وعدالته . قال تعالى : ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ (٣) .

ثم بين الله سبحانه وتعالى فرق هذه القرية وحال كل فريق بقوله : ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون﴾ .
الظاهر من هذه الآية الكريمة أن أهل القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة عاصية محتالة ، وفرقة تقف في وجه المعصية والاحتياال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة ، وفرقة تقف موقف الإنكار السلبي وتدع المنكر وأهله ، ولا تدفعه بعمل إيجابي ، بل لامت الفرقة الثانية على وعظهم للفرقة الأولى ؛ وذلك لئلا يسهم من صلاح المتجاوزين لحدود الله تعالى بارتكاب المحظور يوم السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هي التي عناها الله تعالى بقوله : ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ الآية . والمعنى : قالت جماعة من أهل القرية لجماعة

١ - التفسير الكبير ج ١٥ ص ٣٧ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج ٧ ص ٣٠٦ .

٣ - من سورة فصلت : آية رقم ٤٦ .

أخرى كانت تعظ المخالفين لأمر الله تعالى ، المتعدين حدوده بصيد الحيتان يوم سبتهم ، قالت : لم تنصحون هؤلاء القوم ؟ إنه لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من نهيهم عن المنكر ؛ لأن الله قد قضى بهلاكهم ، لمعصيتهم إياه واستحلالهم ما حرم عليهم ، أو قضى بتعذيبهم عذاباً شديداً في الآخرة جزاء بما كانوا يعملون . هنالك أجابهم الواعظون بقولهم : نصحن إياهم وتذكيرنا لهم بالعواقب إنما هو معذرة إلى الله تعالى ، نؤدى فرضه علينا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولعلمهم بهذا الوعظ يمثلون أوامر الله ويحجبون نواهيه ، أو يخافون الله عز وجل ، وينيبون إلى طاعته ، ويتوبون مما هم فيه من المعصية وارتكاب المحذور .

قال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت أمة منهم ﴾ الآية . قال : (هم جماعة من أهل القرية ، يعنى : صلحاءهم الذين اجتهدوا فى موعظتهم حتى أيسوا من اتعاضهم ﴾ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ مخترمهم (أو معذبهم عذاباً شديداً) فى الآخرة ؛ لتماديهم فى العصيان . قالوه مبالغة فى أن الوعظ لا ينفع فيهم ، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه . وكأنه تقول بينهم ، أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعو منهم . وقيل : المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاضهم ، رداً عليهم وتهكماً بهم (١) .

(قال جمهور المفسرين : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق : فرقة عصت وصادت ، وكانت نحو سبعين ألفاً ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص ، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص . فقالت الطائفة التى لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية : ﴿ لم تعظون قوماً ﴾ يريدون الفرقة العاصية ﴿ الله مهلكهم أو معذبهم ﴾ قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به سنة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك . فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون . ولو كانوا فرقتين فقط : ناهية غير عاصية ، وعاصية ، لقال : لعلكم تتقون (٢) .

فلما لم يُجد النصيح ، ولم تنفع العظة ، وأعرض العصاة المحتالون إعراضاً كلياً عما ذكرهم به صلحاؤهم بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ ، وسدروا فى غيهم ، آنذاك حل العذاب الشديد بالظالمين المعتدين ؛ بسبب فسقهم وظلمهم وخروجهم عن الطاعة . وأما الذين كانوا ينهون عن السوء فقد أنجاهم الله عز وجل ، فى حين أن الفرقة التى لامت الواعظين على وعظهم للمعتدين لم يرد ذكرها بعد ذلك ، وكأنها أهملت وسُكت عنها ؛ تهوينا لشأنها لوقوفها موقف الإنكار السلبى .

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج١ ص ٣٧٤ .

٢ - فتح القدير ج٢ ص ٢٥٧ .

قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ (١) .

(يقول تعالى ذكره : فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبب ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه ، وضيعت ما وعظتها الطائفة الواعظة وذكرتها به ، من تحذيرها عقوبة الله على معصيتها ، فتقدمت على استحلال ما حرم الله عليها ، أنجى الله الذين يهون منهم عن (السوء) - يعنى عن معصية الله واستحلال حرمه - ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ يقول : وأخذ الله الذين اعتدوا في السبب ، فاستحلوا فيه ما حرم الله من صيد السمك وأكله ، فأحل بهم بأسه ، وأهلكهم بعذاب شديد بئيس بما كانوا يخالفون أمر الله ، فيخرجون من طاعته إلى معصيته ، وذلك هو الفسق) (٢) .

وأما الفرقة الثالثة التي لم تعص ولم تنه عن المنكر ، فقد اختلف في مصيرها . ف قيل : إنها هلكت مع الفرقة العاصية ؛ عقوبة لها على ترك النهي عن المنكر ، فضلاً عن أنها لامت الناصحين لغيرهم . ويرى كثير من المفسرين : أنها كانت من الناجين من العذاب ؛ لأنها كانت منكراً للمنكر ، مستقبحة لما فعله العصاة المحتالون في السبب ، ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبه . وإذا كانت قد ارعوت عن الوعظ للقوم المعتدين ، فليأسها من صلاحهم ، ومن فائدة النصح لأمثالهم ، وليقينها بأن أولئك القوم الظالمين قد استحقوا عقاب الله تعالى بإصرارهم على المعصية .

قال الزمخشري : (فإن قلت : الأمة الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ الآية ، من أى الفريقين هم ؟ قلت : من فريق الناجين ؛ لأنهم من فريق الناهين . وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم ، وإذا علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى ، وربما وجب الترك ؛ لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر ، والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك . أما الآخرون فلم يعرضوا عنهم ؛ إما لأن يأسهم لم يستحكم وجدهم في أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام

١ - قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ج١ ص ٢٣١ : (بعذاب بئيس : أى شديد)

٢ - تفسير الطبرى ج١٣ ص ١١٩ .

في قوله : ﴿ فلعلك باخع ﴾^(١) نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً^(٢) ﴿^(٣) .

وعما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير ، قوله تعالى : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ وعلى هذا يفهم أن الفرقة الثالثة التي لم تنه ولم تعص ، كانت من الناجين من العذاب ، مع أنها سكت عنها ولم يُنص على نجاتها ؛ والسكوت في موضع البيان بيان . والله أعلم .

قال الحافظ ابن كثير : (فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأنَّ الجزء من جنس العمل . فهُم لا يستحقون مدحاً فيمدحون ، ولا ارتكبو عظيماً فيذموا . ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من المالكين أو من الناجين على قولين)^(٤) .

ثم بين الله سبحانه وتعالى العذاب البئيس الذي أصابهم فقال : ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ .

(قوله تعالى : ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ صاغرين أذلاء بعداء عن الناس . والمراد بالأمر هو الأمر التكويني لا القولي ، وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للإيدان بأنه ليس لخصوصية الحوت ، بل العمدة في ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى . وقيل : المراد بالعذاب البئيس هو المسخ ، والجملة الثانية تقرير للأولى)^(٥) .

وقال الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسير هذه الآية : (قيل : إنَّ هذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة ، وقيل : هو عذاب آخر ، وأن الله عاقبهم أولاً بالبؤس والشقاء في المعيشة ؛ لأنَّ من الناس من لا يربيه ويهذبه إلا الشدة والبؤس ، كما أن منهم من يربيه ويهذبه الرخاء والنعمة ، وبكل يبتلى الله عباده ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾^(١) الآية ، وقال في بنى إسرائيل : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم

١ - قال الراغب الأصفهاني في المفردات ص ٣٨ : (بخع : البخع قتل النفس غمًا ، قال تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ حث على ترك التأسف) .

٢ - من سورة الكهف : آية رقم ٦ .

٣ - الكشف ج ٢ ص ١٢٦ بتصرف .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٥٧ .

٥ - تفسير ابى السعود ج ٢ ص ٤٢٤ .

٦ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٣٥ .

يرجعون ﴿١﴾ الآية . ولكن هؤلاء القوم لم يزدتهم البؤس والسوء إلا عتواً وإصراراً على الفسق والظلم ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، ومسحهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل ، أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها ، وإفسادها لما تصل إليه أيديها . والأول قول الجمهور ، والثاني قول مجاهد ، قال : مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق ﴿٢﴾ .

تلك العقوبة الرادعة كانت جزاء إمعانهم في مخالفة أوامر الله تعالى ، واستحلال محارمه ، وتجاوز حدوده ، وامتناعهم عن قبول وعظ الواعظين لهم ، وضعف إرادتهم أمام مقاومة الأطماع ، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان ؛ لتخليهم عن خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله عز وجل . وبهذا أصبحوا حيث أرادوا لأنفسهم من الذل والصغار والهوان .

وهكذا مضت هذه العقوبة عبرة زاجرة للمخالفين في زمانها وفيما يليه ، وموعظة نافعة للمؤمنين في جميع العصور .

١ - من سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

٢ - تفسير المنار ج٩ ص ٣٧٩ .

المبحث الرابع

ابتلاء قوم طالوت

كانت حياة بني إسرائيل في فترة من الفترات التي تلت زمن موسى (عليه السلام) ، حياة شدة وذل وهوان ، حيث ضاع ملكهم ، ونهبت مقدساتهم ، وذلوا لأعدائهم ، أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وذاقوا الويل ؛ بسبب انحرافهم عن هدى ربهم وتعاليمه التي جاءهم بها أنبياءهم .

قال ابن جرير الطبري : (ثم مرج أمر بني إسرائيل ، وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء فسلب الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ، ويسفكون دماءهم ، وسلب عليهم الأعداء من غيرهم . وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق ، ويسميه أهل الكتاب ، (تابوت العهد) فيه ألواح موسى وعصاه . وقد كانوا ينصرون ببركته . فلما كانوا في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان ، غلبوهم على أخذه ، فانتزعوه من بين أيديهم ، ومات ملكهم كمداء . وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع ، حتى بعث الله إليهم نبياً من الأنبياء يقال له : شمويل ، وأهل الكتاب يقولون : صمويل . فطلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً منهم ليقاتلوا معه الأعداء . فكان من أمرهم ما قص الله علينا في كتابه العزيز)^(١) .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ اإِبْعَثْ لَنَا مَلَكًا نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنْ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنْ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَةً مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنْ آيَةً مَلِكُهُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنْ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ

١ - تاريخ الطبري ج ١ ص ٤٦٤ إلى ٤٦٦ ، بتصرف .

ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا للجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين . تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴿١﴾ .

يلاحظ أن سياق هذه الآيات يتعلق بسياق الآيات التي قبلها ، وذلك أن الله تعالى لما شرع القتال بقوله : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ (٢) ثم أمر المسلمين بإنفاق المال في سبيل الله ؛ لما له من التأثير في كمال المراد بالقتال ، ذكر بعد ذلك قصة بنى إسرائيل ، وهى أنهم لما أمروا بالقتال نكثوا وخالفوا ، فذمهم الله تعالى عليه ، ونسبهم إلى الظلم . والمقصود من هذا ألا يُقدم المأمورون بالقتال من هذه الأمة المسلمة على المخالفة ، وأن يكونوا مستمرين في القتال مع أعداء الله تعالى ، لإعلاء كلمة الله عز وجل .

وهكذا يورد السياق القصة . ويصوّر حال القوم من بنى إسرائيل وقد وُجدوا من بعد موسى (عليه السلام) ، حين قالوا لنبي لهم : اختر لنا ملكاً يقيّد زمامنا ، نتألف تحت رايته ، ونجمع أمرنا تحت زعامته ، ونكون تحت طاعته ؛ لعلنا به نغلب عدو الله ، ويكتب الله تعالى لنا النصر .

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل (٣) من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم (٤) إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ (٥) .

(قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ الاستفهام هنا للتعجيب والعبرة ، والخطاب لكل من بلغه ، والرؤية بمعنى العلم ، والعبرة استعملت استعمال المثل ، فهى توجه إلى من لم ير ولم يعلم بذلك ، والتقدير : ألم ينته علمك أيها المخاطب إلى حال هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى الذين قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله (٦) .

١ - من سورة البقرة : الآيات من ٢٤٦ - ٢٥٢ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٤٤ .

٣ - قال أبو عبيدة في جاز القرآن ص ٧٧ . (الملأ من بنى إسرائيل : وجوهمهم ، وأشرفهم) .

٤ - في المرجع السابق ص ٧٧ قال أبو عبيدة : (هل عسيتم : هل تجدون أن تفعلوا ذلك) .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٤٦ .

٦ - تفسير المنار ج ٢ ص ٤٥٦ .

قال الطبرى : (يعنى تعالى ذكره بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّد ، بقلبك ، فتعلم بخبرى إياك (إلى الملائكة) يعنى : إلى وجوه بنى إسرائيل وأشرافهم ورؤسائهم (من بعد موسى) يقول : من بعد ما قبض موسى فمات (إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله) فذكر لى أن النبى الذى قالوا له ذلك : شمويل (١) .

وقال الأستاذ سيد قطب : (أَلَمْ تَرَ ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور .. لقد اجتمع الملائكة من بنى إسرائيل ، من كبارهم وأهل الرأى فيهم - إلى نبى لهم . ولم يرد فى السياق ذكر اسمه ؛ لأنه ليس المقصود بالقصة ، وذكره هنا لا يزيد شيئاً فى إيحاء القصة . وقد كان لنبى إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون فى تاريخهم الطويل .. لقد اجتمعوا إلى نبى لهم ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته (فى سبيل الله) .. وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه فى (سبيل الله) يشير بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم ، ويقظة الإيمان فى نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ، ووضوح الطريق أمامهم للجهاد فى سبيل الله . وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر . فلا بد للمؤمن أن يتضح فى حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ، ولا بد أن يتجرد فى حسه الهدف .. فى سبيل الله .. فلا يغشيه الغش الذى لا يدرى معه إلى أين يسير (٢) .

ويبدو من سياق هذه الآية - التى نحن بصددھا - أن نبههم قد عرفهم معرفة المجرب الحكيم ، فأراد أن يستوثق من صدقهم فيما يعرضون عليه من الأمر ، فقال لهم : يا قوم ، إني أتوقع منكم عملاً يخالف أقوالكم ، أتوقع تحاذلكم إذا فرض عليكم القتال ، وتواكلكم حينما يدعوكم داعى الجهاد . فاستنكروا أن يقع ذلك منهم ، وقالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ؟ وأتى شيء أصابنا واستقر عندنا حتى لا نقاتل فى سبيل الله ؟ كيف نتخاذل ونتواكل وهذا هو مقتضى القتال حاصل ؟ فقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ، ومنعنا من أبنائنا ، وأتى حال أسوأ مما نحن فيه ؟ وأتى ذل أشد مما ابتلينا به !

وقد حصل ما توقعه نبههم ، فإنه لما تحققت رغبتهم ، وتم أملهم ، واستجيب طلبهم ، وفرض الله (تعالى) عليهم القتال ، نقضوا العهد ، ونكثوا بالوعد ، وتفلتوا من الطاعة ، ونكصوا عن التكليف ، وأدبروا مولين عن القتال ، وضيّعوا ما سألوهم نبههم من فرض الجهاد . إلا جماعة قليلة منهم . ذلك لأن نفوسهم لم تكن طاهرة صادقة ، ولم تكن أرواحهم قد ملئت بالنور والإيمان ؛ ولذلك انتحلوا المعاذير وعللوا أنفسهم بالتعالييل . وهكذا الأمم الميئة . والله عليم بالظالمين لأنفسهم بتركهم الجهاد فى سبيل الله .

١ - تفسير الطبرى ج ٢ ص ٢٩١ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ٢ ص ٢٦٦ .

قال الأستاذ المراغى : (والله عليم بالظالمين : أى الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد دفاعاً عنها ، وحفظاً لحقوقها ، فيصبحون فى الدنيا أذلاء مستضعفين ، وفى الآخرة أشقياء معذيين . وفى هذا وعيد لأمتهم لا يخفى)^(١) .

ثم فصل ما وقع بين النبى (عليه السلام) وبين قومه حين طلبوا منه ملكاً عليهم . قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى (٢) يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه (٣) عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم (٤) والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾^(٥) .

قال الفخر الرازى : (اعلم أنه لما بين فى الآية الأولى أنه أجابهم إلى ما سألوا ، ثم إنهم تولوا ، فبين أن أول ما تولوا إنكارهم إمرة طالوت ؛ وذلك لأنهم طلبوا من نبيهم أن يطلب من الله أن يعين لهم ملكاً ، فأجابهم بأن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً . ولما عرفوا ذلك ، أظهروا التولى عن طاعته ، والإعراض عن حكمه ، وقالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ واستبعدوا جداً أن يكون هو ملكاً عليهم . قال المفسرون : وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل ، وهو سبط لاوى بن يعقوب ، ومنه موسى وهرون ، وسبط المملكة سبط يهوذا ، ومنه داود وسليمان ، وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين ، بل كان من ولد بنيامين ؛ فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم ، وزعموا أنهم أحق بالملك منه . ثم إنهم أكدوا هذه الشبهة بشبهة أخرى وهى قولهم : ﴿ ولم يؤت سعة من المال ﴾ ، وذلك إشارة إلى أنه فقير . واختلفوا ، فقال وهب : كان دُبَاغاً ، وقال السدى : كان مكارياً ، وقال آخرون : كان سقاء)^(٦) .

جاء فى تفسير المنار : (ولا يصح كلامهم فى بيت الملك ؛ لأنه لم يكن فيهم ملوك قبله ، وفيهم سعة المال التى تؤهله للملك فى رأى القائلين ، لا تدل على أنه كان فقيراً . وإنما العبرة فى العبارة هى مادلت عليه من طباع الناس ، وهى أنهم يرون أن الملك لا بد أن يكون وارثاً للملك ، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، وذا مال عظيم يدبر به الملك . والسبب فى هذا أنهم قد اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء ، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية ، فبين الله تعالى فيما حكاه عن نبيه فى أولئك القوم أنهم

٢ - قال الراغب فى المفردات ص ٢٩ : (أنى : للبحث عن الحال والمكان ؛ ولذلك قيل : هو بمعنى أين وكيف ؛ لتضمنه معناهما) .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٤٧ .

٦ - التفسير الكبير ج ٦ ص ١٧٢ - ١٧٣ بتصرف .

١ - بتفسير المراغى ج ٢ ص ٢١٧

٣ - جاء فى مختار الصحاح ص ٣٦٦ : (اصطفاه : اختاره) .

٤ - قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن ص ٧٧ : (بسطة فى العلم والجسم : أى زيادة ، وفضلاً وكثرة) .

مخطئون في زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال بقوله : ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ الآية (١).

قال البيضاوي : (لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه ، رد عليهم ذلك : أولاً - بأن العمدة فيه اصطفاه الله تعالى ، وقد اختاره عليكم ، وهو أعلم بالمصالح منكم . وثانياً - بأن الشرط فيه وفور العلم ؛ ليتمكن من معرفة الأمور السياسية . وجسامة البدن ؛ ليكون أعظم خطراً في القلوب ، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب ، لا ما ذكرتم ، وقد زاده الله فيها ، وقد كان الرجل القائم بمد يده فينال رأسه . وثالثاً - بأنه تعالى مالك الملك على الإطلاق ، فله أن يؤتیه من يشاء . ورابعاً - بأنه تعالى (واسع) (٢) الفضل ، يوسع الفضل على الفقير ويغنيه (عليم) بمن يليق بالملك وغيره (٣) .

وهذه أمور من شأنها أن تصحح تصوّر بني إسرائيل ، وأن تجلو عن أذهانهم ما علق بها من غيش . ولكن طبيعة القوم لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها ، بل لا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين . وسياق الآية التالية يدل على أن القوم لم يقتنعوا بما ساق لهم نبيهم من الحكمة في اختيار طالوت ملكاً عليهم ، وظلوا معاندين ، فأوحى الله تعالى إليه أن يسوق دليلاً مادياً على صحة ملكه وقيادته .

قال الله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ (٤) من ربكم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٥) .

(يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرّد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم (فيه سَكِينَةٌ من ربكم) قيل : معناه فيه وقار وجلالة . وقيل : فيه ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وقيل : السكينة لها وجه كوجه الإنسان ثم هي روح هفاقة . وقيل : هي روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء ، تتكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون) (٦) .

قال الطبري - بعد أن ذكر عدة أقوال في معنى السكينة : (وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة ما قاله عطاء بن أبي رباح : من الشيء تسكن إليه النفوس من الآيات التي

نفسه المار ج ٢ ص ٤٧٧

٢ - قال الراغب في المفردات ص ٥٢٣ : (وقوله ﴿ والله واسع عليم ﴾ - فعبرة عن سعة قدرته وعلمه ورحمته وإفضاله) .

٣ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ١ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٤ - قال الراغب في المفردات ص ٢٣٧ : (وقيل السكينة والسكن واحد ، وهو زوال الرعب ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم ﴾ وما ذكر أنه شيء رأسه كراس الهر فما أراه قولاً يصح () .

٥ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٤٨ .

٦ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٠١ ، بتصرف .

يعرفونها . وذلك أن السكينة في كلام العرب : الفعيلة ، من قول القائل : سكن فلان إلى كذا وكذا : إذا اطمأن إليه وهدأت عنده نفسه ، فهو يسكن سكناً وسكينة (١) .

(وقيل : إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت ، واستقر في أيديهم ، وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم ، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم ، فوضعوه تحته ، فلما كان اليوم الثالث : إذا التابوت فوق الصنم ، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخرجوه من بلدهم ، وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم ، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوها ، فيقال : إن الملائكة ساقتهما حتى جاءوا بهما ملأً بنى إسرائيل ، وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك . فالله تعالى أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة ، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية ، والله أعلم ، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم (٢) .

(وقوله تعالى : ﴿ وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هرون ﴾ هي رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة ، وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى (عليه السلام) . وألها : أبناؤهما أو أنفسهما ، والأل مقحم لتفخيم شأنهما ، أو أنبياء بنى إسرائيل . (تحمله الملائكة) حال من التابوت . أى إن آية ملكه إتيانه حال كونه محمولاً للملائكة (٣) .

وقال صاحب تفسير المنار : (وختم الآية بقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ قالوا : يحتمل أن يكون هذا تنمة كلام نبي بنى إسرائيل لهم . أى إن في مجيء التابوت علامة أو حجة لكم تدلّ على عناية الله بكم ، واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم ، وينكل بأعدائكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تفرّقوا عنه . ويحتمل أن يكون استئناف كلام منه تعالى لهذه الأمة معناه : أن فيما أوحاه الله تعالى إلى نبيه (عليه السلام) من هذه القصة آية بيّنة على نبوته ، إذ لولا الوحي لما كان يعرفها وهو ﷺ الأُمى الذى لم يقرأ ولم يتعلّم شيئاً . وإنما يكون ذلك آية بيّنة وعبرة نافعة لمن يؤمن بالله وآياته التى يؤيد بها أنبياءه ورسله عليهم السلام (٤) .

والخلاصة - يبدو أن القوم من بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم آية تدلّ على أنه تعالى

١ - تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

٢ - قصص الأنبياء ج ٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

٣ - تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٧٤ .

٤ - تفسير المنار ج ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

١ صطفى طالوت وملكه عليهم . فقال لهم : إن آية ملكه أن يأتاكم التابوت^(١) ، وفيه سر تسكن إليه نفوسكم ، وتطمئن إليه ضمائرکم ، خاصة عندما تحملونه في ميدان القتال . وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هرون ، وسيأتى تحمله الملائكة ؛ تشريفاً وتعظيماً له . ولعل هذا التابوت كان له شأن في بنى إسرائيل عظيم ، ولما فرطوا فيه أخذ منهم زمناً طويلاً . ثم جعل لهم نبيهم عودته في بيت طالوت دليلاً من الله تعالى على صدق خبره إياهم ليقروا بصدقه ، فقال لهم : إن في عودة التابوت بما فيه من السكينة وتركة آل موسى وآل هرون ، إن في هذا علامة وحجة لكم إن كنتم عند مجيئه كذلك مصدقاً بما قلت لكم وأخبرتكم به من أمر طالوت وملكه .

ويظهر من سياق الآيات التالية لهذه الآية ، أن هذه الحارقة وقعت فعلاً ، فانتهى القوم منها إلى اليقين .

قال الطبرى : (فأتاهم التابوت فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، فصَدَّقُوا عند ذلك نبيهم ، وأقروا بأن الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم ، وأذعنوا له بذلك . يدل على ذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ الآية . وما كان ليفصل بهم إلا بعد رضاهم به ، وتسليمهم الملك له ؛ لأنه لم يكن ممن يقدر على إكراههم على ذلك ، فيظن به أنه حملهم على ذلك كرهاً)^(٢) .

ولما أعد جيشه ، وانفصل بمن أطاعه من بنى إسرائيل ، وخرج بهم من بلدهم ، أراد أن يختبرهم بشيء ليعلم صدق نيتهم في الخروج معه واتباعهم له ، وليقف على حالهم ، فيختار المطيع الممثل الذى يرجى بلاؤه في القتال ، وثباته حين النزال ، ويبعد من يظهر عصيانه ، ويخشى في الوغى خذلانه . فقال لهم : إن الله يختبركم - وهو أعلم بكم - بنهر يعترضنا في الطريق ، فمن شرب منه فليس من أتباعى وأشياعى ، ومن لم يتذوقه فإنه من حزبي وأنصارى ، ومن تناول قليلاً من الماء - وهو غرفة تؤخذ باليد - فلا تثريب عليه فهو منى . فكانت نتيجة الاختبار أن شربوا منه ، إلا قليلاً منهم ، صبروا مع طالوت على طاعة الله عز وجل ولم يخالفوا أمره .

١ - الرأب في المفردات ص ٧٢ : (أن يأتاكم التابوت) قيل : كان شيئاً منحوتاً من الخشب فيه حكمة ، وقيل : عبارة عن القلب والسكينة وعما فيه من العلم ، وسُمي القلب سَفَطَ العلم وبيت الحكمة وتابوته ووعاءه وصندوقه ، وعمل هذا قيل : اجعل سرك في وعاء غير سرب ، وعلى تسميته بالتابوت قال عمر لابن مسعود (رضى الله عنهما) : كَتَيْفٌ مُلِئٌ عِلْماً .
٢ - تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٣٨ .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ^(٢) فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً ^(٣) يَدَهُ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ، هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ ^(٤) كَمْ مِنْ فِئَةٍ ^(٥) قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(٦) .

(قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ الآية ، أى انفصل عن بيت المقدس مصاحباً لهم لقتال العمالقة) ^(٧) .

ذكر مثل ذلك المعنى أبو السعود ، ثم قال : (رُوي أنه قال لقومه : لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا تاجر مشغل بالتجارة ، ولا متزوج بامرأة لم يبين عليها ، ولا أبتغي إلا الشاب الشيط الفارغ فاجتمع إليه ممن اختارهم ثمانون ألفاً ، وكان الوقت قيظاً ، وسلوكوا مفازة ، فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم نهراً . فبعد ما ظهر له ما تعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبي (عليه السلام) أو بطريق الوحي عند من يقول بنبوته ﴿ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾ الآية ^(٨) .

وقال الفخر الرازي : (اختلفوا في أن هذا القاتل من كان ؟ فقال الأكثرون : إنه هو طالوت . وهذا هو الأظهر ؛ لأنَّ قوله لا يد وأن يكون مسنداً إلى مذكور سابق ، والمذكور السابق هو طالوت . ثم على هذا يحتمل أن يكون القول من طالوت ، لكنه تحمله من نبي الوقت ، وعلى هذا التقدير لا يلزم أن يكون طالوت نبياً . ويحتمل أن يكون من قبل نفسه فلا بد من وحي أتاه عن ربه ، وذلك يقتضي أنه مع الملك كان نبياً) ^(٩) .

قال الحافظ ابن كثير : (قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشرية . فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر ، عن أمر نبي الله له ، عن أمر الله له ؛ اختباراً وامتحاناً : أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى في هذه الغزوة ، ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه إلا غرفة بيده) ^(١٠) .

١ - قال الراغب في المفردات ص ٣٨١ : (وفصل القوم عن مكان كذا وانفصلوا : فارقوه) .

٢ - قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ص ٧٧ : (مبتليكم بنهر : مخبركم) .

٣ - في المرجع السابق ص ٧٧ قال أبو عبيدة : (غرفة : الغرفة مصدر ، والغرفة : ملاء الكف) .

٤ - في المرجع السابق ص ٧٧ قال أبو عبيدة : (يظنون أنهم ملاقوا الله) (معناه) (يوقنون) .

٥ - في المرجع السابق ص ٧٧ قال أبو عبيدة : (فئة : جماعة) .

٦ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٤٩ .

٧ - تفسير روح المعاني ج ٢ ص ١٦٩ .

٨ - تفسير أبي السعود ج ١ ص ٣٧٥ .

٩ - التفسير الكبير ج ١ ص ١٧٩ .

١٠ - قصص الانبياء ج ٢ ص ٢٦٠ .

(قال الله تعالى : ﴿ فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ الآية . ذلك أنّ القوم كانوا قد فسد بأسهم ، وتزلزل إيمانهم ، واعتادوا العصيان ، فسهل عليهم عصيانهم ، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾^(١) . والعدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوى المآثم ، كما يعلم من قوله تعالى : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴾ الآية^(٢) .

قال الأستاذ المراعى : (فلما تخطى طالوت النهر ، هو ومن آمن معه ، وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه فيما ندبهم إليه) قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده (أى قال بعض من آمن معه من المؤمنين لبعض آخر منهم ، وهم الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : لا قدرة لنا على محاربة جالوت وجنوده ، فضلاً عن أن يكون لنا الغلب عليهم ؛ لما شاهدوا من كثرتهم وقوتهم . فردّ عليهم الفريق الآخر ، كما حكى الله تعالى عنهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ أى قال الذين يستيقنون بقاء ربهم بالبعث ، ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيراً ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق والنصر بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قلّ عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده)^(٣) .

هذا ، وقد قيل : إنّ عدّة من جاوز النهر مع طالوت يومئذ ، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً . روى ذلك البخارى بسنده عن البراء قال : (كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدّث أنّ عدّة أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، بضعة عشر وثلاثمائة)^(٤) .

والملاحظ فى هذه الفئة القليلة المؤمنة من قوم طالوت ، هم الذين حكموا عقولهم ولم يتبعوا الهوى ، بل آمنوا بالله عز وجل وامتلأوا وأوامره ، وساروا مع طالوت طائعين . وقد وُصفوا بأنهم هم الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله تعالى فمجازيهم على أعمالهم ، وهم الذين كانوا ينتظرون إحدى الحسينين : إمّا شهادة فى سبيل الله ، وإمّا نصر على الكافرين . فإن عاشوا عاشوا آمين ، وإن ماتوا - قتلوا - ماتوا شهداء مكرمين ، أحياء عند ربهم يرزقون .

١ - من سورة سبأ : آية رقم ١٣ .

٢ - تفسير المنار ج-٢ ص ٤٨٧ .

٣ - تفسير المراعى ج-٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٤ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج-٧ ص ٢٩٠ .

ويبدو من امثال هذه الفئة وطاعتهم لله تعالى ، ثم طاعتهم لطلالوت الذى يعتبر ولى أمرهم وملكهم ، ومن اطمئنانهم وثباتهم بالقول الثابت ، يبدو من ذلك كله أن إيمانهم كان فى القمة . لقد قالوا قولاً طيباً سليماً ، سَجَّلَهُ اللهُ تعالى قرآناً يُتلى إلى يوم الدين . قالوا : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ الآية .

وهكذا ينبغي لكل فئة مؤمنة تجاهد فى سبيل الله تعالى أن يكون فى حُسَّها هذا القَاعَةُ : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ الآية . إنها هى الحكمة البالغة ، والقول الثابت الذى ثَبَّتَ اللهُ عز وجل به الجماعة المؤمنة من قوم طالوت . لقد قالوا للذين دَبُّ إلى نفوسهم الخوف من جالوت وجنوده : لا تغرنكم أيها القوم ، كثرة عدوكم ، فكثيراً ما غلبت فئة قليلة العدد ، جماعة كثيرة العدد ، غلبت بقوة إيمانها وإرادة ربها وإذنه . والله تعالى مع المؤمنين الصابرين ، ينصرهم على عدوهم ، ويثبَّت أقدامهم عند لقاءه . فهو سبحانه وليهم ومعينهم على الجهاد فى سبيله وغير ذلك من طاعته . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ (١) وقال : ﴿ فلا تمنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ (٢) .

وهذه الجماعة المؤمنة من قوم طالوت ، القليلة العدد ، الصابرة ، الثابتة ، التى لم تزلزله كثرة العدو وقوته ، مضت فى طريقها الواضح إلى القتال . ولَمَّا ظهرُوا لجالوت وجنوده ، وشاهدوا أمامهم الهول الرعب ، وحانت ساعة الالتجاء إلى الله حقيقة ، حيث تتلاشى قوة البشر ، اتجهوا بقلوبهم متضرعين إلى الله جل جلاله ، طالبين النصر منه وحده ، ومستعينين به .

قال تعالى : ﴿ ولَمَّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبَّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ (٣)

قال الطبرى : (ولَمَّا برز طالوت وجنوده لجالوت وجنوده ، قالوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ فإنه يعنى أن طالوت وأصحابه قالوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ فإنه يعنى : أنزل علينا صبراً . وقوله : ﴿ وثبَّت أقدامنا ﴾ يعنى : وقو قلوبنا على جهادهم ؛ لثبَّت أقدامنا فلا ننهزم عنهم . ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ الذين كفروا بك فجحذك إلهاً وعبدوا غيرك ، واتخذوا الأوثان أرباباً) (٤)

قال أبو السعود : (ولقد راعوا فى الدعاء ترتيباً بديعاً حيث قدَّموا سؤال إفراغ الصبر

٢ - من سورة محمد : آية رقم ٣٥

٤ - تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٥٤

١ - من سورة الحج : آية رقم ٣٨

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٥٠

الذى هو ملاك الأمر ، ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ، ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى (١) .

ولما التقى الجمعان ، واشتدت الحرب ، تجلّت هناك عظمة الله تعالى وقدرته بأجلى مظهر . لقد استجاب سبحانه دعاء الفئة القليلة المؤمنة من قوم طالوت ، فأنزل عليهم الصبر ، وثبت أقدامهم ، ونصرهم بقضائه وقدره على جالوت وجنوده نصراً عزيزاً . وهكذا غلبت الفئة القليلة الجمع الكثير الرهيب وقهرته بإذن الله ، فولوا الدبر ، وصاروا عظة وعبرة لمن يعتبر .

قال الله تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ (٢) .

(قوله تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ أى بحول الله لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم ، مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ (٣)) .

قال صاحب تفسير المنار : (فهزموهم : أى كسروهم كسرة انتهت بدفعهم من المعركة ، وهربهم منها ، بإرادة الله عز وجل المنفذة لسنّته فى نصر المؤمنين الصابرين الثابتين على الكافرين . ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ قالوا : إنّ جالوت جبار الفلسطينى طلب البراز ، فلم يجرؤ أحد من بنى إسرائيل على مبارزته ، حتى إنّ طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه . ثم برز له داود بن يسي ، وكان غلاماً يرعى الغنم ، ولم يقبل أن يلبس درعاً ، ولا أن يحمل سلاحاً ، بل حمل مقلاعه وحجارته ، فسخر منه جالوت ، إذ لم يستعد له ، وقال : هل أنا كلب فتخرج إلىّ بالمقلاع ؟ فرماه داود بمقلاعه ، فأصاب الحجر رأسه فصرعه ، فدنا منه فاحتز رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت . فعُرف داود وكان له الشأن الذى ورث به ملك إسرائيل) (٤) .

قال الحافظ ابن كثير : (ذكروا فى الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان فى يده رماه به فأصابه فقتله ، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ، ويشركه فى أمره ، فوفى له . ثم آل الملك إلى داود (عليه السلام) مع ما منحه الله من النبوة العظيمة ؛

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٥١ - ٢٥٢ .

٤ - قصص الأنبياء ج٢ ص ٢٦٢ .

١ - تفسير أبى السعود ج١ ص ٣٧٨ .

٣ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٢٣ .

٥ - تفسير المنار ج٢ ص ٤٩٠ .

ولهذا قال تعالى ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ الْبَاسِ﴾ الذى كان بيد طالوت (والحكمة) أى النبوة بعد شمويل (وعلمه مما يشاء) أى مما يشاء الله من العلم الذى اختصه به (عليه السلام) (١) .

هذا ، والناظر فى تاريخ البشرية يرى أن الصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الشر والضلال ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر فى هذه الأرض منذ أن خلق الله الإنسان . والغاية فى اصطراع تلك القوى : هى الصلاح فى الأرض والتمكين للخير بالكفاح مع الشر .

(والصلاح والخير والنماء يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة . تعرف الحق الذى بيّنه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحاً . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق فى الأرض . وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل ، وإلا أن تحتمل فى سبيله ما تحتمل فى الأرض ؛ طاعة لله وابتغاء لرضاه ..) (٢) .

والحرب - منذ فجر البشرية - على ما فيها من ضرر وخطر لا تخلو من نفع وخير ، إذ لولا أن الله تعالى يدفع الناس الذين يباشرون الشر والفساد بالناس المؤمنين الصالحين ، ويسلّط جماعة خيرة على جماعة شريرة ، لولا هذا لبطلت منافع الأرض وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل ، وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها ، ولعمت الفوضى وانتشر الظلم ، ولهدمت أماكن العبادة التى يُذكر فيها اسم الله ، ولكن الله ذو فضل على الناس جميعاً ، حيث يسلّط على الظالم من يبيده ويهلكه ويفتك به .

قال تعالى : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ الآية ، (٣) .

(يعنى تعالى ذكره بذلك . ولولا أن الله يدفع ببعض الناس ، وهم أهل الطاعة له والإيمان به ، بعضاً ، وهم أهل المعصية لله والشرك به - كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت ، من أهل الكفر بالله والمعصية له ، وقد أعطاهم ما سألوا ربهم ابتداء : من بعثه ملك عليهم ليجاهدوا معه فى سبيله بمن جاهد معه من أهل الإيمان بالله واليقين والصبر ، جالوت وجنوده (لفسدت الأرض) يعنى : هلك أهلها بعقوبة الله إياهم ، ففسدت بذلك الأرض ، ولكن الله ذو من على خلقه وتطول عليهم ، بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر ، وبالمطيع عن العاصي منهم ، وبالمؤمن عن الكافر) (٤)

١ - تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٠٣ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ٢ ص ٢٧٠ .

٣ - تفسير الطبرى ج ٥ ص ٣٧٢ .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٥١ .

وهذا التأويل يشهد له قوله تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (١) الآية .

وبعد : فهذه هي قصة ابتلاء قوم طالوت كما يعرضها السياق القرآني . وهي في ثناياها تتضمن عدّة حقائق ، تحمل إيماءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل ، فضلاً على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين .

وفيما يلي نلخص بعض ما تضمنته من إيماءات ودروس وعبر :

(أولاً - العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله ، فإن ثبات حفة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جداً . فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل ، والذل تحت أقدام المتسلطين . وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركाम ، وثبات حفة قليلة عليها أمام جحافل جالوت .

(ثانياً - أن الحماسة الجماعية قد تخذع القادة لو أخذوا بمظهرها . فعليهم أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة . . فقد تقدّم الملأ من بنى إسرائيل إلى نبيهم في ذلك الزمان ، طالبين إليه أن يختار له ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم ، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومقدّساتهم . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم : ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماسهم إلى الذروة وهم يقولون له : ﴿ وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة ؛ وكما يقول السياق بالإجمال : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ﴾ ومع أن لبنى إسرائيل طابعاً خاصاً في النكول عن العهد والنكوص عن الوعد . . إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً من التدريب . . وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل . . فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل .

(ثالثاً - أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي ألا يقف عند الابتلاء الأول . . فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء عندما أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى اختار

لهم طالوت ملكاً ، خاججوا وجادلوا حول جدارته بالملك والقيادة . وما خرجوا معه إلا بعد وقوع علامة الله عز وجل باختياره لهم ورجعة تابوتهم وفيه خلفات أنبيائهم تحمله الملائكة . ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى ، وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم : ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ . ثم أمام الهول الحى ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم تهاوت العزائم وزلزلت القلوب : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ . . وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة . . اعتصمت بالله ووثقت وقالت : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ . . وهذه هى التى رجّحت الكفة ، وتلقّت النصر واستحقت العز والتمكين .

(رابعاً - ومن خلال هذه التجربة تبرز عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة . وكلها واضحة في قيادة طالوت . ذلك أنه لم يغتر بالحماسة الظاهرة ، بل حاول اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة . ففصل الذين ضعفوا وتخاذلوا ، لم يهتم لموقفهم القهقرى ، وتركهم وراءه . ثم يبدو واضحاً عدم تخاذله هو وقد تضاعف جنوده تجربة بعد تجربة ، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة القليلة . فخاض بها المعركة ثقة منه ، بقوة الإيمان الخالص ، ووعد الله الصادق للمؤمنين .

(خامساً - أن القلب الذى يتصل بالله تعالى تتغير موازينه وتصوراته . يبدو ذلك واضحاً في موقف الفئة القليلة المؤمنة التى ثبتت ، وخاضت المعركة وتلقّت النصر . إنها كانت ترى من قتلها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ . . ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . إنما حكمت حكماً آخر ، فقالت : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ . . ثم اتجهت لربها تدعوه : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدي الكافرين ، إنما هو فى يد الله وحده . فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه . . وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً ، وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون) . (١) .

المبحث الخامس

ابتلاء يونس عليه السلام

روى المفسرون أنَّ الله تعالى بعث يونس (عليه السلام) إلى أهل نينوى بالموصل . فدعاهم إلى الإيمان بالله عز وجل والتوبة عن سيئاتهم . فكذبوه وتمادوا في كفرهم وعنادهم ، ولم يستجيبوا لدعوته . فلما طال ذلك عليه من أمرهم ، وشق عليه تلکؤهم ، لم يصير على معاناة الدعوة معهم . فتركهم وخرج من بين أظهرهم قبل أن يأذن الله تعالى له بالخروج من القرية ؛ اعتقاداً منه (عليه السلام) أنَّ الله سبحانه لن يؤاخذَه على ما فعل ، حيث كان يظن أنه قد أدى الرسالة ، وقام بكل المهمة التي أمره الله بها .

وهكذا خرج يونس (عليه السلام) من نينوى مغاضباً لقومه ؛ بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر . ولعله كان يظن أنَّ الله تعالى لن يضيقَّ عليه الأرض بما رحبت ، ولن يلزمه بالبقاء بين أولئك القوم المتعنتين المعاندين ، وأنه سبحانه لو شاء وجهه إلى دعوة قوم آخرين ، هم أقرب استجابة للدعوة من الأولين . فظل (عليه السلام) سائراً حتى جاء إلى ساحل البحر ، حيث وجد سفينة مشحونة ، فركب فيها . فلما خاض الفلك المشحون اللجة ، تعرَّض للغرق . وكان النظام المتعارف عليه يومئذ عند ربان السفن في مثل هذه الحالة هو تخفيف حمل السفينة بإلقاء أحد ركايبها في البحر ؛ لينجو سائر من فيها من الغرق . فأقرعوا بين الركاب ، فخرجت القرعة على يونس (عليه السلام) فألقى في اليم . هنالك هيا الله عز وجل له حوتاً ابتلعه ، حيث مكث في جوفه ؛ وظل هكذا في بطن الحوت حتى لفظه على الساحل وهو سقيم . ثم لما شفى من مرضه ، أوحى الله سبحانه إليه ثانية بالمسير إلى نينوى ودعوتها إلى الله تعالى . فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد وكلمة الإخلاص ، فوحدوا الله وصدقوا بنبيهم . ومن ثم نجاهم سبحانه من العذاب ، وتمتعهم بحياتهم إلى بلوغ آجالهم .

هذا هو ملخص قصة يونس (عليه السلام) . وقد جاءت هذه القصة مفصلة في سورة الصافات . ثم أشير إليها في كل من سورة يونس ، وسورة الأنبياء ، وسورة القلم . والآيات المعنية في هذا المبحث هي ما يلي :

قال تعالى : ﴿ فلولاً كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ (١) .

﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴾ (١) .

﴿ وإنَّ يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فممتعناهم إلى حين ﴾ (٢) .

﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ (٣) .

يتضح من هذه الآيات الكريمة أنَّ يونس (عليه السلام) لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدره بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ولولا أنه تاب وأناب إلى ربه ، واعترف بظلمه لنفسه ، لما فرَّج الله عنه هذا الضيق . ولكنها قدرة الله تعالى حفظته ونجَّته من الغم الذي يعانیه .

(وأصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والايذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً ، ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا) (٤) .

فيونس (عليه السلام) تعجَّل الخروج من الميدان الذي وضعه الله تعالى فيه ، وكانت مغادرته له بغير إذن من ربه . ولعل تلك فعلة خلاف الأولى ، أو باجتهاد منه أخطأ فيه . وما كان ينبغي له (عليه السلام) أن يفعل ذلك لأول بادرة سوء يصادفها من قومه أو تكذيب أو إغراض عنه . وكان لابد أن يتتبعه الله عز وجل بصعاب وأهوال لم تكن في الحسبان ؛ لعلها تكون له (عليه السلام) بمثابة درس من الله عز وجل يستفيد منه في الصبر على معاناة الدعوة . وقد ابتلى فعلاً بضيق أشد وأقسى من تكاليف الدعوة ، وهو الحبس في جوف الحوت . ولكنه (عليه السلام) صبر على ما أصابه ، وأناب إلى ربه ، فنجاه سبحانه وتعالى من الكرب العظيم ، وعاد إلى قومه داعياً إلى الله تعالى وهو أشد يقيناً وأرحب نفساً ؛ فوفقه الله عز وجل في مهمته .

١ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٨٧ - ٨٨ .

٢ - من سورة الصافات : آية رقم ١٣٩ - ١٤٨ .

٣ - من سورة القلم : آية رقم ٤٨ - ٥٠ .

٤ - في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٢٣٩٣ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . هذه الآية الكريمة تدل على أن يونس (عليه السلام) من رسل الله تعالى . ولكن لم يُذكر في القرآن الكريم محل قومه الذين أرسل إليهم ، إلا أن المفهوم من النصوص إنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر . وقد ذهب كثير من المفسرين والمؤرخين إلى أن الله عز وجل أرسل يونس (عليه السلام) إلى أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق ، الذين كانوا يعبدون الأصنام . فدعاهم (عليه السلام) إلى عبادة الله وحده ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، شأن أكثر أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ (١) .

فظل (عليه السلام) يدعو قومه إلى الله تعالى ، ويعظهم ويذكرهم بعاقبة الكفر والعصيان ، ولكنهم استعصوا عليه ، وضاق بتكذيبهم له ذرعاً ، ولم يصبر على أذاهم ، فأنذرهم بعذاب قريب ، وغادرهم مغاضباً أبقاً .

قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتَ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ .

قال البيضاوي : (إذ أبق : هرب ، وأصله الهرب من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه ، حسن إطلاقه عليه ، ﴿ إلى الفلك المشحون ﴾ المملوء ، (فساهم) فقارع أهله ، ﴿ فكان من المدحضين ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة ، وأصله المزلق عن مقام الظفر . روى أنه (عليه السلام) لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله به ، فركب السفينة فوقفت ، فقالوا : ههنا عبد أبق ، فاقترعوا له فخرجت القرعة عليه . فقال : أنا الأبق . ورمى بنفسه في الماء ، ﴿ فالْتَقَمَهُ الْحُوتَ ﴾ فابتلعه ، من اللقمة ، (وهو ملِيم) داخل في الملامة ، أو آت بما يلام عليه ، أو ملِيم نفسه (٢) .

وقال الحافظ ابن كثير يصف حال القوم بعد خروج يونس (عليه السلام) من قريتهم : (فخرج بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث . فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبی لا يكذب ، تابوا وأنابوا إلى الله ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، وخرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرّقوا بين الأمهات وأولادها . ثم تضرّعوا إلى الله عز وجل ، وبكى الرجال والنساء ، والبنون والبنات . وجارت الأنعام والدواب والمواشي ، فرغت الإبل وفصلاتها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة . فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورافته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم (٣) .

١ - من سورة سبأ : آية رقم ٣٤ .

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ١٩١ .

قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾

قال الشيخ عبد الوهاب النجار : (فهذه الآية تفيد بصريح العبارة أنَّ الأمم الغابرة كانوا يعاندون ويصرون على ما هم عليه من الكفر والإباء عن الإيمان ، ولم ينبج من هذا إلا القوم الذين أرسل إليهم يونس (عليه السلام) فإنهم أجابوه إلى الإيمان ؛ فكشف الله تعالى عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا ، ومتعهم بمتع هذه الحياة إلى نهاية أعمارهم) ، (١) .

أمَّا يونس (عليه السلام) لما التقمة الحوت ، واستقر حببياً في جوفه ، أحس بالضيق في بطن الحوت ، فأظهر توبته ، وتضرع إلى ربه ، وسبح الله واستغفره ، وذكر أنه كان من الظالمين . فاستجاب الله دعاءه ونجاه من الغم الذي هو فيه .

قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴾ .

والمعنى : أنَّ ذا النون ، صاحب الحوت ، يونس (عليه السلام) ترك قومه وذهب غضبان عليهم ؛ لشدة شكيمتهم وتماديهم وإصرارهم على الكفر مع طول دعوته إياهم . وكان ذهابه هذا هجرة عنهم ، لكنه لم يؤمر به . ولعله فعل ذلك لأنه كان يظن أن لن يقضى الله تعالى عليه بعقوبة أو لن يضيق عليه في أمره بحبس ونحوه . فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت إياه .

(وقوله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ أى في الظلمة الشديدة المتكاثفة ، أو في ظلمات بطن الحوت والبحر والليل . وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه . فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل . ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ أنزهك تنزيهاً لاثقاً بك من أن يعجزك شيء ، أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب من جهتي ، ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ لأنفسهم بتعرضها للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة من غير أمر على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه الذي دعاه في ضمن الاعتراف بالذنب على اللطف وجه وأحسنه ، ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها في بطنه ، وقيل : بعد ثلاثة أيام ، وقيل : الغم غم الالتقام ، وقيل : الخطيئة (٢) .

١ - قصص الأنبياء ص ٣٦٠ .

٢ - تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٧٢٣ بتصرف .

قال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم . وذلك قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبت في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس ، رعى له حق تعبده ، وحفظ ذمام ما سلف له من الطاعة (١) .

وقال الحافظ ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبت في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قيل : معناه فلولا أنه سبَّح الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة إليه والرجوع إليه ، للبت هنالك إلى يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت . وقيل : معنا فلولا أنه كان من قبل أخذ الحوت له من المسبحين ، أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً . ويشهد لهذا القول ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال له : (يا غلام ، إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) (٢) (٣) .

هذا ، وقد اختلف فيما لأجله صار يونس (عليه السلام) مخطئاً . فذهب الفخر الرازى إلى أن الأقرب في ذلك وجهان ، فقال : (الأول - أن ذنبه كان ؛ لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه ، فظن أنه نازل لا محالة . فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز ألا يهلكهم الله تعالى بالعذاب وإن أنزله . وهذا هو الأقرب ؛ لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية وإن كان الأولى في مثل هذا الباب ألا يعمل فيه بالظن . ثم انكشف ليونس (عليه السلام) من بعد ، أنه أخطأ في ذلك الظن ؛ لأجل أنه ظهر الإيمان منهم .

(الوجه الثانى - أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب ، خرج كالمتصور عنهم فقصده البحر وركب السفينة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إذ أبق إلى الفلك ﴾ الآية) (٤) .

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار : (وفى اعتقادى أن يونس (عليه السلام) كلّف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته ، ولم يكن قد مرن على النبوة وواجباتها وآداب أهلها ؛

١ - الجامع لأحكام القرآن ج ١١ ص ٣٣٤ .

٢ - المسند للإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ . وفى ص ٢٨٦ من هذا المرجع قال الأستاذ أحمد محمد شاكر : (هذا

حديث رواه أحمد عن شيخه عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد ، أحدهما صحيح ، والآخران منقطعان) .

٣ - قصص الأنبياء ج ١ ص ٣٩١ .

٤ - التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٦٤ .

لأن العلم بذلك يستدعى مدة وتكرر الوحي والازدياد من معرفة الله تعالى ، والارتياض على الوحي وتلقيه . فحدثته (عليه السلام) في النبوة هي التي خيلت إليه أنه بابتعاده وتغربه في البلاد ربما استتبع إعفاؤه من تلك المأمورية . أضف إلى ذلك أنه كان حدث السن . فقد أورد الألوسي في تفسيره : أن سبته (عليه السلام) كانت ثمانياً وعشرين سنة . ومن كان حديث العهد بالنبوة ، وفي مثل سن يونس (عليه السلام) يغتفر الله تعالى له بعض ما عمل من غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فنبذناه بالعراء (٢) وهو سقيم (٣) . وأنبأنا عليه شجرة من يقطين (٤) ﴾ .

والمعنى : أن الله تعالى استجاب دعاءه ونجّاه من الغم بأن حمل الحوت على لفظه على ساحل البحر بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه . ثم وجد نفسه في ذلك المكان سقيماً هزياً فحمد الله على النجاة . وأنبأ الله عز وجل عليه شجرة من يقطين . فأكل منها واستظل بظلها وعافاه الله من سقمه وتاب عليه .

(قال الواحدي رحمه الله : والآية تقتضي شيئين : أحدهما - أن هذا اليقطين لم يكن قبل ، فأنبأه الله لأجله عليه السلام . والآخر - أن اليقطين كان معروشاً ؛ ليحصل له الظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يكن أن يستظل به) (٥) .

قال الأستاذ المراغي : (ثم ذكر أنه لما شفى من سقمه ونجا من الهلاك ورضى ربه عنه ، عاد إلى قومه ليتم دعوته ، ويبلغ رسالته كما أشار إلى ذلك قوله : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمعتناهم إلى حين ﴾ أي فأرسلناه مرة أخرى إلى هؤلاء القوم وقد كانوا مائة ألف ، بل يزيدون ، فاستقامت حالهم وآمنوا به) (٦) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ فمعتناهم إلى حين ﴾ أي أنهم لما آمنوا أزال الله عز وجل عنهم الخوف ، وآمنهم من العذاب ، ومعتهم إلى الوقت الذي جعله الله أجلاً لكل واحد منهم .

١ - قصص الأنبياء ص ٣٦٢ .

٢ - قال الراغب في المفردات ص ٣٣٢ : (العراء : مكان لا ستره به) .

٣ - في المرجع السابق ص ٢٣٥ قال الراغب : (السقم والسقم : المرض المختص بالبدن) .

٤ - جاء في مختار الصحاح ص ٥٤٤ : (و (اليقطين) مالا ساق له من النبات كشجر القرع ونحوه . و (اليقطين) القرعة الرطبة) .

٥ - التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٦٦ .

٦ - تفسير المراغي ج ٢٣ ص ٨٤ .

قال الأستاذ عبد الرحمن حبنكة : (وعلم يونس (عليه السلام) أنَّ ما أصابه تأديب رباني محفوف بالمعجزة ، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً لهم ، بدون إذن صريح من الله له ، وإن كان له فيه اجتهاد مقبول ، ولكن مثل هذا الاجتهاد إن قُبِلَ من الصالحين العاديين ، فإنه لا يُقبل من المرسلين المقرَّين ، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللوم والتأديب الرباني) (١) .

وبعد : فهذه التجربة التي مرَّ بها يونس (عليه السلام) يذكر الله عز وجل بها الرسول ﷺ في موقف العنت والأذى والتكذيب ، ويوجهه إلى الصبر على تكاليف تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، كما يحضه على الصبر حتى يحكم الله تعالى في الوقت المقدر الذي يريده .

قال تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ .

قال القاسمي في تفسير قوله تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ قال : (وهو إمهالهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أي لا يثنيك عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امضي صابراً عليه ﴾ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني : يونس عليه السلام ﴿ إذ نادى ﴾ أي دعا ربه في بطن الحوت ﴿ وهو مكظوم ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً . والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والوفى عن التبليغ فتبتلى ببلائه ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ وهو قبول توبته ورحمته وتضرعه وابتهاله) (٢) .

(وقوله تعالى : ﴿ لنبذ ﴾ (٣) بالعراء وهو مذموم ﴾ أي أنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أي مذموم من ربه . . على فعلته ، وقلة صبره ، وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقيل الله تسبيحه واعترافه وندمه ، وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتناء) (٤) .

ثم قال تعالى : ﴿ فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ أي قرَّبه الله عز وجل إليه ، وجعله من الصالحين لمقام النبوة والرسالة ؛ وذلك لما تجمَّل به (عليه السلام) من الصبر على ما أصابه من البلاء ، ولإينابته ورجوعه إلى الحق .

١ - كتاب العقيدة الإسلامية رأسها ج ٢ ص ٢١١

٢ - تفسير القاسمي ج ١٦ ص ٥٩٠٨ .

٣ - قال الراغب في المفردات ص ٤٨٠ : (التَّبَدُّ : إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ؛ ولذلك يقال : نبذته نبذ النعل الخلق) .

٤ - في ظلال القرآن ج ٢٩ ص ٣٦٧ .

قال البيضاوى : (فجعله الله تعالى من الكاملين فى الصلاح ، بأن عصمه من أن يفعل ما تركه أولى . والآية نزلت حين هم رسول الله ﷺ أن يدعو على ثقيف ، وقيل : بأحد حين حلَّ به ما حلَّ ، فأراد أن يدعو على المشركين) (١) .

وخلاصة ما سبق ذكره فى هذا المبحث هو : أن الله عز وجل أرسل يونس (عليه السلام) إلى أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق . فدعاهم (عليه السلام) إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وترك عبادة ما سواه من الأصنام التى كانوا عليها عاكفين . وظل يعظهم ، ويدعوهم إلى التوحيد ، ويذكرهم بعاقبة الكفر والعناد والعصيان حتى ضاق بهم ذرعاً ، من شدة تمردهم واستكبارهم وتكذيبهم بدعوته ، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر والإباء عن الإيمان . ولعل الله جل جلاله أراد أن يبتليه بهؤلاء القوم ؛ لينظر مدى طاعته لربه ، ومدى تحمُّله تكاليف الدعوة إلى الله تعالى ، وصبره على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها ، ومثابرتة وثباته . ولكن يونس (عليه السلام) شقَّ عليه تلك قومته وعدم استجابتهم له ، فلم يصبر على تكاليف الدعوة ، ومعاناة البلاء والتكذيب والإعراض والأذى . فألقى عبء الرسالة ، وذهب مغاضباً لقومه بعد أن وعدهم بعذاب أليم يحل قريباً بساحتهم .

ولقد تعجَّل الخروج من بين أظهرهم بغير إذن صريح من الله له . ولعل فعلته هذه كانت خلاف الأولى ، أو باجتهاد منه أخطأ فيه . فهو (عليه السلام) بهذا السبب قد فعل ما يستحق عليه اللوم والتأديب الربانى . ولذلك ابتلاه الله جل وعلا بشدائد وأحوال لم تكن فى الحسبان . ولعلها كانت تربية له وإعداداً لتحمل تكاليف الدعوة والصبر عليها . لقد ابتلى فعلاً بضيق أشد وأقسى من تكاليف الدعوة ، وهو الحبس فى بطن الحوت . ولكنه (عليه السلام) صبر على ما أصابه ، وعلم الحكمة فى ابتلائه بهذا البلاء ، فأظهر توبته إلى الله عز وجل ، وتضرَّع إليه ، وسبَّح لله واستغفره ، وأقرَّ بأنه كان من الظالمين لأنفسهم بمخالفة أمر الله وعدم الالتزام بطاعته . هنالك استجاب الله دعاءه ونجَّاه من الغم وشفاه من مرضه ، ثم أرسله إلى قومه . فعاد إليهم داعياً إلى الله تعالى ، وهو أشد عزيمة وأرحب صدرأ ، فوقَّفه المولى عز وجل فى مهمته . وأما قومه لما أجابوه إلى الإيمان ، كشف الله (تعالى) عنهم عذاب الذل والهوان فى الحياة الدنيا ، ومتَّعهم بجمع هذه الحياة إلى نهاية أعمارهم .

الفصل الثاني

ابتلاء في مرحلة الإعداد للدعوة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ابتلاء يوسف عليه السلام .

المبحث الثاني : ابتلاء موسى عليه السلام .

المبحث الأول

ابتلاء يوسف عليه السلام

كان يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) أثيراً عند أبيه من بين إخوته . ولما أحسوا من أبيهم ولوعه به وإيثاره عليهم ، دبّروا له مكيدة إلقائه في الجب ، فمّرت قافلة فأرسلت واردها إلى البئر فأدلى دلوه ، فتعلّق يوسف (عليه السلام) به . ولما خرج من البئر أخذوه على أنه عبد رقيق . وانتهى أمره إلى مصر ، وباعوه بثمن رخيص لعزیزها ، واحتلّ عنده مكاناً حسناً ؛ بسبب أمانته وصدقه وحسن خلقه .

ومنذ أن ألقى (عليه السلام) في الجب وهو غلام صغير ، أصبح يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات . وكانت حياته بعد ذلك سلسلة متلاحقة من البلاء والمتاعب والفتن . فقد تنقل (عليه السلام) بين عسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وضيق وسعة . فلا يكاد يفرغ من محنة إلا ليدخل في مثلها أو أشد منها .

لقد كان عند أبيه في أمن وأمان ، فحسده إخوته ، ودبّروا له مكيدة من أخطر المكائد ، أرادوا بها قتله ، ثم اكتفوا بإلقائه في الجب ، محلّ الخوف والترويع ، ولولا عناية الله تعالى ورحمته به لكان من الهالكين . ثم خرج من البئر ليدخل في محنة الرق ، حيث صار ينتقل كالسلعة من يد إلى يد ، على غير إرادة منه ولا حماية ولا رعاية من قريب أو بعيد . وبينما هو في مصر يعاني محنة الرق ، والكربة ، والغربة ، والبعد عن الأهل والوطن والعشيرة ، إذا به يدخل في كيد امرأة العزيز . فقد أحبّته ، وراودته عن نفسه ، وعملت كل ما في وسعها من الحيل لإغرائه وإغوائه وفتنته . ولما لم تجد منه استجابة لما رغبت فيه ، ولم تفلح في زحزحته عن التمسك بالتقوى والصبر ، أصبحت تكيد له ، وأنذرتة بالسجن إذا لم يفعل ما تأمره به . فحفظه الله عز وجل من كيدها ونجّاه من فتنتها ، ودخل السجن ظليماً وعدواناً حيث مكث فيه بضع سنين .

مرّ يوسف (عليه السلام) بهذه المحن والفتن والابتلاءات كلها ، ولكنها لم تلن له قناة ، ولم تحن له ظهراً . بل ظل ثابتاً على مبادئه ، صابراً على بلوائه ، مترقباً رحمة ربه ، منتظراً انفراج الأزمة التي وقع فيها ظليماً وعدواناً . وقد كان (عليه السلام) مؤمناً بالله تعالى ، داعياً إلى عبادته وحده ، وهو في ظلمات السجن ، فكان جزاؤه على تقواه وصبره أن منّ الله عز وجل عليه بموهبة تفسير الرؤى التي بواسطتها نجا من السجن ، وبرئت ساحته وعُرفت أمانته ، وترجع في أرفع المناصب الدنيوية ، ونال الجاه والسلطان وطيبات الحياة .

وهكذا ابتلى يوسف (عليه السلام) ثم مُكِّن له . وكان هذا الابتلاء تربية له من الله تعالى وإعداداً ؛ ليتحمَّل تكاليف الرسالة وأداء الأمانة . فهو (عليه السلام) عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر ، دعا الناس جميعاً إلى عقيدة التوحيد ، واجتهد في نشر الإسلام الذي هو ملة أبيه إبراهيم (عليه السلام) . وبالتأكيد أنَّ هذا الدين الحنيف قد انتشر في مصر على يديه لا سيما وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم ، لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم . كما انتشر في البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره (عليه السلام) .

وبعد : فهذه المحن والفتن والابتلاءات التي مرَّت على يوسف (عليه السلام) يمكن تلخيصها وحصرها في ثلاثة عناصر كما يلي :

أ - يوسف وتأمّر إخوته عليه وكيدهم له .

ب - امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه .

ج - الحكم على يوسف بالسجن ظلماً وعدواناً وتنفيذ ذلك الحكم الجائر .

يوسف وكيد إخوته له :

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخُوتُكَ فَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِلِينَ . إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُمَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسَلْهُ مَعْنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ . قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبَ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ . فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ . وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ . وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . وَشَرَوْهُ

بشمن بخش دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴿١﴾ .

تضمنت هذه الآيات الكريمة رؤيا يوسف (عليه السلام) ومؤامرة إخوته عليه ، ووصوله إلى مصر . وملخص هذه الرؤيا هو أنه (عليه السلام) رأى في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدوا له ، فأفزره ذلك الأمر واستعظم تلك الرؤيا . فلما استيقظ قصص على أبيه عجيب ما رأى . ففهم يعقوب (عليه السلام) من هذه الرؤيا أن ابنه سيكون له شأن عظيم ، وقدر أنها تشير إلى علو في مرتبته في الدنيا ، بحيث يخضع له والده وأمه وجميع إخوته فيها ، فبشره بحسن عاقبته . وكشف له في إجمال أن الله تعالى سيصطفيه بالنبوة ، ويعلمه تفسير الرؤى ، ويتم عليه هذا الفضل بتمكينه في الدنيا عن طريق الجاه والسلطان ، وبذلك تكون النعمة عليه وعلى آل يعقوب من الله عز وجل ، مساوقة لنعمة الرسالة على أبويه في الماضي : إبراهيم وإسحق (عليهما السلام) . فإله تبارك وتعالى يعلم أين تكون رسالته ولمن تعطى حكمته . ثم أمره بعد ذلك بكتمان هذه الرؤيا ، وأوصاه بالألّا يقصصها على إخوته غير الأشقاء ؛ خشية أن يسيئوا إليه حقداً وحسداً عليه ، ولئلا يغريهم الشيطان بتدبير المؤامرات للإيقاع به . فالشيطان عدو للإنسان ، مظهر للعداوة مجاهر بها ، يوسوس للمرء بالشر ضد من ينعم الله عليه بفضل منه لم يصل هو إليه ، وبالأخص بين الأقرباء إذا كانوا إخوة غير أشقاء .

قال الفخر الرازي : (إنَّ يعقوب (عليه السلام) كان شديد الحب ليوسف وأخيه ، فحسده إخوته لهذا السبب ، وظهر ذلك المعنى ليعقوب (عليه السلام) بالأمارات الكثيرة . فلما ذكر يوسف (عليه السلام) هذه الرؤيا ، وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له ، فقال : لا تجربهم برؤياك ، فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً) (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إنَّ أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾

(ترى حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب (العهد القديم) ؟ إنَّ السياق هنا يفيد أن لا . فهم يتحدثون عن إثارة يعقوب ليوسف وأخيه عليهم . أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه . فما

١ - من سورة يوسف : الآيات من رقم ٤ إلى ٢٠ .

٢ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ٨٩ .

خافه يعقوب على يوسف لو قصَّ رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر . وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له . ولم يكن بد أن يتم ؛ لأنه حلقة في سلسلة الرواية الكبرى المرسومة ، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة ، والتي تمهِّد لها ظروف حياته ، وواقع أسرته ، ومجيئه لأبيه على كبره . وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء ، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر ، كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، وإخوته من أمهات (١) .

قال الطبرى : (يقول تعالى ذكره : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ﴾) الأحد عشر (آيات) يعنى : عبر وذكر (للسائلين) يعنى : السائلين عن أخبارهم وقصصهم . وإنما أراد جل ثناؤه بذلك نبيه محمداً ﷺ وذلك أنه يقال : إنَّ الله تبارك وتعالى إنما أنزل هذه السورة على نبيه ، يعلمه فيها ما لقي يوسف من أدانيه وإخوته من الحسد مع تكرمه الله إياه ؛ تسلياً له بذلك مما يلقي من أدانيه وأقاربه من مشركى قريش (٢) .

يقول تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ أى لقد كان لمن تتبع حوادث إخوة يوسف معه ، وحوادثه معهم ، مع التأمل في أسبابها وتنتائجها ، لقد كان لمن تتبع ذلك آيات : علامات ودلائل واضحة على قدرة الله وحكمته في كل شيء .

(وقيل المعنى : لقد كان في يوسف وإخوته آيات دالة على نبوة محمد ﷺ للسائلين له من اليهود ، فإنه روى أنه قال له جماعة من اليهود وهو بمكة : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام ، أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى . ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا ، فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة . وقيل : معنى (آيات للسائلين) عجب لهم ، وقيل : بصيرة ، وقيل : عبرة (٣) .

(وقال القاشاني : أى آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أولاً : على أنَّ الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساع ، ولا إرادة مريد ، فيعلمون مراتب الاستعدادات في الأزل .

(وثانياً : على أنَّ من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشر ، فيقوى يقينهم وتوكلهم .

(وثالثاً : على أنَّ كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم الذى هو الانتقال الذهني ، على

٢ - تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٥٦١ .

١ - في ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٧٣ .

٣ - فتح القدير ج ٣ ص ٧ .

أحوالهم في البداية والنهاية ، وما بينها وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم ، وتشحذ بصيرتهم ، وتقوى عزيمتهم ﴿١﴾ .

ثم بين الله عز وجل السبب الذي لأجله قصد إخوة يوسف إيذاءه والخلاص منه ، وذكر سبحانه حسدهم له على محبة أبيه له ولأخيه أكثر منهم ، فقال تعالى : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (٢)

قال الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسير هذه الآية : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ أى أن في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدءوا فيه بقولهم جازمين مقسمين : ليوسف وأخوه الشقيق له ، واسمه بنيامين ، أحب إلى أبينا منا كلنا (ونحن عصبة) أى يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما ، والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال أقوىاء أشداء معتصبون ، نقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ إنه لفي تيه من المحابة لهما ، ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالاً يئناً لا يخفى على أحد ، إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة ، على العصبة أولى القوة والكسب والنجدة (٣) .

وهنا تساءل الفخر الرازي قائلاً : (إن من الأمور المعلومه : أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات ، فلما كان يعقوب (عليه السلام) عالماً بذلك ، فلم أقدم على هذا التفضيل ؟ وأيضاً : الأسن والأعلم والأنفع أفضل ، فلم قلب هذه القضية ؟

(والجواب : أنه (عليه السلام) ما فضلها على سائر الأولاد إلا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر ، فكان معذوراً فيه ، ولا يلحقه بسبب ذلك لوم (٤) .

هذا ، ولما قوى حسد الإخوة ليوسف (عليه السلام) وبلغ النهاية ، وغلا حقدهم عليه ، اشتوروا فيما بينهم في وسيلة الخلاص منه . وكانت نتيجة المفاوضة بينهم أن قالوا : ﴿ اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ (٥) .

١ - تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٥١٣ .

٢ - قال الراغب في المفردات ص ٣٣٦ : (العصبة : جماعة متعصبة متعاضدة ، قال تعالى : (ونحن عصبة) أى مجتمعة الكلام متعاضدة) .

٣ - تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٦٠ .

٤ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ٩٣ .

٥ - قال الراغب في المرجع السابق ص ٣٠٢ : (الطرح : إلقاء الشيء وإبعاده) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية (يقولون : هذا الذى يزامحكم فى محبة أبيكم لكم ، اعدموه من وجه أبيكم ، ليخله لكم وحدكم ، إمّا بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم ، ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فاضمروا التوبة قبل الذنب (١) .

وهكذا تشاوروا فى كيدهم ، وإخفائه من أبيه وإبعاده عنه . وبدت منهم العداوة والبغضاء ليوسف (عليه السلام) ووصلوا فى ذلك إلى الحكم عليه بالإعدام . وكان تنفيذ ذلك فى رأى البعض منهم يكون بأحد طريقين : إمّا قتله ، وإمّا رميه فى أرض مجهولة بعيدة عن العمران يلقي مصيره فيها دون أن يبتدى إلى العودة إلى أبيه سبيلاً ، ودون أن يدركه والده وينقذه من الهلاك فيها . والعلة فى ذلك كله ، كما زعموا ، هى أن يوسف (عليه السلام) شغل أباهم عنهم ، وصرف وجهه إليه . فإذا خلت الديار من يوسف وأخيه الشقيق ، كما كانوا يظنون ، أقبل أبوههم عليهم بالميل والمحبة وتوجّه إليهم ؛ لعدم وجود من يشغله عنهم ، أو يشاركهم فى عطفه وحبه . ثم قالوا : ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ من بعد يوسف ، أى من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ﴿ قوماً صالحين ﴾ أى تائبين إلى الله عما جنبتهم عليه ، وتعودوا إلى الطريق المستقيم فى حياتكم ، ثم يصلح ما بينكم وبين أبيكم ، كما تصلح دنياكم وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم لكم .

قال الأستاذ سيد قطب : (هكذا ينزغ الشيطان ، وهكذا يسوّل للنفس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا فى صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم : اقتلوا . . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التى يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكز ، حتى إذا تذكّر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أمّا التوبة الجاهزة ! التوبة التى تُعدّ سلفاً قبل ارتكاب الجريمة ؛ لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة . إنما هى تبرير لارتكاب الجريمة يزيّن الشيطان !) (٢) .

وقال ابن إسحق يصف بشاعة مؤامرتهم ومكيدتهم لأخيهم يوسف (عليه السلام) : (لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وغقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل والده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنّه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم !) (٣) .

١ - تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٤٧٠ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٧٣ .

٣ - تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥١٥ .

ثم إنه تعالى حكى أن قائلاً قال : ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الحب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ (١) .

قال الألوسي في تفسير هذه الآية : (قال قائل منهم) هو يهوذا ، وكان رأيهُ فيه أهون شراً من رأي غيره ، وهو القائل : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أب أو يحكم الله لي ﴾ (٢) الآية ، قاله السدي . وقال قتادة وابن إسحق : هو روبيل ، وعن مجاهد : إنه شمعون ، وقيل : دان ، وقال بعضهم : إن أحد هذين هو القائل : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ وإما القائل : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ فغيره ، ولعل الأصح أنه يهوذا .

(قيل : وإنما لم يذكر أحد منهم باسمه ؛ سترأ على المسيء ، وكلٌّ منهم لم يخل عن الإساءة وإن تفاوتت مراتبها ، والقول بأنه على هذا لا ينبغي لأحد أن يعين أحداً منهم باسمه تأسيساً بالكتاب ، ليس بشيء ؛ لأن ذلك مقام تفسير وهو فيه أمر مطلوب . والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ، كأن سائلاً سأل : اتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتي الصنيع أم خالفهم في ذلك أحد ؟ فقيل : قال قائل منهم : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ والإيتان (ييوسف) دون ضميره ؛ لاستجلاب شفقتهم عليه ، واستعظام قتله وهو هو ، فإنه يروى أنه قال لهم : القتل عظيم ، ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى ، وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله : ﴿ وألقوه في غيابة الحب ﴾ أي في قعره وغوره ، سُمي به لغيبته عن عين الناظر (٣) .

وهكذا طلب أحد الإخوة تعديل ما حكموا به على يوسف ، فأشار إلى أن الأولى ألا يفعلوا شيئاً من القتل أو الطرح في أرض منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ، أمّا إن كان ولا بد من إبعاده فيلقوه في أغوار بئر على طريق القوافل ؛ لعل بعض المارة يأخذه معه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ؛ وبذلك يكون قد تحقق للإخوة غرضهم من إقصاء يوسف عن أبيه ، وينجون من إثم القتل . فاستقر رأيهم على هذا .

قال أبو السعود عند قوله تعالى : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي بمشورق . لم يبت القول عليهم ، بل إنما عرض عليهم ذلك تألفاً لقلوبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيهِ ، وحذراً من نسبتهم له إلى التحكم والافتيات ، أو إن كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من إزالته من عند أبيه لا محالة . ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول : فما فعلوا بعد ذلك ؟ قبلوا ذلك منه أولاً ؟ أجيب

١ - قال الراغب في المفردات ص ٣٦٧ : (الغيابة : مُهَيَّطٌ مِنَ الْأَرْضِ) وقال في ص ٨٥ من هذا المرجع : (قال الله تعالى : ﴿ وألقوه في غيابة الحب ﴾ أي بئر لم تَطَوَّ وتسميته بذلك إما لكونه محفوراً في جيب أي في أرض غليظة ، وإما لأنه قد جُبَّ ، والجُبُّ قطع الشيء من أصله كجب النخل) .

٢ - من سورة يوسف : آية رقم ٨٠ .

٣ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج ١٢ ص ١٩٢ ، بتصرف .

بطريق الاستئناف على وجه أدرج في تضاعيفه قبولهم له بما سيجيء من قوله : ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ الآية ، فقيل : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسب بينه وبينهم ، وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف (عليه السلام) ليتسببوا بذلك إلى استنزاله (عليه السلام) عن رأيه في حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى ، فكأنهم قالوا : (مالك) أى أى شئ لك (لا تأمنا) أى لا تجعلنا أمناء (على يوسف) مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ يريدون له الخير ومشفقون عليه ، ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقة قط (١).

ثم قالوا لأبيهم : ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ (٢) هذا الكلام يدل على أن أباهم كان يخافهم على يوسف ، وإلا لما قالوا هذا القول . والمعنى : أنهم لما اتفقوا على تنفيذ ما أجمعوا عليه . راودوا أباهم عن يوسف واستأذنه في أن يصحبهم منذ الغداة ، قائلين له : نحن نؤكد لك أننا نحبه ونشفق عليه ، أرسله معنا إلى المراعى غداً ليلعب ويمرح ويتمتع بالأكل والشرب مثلنا ، وإنا لحريصون على المحافظة عليه حرصنا على أنفسنا . وبهذا القول خدعوا أباهم ومكروا به وبابنه يوسف (عليهما السلام) .

قال الزمخشري : (فإن قلت : كيف استجاز لهم يعقوب (عليه السلام) اللعب ؟ قلت : كان لعبهم الاستباق والانتضال ؛ ليروضوا أنفسهم بما تحتاج إليه لقتال العدو لا للهو ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ الآية . وإنما سمّوه لعباً لأنه في صورته (٣) .

هذا ، وجواباً لهم على طلبهم السماح لهم باصطحاب يوسف (عليه السلام) ليلهو ويلعب معهم ، قال يعقوب (عليه السلام) : إنه لا يصبر على فراقه ، ويخاف عليه من الذئاب عند غفلتهم عنه . وقد حذر العاقبة وأشفق من قوع المكروه .

قال تعالى : ﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ (٤) .

قال أبو حيان : (اعتذر لهم يعقوب بشيئين : أحدهما عاجل في الحال ، وهو ما يلحقه من الحزن لمفارقتها ، وكان لا يصبر عنه . والثاني - خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم

١ - تفسير أبي السعود ج٣ ص ١١٤ - ١١٥ .

٢ - جاء في المفردات ص ١٨٧ قال الراغب : (الرتع : أصله أكل البهائم ، يقال : رتع يرتع رتوعاً ورتاعاً ورتعاً ، قال تعالى : ﴿ يرتع ويلعب ﴾ ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير) .

٣ - الكشف ج٢ ص ٣٠٦ .

٤ - قال الراغب في المفردات ص ١٦١ : (الخوف : توقُّع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة . ويضاد الخوف : الأمن . ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية) .

ولعبيهم أو بقلة اهتمامهم بحفظه وعنايتهم ، فيأكله ويحزن عليه الحزن المؤبد . وخص الذئب ؛ لأنه كان السبع الغالب على قطره ، أو لصغر يوسف آنذاك ، فخاف عليه هذا السبع الحقيقير ، وكان تنبيهاً على خوفه عليه ما هو أعظم افتراساً^(١) .

(يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى في الصحراء ﴿إني ليحزننى أن تذهبوا به﴾ أى يشق على مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ؛ وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال فى الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه . قوله : ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون . فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين له عنها فى الساعة الراهنة : ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لهالكون عاجزون^(٢) .

وهكذا لم يزل الإخوة العشرة يراجعون أباهم فى شأن يوسف ، ولم يألوا جهداً فى استنزاله على إرادتهم ، حتى أجابهم إلى ما سألوه ، وأرسل معهم أخاهم على كره ومضض . وما إن بعدوا به عن الديار حتى جعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال وسىء المقال . ثم أجمعوا على إلقائه فى غيابة الحب . فلما ألقوه فيه ، ثم تنفيذ المؤامرة النكراء ، فاحتواه ظلام الحب ، وشمله سكونه ، ودخل فى المحنة . وفى لحظة الشدة والضيق التى كان يواجه فيها الفزع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له من البشر ولا مغيث ، فى تلك اللحظة ألقى الله عز وجل فى روعه أنه ناج ، وأنه سيخبر إخوته بصنيعهم هذا فى وقت هو فيه عزيز ، على الشأن ، وهم مائلون أمامه ، محتاجون إليه ، لا يعلمون أمره ، ولا يخطر ببالهم أنه يوسف الذى تركوه فى غيابة الحب وهو صغير .

قال تعالى : ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الحب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ .

كأن الله تعالى يقول له : فلا تحزن منهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، فسيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً مما أنت فيه . وبهذا الإلهام الربانى اطمأن قلبه وسكن روعه وهداً باله . ولعل هذا الإلهام كان عاملاً نفسياً قوياً فى ثباته على إيمانه ، ووقوفه فى حياته موقف الواصل بالله تعالى . فلا شك أنه عندما ألقوه فى غيابة الحب دهمه من الحزن ما دهمه ، وأنه كان يحيط به جو من الاستسلام لقضاء الله وقدره ، والصبر على ما أصابه من المحنة والابتلاء .

١ - تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٧٠ .

قال الأستاذ محمد أحمد جاد المولى يصف محنة يوسف في غيابة الجب : (يوسف الان في الجب محتويه ظلامه ويشتمله سكونه ، محنة يمتحن بها هذا الفتى الكريم ، والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب ، ويفتنهم بضروب الآلام ؛ ليكونوا أقدر احتمالاً على ما يلقي عليهم من مهمات الأمور وعظيماها .

(ولم تكن محنة أنكى في الداء : وأبلغ في الألم وأبعث على الجزع من هذه المحنة التي ابتلى بها يوسف . وربما كانت هذه أخف وقعا وأهون شأناً لو أنها وقعت على رجل خبر أساليب الحياة ، وعجم عידان الأمور ، إذن لعرف كيف يحتال لنفسه ، أو يتدبر في أمره ، ولكن يوسف لا يزال فتىً غريباً لا يريش ولا يبرى .

(وربما كانت أخف احتمالاً لو أن يوسف كان قد اقترف خطيئة ، أو ارتكب إثماً ، إذن كان خليقاً بهذه المحنة ، جديراً بهذا العذاب ، ولكنه كان مبرئاً من العيب ، بعيداً عن التهمة ، قصياً عن مواطن الرب ، وهو بعد في زكاء الطفولة وغرارة الفتوة ، وأمره في رقة الحاشية وخفض الجناح كان معروفاً مألوفاً .

(ولو أن رمية يوسف كانت من غير إخوته ، ومحتته جاءت من غير آصرته لاحتملها قلبه ، واتسعت لها جوانب صدره ، ولم يتشعب فيها همٌّ وأسفه ، ولكنه سهم إخوته ، ورمية بنى أبيه !

(لكن رحمة الله قد اقتربت منه ، فهو وقد امتحنه بهذه البلوى ، وهو الذي سيربط قلبه ، وسيجمع ما تفرق من نفسه ، ها قد أوحى إليه : أن تجمل بالصبر واعتصم بالعزاء ، فإني جاعل لك من ضيقك مخرجاً ، ومن همك فرجاً ، وإني مظهرك على إخوتك ولكن بعد حين . عند ذلك ذهبت همومه ، ورجعت إليه نفسه ، وانتظر يرقب أمر الله تعالى)^(١) .

أما إخوته فقد رجعوا إلى أبيهم ليلاً ، يلفقون القول ، ويسبكون الكذب ، ويظهرون الحزن . واصطنعوا البكاء ظناً منهم أن هذا سينهض بحجتهم ، ويغطي مؤامرتهم ضد أخيهم يوسف (عليه السلام) .

قال تعالى : ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ قال القاسمي عند تفسير هذه الآية : ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ : (بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهوم موته القاطع عنه متمناه ؛ لتقطع محبته عنه ، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم الحب الكلى . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه في الاعتذار

الكذب ، ومن تفرّسه من وجوههم الكذب . واوهوا ببيكائهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوا باسم (الأب) المضاف إليهم ، ليرحمهم فيترك غضبه عليهم الداعي إلى تكذيبهم (١) .

﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ أى قالوا معتردين عما وقع فيما زعموا : يا أبانا ، لقد وقع ما كنت تحذره ، وحل ما كنت تحشاه . لقد تركنا يوسف عند امتعتنا من ثياب وأزواد ليحرسها ، ومضيّنا نتسابق في العدو والرمى ، فأكله الذئب في غيبتنا في السبق ، وما أنت بمصدّق لنا ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة ؛ لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول .

قال الحافظ ابن كثير : (وقوله : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدّقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب ، فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ الآية ، بيان لما تأمروا عليه من المكيدة ، وهو أنهم جاءوا فوق قميصه بدم مكذوب - غير دم يوسف - ليوهم كونهم صادقين في مقالتهن ، وحساباً منهم أنه يقوم برهاناً على صدق دعواهم .

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : أى جاءوا فوق قميصه بدم ، ووصف الدم بأنه كذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه . وقيل : المعنى : بدم ذى كذب أو بدم مكذوب فيه - وقرأ الحسن وعائشة : (بدم كذب) بالدال المهملة : أى بدم طرى . يقال الدم الطرى : كذب . وقال الشعبي : إنه المتغير . والكذب أيضاً البياض الذى يخرج في أظفار الأحداث ، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذى يخرج في الظفر من جهة اللونين . وقد استدلل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرج القميص ؟ (٣) .

ولما ذكر إخوة يوسف ذلك الكلام ، واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم ، هنالك (أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم

١ - تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٥١٨ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٧١ .

٣ - فتح القدير ج ٣ ص ١١ .

دَبُّوا له مكيدة ما . وأنهم يَلْفُقُونَ له قصة لم تقع ، ويصفون له حالاً لم تكن ، فواجههم بأن نفوسهم قد حَسُنَتْ لهم أمراً منكراً وذلكته وسُئِرَتْ لهم ارتكابه ، وأنه سيصبر متحماً متجماً ، لا ينجز ولا يفزع ولا يشكو ، ومستعيناً بالله على ما يَلْفُقُونه من حيل وأكاذيب : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ (الآية) (١) .

قال صاحب تفسير المنار عند تفسير هذه الآية : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ (٢) : (هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره : إن الذئب لم يأكله ، بل سهلت لكم أنفسكم الأمانة بالسوء أمراً إمراً ، وكيداً نكراً ، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه ، أى هذا أمركم ، وأما أمرى معكم ومع ربى (فصبر جميل) أو فصبرى صبر جميل ، لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله ، القانطين من رحمته ، ولا الشكوى إلى غير الله تعالى ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها غيره أحداً منكم ولا من غيركم) (٣) .

ثم بين تعالى كيف سهّل السبيل في خلاص يوسف من تلك المحنة ، فقال : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه ، بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) .

قال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ وجاءت سيارة ﴾ أى رفقة مارة يسرون من الشام إلى مصر ، فأخطأوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للرعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف . ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل (وجاءت) . والوارد : الذى يرد الماء يستقى للقوم ، وكان اسمه - فيما ذكر المفسرون - مالك بن دعر ، من العرب العاربة . ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أى أرسله ليملأه ماء . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال ﷺ في حديث الإسراء : (فإذا أنا بيوسف إذ هو قد أعطى شطر الحسن) الحديث (٤) . فلما رآه مالك بن دعر قال : ﴿ يا بشرى هذا غلام) هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبى إسحق فإنه قرأ : (يا بشرى هذا غلام) . وقرأ أهل الكوفة : (يا بشرى) غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما - اسم الغلام ، والثانى - معناه : يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . والمعنى في نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما

١ - في ظلال القرآن جـ ١٢ ص ١٩٧٦ .

٢ - قال الراغب في المفردات ص ٢٤٩ : (التسهيل : تزين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبح منه بصورة الحسن) .

٣ - تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٦٧ .

٤ - صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٢١٣ .

تقول : يا عجباه ! أي يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر . وقيل : هو كما تقول : واسروراه ! وأنّ البشرى مصدر من الاستبشار ، وهذا أصح ؛ لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم ، وعلى هذا يكون (بشرى) في موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف ، ومعنى النداء ههنا التنبيه ، أي انتبهوا لفرحتي وسروري ^(١) .

وقال أبو حيان : (وأسرّوه : الظاهر أنّ الضمير للسيارة التي الوارد منهم ، أي أخفوه من الرفقة أو كتموا أمره من وجدانهم له في الحب وقالوا : دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر . وقال ابن عباس : الضمير في (وأسرّوه) (وشروه) لإخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة : هذا غلام قد أبق لنا فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، وذلك أنه روى أنّ بعضهم رجع إلى الحب ، ليتحققوا أمر يوسف ويقفوا على الحقيقة من فقده ، فلما علموا الوارد قد أخذه جاءهم وقالوا تلك المقالة . وانتصب (بضاعة) على الحال ، أي متجراً لهم ومكسباً ^(٢) .

ويبدو واضحاً أنّ الضمير في (وأسرّوه) عائد إلى الوارد وأصحابه ، لأنّ قوله تعالى : ﴿ وأسرّوه بضاعة ﴾ يدلّ على أنّ المراد أسرّوه حال ما حكموا بأنه (عليه السلام) بضاعة . وذلك إنّما يليق بالوارد ورفاقه لا بإخوة يوسف (عليه السلام) .

قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وأسرّوه بضاعة ﴾ أي أخفوه متاعاً للتجارة . والبضاعة : ما يضع من المال للتجارة : أي قطع . ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ لم يخف عليه أسرارهم . وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم ، أو والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيه من سوء الصنيع ^(٣) .

وهكذا دخل يوسف (عليه السلام) في محنة الرق ، واستأنفت القافلة السير ، حتى ألقت عصاها بمصر . وهناك عرضه للبيع في السوق ، وهو الحر الأبى والرسول الكريم ، وباعوه كرقيق بثمان قليل ، وكانوا معرضين عنه وغير راغبين فيه .

قال تعالى : ﴿ وشروه بثمان بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ ^(٤) .

قال أبو السعود : (وشروه : أي باعوه ، والضمير للوارد وأصحابه . (بثمان بخس)

١ - الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ١٥٢ - ١٥٤ ، بتصرف .

٢ - تفسير البحر المحیط ج ٥ ص ٢٩٠ .

٣ - الكشف ج ٢ ص ٣٠٩ .

٤ - قال الراغب في المفردات ص ٣٨ : (قوله تعالى : ﴿ وشروه بثمان بخس ﴾ قيل معناه : باعوا أي ناقص ، وقيل : مبخوس أي منقوص) .

زيف ناقص العيار ، (دراهم) بدل من ثمن ، أى لا دنانير . (معدودة) أى غير موزونة ، فهو بيان لقلته ونقصانه ، مقداراً بعد بيان نقصانه فى نفسه إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العدّ دون الوزن . (وكانوا) أى البائعون (فيه) فى يوسف (من الزاهدين) من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم ؛ فلذلك باعوه بما ذُكر من الثمن البخس . وسبب ذلك أنهم التقطوه ، والمثلث للشئ متهاون به ، أو غير واثق بأمره ، يخاف أن يظهر له مستحق فيتنزعه منه ، فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن (١) .

وإلى هنا نصل إلى نهاية المحنة الأولى فى حياة يوسف (عليه السلام) . فقد كان بنو أبيه هم السبب الظاهر لهذه المحنة والابتلاء ، حيث وقعوا فى الجريمة وتحت غضب أبيهم ، ويوسف ذاق من جراء ذلك الصاب والعلقم . قال طرفة بن العبد يصف ظلم ذوى القربى :
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند (٢)

لقد حسدوا يوسف (عليه السلام) وكادوه بالسوء ، واستطاعوا أن يفرّقوا بينه وبين أبيه . وكان هذا الابتلاء ليوسف (عليه السلام) رحمة ؛ حيث أعدّه الله تعالى منذ صغره إعداداً تاماً لتحمل تكاليف الدعوة . كما أن فى هذا الفراق ابتلاء ليعقوب (عليه السلام) . فهو لما تلقى نبأ فقدان يوسف ، أحبّ أولاده إليه ، وجد نفسه أمام قضاء الله وقدره . وليس من حيلة لاتقاء شر ما وقع ، إلا أن يتحمل ذلك فى إيمان وثقة بالله . فاستعان بالله تعالى على هذه البلية ، وصبر صبراً جليلاً . وفوّض الأمر بالكلية إلى الله عز وجل .

امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه :

قال الله تعالى : ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم .

١ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ١٢١ بتصرف .

٢ - شرح القصائد العشر ص ١٤٦ .

قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفر لي ذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلك الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴿١﴾ .

(من مواضع العبرة في هذه الآيات الكريمة : رعاية الله عز وجل ليوسف وعنايته به وتمكينه في الأرض وصرفه عن السوء والفحشاء ؛ لأنه كان مخلصاً له ، محسناً في أعماله ونواياه . وتنبيهه به لأنه ثبت أمام التجربة ، فلم ينزل في المهادى المهلكة ؛ اتقاء لغضب الله واستشعاراً بواجب الحق والوفاء ، حيث ينطوى في ذلك حث على التمسك بأهداب الفضيلة والصدق والأمانة والاستقامة والوفاء ، وإشارة إلى ما يناله أصحاب هذه الأخلاق من تكريم الله ورعايته ﴿٢﴾ .

لقد انتهت المحنة الأولى في حياة يوسف (عليه السلام) بسلام ، ووصل إلى مصر وبيع ببيع الرقيق . ولكن الذي اشتراه من مصر أوصى امرأته أن تحسن إليه ، مؤملاً فيه النفع والقيام بإصلاح مهماتهم ، أو راجياً أن يتبناه يوماً ما ويتخذه ولداً . وكان ما أوصى به هذا المشتري مقدّمة لتكريم المولى عز وجل ليوسف (عليه السلام) ؛ لأنه عندئذ يكون أخرج من دائرة الرق إلى دائرة الاعتبار الإنساني والكرامة البشرية ، حتى إنه ليرجو في يوم من الأيام أن يكون له ولداً بالتبني .

قال تعالى : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

١ - من سورة يوسف : الآيات من رقم ٢٠ إلى رقم ٣٤ .

٢ - التفسير الحديث ج٤ ص ١٠٩ .

يخبر الله تعالى عن الطافه بيوسف (عليه السلام) إذ يسر له الذى اشتراه من مصر فاعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته : ﴿ أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ .

قال الألوسى : (قوله تعالى : ﴿ أكرمى مثواه ﴾ أى اجعلى محل ثوائه وإقامته كريماً ، أى حسناً مرضياً . وهذا كناية عن إكرامه عليه السلام نفسه على أبلغ وجه وأتمه ؛ لأن من أكرم المحل بتنظيفه وفرشه ونحو ذلك ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به ، وقيل : المثوى مقحم ، يقال : المجلس العالى ، والمقام السامى . والمعنى : احسنى تعهده والنظر فيما يقتضيه إكرام الضيف : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فى قضاء مصالحنا إذا تدرّب فى الأمور وعرف مجاريها ، ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أى نتبناه ونقيمه مقام الولد ^(١) .

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى كما جعلنا له مثوى كريماً فى منزل العزيز وقلبه ، جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة فى أرض مصر ، ووجاهة فى أهلها ، ومحبة فى قلوبهم ؛ ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التى ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى ، ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أى لا يمنع عما يشاء ؛ ولا ينازع فيما يريد ، أو على أمر يوسف : أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذرون زعماً أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه ^(٢) .

ثم بين الله تعالى أن يوسف (عليه السلام) لما بلغ منتهى اشتداد جسمه وقوته - استكمل عقله وتم خلقه - حباه الله بالنبوة والحكم بين الناس . وكان ذلك جزاء إحسانه فى الاعتقاد والسلوك ، وعمله بطاعة الله عز وجل ، وصبره على كل المحن والفتن التى مرّت عليه .

قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

قال الرازى : (وجه النظم أن يقال : بين تعالى أن إخوة يوسف لما أساءوا إليه ، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن ، مكّنه الله تعالى فى الأرض . ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكيم والعلم . والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ^(٣) .

٣ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ١١٠ .

٢ - تفسير روح المعاني ج ١٢ ص ٢٠٧ .

٢ - تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥٢٤ .

وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الآية ، قال ؛ (قيل في الأشد : ثمانى عشرة سنة ، وعشرون ، وثلاث وثلاثون ، وأربعون ، (حكماً) حكمة ، وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه . وقيل : حكماً بين الناس وفقهاً . ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عفوان أمره ، وأن الله تعالى آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه (١) .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ الآية ، قال : (يقول تعالى : كذلك شأننا وستتنا في جزاء المتحلين بصفة الإحسان ، الثابتين عليه بالأعمال ، الذين لم يندسوا فطرتهم ولم يلوثوا أنفسهم بالإساءة في أعمالهم ، نؤتيهم نصيباً من الحكم بالحق والعدل ، والعلم الذى يزيه ويظهره القول الفصل ، فيكون لكل محسن حظه من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه ، وبما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله ، وجودة فهمه وفقهه ، غير ما يستفيده بالكسب من غيره ، لا يؤتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم . وقال ابن جرير الطبرى : وهذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن ، فالمراد به محمد ﷺ . يقول له عز وجل : كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من إخوته ما لقي ، فكذلك أفعل بك ، فأنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض ... إلخ (٢) ، أقول : لا شك أن هذه السنة فى جزاء المحسنين عامة ، ولكل محسن منها بقدر إحسانه . وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف والأنبياء عليهم السلام (٣) .

ولمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وآتاه الله من فضله الحكم والعلم ، وبينما هو آمن فى بيت عزيز مصر ، منعم مكرَّم ، إذ به يفاجأ بمحنة وابتلاء من لون آخر ، أشد وأعظم من الابتلاء الأول . لقد عشقته امرأة العزيز وشغفها حباً ، فراودته عن نفسه ، فرفض بشمم واستعلى بإيمان . وأصر على العصيان لأمرها ، رغم أن كل الظروف من حوله تيسر له طريق الإغراء وتدفع إليه دفعاً . وخرج يوسف (عليه السلام) من هذا الابتلاء سليماً معافى فى خلقه ودينه ، وقوى به عزمه ، وازدادت به قرباً إلى الله تعالى نفسه .

١ - الكشف ج٢ ص ٣١٠ .

٢ - تفسير الطبرى ج١٢ ص ١٧٨ ط البابى الحلبى .

٣ - تفسير المنار ج١٢ ص ٢٧٤ .

قال تعالى : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (١) .

(المراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرج منه يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحيل لمواقفته إياها ، ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ قيل : كانت سبعة (٢) .

قال الحافظ ابن كثير : (يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أى حاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً ؛ لجماله وحسنه وبهائه ، فجملها ذلك على أن تجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ، ودعته إلى نفسها ﴾ وقالت هيت لك ﴿ أى تهيأت لك ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير . أى أن بعلك ربي أحسن مثواي ، أى منزلى ، وأحسن إلىّ فلا أقبله بالفاحشة في أهله (٣) .

وقال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى أعوذ بالله معاذاً عما تدعيني إليه . وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه مُنكَر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء . وقوله عز وجل : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى أن يكون مؤثراً عندها ، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذائق الذى لا تكاد تقبله لما سؤلته لها نفسها (٤) .

(وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل غيبّ تعليل للإمتناع المذكور ، والفلاح : الظفر وإدراك البغية ، وذلك ضربان : دنيوى ، وآخرى . فالأول - الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياة الدنيا ، وهو البقاء والغنى والعز . والثانى - أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل ؛ ولذلك قيل : لا عيش إلا عيش

١ - قال الراغب في المفردات ص ٢٠٧ : (المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود) . وقال في ص ٥٤٧ من نفس المرجع : (هيت : قريب من هلم ، وقرئ (هيت لك) أى تهيأت لك ، ويقال : هيت به وتهيأت إذا قالت : هيت لك) . وقال في ص ٣٥٢ من هذا المرجع : (قوله : (معاذ الله) أى نلتجئ إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك فإن ذلك سوء نتحاشى من تعاطيه) .

٢ - الكشاف ج ٢ ص ٣١٠ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٧٣ .

٤ - تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٢٧ .

الآخرة . ومعنى أفلح : دخل في الفلاح ، ولعل المراد به هنا الفلاح الأخرى ، وبالظالمين : كل من ظلم كائناً من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاة لأمر الله تعالى دخولاً أولاً . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللمزني بأهله ، وقيل : الخائنون ؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم أيضاً ولبن خانوه (١) .

وقال أبو حيان : (وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء : استعاذ أولاً بالله الذى بيده العصمة وملكوت كل شيء ، ثم نبه على أن إحسان الله أو إحسان العزيز الذى سبق منه لا يناسب أن يجازى بالإساءة . ثم نفى الفلاح عن الظالمين ، وهو الظفر والفوز بالبغيّة ، فلا يناسب أن أكون ظالماً أضع الشيء غير موضعه وأتعدى ما حدّه الله تعالى لى) (٢) .

وهكذا كان الوضع بين امرأة العزيز ويوسف (عليه السلام) . إنها لم تبال بإيائه ورفضه تحقيق رغبتها ، ولم تبال كذلك بما قاله لها من القول البليغ الذى من شأنه أن يردعها أو يجعلها ترعوى أو تفكر . بل تبادت في غيها ، ودعته إلى نفسها صراحة . وقصدت بذلك مخالطته ، وعزمت عليها عزمًا جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة وتغليق الأبواب ، إلى غير ذلك مما عساه أن يصبى نفسه ويشير داعية هواه .

ولكن يوسف (عليه السلام) وإن كان آنذاك في ريعان الشباب ، قد أوقى الحكمة وأعدّه الله تعالى لشرف النبوة والرسالة ، فقلبه مشغول بحبّ الله جل جلاله ، وليس فيه موضع تستميله المرأة أو تستهويه نزوات الهوى . ومن ثم لما همّت به امرأة العزيز ، وهمّ بها هم النفس ، هداه الله عز وجل إلى سواء السبيل ، فرأى برهان ربه وانصرف عن السوء والفحشاء .

قال تعالى : ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾

سار جمهور المفسرين على أن امرأة العزيز همّت بيوسف (عليه السلام) هم ارتكاب المعصية ، وهمّ بها هو همّ النفس ، ثم رأى برهان ربه فاستعصم . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : ﴿ ولقد همّت به ﴾ الآية ، أى وتالله لقد أرادت المرأة مخالطته بإلحاح وشدة وإصرار .

١ - تفسير روح المعاني ج ١٢ ص ٢١٣ .

٢ - تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٢٩٤ .

ولكن بعض المفسرين - منهم الأستاذ محمد رشيد رضا^(١) - لم يصادق الجمهور على هذا الرأي . وذهب إلى أنها إنما هُتت بضربه لعصيانه أمرها ، وهم هو برد الاعتداء ، ولكنه أثر الحرب فلحققت به وقدت قميصه من دبر .

وفي تنفيذ هذا الرأي قال الأستاذ سيد قطب : (وتفسير الهم بأنه همّ الضرب ، وردّ الضرب ، مسألة لا دليل عليها في العبارة ، فهي مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن همّ الفعل أو همّ الميل إليه في تلك الواقعة . وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص)^(٢) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ الآية ، أى امتنع همّ بها لوجود البرهان عنده ، وهو حرصه على الطاعة .

قال أبو حيان : (إن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها البتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول : لقد قارفت الذنب لولا أن عصمك الله تعالى . ولا نقول : إن جواب (لولا) متقدّم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد ذهب إلى ذلك (الجواز) الكوفيون ، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد . بل نقول : إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه)^(٣) .

وقال الزمخشري : (فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها ؟ قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ، ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمّى همّاً لشدته لما كان صاحبه مدوحاً عند الله بالامتناع ؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همّ كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين)^(٤) .

١ - أنكر على الجمهور رأيهم في ﴿ هُتت به وهمّ بها ﴾ في تفسير المنار ج٢ ص ٢٨٠ إلى ص ٢٨٦ .

٢ - في ظلال القرآن ج٢ ص ١٩٨١ .

٣ - تفسير البحر المحيط ج٥ ص ٢٩٥ .

٤ - الكشف ج٢ ص ٣١١ . وقد علّق الأستاذ سيد قطب على هذا الرأي فقال : (وهو تحليل صحيح في جملة بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري : (ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم) . فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أن البرهان عقل . والبرهان الذى أخذه الله على المكلفين هو ما قرره في شريعته . . ولكن هذا خلاف مذهبي تاريخي لا شأن لنا به . فهو بجملة غريب على التصور الإسلامى) في ظلال القرآن ج٢ ص ١٩٨٢ .

وبين الفخر الرازي المراد من الهم في قوله تعالى : ﴿وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ فقال : (يُفسر الهم بحديث النفس ؛ وذلك لأن المرأة الفاتكة في الحسن والجمال إذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات . فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة ، وتارة تقوى داعية العقل والحكمة . فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية . ومثال ذلك أن الرجل الصائم في الصيف الصائف إذا رأى الماء المبرد بالثلج فإن طبيعته تحمله على شربه ، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه ، فهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحالة أشد ، كانت القوة في القيام بلوازم العبودية أكمل)^(١) .

وكذلك قال أبو السعود : (وهم بها : بمخالطتها ، أى مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب . وكونه ميلاً جبلياً لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنى عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه (عليه السلام) تسجيلاً محكماً ؟ وإنه عبر عنه بالهم ؛ لمجرد وقوعه في صحبة همتها في الذكر ، بطريق المشكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينها ، حيث لم يُلْزَأ في قرين واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد همأ بالمخالطة ، أو هم كل منها بالآخر . وصُدِّر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي ، وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل : ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ الآية ، أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصله إلى مرتبة عين اليقين ، الذى تتجلى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية ، وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله ﷺ : (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)^(٢) وكأنه (عليه السلام) قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ؛ لذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه . وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنى ، لجرى على موجب ميله الجبلى ، ولكنه حيث كان مشاهداً له من قبل ، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية : بيان أن امتناعه (عليه السلام) لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية)^(٣) .

١ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ١١٩ .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٦٥ .

٣ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ١٢٨ إلى ١٢٩ ، ينصرف .

وقال القاسمى : (لا شبهة على عصمة يوسف (عليه السلام) فى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ بِهَا ﴾ الآية ؛ لأن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبليّة ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولو لم توجد عندهم دواع جبليّة ، لكانوا إمّا ملائكة أو عالمًا آخر . ولما كانوا مأجورين على ترك المناهى ؛ لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعنّين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأنّ الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأمّا الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوّف إليه ، فهو عمل نفسى .

(وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بُعثوا لتزكية الناس منها ؛ لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرّمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزّهون عن جميع ما يقتضية الطبع البشرى)^(١) .

ومما سبق ذكره يتضح أنّ يوسف (عليه السلام) لم يهّم بمخالطة امرأة العزيز ، بل كان بريئاً عن فعل الفاحشة والهّم المحرّم ، ولم يتجاوز همّه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات : أثناء الوضع الحرج الذى كان بينه وبين امرأة العزيز . لقد ثبت فى ذلك المقام العصيب وجاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، وأخلص دينه لله تعالى وعصم نفسه . ومن ثم استخلصه الله لطاعته وعصمه بإخلاصه ، واستحق من المولى عز وجل الثناء ، وشهد ببراءته من المعصية حين قال سبحانه : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ الآية .

قال الرازى : (فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته أربع مرات : أولها : قوله : ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة . والثانى : قوله : (والفحشاء) أى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . والثالث : قوله : ﴿ إنه من عبادنا ﴾ مع أنه تعالى قال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾^(٢) والرابع : قوله : (المخلصين) وفيه قراءتان : تارة باسم الفاعل ، وأخرى باسم المفعول . فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أنّ الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه)^(٣) .

١ - تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٥٣٠ .

٢ - من سورة الفرقان : آية رقم ٦٣ .

٣ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ١١٦ - ١١٧ .

وعلى هذا يكون لا عبرة بما ذهب إليه بعض المفسرين من أن يوسف (عليه السلام) هم بالمعصية . لقد روى هؤلاء المفسرون أساطير كثيرة صوروا فيها يوسف عليه السلام هائج الغريزة مندفعاً شبقاً ، والله سبحانه وتعالى يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع . وهذه الروايات التي ألصقوها عليه في همّه ، كلها كذب وخرافات ، واضحة التلفيق والاختراع ، وقد تلقفوها من أهل الكتاب وهمى في جملتها لا تليق بمقام النبی الكريم يوسف (عليه السلام) ؛ ولهذا ننزه هذا البحث عن نقلها .

قال أبو السعود : (وفي قوله تعالى : ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ آية بيّنة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقل : لنصرفه عن السوء والفحشاء ، وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة)^(١) .

وقال الشوكاني في معنى قوله سبحانه : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ الآية ، قال : (الكاف نعت مصدر محذوف ، والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله : (لولا أن رأى برهان ربه) الآية ، أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك : أى مثل تلك الإراءة أريناه ، أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ أى كل ما يسوؤه ، والفحشاء : كل أمر مفرط القبح ؛ وقيل : السوء : الخيانة للعزیز في أهله ، والفحشاء : الزنى ؛ وقيل : السوء : الشهوة ، والفحشاء : المباشرة ؛ وقيل : السوء : الثناء القبيح . والأولى الحمل على العموم ، فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولاً . وجملة ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ تعليل لما قبله)^(٢) .

هذا ، وبعد أن استفاق يوسف (عليه السلام) مما هو فيه من شدة البلاء ، أسرع إلى الباب يريد الخروج والتخلص منها . وظلت هي تلاحقه ، وعدت خلفه ؛ لتحول دون خروجه ، ولكنه سبقها إلى الباب ، وأراد الخروج ، فجذبت قميصه من الخلف فتمزق . وفي هذه اللحظة كان زوجها قد وصل ، فوجدهما في هذه الحالة المريبة ، فبادرته باتهام يوسف (عليه السلام) وزعمت أنه راودها عن نفسها فامتنعت منه . ثم اقترحت أن يعاقب : إما بالسجن ، أو بالضرب الموجع بالسياط ، تبرئة لسانها .

قال تعالى : ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾^(٣) .

١ - تفسير أبى السعود ج٣ ص ١٣٠ .

٢ - فتح القدير ج٣ ص ١٨ .

٣ - قال الراغب في المفردات ص ٣٩٤ : (القَد : قطع الشيء . طولا)

قال الألوسي في تفسير هذه الآية : ﴿ واستبقا الباب ﴾ متصل بقوله سبحانه : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ الآية ، وقوله تعالى : (كذلك) إلخ اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته (عليه السلام) . والمعنى : لقد همت به وأبى هو ، واستبقا ، أى تسابقا إلى الباب على معنى : قصد كل من يوسف (عليه السلام) وامرأة العزيز سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهى لتمنعه من الخروج ، وقيل : المراد من السبق في جانبها الإسراع لإثره إلا أنه عبر بذلك للمبالغة ، ووحد الباب هنا مع جمعه أولاً ؛ لأن المراد الباب البرانى الذى هو المخلص^(١) .

وقال الحافظ ابن كثير : (أخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ؛ فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت ، بقميصه من ورائه فقدته قدماً فظيعاً ، يقال : إنه سقط عنه ، واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهى في إثره ، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب . فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلاً وقاذفة يوسف بدائها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أى فاحشة ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أى يحبس ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أى يضرب ضرباً شديداً موجعاً^(٢) .

حينئذ تبرأ يوسف (عليه السلام) مما رمت به من الخيانة ، ودفع التهمة عن نفسه وقال باراً صادقاً : ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ الآية ، أى هى التى حاولت أن تغريبنى وطالبتنى للمواتة ، لا أنى أردت بها سوءاً كما قالت .

ثم إنه تعالى أظهر ليوسف (عليه السلام) دليلاً يبرهن على أنه برىء من الذنب ، وأن المرأة هى المذنبة وهو قوله سبحانه : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ الآية .

قال الزمخشري : (قيل : هذا الشاهد كان ابن عم لها ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ؛ لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه . وقيل : هو الذى كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، وقيل : كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشير . ويجوز أن يكون بعض أهلها كان فى الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق . وقيل : كان ابن خال لها صبيّاً فى المهد^(٣) .

وعلى أية حال فقد حسم أحد أهلها بشهادته النزاع الذى كان قائماً بين يوسف (عليه السلام) وامرأة العزيز ، وأدى مؤدى شهادته فى أن ثبت به قول يوسف (عليه السلام) وبطل قولها .

١ - تفسير روح المعاني ج ١٢ ص ١١٧ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٧٥ .

٣ - الكشف ج ٢ ص ٣١٣ .

قال تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

إنها شهادة صادقة وحجة مقنعة شهد بها هذا الشاهد . ولعل الله تعالى أنطقه بها لتكون برهاناً على عفة يوسف (عليه السلام) ونزاهته . وخلاصتها هي كما يلي : إن كان قميص يوسف قُطِعَ طولاً من أمام ، فقد صدقت في دعواها أنه أراد بها سوءاً ؛ لأن هذا يعني أنه كان يريد بها وهي تدفعه عن نفسها ؛ وإذا كان الأمر كذلك فهو من الكاذبين في دعواه أنها راودته وامتنع . وإن كان قميصه تمزَّق من خلف ، فكذبت في دعواها وهو من الصادقين ؛ لأنها تكون في هذه الحالة هي المطالبة له وهو الهارب منها ، وقد سعت وراءه لتجذبه فأمسكت به من خلف فشق قميصه من الخلف .

ولمَّا اتضح الأمر لبعليها ، ورأى أنَّ القميص قُطِعَ طولاً من الخلف ، قال لامرأته : إنَّ هذا البهت وإرادة السوء بيوسف هذا ، ثم قذفه ورميه بما هو برىء منه ، هذا كله من جملة كيدكن يا بنات حواء وحيلتكن ، وإن كيدكن عظيم بالنسبة لكيد أبناء آدم (عليه السلام) .

وبهذا ظهر للقوم براءة يوسف (عليه السلام) عن ذلك الفعل المنكر . ولكن عزيز مصر رغب في ستر فضيحة امرأته ، فالتفت إلى يوسف آمراً له بكتمان ما وقع : يوسف ، اهدأ هذا الذي كان ولا تعره اهتماماً ولا تتحدَّث به . ثم قال لزوجته : واستغفرى الله تعالى لذنبك الذي صدر عنك وثبت عليك ، إنك كنت بسبب ذلك من القوم الآثمين المتعمدين للذنب .

قال الحافظ ابن كثير : (وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام - في ذلك العصر الذي وقعت فيه هذه الحادثة - إلا أنهم يعلمون أنَّ الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك ؛ ولهذا قال لها بعليها ، وعذرها من بعض الوجوه ؛ لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله ، إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية ، فقال : ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ الآية (١) .

ثم ذكر تعالى أنَّ تلك الواقعة شاعت في مصر واشتهرت وتناولتها النساء بشيء من التشنيع والمبالغة : ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنَّا لرأها في ضلال مبين ﴾ (٢) .

١ - قصص الأنبياء ج١ ص ٣٢٢ .

٢ - قال الراغب في المفردات ص ٣٧٢ - ٣٧٣ : (الفقى : الطرى من الشباب ، والأنثى فتاة ، والمصدر فتاه ، ويكنى بها عن العبد والامة ، قال تعالى : ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ الآية .

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : (وقال جماعة من النساء ، وكن خمساً : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة ، وتأنثيه غير حقيقى ، كتأنثى اللمة ؛ ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنثى ، وفيه لغتان : كسر النون وضمها : (فى المدينة) فى مصر (١) .

قالت تلك الجماعة من النساء ، ينكرون على امرأة العزيز ويعبن فعلتها عليها : إنَّ امرأة العزيز تغرى فتاها وتراوده عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ، لقد افتنت به ، وبلغ حبّه شغاف قلبها وخرقه حتى وصل إلى فؤادها ، وإنا لنراها بمسلكتها معه وصنيعها هذا فى خطأ وبعد عن طريق الصواب .

قال أبو السعود : (إنا لنراها : أى نعلمها علماً متاحماً للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (فى ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل (مبين) واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد ، أو مظهر لأمرها بين الناس . فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقين للوم والتشنيع ، وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم . وإنا لم يقلن : إنها لفى ضلال مبين ، إشعاراً بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة ، بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متزهات عن أمثال ما هى عليه (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

فلما وصل إلى سمع امرأة العزيز ما يشيعه بعض النسوة فى المدينة عنها ، واغتيابهن إياها وسوء مقالاتهن فيها ، وجَّهت إليهن دعوة إلى وليمة ، لتوقعهن فيها وقعت فيه من الافتتان بيوسف (عليه السلام) حتى يكف عن الحديث عنها ، وليتمسك العذر لها فى هواها .

لقد أقامت لهن مأدبة فى قصرها ، وهيات لهن ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد والحشايا . ثم أعدت لهن طعاماً فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى الطعام . وبينما هن مشغولات بتقطيع الفواكه وأضرارها من المأكولات ، نادى يوسف (عليه السلام) ليرز أمامهن . فلما رأيته أعظم من شأنه ، ومن فرط إعجابهن به ، وفى نشوة الدهشة منه والمفاجأة به ، جرحن أيديهن بالسكاكين ، وقلن :

١ - الكشف ج ٢ ص ٣١٦ .

٢ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ١٣٦ .

(حاش الله) تنزيهاً لله سبحانه عن صفات النقص والعجز ، وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديع المدهش . ولغرابة جماله نفين عنه كونه من البشر ، ووصفنه بأقصى مراتب الحسن والجمال بقولهن : إنه ملك كريم .

وهنا بدا لامرأة العزيز إعجاب النسوة بيوسف (عليه السلام) حتى ملك هذا الإعجاب عليهن وعيهن ، فواجهتهن بما روجنه عنها من الشائعات ، وسجلت عليهن نفاقهن في لومهن لها في الافتتان به ، ثم باحت بأسرارها : ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

قال الزمخشري : (الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها ، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف (عليه السلام) لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه برى عما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهم والبرهان ^(١) .

لقد أقرت امرأة العزيز أمام النسوة بأن يوسف (عليه السلام) بهرهما مثلهن ، فرادوته عن نفسه ، ولكنها لم تفلح في إغرائه ، إذ لاذ بالعصمة والامتناع عن الاستجابة لرغبتها . ثم حاولت أن تظهر سيطرتها عليه أمام هذا الجمع من النساء في تبجح وتهديد وإغراء جديد قائلة : ومنذ الآن ، أقسم لكن إذا لم يستجب لما أطلبه منه ، ولم يفعل ما أمره به ليعاقبن بالسجن وليكونن من الأذلاء المهينين .

قال الأستاذ سيد قطب : (ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات ، والمبديات لمفاتنهن في مثل هذه المناسبات . ونفهم من السياق أنهن كن نساء مفتونات فانتات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار ، فإذا هو يناجى ربه : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ الآية ، ولم يقل : ما تدعوني إليه . فهن جميعاً كن مشتركات في الدعوة . سواء بالقول أم بالحركات واللفتات . . وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهم لإيقاعه في حبالهن ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه ويدعو الله أن ينقذه منه :

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ ^(٢) الآية ، وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته . الذي لا يغتر بعصمته ، فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته ، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء ^(٣) .

١- الكشاف ج ٢ ، ص ٣١٨

٢- قال الراغب في المفردات ص ٢٧٤ : (صبا فلان يعصبوا صبوا وضوء : إذا نزع واشتاق وقَعَلَ فعل الصبيان) .

٣- في ظلال القرآن ج ١٢ ، ص ١٩٨٥

وبعبارة أخرى : إنَّ امرأة العزيز لما قالت : إنَّ يوسف إن لم يوافقها على مرادها فسوف يُوضع في السجن وفي الصغار ، وسائر النسوة يسمعن هذا التهديد ، فالظاهر أنهن اجتمعن عليه وقلن له : أطعها وافعل ما أمرك به خير لك من دخول السجن .^(١) فعند هذا ألتجأ إلى الله تعالى ، وقال مناجياً لربه عز وجل : يارب ، إن حبسها إياي في السجن الذي وعدتني به أسهل عليَّ وأهون من الوقوع في المعصية . وهكذا أثر دخول السجن بما فيه من مشقة ، على مواتنتهن بما فيها من متعة ؛ ولعله أثر ذلك لأنَّ تلك المتعة يترتب عليها معصية الله تعالى وسوء العاقبة : بمعنى أنها تؤدي إلى الشقاء والذم في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة . أمَّا دخول السجن ففيه احتمال المشقة في ذات الله تعالى ، والصبر على النوائب ، وانتظار الفرج ، والحضور مع الله تعالى في كل وقت .

ثم ناط العصمة بالله تعالى واستسلم له سبحانه كعادة الأنبياء والصالحين ، وأنه عز وجل لا يصرف السوء إلا هو : فقال : وإن لم تدفع عني كيدهن وما أردت مني أمل إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ .

قال القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ الآية (أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم ، أو ممن يعمل عمل الجاهل ؛ ودل هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بسوء الله ، ودل أيضاً على قبح الجهل والذم لصاحبه)^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ الآية ، نص صريح منه (عليه السلام) بأنه ما صبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، وإنما بين مقتضى الاستهداف لكيد هؤلاء النساء ، وسأل ربه أن يديم له ما عوّده في قوله : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ الآية .

(ثم قال تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ الآية ، أى ما دعاه به وطلبه منه ، والذي دلَّ عليه هذا الابتهال والالتجاء إليه ، وطوى ذكره إيجازاً (فصرف عنه كيدهن) فلم يصب إليهن ، فيحتاج إلى جهاد النفس لكفها عن الاستمتاع بهن ، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهن (إنه هو السميع) المجيب لمن أخلص له الدعاء ، جامعاً بين مقامى الخوف

١ - يظهر هذا المعنى من مجموع الآيات التالية : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فالقرينة على ذلك هذه النسبة في هذه المواضع الثلاثة .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ١٨٥ .

والرجاء (العليم) بصدق إيمانهم وما يصلح من أحوالهم . فعطف استجابة ربه له وصرف كيدهم عنه بالفاء الدالة على التعقيب ، وتعليلها بأنها مقتضى كمال صفى السمع والعلم ، دليل على أن ربه عز وجل لم يتخل عن عنايته بتربيته أقصر زمن يهتم فيه بأمر نفسه ومجاهدتها ، ومؤيد لقوله تعالى في أول سياق هذه الفتنة : ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (الآية) (١) .

وهكذا اجتاز يوسف (عليه السلام) محنته الثانية بلطف الله تعالى ورعايته ، وخرج من حرج هذه المكيدة منتصراً على مكر النساء وكيدهن وتدبير نفوسهن الشريرة له . والعامل في هذا النصر العزيز هو إيمانه وإخلاصه في طاعته لله عز وجل ، وصبره ، وتقواه ، ونصره الله تعالى .

يوسف في غياهب السجن :

قال- الأستاذ محمد أحمد جاد المولى : (كل تلك المحن التي ابتلى بها يوسف (عليه السلام) والحبائل التي نصبت له ، والأقاويل التي نسجت حوله ، خرج منها عفيف النفس ، طاهر الذيل . فقد افتتنت امرأة العزيز في مراودته ، ولكن لم يكن لذلك أدنى أثر في جذب خلصات نظره ولا خفقات قلبه ، بل ظل معرضاً عنها متجاهلاً لها ، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعر جلدته واستعاذ بربه ، وأنف أن يخون بعلمها . واتهمته بالخيانة والسوء ، فشهد شاهد من أهلها أسقط حجتها ، وأوهى كلامها . واجتمع حوله النسوة يفتنه فما نقضن له مرةً ، ولا حولن له قلباً .

(ظهرت هذه العلامات دالة على براءته ، شاهدة على نزاهته وأمانته ، وعلمها العزيز واستيقنتها نفسه : ولكن امرأته - وقد عيل صبرها ، وانقطع من يوسف رجاؤها - فرعت إليه ، وكان مطواعاً لها ، وجلاً ذلولاً في يدها ، وقالت له : إن يوسف قد فضحني في أمرى ، وافترى على الزور في شرفى ، وما أرى إلا أن تسجنه ، فتأخذ لشرفى ، وتشفى من غيظى .

(فانقاد لقولها ، وصدع بأمرها ، ودفع بيوسف إلى السجن ، بريئاً من ذنبه كما كان الذئب بريئاً من دمه ، فاستقبل فيه محنة جديدة ، تلقاها بقلب الصابرين ، وعزم المؤمنين) (٢) .

١ - تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

٢ - قصص القرآن ص ٨٦ .

قال تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خمراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبثنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربى إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماءٌ سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أماً أهدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منها اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين . وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها المלא أفتونى فى رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم هن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون . وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم . وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ ١١ ﴾ .

(تضمّنت هذه الآيات الكريمة قصة سجن يوسف (عليه السلام) وتعبيره لرؤيتى رفيقيه فى السجن ، وتعبير رؤيا الملك ، وتعيين الملك ليوسف فى منصب خازن المملكة . ومن العبر الواضحة فى هذه الحلقة :

(اهتمام يوسف (عليه السلام) بإعلان دينه ، والدعوة إلى توحيد الله عز وجل ،
والحملة على الشرك في داخل السجن ، وانشغاله بذلك عما هو فيه ، حيث ينطوى في هذا
حث على وجوب الدعوة إلى الله تعالى ، ولكارم الأخلاق في كل ظرف ومكان .

(ومنها : اهتمام يوسف لتبرئة نفسه ، حيث ينطوى في هذا حث على وجوب تبرئة النفس
من التهم الكاذبة وحق الإنسان البريء في ذلك .

(ومنها : تراجع امرأة العزيز واعترافها بالحق ، حيث ينطوى في هذا حث على وجوب
الصدق والاعتراف بالحق ولو على القائل ، والتوبة من الذنب .

(ومنها : ما كان من ثقة الملك بيوسف ، لما رآه فيه من أمارات الصدق والأمانة
والاستقامة ، حيث ينطوى في هذا حث على التزام هذه الأخلاق ، وفائدتها لأصحابها .

(ومنها : تقرير ما كان من رعاية الله تعالى ليوسف وعدم تضييعه أجر العاملين المتقين
المؤمنين في الدنيا والآخرة ، مع التنويه بخاصة بأجر الآخرة الأكبر ، لأنه الأدم ، حيث
ينطوى في هذا حث على الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، وبشرى لأصحابها برعاية الله
الدائمة في الدنيا والآخرة^(١) .

هذا ، وتبدأ سيرة يوسف (عليه السلام) في السجن بقوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد
ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ أى بعد مضي حين من الزمن على تلك الحوادث التي
كانت في بيت امرأة العزيز عَرَضَ لهم ، أى للعزيز وأهل مشورته وأصحابه المتصدين للحل
والعقد ، عَرَضَ لهم أنه من المصلحة - فيما رأوه - أن يجبسوا يوسف (عليه السلام) في
السجن حبساً مؤقتاً إلى مدة غير معلومة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته ، وظهرت لهم العلامات
والأدلة على صدقه في عفته ونزاهته . وعلى ذلك يكون إدخاله السجن ليس عقوبة عن جريمة
ارتكبها في حق أحد ، أو في حق المجتمع ، وإنما هو لوضع حد لاضطراب بعض النفوس
وقلقها ، تلك النفوس الشريرة التي تعلقت به تعلق رغبة وشهوة ، ودعته صراحة لعمل
الفحشاء والمنكر .

وفعلاً نفذوا ما بدا لهم ، فسجنوه ، وصحبه في دخول السجن شابان توسَّما فيه الخير
والبراءة والسلوك الإنساني الكريم .

قال تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ الآية ، وهنا (يختصر السياق ما كان من أمر
يوسف في السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار وجعله موضع ثقة

المساجين ، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية ، فغضب عليهم في نزوة عارضة ، فألقى بهم في السجن . . يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فتیان أنسا إليه ، فهما يقصّان عليه رؤيا رأياها . ويطلبان إليه تعبيرها لما يتوسّمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك (١) .

(قال أحدهما إني أراي أعصر خمراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبثنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) الآية . أي قال أحدهما بلسان المستفهم المستفتى : لقد رأيت في المنام كأني أعصر عنباً - تسمية للعنب بما يثول إليه - لأصنعه خمراً . وقال الآخر : أمّا أنا فقد رأيت في المنام كأني أحمل فوق رأسي خبزاً ، وكأن الطير تنهاوى إليه وتنش منه ، فهل لك أن نخبرنا بعاقبة ما قصصناه عليك بما نعهده فيك من فضل المعرفة والتدبير وحسن عبارة الرؤيا .

قال القاسمي : (ثم أشار يوسف (عليه السلام) لهما بأن ما رأياه سهل التأويل ؛ لوجود مثاله في المنام ، وأنّ له علماً فوقه ، وهو أنه يبيّن لهما كلّ جليل ودقيق من الأمور المستقبلية ، وإن لم يكن هناك مقدّمة المنام ، حتى إنّ الطعام الموظف الذي يأتيهما كلّ يوم يبيّنه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الرباني لمن يصطفيه بالنبوة) (٢) .

قال تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما عما علمني ربّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبع ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾

أراد يوسف (عليه السلام) أن يوضح لهما أولاً ما يعبر عن نبوته وفضل الله تعالى عليه فيما اختصه به من علم لدني ، جزاء تجرده لعبادته وحده وتخلّصه من عبادة الشركاء ، هو وآباؤه من قبله . ولعله بهذا يكسب ثقتها منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتها كذلك لدينه . فبدل الإجابة عما سألا عنه عدل إلى إخبارهما أنها مهما رأيا في منامهما من رؤيا فإنه عارف بتفسيرها ويخبرهما بتأويلها ، فقال : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ﴾ الآية .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : (قال لهما يوسف : لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما ﴿ إلا نبأتكما بتأويله ﴾ لتعلمي أني أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : افعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا

١- في ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٨٧ - ١٩٨٨ .

تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٥٣٨ - ٣٥٣٩ .

وكذا ، فكان على ما قال ، وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف . وبين أن الله خصَّه بهذا العلم ؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك ، ومعنى الكلام : عندى العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما ، والعلم بدين الله . فاسمعوا أولاً ما يتعلّق بالدين لتَهتَدُوا ؛ ولهذا لم يعبرَ لهما حتى دعاهما إلى الإسلام (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلكما مما علمنى ربى إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبع ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ الآية ، أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات هو مما علمته عن طريق الوحي من الله تعالى إلى ، وعلم حصل بتعليم الله إياى . وهذا الفضل من العلم يرجع سببه إلى أننى ما اتبعت فى يوم من الأيام ذلك الاتجاه الذى يحمل من يخضع له على إنكار الإيمان بالله وعدم الاعتراف والتصديق بالآخرة ، ويجعلهم من الكافرين . كما يرجع إلى أننى اتبعت ملة آبائى الأنبياء الكرام إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام .

وفى تفسير قوله تعالى : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) الآية ، قال الأستاذ سيد قطب : (مشيراً بهذا إلى القوم الذين رُبِّ فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملا من القوم والشعب الذى يتبعهم . والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجهها بشخصيتهما ، إنما يواجه القوم عامة ؛ كيلا يجرجهما ولا ينفرهما - وهى كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل) (٢) .

وقال الفخر الرازى : (تكرير لفظ (هم) فى قوله : ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل إنكارهم للمعاد كان أشد من إنكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم فى إنكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد) (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ واتبع ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون)

بهذا بين يوسف (عليه السلام) معالم ملة الإيمان والتوحيد الخالص التى يتبعها هو وآباؤه ، كما بين أنه إنما حاز تلك الكمالات والكرامات بسبب أنه اتبع ملة أبيه إبراهيم الخليل ، ولم يك من المشركين . وأظهر ذلك لصاحبيه فى السجن ؛ لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه ، وترغيباً لهما فى الإيمان والتوحيد ، ولعلهما يتخلّيان عما كانا عليه من الشرك والضلال .

١ - الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ١٩٠ - ١٩١ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٨٨ .

٣ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ١٣٧ .

ومعنى الكلام : قال لهما يوسف (عليه السلام) : إننى هجرت ملة الكفر وسلكت طريق آبائى المرسلين (عليهم السلام) لأنهم على الحق المين ، وما كان ينبغي لنا - نحن معاشر الأنبياء - على الإطلاق أن نكون فى إيماننا وعبادتنا على غير ما أنزل الله من الهدى ودين الحق ، وما صح ولا استقام لنا أن نشرك بالله تعالى أى شىء كان من مخلوقاته عز وجل . ثم قال : ذلك التوحيد هو من فضل الله علينا نحن معاشر الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله من البشر وقربهم إليه وكرمهم وأوحى إليهم بعقيدة التوحيد . وفى الوقت نفسه هذه العقيدة هى فضل كذلك على الناس المرسل إليهم ؛ لأن الرسل نبهوهم عليها وأرشدوهم إليها . ولكن أكثر الناس يمحذون هذا الفضل ولا يشكرون نعمة التوحيد والإيمان .

ثم أقبل يوسف (عليه السلام) على الفتيين بالمخاطبة والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والوعظ بترك ما سواه من الأصنام التى كانت تعبد من دون الله . وذلك بعد أن أفصح عن عقيدته وما هو عليه من الدين القويم . ثم كشف لهما بتلطف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما ، وفساد ذلك الواقع الجاهل الذى يعيشون فيه ونبههم إلى برهان التوحيد . قال تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قال أبو حيان : (لما ذكر ما هو عليه من الدين الحنيفى ، تلطف فى حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام ، فناداهما باسم الصحبة فى المكان الشاق الذى تخلص فيه المودة ، وتمحض فيه النصيحة . واحتمل قوله : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف ، والمعنى : يا صاحبي فى السجن . واحتمل أن يكون من إضافته إلى شبه المفعول ، كأنه قيل : يا ساكني السجن ، كقوله : (أصحاب النار) و (أصحاب الجنة) لئلازمتهم لهما . ثم أورد الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله : (أأرباب) فأبرز ذلك فى صورة الاستفهام ؛ حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام . وهكذا الوجه فى محاجة الجاهل : أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها ، فإذا قبلها ، لزمتها منها درجة أخرى فوقها ، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإدعان بالحق . وقابل تفرق أربابهم بالواحد . وجاء بصفة (القهار) تنبيهاً على أنه تعالى له هذا الوصف الذى معناه : الغلبة والقدرة التامة ، وإعلاماً بعروء أصنامهم عن هذا الوصف الذى لا ينبغي أن يعبد إلا المتصف به ، وهم عالمون بأن تلك الأصنام جماد . والمعنى : أعبادة أرباب متكاثرة فى العدد خير أم عبادة واحد قهار - وهو الله ؟ فمن ضرورة العاقل أنه يرى خيرية عبادته سبحانه وتعالى (١) .

ثم استطرد يوسف (عليه السلام) يفنّد عقائد الجاهلية وأوهامها ، ويبين سقوط كل
الآلهة الوهمية التي تعبد من دون الله عن درجة الاعتبار ، وأنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه
وتعالى ، فقال معمّماً الخطاب للفتيين ولمن على دينها : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء
سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك
الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية الكريمة : (وقيل المعنى : ما تعبدون من دون الله إلا
مسميات أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفسكم ، وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد
الأسماء ؛ لكونها جهادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر . وإنما قال : (ما تعبدون)
عل خطاب الجمع وكذلك ما بعده من الضمائر ؛ لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان
على دينهم . ومفعول سميتوها الثاني محذوف : أى سميتوها آلهة من عند أنفسكم ﴾ ما
أنزل الله بها ﴿ أى بتلك التسمية (من سلطان) من حجة تدل على صحتها . ثم أخبرهم أن
الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أى ما الحكم إلا لله في
العبادة ، فهو الذى خلقكم وخلق هذه الأصنام التى جعلتموها معبودة بدون حجة ولا
برهان . وجملة : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) مستأنفة ، والمعنى : أنه أمركم بتخصيصه بالعبادة
دون غيره مما ترعمون أنه معبود . ثم بين لهم أن عبادته وحده دون غيره هى دين الله الذى لا
دين غيره فقال : (ذلك) أى تخصيصه بالعبادة ﴿ الدين القيم ﴾ أى المستقيم الثابت ﴿ ولكن
أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم ؛ لجهلهم وبعدهم عن
الحقائق ^(١) .

وبعد أن ألقى إليهما ما كان الأهم ، وهو تقرير أمر التوحيد والنبوة ، وبعد أن دعاها إلى
عبادة الله وحده لا شريك له ، ناداهما ثانياً ؛ لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب عن السؤال
الذى ذكره فقال : ﴿ يا صاحبي السجن أمّا أحذكما فيسقى ربه خمرًا وأمّا الآخر فيصلب
فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ .

وهكذا أنبأهما يوسف (عليه السلام) بتأويل رؤياهما . ولكن الظاهر من سياق الآية
الكريمة أنه لم يعين لهما من هو صاحب البشرى ، ومن هو صاحب المصير السيئ . ولعله أثر
هذا المسلك تلطّفاً وتحرّجاً من المواجهة بالشر والسوء .

والمعنى : لما أتم يوسف عظّمته لصاحبيه في السجن ، طفق يجيئها عما سألاه فقال : أمّا
أحذكما : فيخرج من السجن ويعود إلى عمله في القصر ، ويقوم بتقديم الخمر للملك ، أى
يسقيه إياها . ولعل هذا هو الذى رأى في منامه أنه يعصر خمرًا . ثم أردف قائلاً : وأمّا

الآخر : فيعلق ويشد على خشب ، ثم يُقتل ويعدم بهذه الصورة ، ويترك في محله ، فتأق الطير آكلة اللحوم فتأكل من رأسه . وهذا التأويل الأخير ينطبق على الذى رأى في منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه . ثم أكد لهما يوسف (عليه السلام) هذا الأمر - نجاة أحدهما وهلاك الآخر - وهو واثق من العلم الذى وهبه الله له ، وأعلمهما أن هذا الأمر قد فرغ منه وهو واقع لا محالة .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا : (وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما ، وقد يكون من خواطرهما النومية . وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف عليه السلام ، ويؤكددها قوله : ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ الآية ، فهذا نبأ زائد على تعبير رؤياهما ورد مورد الجواب عن سؤال كان يخطر ببالهما أو أسئلة في صفة ذلك التعبير ، وهل هو قطعى أو ظنى يجوز غيره ومتى يكون ؟ فهو يقول لهما : إن الأمر الذى يهكمما أو يشكل عليكما ، وتستفتيان فيه ، قد قضى وبِت فيه وانتهى حكمه ^(١) .

ثم رغب يوسف (عليه السلام) في تبليغ قصة سجنه إلى الملك لعله يثبت في الأمر ، وينظر في إخراجه من السجن . فمن أجل ذلك توجه إلى من أفتاه بأنه سينجو ، وطلب إليه أن يذكر عند الملك أن يوسف (عليه السلام) مظلوم في هذه الواقعة التى من جرائها حُبس .

قال تعالى : ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منها اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ ^(٢) أى قال يوسف (عليه السلام) للذى علم وأيقن نجاته من الفتين : اذكرنى عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من حالى وصفتى ووضعى وحقيقتى ؛ عسى أن يعيد التحقيق في قضيتى لتظهر براءتى . فنسى الفتى أن يذكر الملك بذلك ، وكان هذا النسيان من جملة مكائد الشيطان ؛ لئلا يخرج النبى يوسف من السجن .

قال الأستاذ سيد قطب : (وهنا يسقط السياق أن التأويل قد تحقق ، وأن الأمر قد قضى على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة ، نعرف منها أن هذا كله قد كان . ولكن الذى ظن يوسف أنه ناج فنجاً فعلاً لم ينفذ الوصية ، ذلك أنه نسى الدرس الذى لقَّنه له يوسف ، ونسى ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها ، فنسى يوسف وأمره كله ^(٣) .

ومن ثم مكث يوسف (عليه السلام) في السجن سبع سنين ، كما قال تعالى : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ .

١ - تفسير المنار ج ١٢ ص ٣١٢ .

٢ - قال الراغب في المفردات ص ١٨٤ : (ويقال : ربُّ الدار وربُّ الفرس لصاحبهما ؛ وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ الآية) .

٣ - في ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٩٩٢ .

قال الزمخشري : (البضع : ما بين الثلاث إلى التسع ، وأكثر الأقاويل على أنه لبث في السجن سبع سنين . فإن قلت : كيف يقدر الشيطان على الإنساء ؟ قلت : يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره ، وأمّا الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل)^(١) .

هذا ، وقد قيل : إنَّ الضمير في (فأنساه) عائد إلى يوسف (عليه السلام) ، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ، وذلك أنه لما قال للفتى الذى علم أنه ناج : ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله تعالى ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ، فعوقب باللبث في السجن بضع سنين .

والصواب أنَّ الضمير عائد إلى الفتى الناجى . فهو الذى أنساه الشيطان أن يذكر يوسف (عليه السلام) للملك . وذلك لقوله تعالى : ﴿ وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة ﴾ . والظاهر أنه لا يصح القول بأنَّ الشيطان أنسى يوسف (عليه السلام) ذكر الله تعالى ، لأنَّ الشيطان ليس له سلطان على الأنبياء .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا : (إذا قيل : سلّمنا أنه (عليه السلام) كان ذاكرًا لربه عندما أوصى الساقى ما أوصاه به ، ولكنه نسي ذكر الله عقب الوصية واتكل عليها وحدها ، قلنا : إن زعمتم أنه نسي ذلك في الحال ، واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب ، وهو بضع سنين أو تمتتها ، كنتم قد اهتمتم هذا النبى الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيمانًا ، ولا يدل عليها دليل ، بل يطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ، ومن عباده المخلصين المصطفين ، وبأنه غالب على أمره ، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء ، وكيد النساء .

(وإن زعمتم أنَّ الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ، ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له عز وجل وذكره ، فهذا النسيان القليل لا يستحق هذا العقاب الطويل ، ولم يُعصم من مثله نبي من الأنبياء ، كما يعلم مما يلي :

(جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان : ﴿ إنَّ عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾^(٣)) فالتذكّر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى .

١ - الكشف جـ ٢ ص ٣٢٢ .

٢ - من سورة الحجر : آية رقم ٢٠١ .

٣ - من سورة الحجر : آية رقم ٤٢ .

(إنَّ النسيان ليس ذنباً يعاقب الله تعالى عليه ، وقد قال عز وجل لخاتم النبيين . ﴿ وَإِمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) الآية ، يعنى الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله تعالى) ^(٢) .

وعلى هذا يبدو واضحاً أنَّ يوسف (عليه السلام) ما نسى أن يشكو إلى الله تعالى ويستغيث به عندما قال للفتى : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ الآية ، كما يتضح أن الله تعالى لم يعاقبه على ذلك باللبث في السجن . ويبدو من سياق هذه الآية : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ يبدو من سياقها أنه ليس فيها دليل على أنَّ يوسف (عليه السلام) جنح إلى الاعتصام بمخلوق ، أو ابتغى الفرج من عند غير الله تعالى . بل الذى يدل عليه السياق ، كما يبدو - والله أعلم - هو أنَّ يوسف (عليه السلام) كان يرى نفسه أنه برىء من كل ذنب ، وأنه حُبس ظلماً ، حسبه عزيز مصر بعد مشورة أصحابه المتصدين للحل والعقد ، من بعد ما رأوا الآيات التى تدل على براءته . ولعل الملك لا علم له بهذه القضية التى حُبس لأجلها يوسف (عليه يوسف) . فأراد يوسف أن يستأنف ذلك الحكم - الذى جبر عليه فيه - إلى الملك الذى يعتبر يومئذ جهة الاختصاص العليا في مصر ، والحاكم الأعلى من العزيز الذى حكم على يوسف (عليه السلام) بالسجن . ولعله (عليه السلام) لم يستطع أن يرفع دعواه إلى الملك إلا عن طريق هذا الفتى الذى كان معه في السجن . فقال له : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ لينظر الملك في قضيته ويعيد التحقيق فيها . ولعل غرض يوسف من هذا هو تبرئة نفسه من التهم الكاذبة ، وليس مجرد الشكوى إلى الملك والاستعانة به ليطلق سراحه من السجن . فهو الذى قال : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ الآية . وبعد أن مكث في السجن بضع سنين ، وقال الملك : اخرجوه من السجن واحضروه ، قال يوسف (عليه السلام) لما جاءه رسول الملك يستدعيه : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعن أيديهن ﴾ الآية . إنه لم يبادر بالخروج من السجن ولم يجب تَوْأماً ، بل صبر ومكث في السجن حتى حقق الملك في قضيته وتأكد من براءته .

وأما الحديث الذى رواه ابن جرير الطبرى ، وهو : قال : حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال النبى ﷺ : (لو لم يقل - يعنى يوسف - الكلمة التى قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله) ^(١) .

٢ - تفسير المنار ج ١٢ ص ٣١٤ - ٣١٥ ، بتصرف

١ - من سورة الأنعام : آية رقم ٦٨ .

٣ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٢٢٣ - ط البابى الحلى .

فقد قال الحافظ ابن كثير : (هذا الحديث ضعيف جداً ؛ لأنَّ سفیان بن وكیع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضاً ، وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كل منهما . وهذه الرسائل ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن ، والله أعلم)^(١) .

وعلى هذا يتضح أنَّ من جملة الأسباب التي أدت إلى إقامة يوسف (عليه السلام) في السجن بضع سنين ، نسيان الفتى تذكير الملك بقصته .

ولما أراد الله تعالى ليوسف (عليه السلام) الخروج من غياهب السجن ، جعل له مخرجاً ، وهياً له سبباً ، وهو أنَّ الملك رأى رؤيا أهمته ، فطلب تأويلها من خاصته ، وهم رجال الحاشية من الأعيان والحكماء والعلماء . فلم يجد منهم من يستطيع تعبيرها ، وقد قرروا جميعاً بأنهم جاهلون بفن تعبير الأحلام المختلطة . هنالك تذكر الفتى ما أوصاه يوسف (عليه السلام) به ، فكلم الملك ، وأخبره بأنَّ في السجن فتى يقال له يوسف ، ذو قدرة على تأويل الرؤى ، وطلب إلى الملك أن يعثه إليه ليأتيه بالخبر اليقين . فوافق الملك على طلبه وأرسله إلى يوسف (عليه السلام) . فأتاه وقصَّ عليه الرؤيا التي رآها الملك . فأخبره يوسف بتعبيرها على الوجه الدقيق . وعندما علم الملك بتأويل يوسف للرؤيا ، سرَّ به سروراً عظيماً ، وأمر بإخراجه من السجن ليجعله من خاصته المقربين . ولكن يوسف (عليه السلام) أبى أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين ، بل ظل مائتاً في السجن حتى يُنظر في قضيته ، ويقر خصومه ببراءته ، فتبرأ ساحته من التهم الكاذبة ، ويشهد الناس ببراءته وعفته .

قال تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف^(٢) وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلی أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم هن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون) .

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٧٩ .

٢ - قال الراغب في المفردات ص ٣٢٣ : (قال : (سبع عجاف) جمع أعجف وأعجفاء أى الدقيق من الهزال . من قولهم : نصل - أعجف دقيق) .

قال أبو حيان : (لما دنا فرج يوسف (عليه السلام) رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته ، فرأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فاستعبرها ، فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها)^(١) .

وقال أبو السعود عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الملأ ﴾ الآية ، خطاب للأشراف من العلماء والحكماء ﴿ أفتونى فى رؤياي ﴾ هذه ، أى عبّروها وبيّنوا حكمها وما تثول إليه من العاقبة ، والتعبير عن التعبير بالإفناء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياهم ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علماً مستمراً ، وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام إلى ما هى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو النفسية الواقعة فى الخارج)^(٢) .

حينئذ قال الملأ للملك : رؤياك هذه عبارة عن أخلاط أحلام ، ولعلها لا تعبیر لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بتعبير الأحلام المختلطة .

قال الزمخشري : (أضغاث أحلام : تخالطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان . وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك . والاضافة بمعنى من ، أى أضغاث من أحلام . والمعنى : هى أضغاث أحلام . فإن قلت : ما هو إلا حلم واحد ، فلم قالوا : أضغاث أحلام فجمعوه ؟ قلت : هو كما تقول : فلان يركب الخيل ، ويلبس عمامة الخز ، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة ، تزيداً فى الوصف . فهؤلاء أيضاً تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام . ويجوز أن يكون قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة فيقولوا : ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا ، بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى تأويل الأحلام بنحارير)^(٣) .

(فعند ذلك تذكّر الذى نجا من دينك الفتين اللذين كانا فى السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكّر بعد أمة أى مدة . وقرأ بعضهم (بعد أمة) أى بعد نسيان . فقال لهم أى للملك والذين جمعهم لذلك : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أى بتأويل هذا المنام (فإرسلون) أى فابعثون إلى يوسف الصديق إلى

١ - تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٣١٢ .

٢ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ١٥١ .

٣ - الكشف ج ٢ ص ٣٢٤ .

السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال : ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام الذى رآه الملك . فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى فى نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ (١) أى يأتىكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات . ففسر البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التى منها الثمرات والزرع وهن السنبلات الخضر . ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه فى تلك السنين فقال : ﴿ فما حصدم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ أى مهما استغلتم فى هذه السبع السنين الخصب فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلاً لا تسرفوا فيه ، لتتفوقوا فى السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التى تعقب هذه السبع المتواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان ؛ لأن سنى الجذب يؤكل فيها ما جمعه فى سنى الخصب وهن السنبلات اليابسات . وأخبرهم أنهم لا يبنين شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ؛ ولهذا قال : ﴿ يأكلن ما قدمتم هن إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ (٢) . ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ، أى يأتىهم الغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم من زيت ونحوه وسكر ونحوه حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً (٣) .

قال أبو السعود : (والتعرض لذكر (العصر) مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب ؛ إماماً لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ آخر غير المطر . وإماماً لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشاره له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليه على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى (يعصرون) يحملون الضروع) (٤) .

وقال الزمخشري : (تأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة . ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يحىء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي) (٥) .

هذا ، ولما وقف الملك على تفسير يوسف (عليه السلام) لرؤياه ، وأحاط علماً بكمال علمه وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه ، استدعاه عن طريق رسول أرسله إليه .

١ - قال الراغب فى المفردات ص ١٧٤ : (الدأب : إدامة السير ، دأب فى السير دأباً . والدأب : العادة المستمرة دائماً على حالة) .

٢ - وفى نفس المرجع ص ١٢١ قال الراغب : (قوله تعالى : ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ أى تحمزون فى المواضع الحصينة الجارية مجرى الحصن) .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٨٠ بتصرف .

٤ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ١٥٥ .

٥ - الكشف ج ٢ ص ٣٢٥ .

قال تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله . ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ .

قال الألوسي : (بعد ما جاء السفير المعبر بالتعبير وسمع منه الملك ما سمع من فقير وقطمير ، قال : (ائتوني به) لما رأى من علمه وفضله وأخباره عما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير (فلما جاءه) أي يوسف (عليه السلام) (الرسول) وهو صاحبه الذي استفتاه ، قال له : إن الملك يريد أن تخرج إليه (قال ارجع إلى ربك) أي سيدك وهو الملك (فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) أي فتنه عن شأنهن وحالهن ، وإنما لم يقل : فأسأله أن يفتش عن ذلك ، حثاً للملك على الجد في التفتيش ؛ لتبين براءته وتوضح نزاهته ، فإن السؤال عن شيء مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث ؛ لأنه يأنف من الجهل . ولو قال : سله أن يفتش ، لكان تهيجاً له عن الفحص عن ذلك ، وفيه جراءة عليه ، وربما امتنع منه ولم يلتفت إليه . وإنما لم يتعرض (عليه السلام) لامرأة العزيز مع أنها الأصل الأصيل لما لاقاه ، تأدباً وتكرماً ؛ ولذا حملها ذلك على الاعتراف بنزاهته وبراءة ساحته ، وقيل : احترازاً عن مكرها حيث اعتقدها باقية في ضلالها القديم . وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ؛ ولذلك اقتصر علي وصفهن بتقطيع الأيدي ، ولم يصرح بمراودتهن له ، واكتفى بالإيحاء إلى ذلك بقوله : ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ بمجاملة معهن ، واحترازاً عن سوء مقالاتهن ، وانتصاهن عند رفعهن إلى الملك للخصومه عن أنفسهن ، متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد (١) .

وقال الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله ؛ لبعد غوره ، أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه وأنه برىء مما قرف به ، أو أراد الوعيد لهن : أي هو عليم بكيدهن فمجازين عليه (٢) .

وقال الفخر الرازي : (واعلم أن الذي فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن يفحص الملك عن حاله ، هو اللائق بالحزم والعقل ، وبيانه من وجوه : الأول - أنه لو خرج في الحال فربما كان يبقى في قلب الملك من تلك التهمة أثرها ، فلما التمس من الملك أن يتفحص عن

١ - تفسير روح المعاني ج ٢ ص ٢٥٧ .

٢ - الكشف ج ٢ ص ٣٢٦ .

حال تلك الواقعة ، دلّ ذلك على براءته من تلك التهمة ، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يلطّخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه . (١) الثاني - أن الإنسان الذي بقي في السجن اثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك وأمر بإخراجه ، الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج عرف منه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذباً وبهتاناً . الثالث - أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ، إذ لو كان ملوثاً بوجه ما لكان خائفاً أن يذكر ما سبق (٢) .

إنه (عليه السلام) بموقفه هذا ، واهتمامه لتبرئة ساحته من التهم الكاذبة ، وصبره في سبيل ذلك ، وأناته وتوقّفه حتى يفحص الملك عن حاله ويعلن براءته على الأَشْهاد ، لعله من وراء هذا كله كان يرمي إلى الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، أو لعله كان يمهّد لهذه الدعوة ؛ لأنه كان بعد ذلك رسولاً نبياً ، فيكون قد بين للناس عملياً كيف يتصف الإنسان بمكارم الأخلاق .

وقد وردت السُنّة بمدحه على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وحلمه وصبره (عليه الصلاة والسلام) . فقد روى البخارى بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : (نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قل : ﴿ رب أرني كيف تحمى الموقن ﴾ (٣) الآية ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي) (٤) يعني الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك .

ثم إنه تعالى حكى عن يوسف (عليه السلام) أنه لما طلب أن يتعرّف الملك شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، أمر الملك بإحضارهن وقال لهن : ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه ﴾ الآية .

قال الشوكاني : (الخطب : الشأن العظيم الذي يحق له أن يخاطب فيه صاحبه خاصة . والمعنى : ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ وإنما نسب إليهن الراودة ؛ لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك . ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز ، أو أراد بنسبة ذلك

١ - لعله يقصد من ذلك أنه بعد إعلان براءته على الأَشْهاد ، لا يجد الحاسدون له ما يتسلقون به إلى تقييح أمره عند الملك ، أو الخط من منزلته لديه .

٢ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ١٥٢ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٦٠ .

٤ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٦ ص ٤١٠ - ٤١١ .

إليه وقوعه منهم في الجملة كما كان من امرأة العزيز ، تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك إليها ، لكونها امرأة وزيره وهو العزيز . فأجبن عليه بقولهن : ﴿ قلن حاش لله ﴾ أى معاذ الله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى من أمر سيء ينسب إليه . فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ منزهة لجانبه ، مقرّة على نفسها بالمرادة له : ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى تبين وظهر . قال الخليل : معناه : ظهر الحق بعد خفائه . ثم أوضحت ذلك بقولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه ﴾ ولم تقع منه المرادة لى أصلاً ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المرادة إليها ، وأرادت (بالآن) زمان تكلمها بهذا الكلام (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ .

قال القاسمى : (تقول امرأة العزيز : ذلك الذى اعترفت به على نفسي (ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه في حاله الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أوليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة) (٢) .

(ومعنى قوله تعالى : ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ من النساء والرجال ، بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال ، ولقد كدنا له ، فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجنه فبرأه وفضح مكرنا ، حتى شهدنا له في هذا المقام السامى على أنفسنا ، وهذا تعليل آخر لإقرارها) (٣) .

وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأماره بالسوء ﴾ الآية : (تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدّث وتتمنى ؛ ولهذا راودته لأن ﴿ النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ . وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام . وقد حكاه الماوردى في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف (عليه السلام) يقول : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ الآيتين ، أى إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتى وليعلم العزيز ﴿ أنى لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ الآية . وهذا القول هو

١ - فتح القدير ج٣ ص٣٤ ، يتصرف .

٢ - تفسير القاسمى ج٩ ص٣٥٣ .

٣ - تفسير المنار ج١٢ ص٣٢٣ .

الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه . والقول الاول أقوى وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف (عليه السلام) عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك (١) .

قال أبو حيان : (أقرت على نفسها بالمرادة ، والتزمت الذنب ، وأبرأت يوسف - عليه السلام - البراءة التامة . ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشهوات بقولها : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ الآية ، أى مع ذلك من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قذفته وقلت : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ﴾ الآية ، وأودعته السجن ، تريد الاعتذار لما كان منها ، إن كل نفس لأماراة بالسوء إلا نفساً رحمها الله بالعصمة ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت . ومن ذهب إلى أن قوله : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه ﴾ إلى آخره ، من كلام يوسف ، يحتاج إلى تكلف ربط بينه وبين ما قبله ، ولا دليل على أنه من كلام يوسف عليه السلام (٢) .

وقال الأستاذ سيد قطب عند قوله تعالى : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ الآية ، قال : (فى هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة ، تبرئ نفسها من خيانة يوسف فى غيبته ، ولكنها تتحفظ فلا تدعى البراءة المطلقة ؛ لأن النفس أمارة بالسوء - إلا ما رحم ربى - ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله العظيم - ولعل ذلك كان اتباعاً ليوسف - ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ .

(وبذلك يسدل الستار على ماضى الآلام فى حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين ..) (٣) .

لقد ظهرت للملأ براءة يوسف ، وتبين معها للملك علمه فى تأويل الرؤيا ، وحكمته فى طلب فحص أمر النسوة اللاتي قُطعن أيديهن . كذلك ظهرت له كرامته وصدقه وحلمه وإبائوه ، فسُرَّ به وأعجبه حسن خلقه ، فجنح إلى حبِّه واحترامه وتكريمه ، وطلب أن يجعله من بين خاصته وخلصائه المقرَّين إليه فى حاشية الملك .

قال تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٨١ - ٤٨٢ ، بتصرف .

٢ - تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٣١٧ .

٣ - فى ظلال القرآن ج ١٣ ص ٢٠٠٤ .

يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ ١ 〉 .

قال القرطبي : (لما ثبت للملك براءة يوسف مما نسب إليه ، وتحقق في القصة أمانته ، وفهم أيضاً صبره وجلده ، عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن خلاله ، قال : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسى ﴾ الآية ، فانظر إلى قول الملك ، أولاً - حين تحقق علمه - ﴿ ائتوني به ﴾ فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ، ثانياً قال : ائتوني به استخلصه لنفسى) (١) .

أى كلّف الملك من يحضر يوسف (عليه السلام) إليه من السجن ؛ ليجعله خالصاً لنفسه ، وخاصاً به ، وموضع ثقته . فأتوه به . فلما كلمه ، تحقق له صدقه ، فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفي أمان .

قال الحافظ ابن كثير : (فلما كلمه : أى خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال ، قال له الملك : ﴿ إنك اليوم مكين أمين ﴾ أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة) (٢) .

ولما وصفه الملك بهذا ، طلب يوسف (عليه السلام) من الأعمال ما يناسب هذين الوصفين فقال : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ الآية .

قال الأستاذ المراغى عند تفسير هذه الآية الكريمة : (الخزائن : واحداها خزانة ، وهى ما تُخزَن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال : ولنى خزائن أرضك كلها ، واجعلنى مشرفاً عليها ؛ لأنقذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل . ثم ذكر سبب طلبه هذا فقال : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ أى إني شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضيع منه شيء ، أو يوضع في غير موضعه ، عليم بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به) (٣) .

وهكذا وصف نفسه (عليه السلام) بأنه من جهة خازن أمين ، على يقين من نفسه بأنه لا يفرط في أمانة المال على الإطلاق ، ومن جهة أخرى فهو ذو علم وبصيرة بما يتولاه .

قال الزمخشري : (وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه الملوك من يولّونه ؛ وإغما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكّن مما لاجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحبّ الملك والدنيا . فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر

٢ - تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٤٨٢ .

١ - الجامع لأحكام القرآن ج٩ ص ٢١٠ .

٣ - تفسير المراغى ج١٣ ص ٦ .

ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاقته ؟ قلت : روى مجاهد : أنه كان قد أسلم . وعن قتادة : هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به . وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع له والمطيع^(١) .

وقال القرطبي : (قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وفجوره فلا يجوز ذلك . وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة ، وهذا اليوم غير جائز . والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه ، والله أعلم^(٢)) .

وقال أبو حيان : (ودلّ إنشاء يوسف على نفسه أنه يجوز للإنسان أن يثني على نفسه بالحق إذا جهل أمره ، ولا يكون ذلك التزكية المنهى عنها . وعلى جواز عمل الرجل الصالح للرجل الفاجر بما يقتضيه الشرع والعدل ، لا بما يختاره ويشتهيه مما لا يسيغه الشرع . وإنما طلب يوسف هذه الولاية ؛ ليتوصل إلى إمضاء حكم الله وإقامة الحق وبسط العدل ، والتمكّن مما لأجله تبعت الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن غيره لا يقوم مقامه في ذلك^(٣)) .

وقال الفخر الرازي : (لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة : (لا تسأل الإمارة) الحديث^(٤) ؟ وأيضاً فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر ؟ وأيضاً لم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة في طلب الإمارة في الحال ؟ وأيضاً لم طلب أمر الخزانين في أول الأمر مع أن هذا يورث نوع تهمة ؟ وأيضاً كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ مع أنه تعالى يقول : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ الآية^(٥) ، وأيضاً فما الفائدة في قوله ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ ؟ وأيضاً لم ترك الاستثناء في هذا ؟ فإن الأحسن أن يقول : إني حفيظ عليم إن شاء الله ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً . إلا أن يشاء الله ﴾ الآية^(٦) . فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها . فنقول : الأصل في جواب هذه المسائل - أن التصرف في أمور الخلق كان واجباً عليه ، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان . وإنما قلنا : إن التصرف كان واجباً عليه لوجوه : الأول - أنه كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق ، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر

١ - الكشف ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

٢ - تفسير البحر المحيط ج ٥ ص ٣١٩ .

٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١١ ص ٦٠٨ .

٤ - من سورة النجم : آية رقم ٣٢ .

٥ - من سورة الكهف : آية رقم ٢٣ - ٢٤ .

الإمكان . والثاني - وهو أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر في ذلك ويأتى بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق . والثالث - أن السعى في إيصال النفع إلى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول .

(وإذا ثبت هذا فنقول : إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فكان هذا الطريق واجباً عليه ، ولما كان واجباً سقطت الأسئلة بالكلية)^(١) .

ولعل أصحاب هذه الأقوال سالفة الذكر حاولوا في كلامهم الإجابة على مثل السؤالين الآتين : هل يجوز في النظام الإسلامى أن يطلب المسلم التولية ؟ وهل يجوز له أن يزكى نفسه ؟ هل يجوز له ذلك كما جاز لـ يوسف (عليه السلام) أن يقول للملك في مصر : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ الآية ؟

إن من القواعد الأصولية المعروفة في الشريعة الإسلامية : (شرع ما قبلنا شرع لنا إذ لم ينسخ) . فطلب التولية في المجتمع الإسلامى محظور لقول الرسول ﷺ : (إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سألته) الحديث ،^(٢) وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة : (لا تسأل الإمارة) الحديث . أمّا تزكية النفس فهي أيضاً محظورة لقوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ الآية . فلعل هذه الآية الكريمة ، والحديثين الشريفين المذكورين ، لعل هذه النصوص نسخت ما كان مقررّاً على عهد يوسف (عليه السلام) من طلب التولية وتزكية النفس . والله أعلم .

قال الأستاذ سيد قطب : (إن يوسف لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس ، وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلى . وكان الأمر كما توقع ، فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه . وقد توارى العزيز ، وتوارى الملك تماماً ..)^(٣) .

وهكذا أنعم الله تعالى على يوسف (عليه السلام) بالخروج من السجن ، وبتقريبه إلى قلب الملك ، حتى حرص هو الآخر على جعله من خاصة رجاله المقربين . فتولى (عليه

١ - التفسير الكبير ج ١٨ ص ١٦٠ - ١٦١ ، بتصرف .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٠٧ .

٣ - في ظلال القرآن ج ١٣ ص ٢٠١٣ .

(السلام) عن اختيار منه الولاية العامة للمال في مصر . فبهذا كله يبدو واضحاً أن الله جلت قدرته مكن ليوسف من السلطان في أرض مصر بعد الحبس والضيق والشدة ، وجعله صاحب مشيئة فيما أرادته لنفسه من سلطان .

قال تعالى ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

إن السياق هنا يحذف ردَّ الملك على طلب يوسف (عليه السلام) . إلا أن تمكين الله تعالى له في الأرض يدل على أن الملك قد أجابه إلى ما سأل ، وأنه (عليه السلام) أصبح في المكان الذي طلبه .

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف ﴾ أى ومثل ذلك التمكين العجيب مكناً ليوسف ﴿ في الأرض ﴾ أى جعلنا له مكاناً ، وهو عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى صار الملك يصدر عن رأيه ، وصار الناس يعملون على أمره ونهيه ، ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أى ينزل منها حيث أراد ويتخذ مباءة ، وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدّم ، كأنه يتصرّف في الأرض التي أمرها إلى سلطان مصر كما يتصرّف الرجل في منزله . ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان إليه والإنعام عليه ، وفي الآخرة بإدخاله الجنة وإنجائه من النار ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوب الله منهم : أى لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها ^(١) .

وقال الأستاذ المراغي : (وفي الآية إيماء إلى أنه تعالى ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، بل كان جزاؤه أن مكن له في الأرض ولدى ملك مصر .

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أى أن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وهو خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعدّه لأولئك ليتضائل أمامه كل ما فيها من مال ونجاه وزينة ، ولا شبهة في أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته ^(٢) .

١ - فتح القدير ج ٣ ص ٣٥ .

٢ - تفسير المراغي ج ١٣ ص ٨ .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يذخر للمؤمنين المتقين هو خير وأفضل وأكمل مما يخولون به في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والملك . كما أن في الآية وعد من الله تعالى وبشرى - ضمناً - ليوسف (عليه السلام) بأن يكون من أصحاب الجزاء الأوفى والنعيم المقيم في الدار الآخرة ؛ لأنه كان في الدنيا من المؤمنين المتقين الصابرين المحسنين .

وهكذا كان أثر الابتلاء في حياة يوسف (عليه السلام) واضحاً . لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه بالأحداث التي مرَّ بها ، والابتلاءات التي اجتازها . وقد كانت تلك المحن والابتلاءات في حياته (عليه السلام) عبارة عن تربية ربانية لشخصيته وإعداداً من الله تعالى ليتمكن له في الأرض ، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو ممكَّن له في الأرض ، وهو قابض على مقاليد الأمور في مركز التموين والشئون المالية في مصر .

لقد بذله الله تعالى من العسر يسراً ، ومن الضيق فرجاً ، ومن الخوف أمناً ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزاً ومقاماً عالياً . وكان هذا جزاء وفاً على صبره وتقواه . فقام بالدعوة إلى الله خير قيام ، حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة .^(١)

هذا ، ولمحمد جمال الدين القاسمي كلام عن صبر يوسف (عليه السلام) وتقواه ، نستحسن أن يكون خاتمة لهذا البحث . وهو : (قال بعضهم : إن من أمعن النظر في قصة يوسف (عليه السلام) علم يقيناً أنَّ التقى الأمين لا يضع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته في الدنيا والآخرة ؛ وأنَّ المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإنَّ الله يعضده ، وينجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار . فإنَّ يوسف (عليه السلام) لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظمأً وشرأ ، ولا للتنكيل به ألماً وضرأ ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب - نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وما إنَّ فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثلاً نفتنى أثره عند طرود التجارب ، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على الثبَّت في مواقف العثار ، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد)^(٢) .

١ - كان يوسف (عليه السلام) رسولاً نبياً ؛ بدليل قوله تعالى في سورة غافر آية رقم ٣٤ : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولاً ﴾ الآية .
٢ - تفسير القاسمي ج ٩ ص ٣٥٥٨ .

المبحث الثاني

ابتلاء موسى عليه السلام

كانت حياة موسى (عليه السلام) عبارة عن سلسلة من المحن والابتلاءات . بل إنَّ الابتلاء رافق موسى (عليه السلام) رضيعاً ، تتقاذفه أمواج اليم ويلفه الظلام ، وشبَّ معه فتىً يانعاً خارجاً من مصر ؛ خوفاً من بطش فرعون . وزاد حياته ابتلاء على ابتلاء : تعرَّضه لنقمة فرعون من جهة ، ولإيذاء قومه وسفهمهم من جهة أخرى . فكان عليه أن يرد ضربات فرعون بيد ، ويتقى مكائد قومه باليد الأخرى .

وقد جرت حوادث قصته (عليه السلام) في زمن أحد الفراعنة الذين آل إليهم ملك مصر بعد زمان يوسف (عليه السلام) . وكان بنو إسرائيل قد تكاثروا في مصر حينذاك ، وأصبحوا شعباً كبيراً . فبغى عليهم فرعون واضطهدهم أشد الاضطهاد ، وأذاقهم عذاب الخزي ؛ خوفاً من أن يصبحوا إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب الطاحنة ولأنَّ بنى إسرائيل كانوا يتبعون ملَّة أبيهم إبراهيم (عليه السلام) ، بينما كان فرعون وقومه غارقين في الوثنية الفرعونية والشرك والكفر والضلال البعيد . ولكي يضعف قوتهم ، ويتقى شرهم ، ابتكر طريقة تذيب الذكور من أطفالهم عند ولادتهم ، واستبقاء إناثهم . ففي هذه الظروف القاسية جرت قصة موسى (عليه السلام) عند ولادته .

وفي هذا المبحث سنتكلَّم عن ابتلاء موسى (عليه السلام) في مرحلة الإعداد للدعوة ، وسنقسِّم ذلك إلى قسمين كما يلي :

أ - مولده (عليه السلام) وما أحاط به من ظروف قاسية ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته .
ب - لما بلغ (عليه السلام) أشده ، وما وقع في ذلك الوقت من قتل النفس ، وتآمر فرعون وملئه عليه ، وخروجه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه هناك ، وقضاء سنوات الخدمة مع الشيخ الكبير .

ولادة موسى وتربيته في بيت فرعون .

قال تعالى : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إنَّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شعباً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم

أثمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمتنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴿١﴾ .

(تبدأ السورة بالأحرف المقطعة : (ط س م . . تلك آيات الكتاب المبين) . تبدأ السورة بهذه الأحرف ؛ للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، في لغة البشر الفانين) (٢) .

قال الحافظ ابن كثير : (قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أى هذه آيات الكتاب الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن . وقوله : ﴿ نتلو ﴾ (٣) عليك من نبيا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴿ كما قال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ الآية (٤) أى نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهده وكأنك حاضر كما قال تعالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أى تكبر وتجبر وطفى ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أى أصنافاً ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته . وقوله تعالى : ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، ولقد سُلط عليهم هذا الملك الجبار العتيد يستعملهم في أخس الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحى نساءهم ؛ إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه ، أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه) (٥) .

وذكر بعض المفسرين أن الكهنة أخبروا فرعون بأن مولوداً يولد في بنى إسرائيل يذهب ملك فرعون على يديه ، وقيل : قال المنجمون ذلك له ، وقيل : رأى رؤيا فعبّرت كذلك .

١ - من سورة القصص : الآيات من رقم ١ إلى رقم ١٤ .

٢ - في ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٦٧٥ .

٣ - قال الراغب في المفردات ص ٧٥ : (التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزل ، تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب ، أو مايتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة) .

٤ - من سورة يوسف : آية رقم ٣ .

٥ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٧٩ .

قال الأستاذ المراغى : (قال الزجاج : والعجب من حق فرعون ! فإنَّ الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذباً فلا داعي للقتل ، أهـ .) ولا يعنينا من أمر هذه الرواية شيء ، فسواء صحت أو لم تصح ، فإنَّ السرَّ المعقول هو أنَّ فرعون كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يتمرسون بالصناعات ويأيدوهم زمام المال ، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة ، وغلبوا المصريين عليها ، والغلب الاقتصادى فى بلد ما أشدَّ وقعاً وأعظم أثراً فى أهلها من الغلب الاستعمارى ، ومن ثم لم يشأ أن يقتل النساء^(١) .

(وقوله تعالى : ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ يقول : إنه كان ممن يفسد فى الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل ، واستعباده من ليس له استعباده ، وتجبره فى الأرض على أهلها ، وتكبره على عبادة ربه^(٢) .

ثم ذكر الله تعالى ما أكرم به أولئك المستضعفين من بنى إسرائيل ، وما أتاح لهم من السلطان الدينى والدنيوى ، بأن ورثهم الأرض المباركة التى أعطاهم إياها بعد استحقاقهم لها بالإيمان والصلاح ، فتأسست لهم دولة عظيمة فى بلاد الشام ، وصاروا يتصرفون فى أرض مصر كما شاءوا . كل ذلك كان بإرادة الله عز وجل وتقديره ، على الرغم من احتياط فرعون وهامان وجنودهما وحذرهم .

قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾ .

قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ﴾ أى نتفضل عليهم بإنقاذهم من بأس فرعون ، (و نريد) حكاية حال ماضية معطوفة على ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ من حيث إنها واقعان تفسيراً للنبي ، أو حال من (يستضعف) ولا يلزم من مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له لجواز أن يكون تعلق الإرادة به حيثئذ تعلقاً استقبالياً ، مع أن منة الله بخلاصهم لما كانت قريبة الوقوع منه جاز أن تجرى مجرى المقارن ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ مقدّمين فى أمر الدارين ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ لما كان فى ملك فرعون وقومه ﴿ ونمكن لهم فى الأرض ﴾ أرض مصر والشام . وأصل التمكين أن تجعل للشئ مكاناً يتمكّن فيه ، ثم استعير للتسليط وإطلاق الأمر ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ﴾ من بنى إسرائيل ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم^(٣) .

٢ - تفسير الطبرى - ط الباي الحلى - ج ٢٠ ص ٢٨ .

١ - تفسير المراغى ج ٢٠ ص ٣٣ .

٣ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٢ ص ١٨٧ .

ثم يأخذ السياق في عرض قصة موسى (عليه السلام) عند ولادته . (ويبدأ التحدى ، وتنكشف يد القدرة تعمل سافرة بلا ستار .

(لقد وُلِدَ موسى (عليه السلام) في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رسمها السياق قبل البدء في القصة ؛ وُلِدَ والخطر المحدق به ، والموت يتلُف عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تحتر رأسه ..

(وها هي ذى أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين ، ها هي ذى بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه ، عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة .. ها هي ذى وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

(هنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقى في روعها كيف تعمل ، وتوحى إليها بالتصرف)^(١) .

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) .

أهم الله تعالى أم موسى وقذف في قلبها - إثر ولادته في تلك الشدة - بأن ترضعه ، فإذا خافت عليه من فرعون وجنده بأن يبلغ خبره إليهم فيقتلوه ، فلتضعه في تابوت وتقذف بالتابوت في ماء النيل ، كما قال تعالى : ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي . أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم ﴾^(٢) ونصح لها بأن تفعل هذا ولا تخاف عليه الغرق أو الضيعة ، ولا تحزن لفراقه وبعده منها . ثم أكد لها أن موسى (عليه السلام) سيرد إليها بعد ذلك وأنه سيكون رسولاً نبياً . وفي هذا بشارة لها ، ووعد من الله عز وجل بما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسروراً . وفعلًا نفذت أم موسى ما ألهمت به ، وفعل الله تعالى ذلك بها وبه .

ثم ذكر تعالى صدق وعده ومقدمات نجاته فقال : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ .

قال الشوكاني : (الفاء في قوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ ، هي الفصيحة ، والالتقاط : إصابة الشيء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فألقته في اليم بعد ما جعلته في

١ - في ظلال القرآن ج-٢٠ ص ٢٦٧٨ .

٢ - من سورة طه : آية رقم ٣٨ - ٣٩ .

التابوت ، فالتقطه من وجده من آل فرعون ، واللام في ﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ لام العاقبة ، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولداً وقرّة عين لا ليكون عدواً ، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدواً وحزناً ، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم ، وثمرة له شبت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله (١)

وقد جاء في آية أخرى : ﴿ أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ (٢) .

لقد هياه الله تعالى ، وأعدّه إعداداً تاماً منذ زمن الرضاع ؛ ليتحمّل تكاليف الدعوة . فهذا هو ذا قد صنّع على عين الله تعالى ، ودرب على المشاق وهو طفل رضيع ، ورافقه عناية الله ورعايته وهو صغير ضعيف . أخذه عدو الله فرعون ورباه على فراشه وغذاه بطعامه وشرابه ، وجعل الله تعالى هذا العدو محبة وألقى محبته في قلب امرأة فرعون ، كما حبّبه إلى عامة الناس . وهكذا تربّى موسى (عليه السلام) وصنّع على عين الله ، وسلم من الذبح ، ونجا من الهلاك المحقق .

قال الأستاذ المراغي : (ثم بين الله تعالى أن القتل الذي يفعله فرعون وهامان وجنودهما لبني إسرائيل ، حق وطيش ، فقال : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أى أن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم التدبّر في العواقب ، ومن ثم قتلوا لأجله ألوفاً ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون) (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾ (٤) أى ولما التقطوه هموا بقتله ، وخافوا أن يكون المولود الذي يحذرون زوال ملكهم وهلاكهم على يديه ، فألقى الله عز وجل محبته في قلب امرأة فرعون ، فقالت لزوجها : هو قرة عين لي ولك ، فلا تقتلوه ، بل حافظوا عليه ؛ لعلنا نصيب منه خيراً ، أو نتبناه فإنه جدير بذلك . ثم بين عز وجل أنهم ما كانوا يدرون خطأهم فيما صنعوا فقال : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى وهم لا شعور لهم بما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة البالغة والحجة القاطعة .

١ - فتح القدير ج٤ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٢ - من سورة طه : آية رقم ٣٩ .

٣ - تفسير المراغي ج٢٠ ص ٣٩ .

٤ - قال الراغب في المفردات ص ٣٩٨ : (قرت عين فلان تقرر : سُرّت وقيل لمن يُسرّ به . قرة عين ، قال تعالى ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ الآية) .

قال الزمخشري : (فإن قلت : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ حال فما ذو حالها ؟ قلت : ذو حالها آل فرعون ، وتقدير الكلام : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ وقالت امرأة فرعون كذا ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه ، وقوله : ﴿ إن فرعون وهامان ﴾ الآية ، جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف ؛ والمعطوف عليه ، مؤكدة لمعنى خطئهم ، وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم (١) .

وبعد أن أخبر الله تعالى عن شأن موسى (عليه السلام) في بيت فرعون أخبر سبحانه عن حال أمه الوالدة وقلبها الملهوف ، فقال : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ . قال أبو حيان : (وأصبح : أى صار فارغاً من العقل ، وذلك حين بلغها أنه وقع في يد فرعون ، فدهمها أمر مثله لا يثبت معه العقل ، لا سيما عقل امرأة خافت على ولدها حتى طرحته في اليم رجاء نجاته من الذبح . هذا ، مع الوحي إليها أن الله يرده إليها ويجعله رسولاً ، ومع ذلك فطاش لبها وغلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم ، ثم استكانت بعد ذلك لموعود الله تعالى) (٢) .

وقال أبو السعود : (وقيل : وأصبح فؤادها فارغاً من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى ، أو لسماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه (إن كادت لتبدي به) أى أنها كادت لتظهر بموسى ، أى بأمره وقصته من فرط الحيرة والدهشة ، أو الفرح بتبنيه ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ بالصبر والثبات ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ أى المصدقين بوعد الله تعالى ، أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وتعطفه ، وهو علة الربط ، وجواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه) (٣) .

وفي الآية الكريمة تصوير فنى لحال أم موسى بعد أن سمعت الإيحاء وألقت بطفلها في اليم . لقد كادت أن تذيع أمرها في الناس ، وتعلن وجدها عليه ، لولا أن أعانها الله سبحانه بالصبر على الكتمان ، وشد على قلبها وثبثها وأمسك بها من الهيام والشroud ؛ لتظل من المؤمنين بوعد الله تعالى ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه .

ع

١ - الكشف ج٣ ص ١٦٧ .

٢ - تفسير البحر المحيط ج٧ ص ١٠٦ .

٣ - تفسير أبي السعود ج٤ ص ٢٩٥ .

ثم أخبر الله تعالى أن أم موسى لم تسكت عن البحث والمحاولة ، بل أرسلت أختها تفتي أثره ؛ رغبة منها في التعرف بحاله وأحواله ، فقال سبحانه : ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ أى أمرت ابنتها فقالت لها : اتبعى أثر موسى ، وتطلبى شأنه من نواحي البلد ، حتى تعلمى خبره . فخرجت أخته لذلك ، فى حذر وخفية تقص أثره ، وتلمس خبره ، فإذا بها تعرف أنه فى أمن وأمان عند آل فرعون ، وتبصر به عن بعد وهو فى أيديهم ، يبحثون له عن ظئر ترضعه . فعلت ذلك دون أن يشعر آل فرعون أنها تقصه ، وتعرف حاله ، أو أنها أخته .

ثم ذكر سبحانه أسباب رده إلى أمه ، فقال : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهو له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ﴾ الآية^(١) .

وكان ذلك من تدبير الله عز وجل ، إذ منعه أن يرضع من جميع المراضعات اللاتي سيقت إليه قبل مجيء أمه . فقد عاف أولئك المراضعات وجعل لا يقبل ثدى واحدة منهن . فعند ذلك قالت أخته - لما رأت امتناعه من الرضاع واهتمامه به : هل أرشدكم إلى أهل بيت يضمون لكم القيام بتربيته وإرضاعه ، وهم مشفقون عليه لا يقصرون فى شيء من ذلك ؟ فقبلوا ما أشارت به عليهم ، فدلّتهم على أمها ، فدفعوه إليها ، فالتقم ثديها وأخذ يرضعه .

قال الأستاذ المراغى : (وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ﴾ أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون ؛ لتقر عينها بآبائها إذ رجع إليها سليماً ، ولا تحزن على فراقه إياها ﴾ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أى ولتعلم أن وعد الله الذى وعدها حين قال لها : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ الآية ، حق لا مرية فيه ولا خلف ، وقد شاهدت بعضه ، وقاست الباقي عليه . وبرده إليها تحققت أنه سيكون رسولاً ، قربته على ما ينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب ﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة فى الدنيا والآخرة ؛ إذ قد يكون الشيء بغضاً إلى النفوس ظاهراً ، محمود العاقبة آخر ، كما قال تعالى : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ الآية^(٢) ، وقد حدث هذا فى أمر موسى ، فقد ألقى فى اليم ثم ردّ إلى أمه مكرمًا ، ثم كان له من الوجاهة فى الدنيا والآخرة ما كان^(٣) .

١ - من سورة طه : آية رقم ٤٠ .

٢ - من سورة النساء آية رقم ١٩ .

٣ - تفسير المراغى ج ٢٠ ص ٤١ .

(ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى (عليه السلام) والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله . فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه ، ولا كيف تربى في قصر فرعون ، ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة ، ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شبَّ وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذي يصنع على عين الله ويعدّ لوظيفته ، في وسط عباد فرعون وكهنته .

(يسكت سياق القصة عن كل هذا ، ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ موسى (عليه السلام) أشده واستوى ، فقد آتاه الله الحكمة والعلم وجزاه جزاء المحسنين)^(١) .

قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أى ولما بلغ كمال قوته الجسمية ، واكتمل عقله واعتدل ، آنذاك أعدّه الله تعالى للرسالة ، بأن أعطاه الحكمة والمعرفة ، والعلم بالشرعية ، وفقّهه في الدين الخفيف . ابتلاء شديد في هذه الفترة :

قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لها قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير . فجاءته إحداها تمشي على استحياء قالت إن أبى يمدوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تحف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال

إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل ﴿١﴾ .

قال الأستاذ البهي الخولي : (إن موسى (عليه السلام) لما بلغ أشده واستوى ، راعته مظاهر الظلم التي ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلي . . . وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة ، فهو ذو نفس حساسة تكره الظلم ، وتثور على مظاهره ، والظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع ، وموسى (عليه السلام) إنما كان من أهداف رسالته تخليص بني إسرائيل مما كان يقع بهم . فهل سلك (عليه السلام) بقتله للرجل الذي من عدوه سبيلاً سديداً في علاج هذا الفساد ؟

(وماذا عاد على الاسرائيليين من قتل ذلك الرجل ؟ هل استؤصل الظلم وامتنع الأذى ؟ كلا . إن العلاج الصحيح لن يكون بعلاج الحوادث الفردية ، وإنما بتغيير العادة الشائعة المورثة ، وإبطال السنّة أو القانون الذي يرباه فرعون . . أمّا قتل فرد أو عدّة أفراد ، كما حدث من موسى (عليه السلام) فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة ، وقد نعته موسى بأنه من عمل الشيطان .

(على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون الوضعي ، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة في استمراره على ما هو عليه ، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون البشرى ولبطش الجبارين الظالمين في غير نفع يعود على الرسالة .

(لا نشير بالجبن ولا بالاستكانة ، ولكننا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلي والنفسى ، فيعالج مبعث العلة وأصلها بالحكمة والروية وحسن النظر في مبادئ الأمور ونهاياتها . فذلك هو السبيل الطبيعي للعلاج ، أمّا الوثوب على الحوادث الفردية ، ومظاهر الفساد المتفرقة ، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيّد بالنظر في عواقب الأمور ، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل

(هذا الخطأ يقع فيه الكثير بحسن نية كما وقع فيه موسى (عليه السلام) وهو شاب يميل به عنف الشباب ، فكانت العاقبة الحتمية أن تنبه الملأ من قوم فرعون إلى خطره فائتمروا به ليقتلوه ، ولكن الله بالغ أمره ، وقد أعدّ موسى ليقوم في الوقت المناسب برسالته الإصلاحية الهادية إلى سبيل الرشاد .

(وبما أن موسى (عليه السلام) قد بلغ أشده واستوى وقويت حرارة إيمانه ، إلا أن تجاربه لم تكتمل بعد ، الأمر الذي سيؤدي به إلى كثرة الأخطاء كلما رأى مظهراً من مظاهر الأذى المألوفة ، وأن هذا من شأنه أن يقطع الطريق على المصلح بالقبض عليه ، أو بقتله ؛ لذلك كان من تدبيره جلّت حكمته أن أراد له أن ينضج على مهل ، في بادية بعيدة ، في رعاية رجل صالح . . . فقيّض له من نصّحه بالخروج من المدينة ؛ لأنّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، فخرج منها خائفاً يترقب . هذا المثل يقصّه الله عز شأنه ليتدبره كل داعية إلى الله تعالى ، فهو بعيد الغور ، عميق العبرة ، قيّم التوجيه . . . فلما تمّ نضجه (عليه السلام) وبلغ سن النبوة ، عاد إلى رأس الفساد يعالجه بالقول اللين والبرهان المبين ، دون أن يلتفت إلى مظاهر الفساد التي كانت من قبل تحفّ به إلى الخطأ . . .

(وما على الداعية في علاج هذه العقبة الكبرى . . . إلا أن يستمسك بعزته ويعتصم بالله تعالى ، ولا يفرط في رسالته ، عليه ألا يفتر عن الدعوة إليها ، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة كما أغرق الله عز وجل فرعون في نهاية أمره) (١) .

هذا ، وبعد أن ذكر الله عز وجل أن موسى (عليه السلام) لما بلغ أشده واستوى ، آتاه سبحانه حكماً وعليماً ، بين تعالى من نبئه (عليه السلام) ما تدرج به إلى ما قدّر له من الرسالة بقوله : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ .

قال الشوكاني : (قوله تعالى : ﴿ ودخل المدينة ﴾ أى دخل موسى مدينة مصر الكبرى ، وقيل : مدينة غيرها من مدائن مصر . ولما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه ، عاب ما عليه قوم فرعون ، وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفياً . قيل : كان دخوله بين العشاء والعتمة ، وقيل : وقت القائلة . قال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم ، فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ﴾ أى ممن شايعه على دينه ، وهم بنو إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أى من المعادين له على دينه وهم قوم فرعون ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته ﴾ أى طلب منه أن ينصره ويعينه على خصمه ﴿ على الذي من عدوه ﴾ فأغاثة ؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل) (٢) .

وقال البيضاوى : (قوله تعالى : ﴿ فوكزه موسى ﴾ فضرب القبطى بجميع كفه ، وقرىء : فلكرهه ، أى فضرب به صدره (ففضى عليه) فقتله ، وأصله : فأنهى حياته ، من قوله : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ ^(١) الآية ، ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار ، أو لأنه كان مأموناً فيهم ، فلم يكن له اغتيالهم ، ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ ، وإنما عدّه من عمل الشيطان ، وسماه ظمناً واستغفر منه على عادتهم فى استعظام محقرات ما فرط منهم ^(٢) .

هذا ، ويبدو من السياق أنه (عليه السلام) لم يكن يقصد قتل ذلك الرجل الذى من عدوّه ، ولم يعتمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثّة هامة بين يديه حتى تأسّف على ما أفضى وكزه من قتله ، وندم على هذا الفعل وعزاه إلى الشيطان وغوايته . ثم أخبر عن حال الشيطان فقال : ﴿ إنه عدوّ مضل مبين ﴾ أى إنه عدوّ ظاهر العداوة والإضلال ، فينبغى على الناس الحذر منه ؛ لأنه من شأنه أنه لا يقود إلى خير على الإطلاق .

ثم رجع (عليه السلام) إلى الله تعالى فى ذعر مما دفعه إليه الغضب ، يقرّ بظلمه لنفسه أن حمّلها هذا الإثم ، ويطلب العفو والمغفرة : ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

قال القرطبي : (ندم موسى (عليه السلام) على ذلك الوكر الذى كان فيه ذهاب النفس ، فحمّله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ، ثم لم يزل (عليه السلام) يعدّد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه فى القيامة يقول : إني قتلت نفساً لم أوامر بقتلها . وإنما عدّه على نفسه ذنباً ، وقال : ﴿ ظلمت نفسي فاغفر له ﴾ من أجل أنه لا ينبغى لنبي أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم ^(٣) .

وهكذا تضرّع موسى (عليه السلام) وسأل الله عز وجل المغفرة ، فاستجاب الله دعاءه فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه ؛ لأنه تعالى هو السّارّ لذنوب من أناب إليه ، المتفضل عليه بالعفو عنها ، الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ، ورجع عن ذنبه .

ثم ذكر تعالى أن موسى (عليه السلام) شكر ربه على نعمته سبحانه عليه فى قبول دعائه ، ثم نعمته فى القوة والحكمة والعلم التى آتاه الله تعالى من قبل ، وتعهّد على نفسه عهداً

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٢ ص ١٨٩ .

١ - من سورة الحجر : آية رقم ٦٦ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج١٣ ص ٢٦١ .

مطلقاً ألا يقف في صف المجرمين معيماً ونصيراً ، فقال سبحانه : ﴿ قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ .

قال الزمخشري : (قوله تعالى : ﴿ بما أنعمت عليّ ﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره : أقسم بك لإنعمائك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴾ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ . وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة ، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين : إمّا صحبة فرعون وانتظامه في جملة وتكثيره سواده ، حيث كان يركب ركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ، وإمّا مظاهره من أدّت مظاهره إلى الجرم والإثم ، كمظاهره الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له . وقيل : معناه : بما أنعمت عليّ من القوة فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك ، ولا أدع قبضاً يغلب أحداً من بني إسرائيل)^(١) .

ثم وصف الله تعالى حال موسى (عليه السلام) في المدينة بعد قتل الرجل الذي من عدوّه ، فقال : ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره : فأصبح موسى في مدينة فرعون خائفاً من جنائبه التي جناها ، وقتله النفس التي قتلها ، أن يؤخذ فيقتل بها (يترقب) يقول : يترقب الأخبار : أي ينتظر ما الذي يتحدث به الناس ، مما هم صانعون في أمره وأمر قتيله .

(وقوله : ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ يقول تعالى ذكره : فرأى موسى لما دخل المدينة على خوف مترقباً الأخبار عن أمره وأمر القتل ، فإذا الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على الفرعوني ، يقاتله فرعوني آخر ، فرآه الإسرائيلي ، فاستصرخه على الفرعوني : يقول : فاستغاثه أيضاً على الفرعوني ، وأصله من الصراخ ، كما يقال : قال بنو فلان : يا صباحاه ! قال له موسى : ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ يقول جل ثناؤه : قال موسى للإسرائيلي الذي استنصره ، وقد صادف موسى نادماً على ما سلف منه من قتله بالأمس القتل ، وهو . يستصرخه اليوم على آخر : إنك أيها المستصرخ لغوي : يقول : إنك لذو غواية ، مبين : يقول : قد تبينت غوايتك ، بقتالك أمس رجلاً ، واليوم آخر)^(٢) .

١ - الكشف ج ٣ ص ١٦٩ .

٢ - تفسير الطبري - ط الباهي الحلبي - ج ٢٠ ص ٤٧ - ٤٨ .

وهكذا كان موسى (عليه السلام) في حالة خوف وقلق بعد تلك الحادثة ، وكان يتلفت ويتوقع الافتضاح والأذى . وبينما هو كذلك إذا به يواجه بما يزيد وضعه النفسي ألماً . لقد واجهه أمر ذلك الذي استنجد به بالأمس ، يطلب إليه أن يعينه على خصم آخر له . فغضب موسى (عليه السلام) على الإسرائيل ، ووصفه بأنه ظاهر الغواية ، كثير الشر ، ومع هذا كله همُّ أن يقضى على الذي هو عدوُّهما ، واندفع نحوه . عندئذٍ خاف الإسرائيلي على نفسه وظن أن موسى يريد قتله هو ، فذكره بما وقع منه بالأمس من قتل أحد الفرعونيين ، وحمله مسئولية قتل ذاته . ثم أنكر عليه أن يكون هذا المسلك هو مسلك المصلحين ، وأجدر بأن يكون طريق الذين يفعلون ما يريدون من الضرب والقتل بظلم ، ولا ينظرون في العواقب ، ولا يدفعون بالتي هي أحسن .

قال تعالى : ﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوُّ لها قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (فقال موسى للإسرائيلي : ﴿ إنك لغوى مبين ﴾ . ثم عزم على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي ؛ لخوره وضعفه وذلته ، أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى (عليه السلام) . فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه ، فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك ﴿^(١)﴾ .

هذا ، وقد جنح الأستاذ سيد قطب إلى أن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال لموسى (عليه السلام) : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ وعلل ذلك بقوله : (ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى ، لما عرف عن كراهيته من قبل لطفيان فرعون وملئه ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سراً بين قومه ، ثم تفشى بعد ذلك خارج بني إسرائيل .

(نرجح هذا ؛ لأن قتل موسى لأحد رجال فرعون في معركة بينه وبين إسرائيلي في مثل هذه الظروف يعدّ حدثاً مريحاً لنفوس بني إسرائيل ، يشفى بعض غيظهم ، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة في همس وفرح وتشف ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك ، وبخاصة إذا عرف عن موسى من قبل نفرتة من البغي وانتصاره للمظلومين .

(فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة ؛ لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة ، وهو يراه يهيم أن يبطش به ، وقال له تلك المقالة : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس ﴾ .

(أما بقية عبارته : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ . . فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له من الحياة مسلكاً يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغي والتجبر . فهذا القبطي يذكره بهذا ويوري به ؛ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جباراً لا مصلحاً ، يقتل الناس بدلاً من إصلاح ذات البين ، وتهدة ناثرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوباً من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه (١) .

وعلى أية حال ، لقد عرف فرعون والملا من قومه أن موسى (عليه السلام) هو الذي قتل القبطي ، فأتمروا به ، وأجمعوا أمرهم على قتله . هنالك أسرع إلى موسى رجل من الملا ، ولعله الرجل المؤمن من آل فرعون ، الذي كان يكتنم إيمانه ، أسرع إليه في جد واهتمام من طرف بعيد من المدينة ، ليخبره بما قد أمر به فرعون في شأنه ، حيث أشار عليه بالخروج من المدينة إبقاء على حياته . فسمع موسى (عليه السلام) نصيحته ، وخرج من بلد فرعون متوجساً خيفة ، داعياً ربه أن ينجيه من القوم الظالمين .

قال تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الإناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ .

قال الألوسي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ الآية ، قيل : هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون ، وهو المشهور ، وقيل : هو غيره . ويسعى : بمعنى يسرع في المشي ؛ وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه بإخبار موسى (عليه السلام) ونصحه . ﴿ قال يا موسى إن الملا ﴾ وهم وجوه أهل دولة فرعون ﴿ يأتمرون بك ﴾ أي يتشاورون بسبك ، وإنما سمي التشاور ائتماراً ؛ لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك (٢) .

١ - في ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٦٨٤ .

٢ - تفسير روح المعاني ج ٢٠ ص ٥٨ بتصرف .

وقال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ فاخرج إلى لك من الناصحين ﴾ في الأمر بالخروج ﴿ فاخرج منها خائفاً يترقب ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفاً من الظالمين ، مترقباً لحقوقهم به وإدراكهم له ، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلاً : ﴿ رب نجني من القوم الظالمين ﴾ أى خلصني من القوم الكافرين وادفعهم عني ، وحل بيني وبينهم (١) .

ثم أخبر تعالى عن حال موسى (عليه السلام) وهو خارج من المدينة خائفاً يترقب ، وحيداً مطارداً في الطرق ، وقد صرف وجهه في اتجاه مدين ، لم يتزود ولم يستعد لذلك السفر الطويل ، فاعتمد على المولى عز وجل وتوجه إليه طالباً عونه وهده . قال تعالى : ﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : (ولما خرج موسى (عليه السلام) فاراً بنفسه منفرداً خائفاً ، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء ، نحو مدين ، للنسب الذي بينه وبينهم ؛ لأن مدين من ولد إبراهيم ، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيره ، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ وهذه حالة المضطر .

(قلت : روى أنه كان يتقوت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خف قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجهه في طلبه وقال لهم : اطلبوه في ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . فجاءه ملك ركباً فرساً ومعه عذره ، فقال لموسى : اتبعني . فاتبعه ، فهداه إلى الطريق ، فيقال : إنه أعطاه العنزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعى الغنم من مدين . وهو أكثر وأصح . قال مقاتل والسدي : إن الله بعث إليه جبريل ، فالله أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام ؛ قاله ابن جبير . وكان ملك مدين لغير فرعون) (٢) .

(ومرة أخرى نجد موسى (عليه السلام) في قلب المخافة بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراوة والنعمى . ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه في كل مكان ؛ لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً ، ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبداً . فهذا هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء) (٣) .

١ - فتح القدير ج٤ ص ١٦٥ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج١٣ ص ٢٦٦ .

٣ - في ظلال القرآن ج٢٠ ص ٢٦٨٥ .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١) .

وذلك أن موسى (عليه السلام) لما وصل إلى مدين وجاء إلى البئر التي يسقى منها أهل مدين أنعامهم ، وجد فوق شفيرها ومن حولها جماعة من الناس يسقون ، ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تحبسان غنمهما عن الناس حتى يفرغوا من سقى مواشيهم . فسألها (عليه السلام) : ما شأنكما وحالكما ؟ وما بالكما تذودان غنمكما عن الناس ؟ وما سبب قأخركما وتكفكفكما غنمكما أن ترد مع غنم أولئك الرعاة ؟ فأجابته بأنهما لا يحصل لهما سقى إلا بعد فراغ الرعاء من سقى أنعامهم . ثم قالتا : هذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى هو أن أبانا لا يستطيع الحضور لسقى الغنم ؛ لأنه كبير السن . فعاونهما على السقى .

قال الحافظ ابن كثير : (قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا عبيد الله أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون الأودي عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : (أن موسى (عليه السلام) لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون . قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان . قال : ما خطبكما ؟ فحدثته . فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستقي إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم .) إسناده صحيح (٢) .

وقال الزمخشري : (إن موسى (عليه السلام) وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم ، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، وكفاهما أمر السقى في مثل تلك الزحمة ، بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله من الفضل من متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتى من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ، ترغيب في الخير وانتهاز فرصه وبعث على الاقتداء في ذلك بال صالحين والأخذ بسيرهم ومذهبهم (٣) .

١ - تقع مدين في جنوبي الشام وشمالى الحجاز .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٣٨٣ .

٣ - الكشف ج٣ ص ١٧٠ .

وبعد أن سقى (عليه السلام) للمرأتين غنمهما ، أوى إلى ظل شجرة يستظل بظلها من شدة الحر في تلك الهاجرة ، ويستريح من تعب السفر الطويل . وهناك وجد نفسه في حاجة إلى الطعام ، فناجى ربه أن يرزقه من فضله ، فهو محتاج إلى فضله ومنه وكرمه وخيره .

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ الذى كان هناك ﴿ فقال رب إني لما أنزلت إليّ ﴾ أى شئ أنزلته إليّ (من خير) جلّ أو قلّ . وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) أى محتاج ، ولتضمنه معنى السؤال والطلب جىء بلام الدعامة لتقوية العمل (١) .

وبينما هو (عليه السلام) في الظل يدعو ربه ، إذا به يجد مخرجاً من الشدة ، حيث أجاب الله تعالى دعاءه ، فجاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما ، وهى تسير نحوه على استحياء ، في غير ماتبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . وعندما اقتربت منه دعتة باسم أبيها للقائه ، وذكرت له السبب ، وهو أنه يريد أن يشبهه ويكافئه على معاونته لها ولأختها في السقى من ماء مدين .

قال تعالى : ﴿ فجاءته إحداها تمشي على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ .

قال أبو حيان عند تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ فجاءته إحداها تمشي على استحياء ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فذهبتا إلى أبيهما من غير إبطاء في السقى وقصتا عليه أمر الذى سقى لهما ، فأمر إحداها أن تدعوه له . ﴿ فجاءته إحداها ﴾ قيل : الكبرى ، وقيل : كانتا توأمتين ولذت الأولى قبل الأخرى بنصف نهار . و﴿ على استحياء ﴾ في موضع الحال ، أى مستحية متخففة . قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : قد سترت وجهها بكم درعها . والجمهور على أن الداعى أباها هو شعيب (عليه السلام) وهما ابنتاه . وقال الحسن هو ابن أخى شعيب ، واسمه مروان . وقال أبو عبيدة : هرون . وقيل : هو رجل صالح ليس من شعيب ينسب . وقيل : كان عمهما صاحب الغنم ، وهو المزوّج ، عبّرت عنه الآية بالأب ، إذ كان بمثابة (٢) .

وقال الحافظ ابن كثير : (قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر (رضى الله عنه) : جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع من النساء دلالة ولاجة خراجة . هذا إسناد

١ - تفسير أبو السعود جـ ٤ ص ٣٠٠ .

٢ - تفسير البحر المحيط جـ ٧ ص ١١٤ .

صحيح . قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور ، ومن النساء الجارية السليطة ، ومن النوق الشديدة .

﴿ قالت إنَّ أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ وهذا تأدب في العادة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً ؛ لئلا يوهم ربية بل ﴿ قالت إنَّ أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ يعنى ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿ فلمَّا جاءه وقص عليه القصص ﴾ أى ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ يقول : طب نفساً ، وقر عيناً ، فقد خرجت من مملكتهم ، فلا حكم لهم فى بلادنا ؛ ولهذا قال ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ (الآية) (١) .

وقد استبعد بعض المفسرين أن يكون هذا الرجل الذى آوى إليه موسى (عليه السلام) هو شعيب رسول الله . واستدلوا على ذلك بأن شعيباً (عليه السلام) كان قبل زمان موسى (عليه السلام) بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ وما قوم لوط منكم يبيعد ﴾ (٢) الآية ، وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن إبراهيم (عليه السلام) بنص القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إنَّ أهلها كانوا ظالمين . قال إنَّ فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ (٣) .

قال الأستاذ سيد قطب : (سبق أن قلت مرة فى الظلال . إنَّ هذا الرجل هو شعيب . وقلت مرة : إنه قد يكون النبى شعيباً أو لا يكون . . وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو ، وإنما هو شيخ آخر من مدين . والذى يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير . وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به . فلو كان هو شعيب - النبى - بين بقية قومه المؤمنين ، ما سقوا قبل بنتى نبيهم الشيخ الكبير . فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل ! يضاف إلى هذا أن الله تعالى لم يذكر فى القرآن الكريم شيئاً عن تعليم الشيخ الكبير لموسى صهره . ولو كان شعيباً النبى لسمعنا صوت النبوة فى شىء من هذا من موسى وقد عاش معه عشر سنوات (٤) .

وعلى أية حال لقد تم اللقاء بين هذا الشيخ الكبير من مدين وبين موسى (عليه السلام) ، فقصَّ عليه ما جرى له فى مصر . هنالك طمأنه الشيخ على نفسه وأشعره بالأمان . آنذاك تدخلت إحدى ابنتيه فى الكلام الذى كان بين أبيها وموسى ، فأشارت على أبيها باستئجاره ؛ ليكفيها وأختها مئونة العمل ، فهو حقيق بالاستئجار ؛ لأنه قوى على العمل ، أمين على العرض والمال .

٢ - من سورة هود : آية رقم ٨٩ .

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٨٤ .

٤ - فى ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٦٨٧ .

٣ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٣١ - ٣٢ .

قال تعالى : ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ .

(أى قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ماشيتك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوي على حفظ الماشية ، والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها ، الأمين الذي لا تخاف خيانتة فيما تأتمنه عليه منها .

(ولا يخفى أن مقالها : ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ من جوامع الكلم والحكمة البالغة ؛ لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية في القائم بأداء أمر من الأمور تكفل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجاح ^(١) .

وبعد أن سمع الشيخ الكبير كلام ابنته ، استجاب لاقتراحها ، فعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى غنمه ثمان سنوات ، فإن تبرع بزيادة سنتين ، فهو تفضل منه لا يلزمه به ولا يحتمه عليه حتى لا يصعب عليه الوضع . ثم وعده المساهلة والمساهمة من نفسه بالأشقة عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ، ولا يكلفه أشغالا خارجة عن حد الشرط ، ولا يناقشه في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال . عرض عليه هذا العرض راجياً بمشيئة الله تعالى أن يحبه موسى (عليه السلام) من الصالحين في معاملته ووفائه . وهو تواضع من الشيخ الكبير ، وأدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله تعالى . فهو لا يزكي نفسه ، ولا يجزم بأنه من الصالحين ، ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله سبحانه وتعالى .

﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمان حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ .

قال القاسمي عند تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ قال إني أريد ﴾ أى لقوتك وأمانتك ، وما يقوى المودة ويجذب القلوب ﴿ أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمان حجج ﴾ أى على أن تكون أجيري لرعى المواشى بأجرة على ابنتي ، هي مهرها عليك ، ثمان سنين ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ أى فهو من عندك بطريق التفضل ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ أى بالزام أتم الأجلين وإيجابه ، ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أى في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ^(٢) .

ولما فرغ الشيخ الكبير من كلامه ، قبل موسى (عليه السلام) العرض ، وأبرم العقد على أنه بالخيار في أى الملتين يخدم ، وتم الاتفاق بينهما على ذلك ، ثم أشهد الله عز وجل .

١ - تفسير المراغي ج ٢٠ ص ٥١ .

٢ - تفسير القاسمي ج ١٣ ص ٤٧٠٣ .

قال تعالى : ﴿ قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل ﴾ .

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره : قال موسى لأبي المرأتين : ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ أي هذا الذي قلت من أنك تزوجني إحدى ابنتيك على أن أجرك ثمانى حجج واجب بيني وبينك على كل واحد منا الوفاء لصاحبه بما أوجب له على نفسه . وقوله : ﴿ أيما الأجلين قضيت ﴾ يقول : أيّ الأجلين من الثمانى الحجج والعشر الحجج قضيت ، يقول : فرغت منها فوفيتكما رعى غنمك وماشيتك ﴿ فلا عدوان عليّ ﴾ يقول : فليس لك أن تعتدى على فتطالبنى بأكثر منه . وقوله : ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ يقول : والله على ما أوجب كل واحد منا لصاحبه على نفسه بهذا القول ، شهيد وحفيظ ^(١) .

هذا ، وقد دلّت السّنة على أن موسى (عليه السلام) إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما . فقد روى البخارى بسنده عن سعيد بن جبير قال : سألتني يهودى من أهل الحيرة : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري ، حتى أقدم على خبر العرب فأسأله . فقدمت على ابن عباس (رضى الله عنهما) فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله ﷺ إذ قال : فعل ^(٢) .

ومما سبق ذكره نستخلص : أن الله سبحانه وتعالى ابتلى موسى (عليه السلام) ابتلاء شديداً في هذه الفترة من حياته ؛ وذلك ليربيّه ويعده إعداداً كاملاً للرسالة ، وليتحمل تكاليف الدعوة ويصبر عليها . فامتحنه بقتل القبطى ، ثم بالخوف من فرعون وملئه ، والهرب من القصاص ، كما امتحنه بالجوع والمشقة في السفر الطويل من مصر إلى مدين ، مع مفارقة الأهل والوطن . ثم ابتلاه بالخدمة ورعى الغنم ، وهو الذى تربى في قصر فرعون ، أكثر ملوك الأرض ترفاً ومتاعاً وزينة . وعندما نضج (عليه السلام) وابتلى فثبت وصبر ، وامتحن فجاز الامتحان ، وبلغ سن النبوة ، واستعد للدعوة ، آنذاك عاد رسولاً من رب العالمين إلى فرعون رأس الفساد ، ليعالجه بالقول اللين والبرهان المبين .

١ - تفسير الطبري - ط البابى الحلبي ج ٢٠ ص ٦٥ - ٦٦ .
٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

الفصل الثالث

ابتلاء بالإعراض والأذى من المكذّبين بالدعوة

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : ابتلاء نوح عليه السلام .
- المبحث الثاني : ابتلاء إبراهيم عليه السلام .
- المبحث الثالث : ابتلاء موسى عليه السلام .
- المبحث الرابع : ابتلاء عيسى عليه السلام .

المبحث الأول

• ابتلاء نوح عليه السلام

حياة نوح (عليه السلام) كانت حياة شاقة قاسية ، مليئة بالكفاح والنضال والبلاء . وكانت محنته مع قومه محنة شديدة أليمة . فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه ، دعاهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية ، وتبشيراً وإنذاراً ، فلم يجد منهم إلا وقراً في الأذان ، وغشاوة على الأبصار ، وختماً على القلوب . ولكنه (عليه السلام) لم يكف عن تبليغ دعوة الله تعالى ، ولم تضعف إرادته عن إبداء النصيح والتذكير . فقابلوا ذلك بالإعراض والأذى والسخرية ، وحاوروا أن يردّوه عن دينه بشتى أنواع الأساليب . فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات ، وقوة عزيمة ، وصدوق بالحق ، واستمرار متواصل لدعوتهم إلى عبادة الله تعالى . ثم اتهموه بأنواع الاتهامات ، واقتروا عليه أنواع الافتراءات ، فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً وصبراً وإصراراً وكفاحاً ؛ لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . فكان (عليه السلام) من الأنبياء المقربين ومع أولى العزم الصابرين .

وقد عُرضت قصته في سور شتى من القرآن الكريم ، وذكرت بشكل مفصل في كل من سورة هود وسورة نوح . وفيما يلي نذكر بعض الآيات الكريمة التي لها علاقة بهذا المبحث .

قال الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ (١) .

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ (٢) .

١ - من سورة الأعراف : الآيات رقم ٥٩ - ٦٤ .

٢ - من سورة يونس : آية رقم ٧١ - ٧٣ .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزددى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتىكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون . وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتسب بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتية عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سئوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ (١) .

﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ (٢) .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى ءابائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء

١ - من سورة هود : الآيات رقم ٢٥ إلى رقم ٤٤ .

٢ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٧٦ - ٧٧ .

أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين . إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴿١﴾ .

﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً ﴾ (٢) .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم آخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى نرى تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ (٣) .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ (٤) .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ (٥) .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر ﴾ (٦) .

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً . فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم

١ - من سورة المؤمنين : الآيات رقم ٢٣ إلى رقم ٣٠

٢ - من سورة الفرقان : آية رقم ٣٧ .

٣ - من سورة الشعراء : الآيات رقم ١٠٥ إلى ١٢١ .

٤ - من سورة النكبات : آية رقم ١٤ - ١٥ .

٥ - من سورة غافر : آية رقم ٥ .

٦ - من سورة القمر : الآيات رقم ٩ إلى رقم ١٦ .

واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً . قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ما له وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تدرن أبهتكم ولا تدرن ودأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً . بما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً . وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تدرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لى ولوالدى ولن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴿١﴾ .

يظهر مما سبق ذكره من الآيات الكريمة أن نوحاً (عليه السلام) دعا قومه دعوة ملحة إلى التوحيد ، وأنذرهم عذاب يوم عظيم . فما آمن معه إلا قليل . وذهب الأكثرون منهم مع القيادات الضالة المضلّة الممعة في الضلال ، واتبعوا الملاء من ساداتهم وكبرائهم فأضلّوهم السبيل ، فأعرضوا عن نبيهم وتنكروا لدعوته ، وكذبوه ، وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته بأنواع التخويف والأذى . ثم اتهموه بالسفّه والضلال ، وكثرة الجدل والافتراء على الله تعالى ، ووصموه بالجنون ، وقابلوه بالسخرية والتهكم وهددوه (عليه السلام) بالرجم إذا لم يكف عن دعوته . وهكذا تفتنوا في إيذائه والإعراض عن دعوته وصد الناس عن سبيل الله . فتلقّى (عليه السلام) كل ذلك بالصبر والأدب الجميل ، وثبت وأصرّ على تبليغ الرسالة .

قال الأستاذ محمد عزة دروزة : (ناجى نوح ربه متذمراً مما كان من قومه من الإعراض والتباعد عن الدعوة ، وشدة التصامم ؛ بالرغم مما كان منه من إلحاح في السر والعلن ، والانفراد والاجتماع ، والترغيب والترهيب ، والتذكير بنعم الله عليهم ، ولفت نظرهم إلى مشاهد قدرة الله وعظمته في الكون وفي أنفسهم . ثم مما قام به زعمائهم وأغنيائهم من مكر وتحويض على عصيانه ، وعدم استماع مواعظه ، وتوصية الناس بالتمسك بعبوداتهم وتقاليدهم ، حيث كان لذلك أثر كبير في إضلال الناس ، وموقفهم موقف العناد والكفر) ﴿٢﴾ .

هذا ، وتدل الآيات الكريمة سالفه الذكر على أن نوحاً (عليه السلام) أرسل إلى قوم قد كفروا بالله وأشركوا به ، وعبدوا الأوثان والأصنام واتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، واعتقدوا أنها تضر وتنفع ، فعكفوا عليها ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن سبيل الله عز وجل .

روى البخارى بإسناده عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتنا ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت (١) الحديث .

فلما بعث الله نوحاً (عليه السلام) دعا قومه إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، واجتناب الطاغوت ، وألا يعبدوا مع الرحمن صنماً ولا تمثالاً ، وأن يعتقدوا بوحديته عز وجل ، ويعترفوا بأنه لا إله غيره ولا رب سواه . ثم بشرهم بأنهم إذا آمنوا واتقوا ، وأطاعوا الله ورسوله ، لغفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم ، ولأمهلهم ومتعمهم في هذه الحياة الدنيا إلى الأمد الأقصى الذى قدره تعالى لانتهاه آجالهم . ثم أنذرهم وحذرهم من الأخذ بعذاب الاستئصال إذا هم عصوه وتمادوا في الكفر والضلال ، وأن مصيرهم في الآخرة إلى النار .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ .

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ .

قال الطبرى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال : (أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية : أنه أرسل نوحاً إلى قومه ، لمُنذرهم بأسه ، وخوفهم سخطه ، على عبادتهم غيره ، فقال لمن كفر منهم : يا قوم ، اعبدوا الله الذى له العبادَة ، وذَلُّوا له بالطاعة ، واخضعوا له بالاستكانة ، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة ، فإنه ليس لكم معبود يستوجب عليكم العبادة غيره ، فإنى أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك (عذاب يوم عظيم) يعنى : عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربكم) (١) .

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ الآية ، قال : (يقول تعالى مخبراً عن نوح (عليه السلام) أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ؛ فإن تابوا وأنبأوا ، رفع عنهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . قال يا قوم إني لكم نذير مبين ﴿ أَيْ بَيْنَ النَّذَرَةِ ، ظَاهِرُ الْأَمْرِ وَاضِحُهُ ﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴿ أَيْ اتْرَكُوا حِمَارَهُ ، وَاجْتَنِبُوا مَاثِمَهُ (وَأَطِيعُوا) ﴾ فيما أمركم به ، وأنهاكم عنه ﴿ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى إذا فعلتم ما أمركم به وصدقتُم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم . ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى يد فى أعماركم ، ويدراً عنكم العذاب الذى إن لم تحتبوا ما نهاكم عنه ، أوقعه بكم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر تعالى يكون ذلك لا يرد ولا يمانع فإنه العظيم الذى قهر كل شيء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات) (٢) .

هذه هى دعوة نوح التى استقبلها الملأ الذين كفروا من قومه بالتبجح والافتحام ، والتى تلقوها بالكفر والإعراض ، والسباب والاستهزاء . إنهم لم يأبهوا لإنذار الله لهم ، بل تكبروا أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، وطلبوا أن تكلمهم الملائكة ! وأنكروا على نبيهم أن يكون رسولاً نبياً ، ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان ، ووصفوه بالضلال والجنون ، وتنقصوه ، وتنقصوا من آمن معه ، وتوعدهم بالأذى ، ونالوا منهم ، وبالفغا فى أمرهم . ثم ظلوا عاكفين على أصنامهم وأوثانهم ، واستمروا على الضلالة والطغيان .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ .

﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدرج ﴾ .

قال القاسمي : (قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ الآية ، أى الأشراف أو الجماعة ، أو ذوو الشارة والتجمّع (إنا لنراك) أى بأمرك بعبادة الله وترك عبادة غيره ، وتخويف العذاب على ترك عبادة الله ، وعلى عبادة غيره ﴾ فى ضلال مبين ﴾ أى فى ذهاب عن طريق الحق والصواب ؛ لكونه خلاف ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ (١) .

وهكذا أنكروا عليه أن يكون نبيا ، ونجدهم فى موضع آخر يطعنون فى نبوته من ثلاث جهات .

قال الشوكاني : (قال تعالى : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ الملأ : الأشراف ، ووصفهم بالكفر ذمًا لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة . ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوته : أى نحن وأنت مشتركون فى البشرية ، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا ، والجهة الثانية : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذلنا ﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأرذل لك . قال النحاس : الأرذل : الفقراء والذين لا حسب لهم . قال الزجاج : نسبهم إلى الحيابة ، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة : والوجه الثالث من جهات قذحهم فى نبوته : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ خاطبوه فى الوجهين الأولين منفرداً ، وفى هذه الوجهه خاطبوه مع متبعيه ، أى : ما نرى لك ولمن اتبعك من الأرذل علينا من فضل تتميزون به وتستحقون ما تدعونه . ثم أضربوا عن المطاعن الثلاثة وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذى لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية ، فقالوا : ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ فيما تدعونه ، ويجوز أن يكون هذا خطاباً للأرذل وحدهم ، والأول أولى ، لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له (٢) .

إنهم بهذه الشبهات والاتهامات والكبرياء ، والطعن فى شخص النبى نوح (عليه السلام) وأتباعه ، إنما يعرضون عن الدعوة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً ؛ لينفر القوم عن نبينهم ولا يؤمنوا معه :

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ الآية .

قال الطبرى عند تفسير هذه الآية الكريمة : (يقول تعالى ذكره : فقالت جماعة أشراف قوم نوح - الذين جحدوا توحيد الله وكذبوه - لقومهم : ما نوح أيها القوم ، إلا بشر مثلكم ، إنما هو إنسان مثلكم وبعضكم ﴾ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ يقول : يريد أن يصير له الفضل عليكم ، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع ﴾ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ يقول : ولو شاء الله أن لا نعبد شيئاً سواه لأنزل ملائكة ، يقول : لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته . وقوله : ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ الذى يدعوننا إليه نوح ، من أنه لا إله لنا غير الله فى القرون الماضية ، وهى آباؤهم الأولون (١) .

وقال الأستاذ سيد قطب : (إنها الشبهة التى وقرت فى نفوس جهال البشر : أن الجنس البشرى أصغر من حمل رسالة الله ؛ فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر . وهى شبهة جاهلة مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذى استخلفه الله فى أرضه ، وهى وظيفة خطيرة ضخمة ، لا بد أن يكون الخالق قد أودع فى هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع فى جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيثون لحمل الرسالة باختيار الله لهم ، وهو أعلم بما أودع فى كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس فى عمومته .

(وشبهة أخرى جاهلة كذلك : هى أنه اذا كان الله يختار رسولاً ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء فى قومهم ، المتسلطين العالين ؟ وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنسان التى من أجلها استحق الخلافة فى الأرض بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته فى المختارين من صفوفه . وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة فى الأرض ، إنما هى فى صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقى ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها . إلى آخر صفات النبوة الكريمة . وهى صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء !

(ولكن الملأ من قوم نوح ، كالملأ من قوم كل نبي ، تعميمهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلا يدركون مبرراً لاختصاص الرسل بالرسالة . وهى فى زعمهم لا تكون لبشر . فإن كانت فهى لأمثالهم من الوجهاء العالين فى الأرض !) (٢) .

١ - تفسير الطبرى - ط الباي الحلبى - ج ١٨ ص ١٦ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ١٨٧ - ١٨٧٢ .

وَمَثَلُ شَيْءٍ لَا تَلِيْقُ بِمَقَامِ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ نُوحٍ (عَلَيْهِ السَّلَام) الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَاهْدَى وَالِدَيْنِ الْقِيَمِ . وَهِيَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِرِسَالَتِهِ وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ آيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ وَصَمُوهُ بِالْجَنُونِ وَهَدَّدُوهُ بِالرَّجْمِ وَأَذَوْهُ بِالسَّخَرَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ قُتِرَ بَصَوًا بِهِ حَتَّى حِينٌ ﴾ .

﴿ كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ فكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ﴾ .

قَالَ أَبُو السَّعُودِ : (قَوْلُهُمْ : (إِن هُوَ) أَيْ مَا هُوَ ﴿ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ ﴾ أَيْ جَنُونٌ أَوْ جَنٌ يُخِيلُونَهُ ؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ مَا يَقُولُ ﴾ قُتِرَ بَصَوًا بِهِ ﴾ أَيْ احْتَمَلُوهُ وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ وَانْتَظَرُوا ﴾ حَتَّى حِينٌ ﴾ لَعَلَّهُ يَفِيقُ مِمَّا فِيهِ . مَحْمُولٌ حِينَئِذٍ عَلَى تَرَامِي أَحْوَالِهِمْ فِي الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ ، وَإِضْرَابِهِمْ عَمَّا وَصَفُوهُ (عَلَيْهِ السَّلَام) بِهِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَإِرَادَةِ التَّفْضِيلِ ، إِلَى وَصْفِهِ (عَلَيْهِ السَّلَام) بِمَا تَرَى ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ (عَلَيْهِ السَّلَام) أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلاً وَأَرْزَنُهُمْ قَوْلًا ، وَعَلَى الْأَوَّلِ عَلَى تَنَاقُضِ مَقَالَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (١) .

هَكَذَا اتَّهَمُوهُ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَأَثَارُوا حَوْلَهُ الشُّبُهَاتِ وَأَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . فَلَمْ تَهِنْ لَهُ إِرَادَةُ ، أَوْ تَتَزَعَّزَعَ لَهُ عَقِيدَةُ . بَلْ اسْتَقْبَلَ مَا قَابَلُوهُ بِهِ مِنَ الْإِتِّهَامِ وَالْإِعْرَاضِ وَالْإِسْتِكْبَارِ فِي اسْتِعْلَاءِ ، وَفِي ثِقَةِ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، وَاطْمِئْنَانِ إِلَى نَصْرِ رَبِّهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِقَوْمِهِ ، فَاسْتَمَرَ فِي دَعْوَتِهِ مُحَاوَلًا إِقْنَاعَهُمْ ، وَأَخَذَ يُحَاوِرُهُمْ وَيُجَادِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . فَنفَى عَنْ نَفْسِهِ الضَّلَالَةَ ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ دَعْوَتِهِ وَمَصْدَرِهَا ، فَهُوَ لَمْ يُخْتَرِعْهَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْوَائِهِ ، إِنَّمَا هُوَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، يُبَلِّغُهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ ، وَهُوَ لَهُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ وَنَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَيَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَعْلَمُونَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَبْغُلْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ كِتَابًا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا . وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مُلْكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾ .

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساتين . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

قال الطبرى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ قال : (يقول تعالى ذكره : قال نوح لقومه مجيباً لهم : يا قوم ، لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله ، وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة ، زوالاً منى عن محبة الحق ، وضلالاً لسبيل الصواب ، وما بى ما تظنون من الضلال ، ولكنى رسول إليكم من رب العالمين بما أمرتكم به : من إفراده بالطاعة ، والإقرار له بالوحدانية ، والبراءة من الأنداد والآلهة .

﴿ ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾^(١) أى أرسلنى إليكم ، فانا أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم فى تحذيرى إياكم عقاب الله على كفركم به ، وتكذيبكم إياى وردكم نصيحتى . ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ من أن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين^(٢) .

ثم قال تعالى إخباراً عن نوح (عليه السلام) لما تعجب قومه من نبوته وردوا عليه ما نصح لهم به ، أنه قال لهم : ﴿ أوعجبتهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ أوعجبتهم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ قال : (الهمزة فى أو ، الجملة للإستفهام الإنكارى ، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدّر بعد الهمزة . والمعنى : أكذبتهم وعجبتهم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم ؟ ﴾ لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ أى لأجل أن يحذركم عاقبة كفركم ، ويعلمكم بما أعد الله لكم من العقاب بما تفهمونه منه ؛ لأنه منكم - ولأجل أن تتقوا بهذا الإنذار ما يسخط ربكم عليكم من الشرك فى عبادته ، والإفساد

١ - قال الراغب فى المفردات ص ٤٩٤ : (النصح : تحرى فعل أو قول فيه إصلاح صاحبه . . . وهو من قوهم : نصحت له الود . أى أخلصته ، وناصح العسل : خالصة . أو من قوهم : نصحت الجلد : خطته ، والناصح : الخياط ، والنصاح : الخيط .)
٢ - تفسير الطبرى ج ١٢ ص ٥٠٠ بتصرف .

في أرضه - وليعذكُم بالتقوى لرحمة ربكم المرجوة لكل من أجاب الدعوة واتقى . علَّل بجيئه بالرسالة بعِلل ثلاث متعاقبة مرتبة كما ترى (١) .

وهذا كشف نوح (عليه السلام) لقومه عن هدف الرسالة ، وهو أن يظفروا في النهاية برحمة الله تعالى إن هم آمنوا واتقوا . ولا عجب ، فقد أرسله سبحانه رحمة بهم ولطفًا وإحسانًا إليهم لينذرهم بأس الله وعقابه على الكفر ؛ عسى أن يخشوا ربهم ، ويخلصوا الإيمان به ، ولا يشركوا به شيئًا .

هذا ، وعلى الرغم من الاتهام والإعراض والاستكبار الذي تلقاه نوح (عليه السلام) من قومه فقد استمر في دعوته ، يتلطف في الخطاب معهم ، ويترقق بهم في الدعوة إلى الحق . فقال تعالى مخبراً عما ردَّ به (عليه السلام) على شبهات منكري نبوته : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقور ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ .

﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ . قال الدكتور محمد البهى : (كان جواب نوح ردّاً على اعتراض الوجهاء في قومه على دعوته : أنه يراهم مجموعة من الماديين الذين سدَّ عليهم الانجاء المادى في تفكيرهم مسلك العقل الصحيح والتفكير السليم :

ثأولاً : أنه لا يكرههم على قبول ما يدعوههم إليه إن كان هو على بينة منه ، وآثره الله به رحمة وفضلاً منه ، وهم على عمى وجهل به .

وثانياً : أنه لا ينتظر ولا يترقب منهم أن يكون هو - عندما يقبلون دعوته - ذا زعامة ورياسة فيهم ، أو أن يؤجروه مالاً منهم عندئذ .

وثالثاً : أنه ليس من السلوك الإنسانى الكريم أن يطرد نفراً من الناس في المجتمع سارعوا إلى الإيمان به ، ويخرجهم من دائرة الاتصال به ؛ لأنهم فقط في المجتمع : ضعفاء ، وليسوا من أصحاب الوجاهة والثراء بين أفرادهم . والأجدر عندئذ تركهم وشأنهم إلى الله جلَّت قدرته يوم اللقاء به ؛ لتقديرهم وجرائهم . وإذن ليس هناك داع إلى تكذيبهم إياه ، وتحديه في رسالته . إذ لو تبصَّروا الأمر لكان يجب أن ينظروا موضوعياً فيما جاءت به الرسالة ، وليس في

الوضع البشرى له ، أو في الوضع الاجتماعي إلى أتباعه . إذ هذا ، وذلك ليست له صلة بالقيمة الحقيقية لدعوته إياهم ، وأثر هذه الدعوة في تحويلهم إلى مجتمع إنساني صاحب مستوى فاضل في الإنسانية^(١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ الآية ، أى قال نوح لقومه : حدثوني إن كنت على برهان ، وحجة ظاهرة الدلالة على صحة نبؤي ، إلا أنها خافية عليكم خفاء عماية ؛ لأنكم غير مهئين لإدراكها ورؤيتها ﴿ أنزلكموها وأنتم لها كارهون ﴾ أى أيكثنا أن نكرهكم على قبولها ، ونضطركم إلى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون ، غير متدبرين فيها ؟ فإن ذلك ليس في وسعنا ، ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

قال الزمخشري : (ومعنى عميت : خفيت . وقرئ : فعميت ، بمعنى أخفيت . وفي قراءة أبي : فعمها عليكم . فإن قلت : فما حقيقته ؟ قلت : حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة ، جعلت عمياء ؛ لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهتدى غيره ، فمعنى فعميت عليكم البينة : فلم تهديكم كما لو عمى على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد . فإن قلت : فما معنى قراءة أبي ؟ قلت : المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها ، فخلأهم الله وتصميمهم ، فجعلت تلك التخلية تعمية منه ، والدليل عليه قوله : ﴿ أنزلكموها وأنتم لها كارهون ﴾ يعنى أنكرهكم على قبولها ، ونفسركم على الاهتداء بها وأنتم تكرهونها ، ولا تختارونها ، ولا إكراه في الدين ﴾ الآية^(٢) وقد جرى بضميرى المفعولين متصلين جميعاً^(٣) .

وقال الشوكاني : قوله : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ فيه التصريح منه (عليه السلام) بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا ، حتى يكون بذلك محلاً للتهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادعى ما ادعى طلباً للدنيا . والضمير في (عليه) راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا . وقوله : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه ، وقيل : إنهم سألوه طردهم تصريحاً لا تلميحاً ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ أى لا أطردهم ، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم ، فهو يجازيهم على إيمانهم ؛ لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه . كأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله

١ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - تفسير سورة هود - ص ٣٦ - ٣٧ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٢٥٦ .

٣ - الكشف ج ٢ ص ٢٦٦ .

خَوْفًا مِنْ مَخَاصِمَتِهِمْ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِسَبَبِ طَرْدِهِ لَهُمْ . ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَطَالِبِ الَّتِي طَلَبُوهَا مِنْهُ ، وَالْعِلَلُ الَّتِي اعْتَلَوْا بِهَا عَنْ إِجَابَتِهِ فَقَالَ : ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ كُلِّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ ، وَمِنْ ذَلِكَ اسْتَرْذَلَهُمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَسَوَّاهُمْ لَهُ أَنْ يَطْرُدَهُمْ (١) .

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ طَرْدَ الْمُؤْمِنِينَ الْفُقَرَاءَ الضَّعَفَاءَ وَالتَّنَكُّرَ لَهُمْ ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ الدَّاعِينَ إِلَى سَبِيلِهِ سُبْحَانَهُ ، بَلْ إِنَّ طَرْدَهُمْ بَعْدَ اسْتِجَابَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ ظَلَمٌ عَظِيمٌ مُوجِبٌ لِحُلُولِ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِقَابِهِ . فَقَالَ مُسْتَنْكَرًا طَلِبَةَ الرُّؤَسَاءِ الْجَاهِلِينَ طَرْدَ مَنْ عَدَّوهُ مِنَ الْأَرَاذِلِ : ﴿ وَيَا قَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴾ .

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : (وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ تَطَابَقَا عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ تَعْظِيمِ الْمُؤْمِنِ الْبَرِّ التَّقَى . وَمِنْ إِهَانَةِ الْفَاجِرِ الْكَافِرِ ، فَلَوْ قَلَبْتَ الْقِصَّةَ ، وَعَكَسْتَ الْقَضِيَّةَ ، وَقَرَّبْتَ الْكَافِرَ الْفَاجِرَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ ، وَطَرَدْتَ الْمُؤْمِنَ التَّقَى عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ ، كُنْتَ عَلَى ضِدِّ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَلَى عَكْسِ حُكْمِهِ ، وَكُنْتَ فِي هَذَا الْحُكْمِ عَلَى ضِدِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى . يَصَالُ الثَّوَابُ إِلَى الْمُحَقِّقِينَ ، وَالْعِقَابُ إِلَى الْمُبْطِلِينَ ، وَحِينَئِذٍ أَصِيرُ مُسْتَوْجِبًا لِلْعِقَابِ الْعَظِيمِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ الَّذِي يُخَلِّصُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَذْكُرُونَ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ ؟) (٢) .

ثُمَّ بَيَّنَّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِلْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، أَوْثَرُ بِالْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ ، فَلَا يَدَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ مِنَ الثَّرَاءِ أَوْ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِثْرَاءِ ، وَعَلِمَ الْغَيْبِ ، وَصِفَةُ الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مُلْكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ ﴾ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : (يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَسْأَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا ، بَلْ هُوَ يَدْعُو مِنْ لِقَائِهِ مِنْ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لَهُ فَقَدْ نَجَا ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ هُوَ بِمَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، بَلْ هُوَ بَشَرٌ مَرْسَلٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجَرَاتِ ، وَلَا أَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَحْقِرُونَهُمْ وَتَزْدَرُونَهُمْ إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَاطِنًا كَمَا هُوَ

١ - فتح القدير ج ٢ ص ٤٩٤ .

٢ - التفسير الكبير ج ١٧ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ، ولو قطع لهم أحد بشرٍ بعدما آمنوا لكان ظالماً قاتلاً ما لا علم له به (١) .

(وهكذا ينفى نوح - عليه السلام - عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة ، وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة . ويتقدّم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية . ويردهم في نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول وودده ، إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها ، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها . بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة ، فيعطى أصحاب الدعوة في أجيالها جميعاً ، نموذجاً للداعية ، ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالأة لهم مع المودة التي لا تنحى معها الرؤوس) (٢) .

ولكن أشراف قوم نوح لم ينظروا في أمر رسالته ، ولا تفكروا فيما أمرهم به ، بل ظلوا على كفرهم ، ومعارضتهم له ؛ لما جبلوا عليه من حبّ الرئاسة والجاه والسلطان . فشرعوا في تنقيص متبعيه ، وعللوا انتفاء إيمانهم معه بقولهم : كيف يتسنى لأمثالنا - نحن الكبراء في المجتمع - الإيمان لك ، وقد اتبعك الذين هم أراذلنا ؟ أى كيف نصدّق قولك ونؤمن برسالتك وقد سارع إلى الإيمان بها أتباعك هؤلاء الضعفاء ومن لا قدر له ولا منزلة في المجتمع فنعدّ منهم ؟

قال تعالى : ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾ .

بهذا الجواب الذى يقرر قيمة الإيمان والعمل الصالح ، ويحدد اختصاص الرسول ، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون ، أجاب نوح (عليه السلام) الملأ الذين استكبروا من قومه ، على تعللهم بتلك العلة ، فقال : إن أتباعى هؤلاء الفقراء الذين تأنفون أن يسويكم التوحيد والإيمان بهم ، قد آمنوا معى ، وصدّقونى ، وأطاعونى ، وأنا لا أطلب إلى الناس شيئاً سوى الإيمان . وما وظيفتى إلا الدعوة إلى سبيل الله . وهى تقف عند حد الرسالة والإنذار بها ، ولا تتجاوز ذلك إلى قبول الإيمان بالدعوة من أشراف القوم ، وعدم قبول هذا الإيمان من الفقراء ؛ لخساسة أحوالهم وأشغالهم . ولهذا ليس من اختصاصى أن أطرد بعض المؤمنين ؛ بحجة أن عملهم ضيع ، وأقبل البعض الآخر منهم ؛ لأنهم من الزعماء والكبراء .

١ - تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٤٤٣ .

٢ - فى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ١٨٧٥ .

قال الزمخشري : (قوله تعالى : ﴿ وما علمى بما كانوا يعملون ﴾ الآية وأى شيء علمى ، والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم وإطلاعه على سرائرهم ، وإنما قال هذا ؛ لأنهم قد طعنوا فى استردادهم فى إيمانهم ، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما آمنوا هوىً وبدية ، كما حكى الله عنهم فى قوله : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأي ﴾ الآية . ويجوز أن يتعالى لهم نوح (عليه السلام) فيفسر قولهم : (الأراذلون) بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال وفساد العقائد ، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم . ثم بنى جوابه على ذلك فقال : ما على إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش على أسرارهم والشق عن قلوبهم ، وإن كان لهم شيء فالله محاسبهم ومجازيهم ، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز لو تشعرون ذلك ، ولكنكم تجهلون فتتساقون مع الجهل حيث سيركم . وقصد بذلك رد اعتقادهم ، وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس ، وأوضعهم نسباً ، فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى ^(١) .

وقال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ قال : (هذا مشعر بأنهم طلبوا منه ذلك ، فأجابهم بذلك ، كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء ، فنزلت : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ الآية . ^(٢) أى لا أطردهم عنى لاتباع شهواتكم ، والطمع فى إيمانكم ، ﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ ما جئت به بالبرهان الصحيح الذى يميز به الحق من الباطل ^(٣))

هذا ، ونغضى مع نوح (عليه السلام) فى جهاده الشاق الطويل . فنجده يوجه قومه إلى النظر فى أنفسهم وفى الكون من حولهم ، ليدركوا قدرة الله وآياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وليستشعروا عظمة الخالق عز وجل ، ولعلمهم بهذه الذكرى يؤمنون . ولكن الملأ الذين استكبروا من قومه سددوا فى غيهم ولم يستجيبوا لربهم . فتعجب (عليه السلام) من استهتارهم وعدم توقيرهم لربهم الذى خلقهم أطواراً ، وأنكر عليهم ذلك الاستهتار : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً ﴾ .

ثم لفت نوح (عليه السلام) أنظار قومه إلى قدرة الله عز وجل فوقهم ، حيث وجههم إلى السموات ، وأخبرهم أنها سبع طباق ، فيهن القمر نور ، وفيهن الشمس سراج . ولعله قصد من هذا التوجيه إثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الكائنات الهائلة من قدرة مبدعة ،

١ - الكشف ج٣ ص ١٢٠ .

٢ - من سورة الأنعام : آية رقم ٥٢ .

٣ - تفسير البحر المحيط ج٧ ص ٣١ - ٣٢ .

وعسى أن يكون لذلك في نفوسهم وقع مؤثر يقودهم إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له : قال تعالى : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ .

قال الشوكاني عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ قال : الخطاب لمن يصلح له . والمراد الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته تعالى وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة . والطباق : المتطابقة بعضاً فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب . ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ أى منوراً لوجه الأرض ، وجعل القمر في السموات مع كونها في سماء الدنيا ؛ لأنها إذا كانت في إحداهن ، فهى فيهن ، كذا قال ابن كيسان . قال الأخفش : كما تقول : أتاني بنو تميم ، والمراد بعضهم . وقال قطرب : فيهن بمعنى معهن : أى خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض . ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ أى كالمصباح لأهل الأرض ؛ ليتوصلوا بذلك إلى التصرف فيما يحتاجون إليه من المعاش^(١) .

وقال الحافظ ابن كثير : (فاوت الله سبحانه وتعالى بين الشمس والقمر في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة ؛ ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر للقمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ؛ ليدل على مضي الشهور والأعوام ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾^(٢)) .

ثم عاد نوح (عليه السلام) إلى أدلة التوحيد في الأنفس ، فوجه قومه إلى النظر في خلقهم من الأرض ، وعودتهم فيها بالدفن بعد الموت ؛ ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث يوم القيامة للحساب . وفي هذا بيان لهم أن الله تعالى هو الذي خلقهم ، وهو الذي يميّتهم ويحييهم ، وهو الحي القيوم القادر على بعثهم مرة أخرى . ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾^(٣) الآية . ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾^(٤) فنوح (عليه السلام) نبّه قومه على هذه الحقائق لتستشعر قلوبهم قدرة الله وهى تنشئهم من هذه الأرض ، ثم تعيدهم فيها مرة أخرى ، ثم تتوقع النشأة الأخرى ، ومن ثم تحسب حسابها باستجابتها لربها .

١ - فتح القدير ج ٥ ص ٢٩٨ .

٢ - من سورة يونس : آية رقم ٥ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٤٢٥ .

٤ - من سورة الأعراف : آية رقم ٢٩ .

٥ - من سورة الذاريات : آية رقم ٢١ .

قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ .

قال الفخر الرازي : (قوله تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ فيه مسألتان .

(المسألة الأولى - في هذه الآية وجهان : (أحدهما) معنى قوله : ﴿ أنبتكم من الأرض ﴾ أى أنبت أباكم من الأرض . كما قال : ﴿ إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ^(١)) (والثاني) أنه تعالى أنبت الكل من الأرض ؛ لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف ، وهى متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض .

المسألة الثانية - كان ينبغي أن يقال : أنبتكم إنباتاً ، إلا أنه لم يقل ذلك ، بل قال : أنبتكم نباتاً ، والتقدير : أنبتكم فنبتم نباتاً ، وفيه دققة لطيفة وهى : أنه لو قال : أنبتكم إنباتاً ، كان المعنى : أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ، ولما قال : أنبتكم نباتاً ، كان المعنى : أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً ، وهذا الثانى أولى ؛ لأن الإنبات صفة لله تعالى ، وصفة الله غير محسوسة لنا ، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى ، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى ، فلا يمكن إثباته بالسمع . أمّا لما قال : ﴿ أنبتكم نباتاً ﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً كاملاً كان ذلك وصفاً للنبات بكونه عجيباً كاملاً ، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس ، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى ، فكان هذا موافقاً لهذا المقام . فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف . أمّا قوله : ﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة فى القرآن من أنه تعالى لما كان قادراً على الابتداء ، كان قادراً على الإعادة ، وقوله : ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ أكدّه بالمصدر كأنه قال : يخرجكم حقاً لا محالة ^(٢) .

ثم وجه نوح (عليه السلام) أنظار قومه إلى قدرة الله تعالى فى بسط هذه الأرض ، وتمهيدها ، وتسخيرها لهم ، وتذليلها لحلهم وترحالهم ، واستقرارهم وسيرهم وانتقالهم ، وتيسير الحياة لهم عليها ، وليتخذوا فيها الطرق الواسعة لتحصيل معاشهم ورزقهم وبلوغ مآربهم . كل ذلك ليدركوا نعمة الله وفضله عليهم ، فيشكروه ، على نعمه ولا يشركوا به شيئاً .

قال تعالى : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ ^(٣) .

٢ - الضمير الكبير جـ ٣٠ ص ١٤٠ - ١٤١ .

١ - من سورة آل عمران : آية رقم ٥٩ .

٣ - قال الراغب فى المفردات ص ٣٧٣ : (الفج : شقة يكتنفها جبلان ، ويستعمل فى الطريق الواسع ، وجمعه : فجاج) .

قال الأستاذ المراغى : (ثم أخذ تعالى يعدد النعم التى أعدها للإنسان فى الأرض ، وذكر أن الأرض مهيأة ، مسخرة لأمره ، كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما فى بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المنوعة ، فقال : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أى : والله بسط لكم الأرض ومهدّها وثبّتها بالجبال الراسيات . ثم بين حكمة هذا فقال :

﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أى : لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها المختلفة (١) .

وقصارى ما سلف ذكره : هو أن نوحاً (عليه السلام) أمر قومه بتعظيم الله تعالى ، ثم استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل فى الأنفس والآفاق ، ونبّههم على قدرة الله تعالى وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ولفت أنظارهم إلى نعم الله عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو سبحانه الخالق الرازق الذى أسبغ على خلقه من رزقه ، بأن جعل لهم السماء بناء والأرض مهاداً وذلولاً ، ليسيروا فى منابها ويأكلوا من رزقه . وعلى ذلك كله فهو عز وجل الذى يجب أن يُعبد ويوحّد ولا يُشرك به شيئاً .

هكذا كانت دعوة نوح (عليه السلام) لقومه . ولكن الملأ الذين استكبروا منهم يشؤوا من مناهضة الحجة بالحجة ، وتعظّموا أن تغلبهم الحجة ، وأن يخضعوا للبرهان العقلى والفطرى . فتركوا الجدل وردّوا عليه فى عناد وتحدى .

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا (٢) فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ .

قال الشوكانى : (ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم وكلامه ، عجزاً عن القيام بالحجة ، وقصوراً عن رتبة المناظرة ، وانقطاعاً عن المباراة بقولهم : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أى خاصمتنا بأنواع الخصام ، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام ، ولم يبق لنا فى هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك ، وانسدت أبواب الحيل ﴾ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب الذى تخوفنا منه ، وتخافه علينا ﴾ إن كنت من الصادقين ﴾ فيما تقوله

١ - تفسير المراغى ج ٢٩ ص ٨٦ .

٢ - قال الراغب فى المفردات ص ٨٩ - ٩٠ : (الجدل : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله من جدلت الحبل ، أى أحكمت قتله ، ومنه الجدّيل ، وجدلت البناء : أحكمته ودرع مجدولة : والأجل : القصر المحكم البنية ، والمجدل : القصر المحكم البناء ، ومنه الجدل ، فكان المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه . وقيل : الأصل فى الجدل الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة ، وهى الأرض الصلبة) .

لنا . فَأَجَابَ بَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ ، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ فَإِنْ قَضَتْ مَشِيئَتُهُ وَحُكْمَتُهُ بِتَعْجِيلِهِ عَجَّلَهُ لَكُمْ ، وَإِنْ قَضَتْ مَشِيئَتَهُ وَحُكْمَتُهُ بِتَأْخِيرِهِ آخَرَهُ ، ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بِفَاتَتَيْنِ عَمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ بِكُمْ بِهَرَبٍ أَوْ مَدَافَعَةٍ (١) .

ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ نَاصِحٌ أَمِينٌ ، وَرَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَالْكَشْفُ عَنِ الْحَقِّ حَتَّى نَهَايَةِ الْمَطَافِ ، فَلَا يَشِيئُهُ عَنِ إِبْلَاغِهِ وَبَيَانِهِ تَكْذِيبَ الْقَوْمِ وَتَحْدِيثَهُمْ . وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَدْمُرَهُمْ بِضَلَالِهِمْ ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ مَعَهُمَا بِذَلِكَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَهُمْ مِنَ النَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ . وَهَذَا لَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِالنَّصِيحِ ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ تَصَرَّفَ الْقَوْمُ بِأَنْفُسِهِمْ يَجْعَلُ سُنَّةَ اللَّهِ تَقْتَضِي أَنْ يَضِلُّوا السَّبِيلَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قَالَ الْقَاسِمِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : (أَيْ أَيْ شَيْءٍ يُجَدِّدُهُ إِبْلَاغِي وَنَصْحِي ، بِدَعْوَتِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْعَذَابِ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ إِغْوَاءَكُمْ لِيُذْمَرَكُمْ ﴾ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ مَالِكُ أَمْرِكُمْ ﴾ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ) (٢) .

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : (فَإِنْ قُلْتُ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ ؟ قُلْتُ : إِذَا عَرَفَ اللَّهُ مِنَ الْكَافِرِ الْإِصْرَارَ ، فَخَلَّاهُ وَشَأْنَهُ ، وَلَمْ يَلْجِئْهُ ، سَمَّى ذَلِكَ إِغْوَاءً وَإِضْلَالًا . كَمَا أَنَّهُ إِذَا عَرَفَ مِنْهُ أَنَّهُ يَتُوبُ وَيَرْعُو ، فَلَطَفَ بِهِ ، سَمَّى إِرْشَادًا وَهَدَايَةً . وَقِيلَ : ﴿ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أَنْ يَهْلِكَكُمْ ، مِنْ غَوَى الْفَصِيلِ غَوًى : إِذَا بَشَمَ فَهْلَكَ ، وَمَعْنَاهُ : أَنْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مِنَ التَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا تَنْفَعُكُمْ نَصَائِحُ اللَّهِ وَمَوَاعِظُهُ ، وَسَائِرُ الْطَافَةِ كَيْفَ يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي ؟ (٣) .

هَذَا ، وَلَقَدْ وَاصَلَ نُوحٌ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) جَهُودَهُ الْخَالِصَةَ الْكَرِيمَةَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَيُبَيِّنُ وَيُوضِّحُ لَهُمُ السَّبِيلَ الْأَقْوَمَ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَيُنْذِرُهُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ . لَا يَبْتَغِي مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُ وَلَا مَنَافِعَةً ، وَلَا يَرِيدُ مِنْهُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا . وَاحْتَمَلَ فِي سَبِيلِ أَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي كُلَّفَهُ بِهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا احْتَمَلَ مِنْ إِعْرَاضٍ وَأَذَى وَكَفَرٍ وَجُحُودٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَاسْتِهْزَاءٍ ، أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا . وَكَانَتْ الْحَالَةُ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ، مِنَ الْإِعْرَاضِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى

٢ - تفسیر القاسمی ج ٩ ص ٣٤٣ .

١ - فتح القدیر ج ٢ ص ٤٩٥ .

٣ - الکشاف ج ٢ ص ٢٦٧ .

الضلال ، ترتفع وتزداد . وفي الجهة الأخرى ما آمن معه إلا قليل ، ولا يكاد عددهم يزيد . فلجأ (عليه السلام) في النهاية إلى ربه عز وجل يشتكى إليه ويحكي له ما لقي من القوم ، ويصف ما صنع ، وما قال لهم في أنفسهم من القول البليغ . لجأ يعرض ذلك كله على ربه ، وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل .

قال تعالى : ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

قال أبو السعود : (قال نوح (عليه الصلاة والسلام) مناجياً ربه ، وحاكياً له تعالى ، وهو أعلم بحاله ، ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال في تلك المدد الطوال ، بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود ، وجاوز في الإنذار كل حد معهود ، وضائق عليه الحيل ، وعيت به العلل : ﴿ رب إني دعوت قومي ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ أي دائماً من غير فتور ولا توان ^(١) .

ومع هذا الجهد المتواصل ، أعرض الملأ الذين استكبروا من القوم عن نوح (عليه السلام) وأصروا على الضلال ، وفروا من الحق .

قال تعالى : ﴿ فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي قال نوح (عليه السلام) : يارب ، إن هؤلاء القوم لم يزدتهم حرصي على إيمانهم ، ودعوتي لهم إلى عبادتك وحدك ، إلا فراراً عما دعوتهم إليه من الحق ، وتباعداً من الإيمان .

ونمضي مع نوح في جهاده الطويل ، فنجدّه يصّر على إنذار قومه ؛ امتثالاً لأمر الله تعالى ، وقد تحين كل فرصة ليلبغهم الدعوة ، بينما أصرّ الملأ الذين استكبروا من القوم على الضلال ، وكرهوا أن يصل دعاؤه إلى أسماعهم ، كما كرهوا أن يروه ، ومن ثم استكبروا عن الاستجابة لله ولرسوله .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كَلِمًا دَعَوْتَهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ .

قال الفخر الرازي : (اعلم أن نوحاً (عليه السلام) إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة ؛ لأجل أن يُغْفَرَ لهم ، فإنَّ المقصود الأول هو حصول المغفرة ، وأمَّا الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة ؛ ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة ، لا جرم قال : ﴿ وإِذْ كَلِمًا دَعَوْتَهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ . واعلم أنه (عليه السلام) لما دعاهم عاملوه بأشياء :

(أولاها - قوله : ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ والمعنى : أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم ؛ لئلا يسمعوا الحجة والبيّنة .

(وثانيها - قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أى تغطوا بها ؛ وإمّا لأجل ألا يبصروا وجهه ، كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه ، ولا أن يروا وجهه . وإمّا لأجل المبالغة في ألا يسمعوا ، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم ، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك ، صار المانع من السماع أقوى .

(وثالثها - قوله : ﴿ وأصروا ﴾ والمعنى : أنهم أصرّوا على مذهبهم ، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق .

(ورابعها - قوله : ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ أى عظيماً بالغاً إلى النهاية القصوى)^(١) .

وهكذا أظهر القوم لنبههم نوح العداوة والبغضاء ، وجأهروه بإعراضهم عنه . وطال الزمن وهو (عليه السلام) لا يسأم من دعوتهم ولا يفتروا ييشس أمام الإعراض ، والإصرار على الكفر والشرك والضلال . بل اتبع (عليه السلام) كل الأساليب من أجل أن يتبعه قومه في الإيمان . فدعاهم إلى ذلك سرا ، ثم صدع بالدعوة ، ثم نصح لهم ووعظهم بما أمره الله به سراً وعلانية .

قال تعالى : ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ .

قال الزمخشري : (فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلاً ونهاراً ، ثم دعاهم جهاراً ، ثم دعاهم في السر والعلن ، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف . قلت : قد فعل (عليه الصلاة والسلام) كما يفعل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في

الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان . ومعنى (ثم) الدلالة على تباعد الأحوال ؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما (١) .

وفي أثناء دعوته لهم إلى الله تعالى على هذه الوجوه المتخالفة ، والأساليب المتفاوتة ، كان نوح (عليه السلام) يرغب قومه في الإيمان وبركاته ، والطاعة ونتائجها من خير في الدنيا والآخرة ، فأمرهم بالاستغفار ؛ ليغفر الله لهم ذنوبهم ، وأطمعهم في تيسير الأرزاق وعموم الرخاء ، إن هم أطاعوه وأنابوا إلى ربهم ، وتابوا عن الكفر والمعاصي .

قال تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ .

ومعنى هذه الآيات الكريمة هو : أن نوحاً (عليه السلام) قال : يارب ، إني دعوت قومي إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ، ورغبتهم في التوبة والإيمان ، فقلت لهم : سلوا ربكم المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان ، وارجعوا عما أنتم فيه من الكفر والشرك والضلال ، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ، فإنه تعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . فإنكم إذا تبتم إلى بارئكم وآمنتم به ، واتقيتموه ، فهو سبحانه سينزل لكم الغيث بكثرة متواصلة ، وسيسقيكم ماء غداً ، ويروى أرضكم ، ويعم الخصب ، ويؤتيكم أموالاً تنعمون وتسعدون بها ، وهب لكم بنين يشدون من أزركم ، ويجعل لكم بساتين فيها أنواع الثمار ، ويجعل بينها وخالها أنهاراً جارية . هذا ، مع المغفرة والأجر الكريم في الدار الآخرة .

ويبدو من السياق أن الله تعالى ربط بين الاستغفار - الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي - وبين هذه الأرزاق . وفي القرآن الكريم عدة مواضع فيها هذه العلاقة بين الإيمان والتقوى والاستقامة على الهدى ودين الحق ، وبين حل الأزمات ، وتفريج الكربات ، وتيسير الأرزاق في الدنيا ، وتكفير السيئات ، ونيل الأجر العظيم في الآخرة . ومن المواضع التي ذكرت فيها هذه القاعدة قوله تعالى :

﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ (٢) .

- الكشاف ج٤ ص ١٦٢ .

٢ - من سورة المائدة : آية رقم ٦٥ - ٦٦ .

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ (١) .

﴿ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ (٢) .

﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ (٣) .

قال الأستاذ سيد قطب : (وهذه القاعدة التي يقرها القرآن الكريم في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله ، واتجهت اتجاهها حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله . . ما من أمة أتقت الله وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً ، إلا فاضت فيها الخيرات ومكّن الله لها في الأرض ، واستخلفها فيها بال عمران وبالصلاح سواء .

(ولقد نشهد في بعض الفترات أمماً لا تتقى الله ، ولا تقيم شريعته وهي - مع هذا - موسّع عليها في الرزق ، ممكّن لها في الأرض . . ولكن هذا إنما هو الابتلاء : ﴿ونبلوكم بالبشر والخير فتنة﴾ (٤) الآية ، ثم هو بعد ذلك رخاء تأكله آفات الاختلال الاجتماعي ، والانحدار الأخلاقي ، أو الظلم والبغى وإهدار كرامة الإنسان . . وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسّع عليهما في الرزق ، ممكّن لهما في الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفي الأولى يهبط المستوى الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك ، فيقوم كله على الدولار !! وفي الثانية تهدر قيمة الإنسان إلى درجة دون الرقيق في وتسود الجاسوسية ، ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتواليّة ، ويبيت كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح في همة تحاك في الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !) (٥) .

- ١ - من سورة الاعراف : آية رقم ٩٦ .
- ٢ - من سورة هود : آية رقم ٢ - ٣ .
- ٣ - من سورة الجن : آية رقم ١٥ - ١٦ .
- ٤ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٣٥ .
- ٥ - في ظلال القرآن : ج ٢٩ ص ٣٧١٣ . ولعل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا يتقونه وهم مع كفرهم موسّع عليهم في الرزق والنعم الدينية ، لعلهم هم الذين عناهم الله تعالى بقوله : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ . من سورة هود : آية رقم ١٥ - ١٦ .

ونمضي مع نوح (عليه السلام) وقد عاد إلى ربه بعد جهاد طويل ، وصبر ومشقة وعناء ،
بيث شكواه ، في بيان مفصل دقيق ، يشير فيه إلى أن قومه كذبوه وعصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم
به من الإيمان . بل أطاعوا كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدتهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا
ضلالاً في الدنيا ، وهلاكاً في الآخرة .

(قال نوح رب إنهم عصونوا واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً
كباراً . وقالوا لا تذر أهلكم ولا تذر وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد
أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً) .

قال الحافظ ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن نوح (عليه السلام) أنه أنهى إليه وهو
العليم الذي لا يعزب عنه شيء ، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على
الترغيب تارة ، والترهيب أخرى ، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه ، واتبعوا أبناء الدنيا بمن غفل
عن أمر الله ومتع بأموال وأولاد ، وهى في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ ولهذا قال :
﴿ واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً ﴾ (١) الآية) .

إن هؤلاء الكبراء والأغنياء - الذين استبكروا - من القوم ، لم يكتفوا بما هم عليه من
الضلال ، بل مكروا مكراً كبيراً عظيماً ، بلغ القمة في الكبر ؛ ولعل ذلك هو صدهم الناس
عن سبيل الله ، بأمرهم بالكفر واتخاذ الأنداد لله عز وجل ، وكيدهم لنوح (عليه السلام)
وتحريض الناس على أذاه والإعراض عنه .

قال تعالى : ﴿ ومكروا مكراً كبيراً ﴾ .

قال القرطبي : (واختلف في مكروهم ، ما هو ؟ فقيل : تحريشهم سفلتهم على قتل
نوح . وقيل : هو تغريهم الناس بما أوتوا من الدنيا والولد ؛ حتى قالت الضعفة : لولا أنهم
على الحق لما أوتوا هذه النعم . وقال الكلبي : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد . وقيل :
مكروهم كفرهم . وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم : ﴿ لا تذر أهلكم ولا تذر وداً
ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ الآية (٢) .

وكان من مكروهم حث الناس على الاستمسك بهذه الأصنام التي يسمونها آلهة : ﴿ وقالوا
لا تذر أهلكم ﴾ أى لا تركوا عبادة الأصنام التي هى أهلكم وتعبدوا رب نوح . ثم عيّنوا
من الأصنام أكبرها شأنًا ، وأعظمها قدراً عندهم ، فقالوا ﴿ ولا تذر وداً ولا سواعاً ولا
يغوث ويعوق ونسراً ﴾ أى قالوا لهم : لا تركوا عبادة أصنامكم ولا سيما هؤلاء الأصنام
الكبار ، فلا تركوا عبادتهم .

روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : (صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أمّا وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأمّا سواع فكانت لهذيل ، وأمّا يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان ، وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح (عليه السلام) . فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصباً ، وسَمّوها بأسمائهم . ففعلوا ، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّج العلم عُبدٌ ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلّالاً ﴾ . قال الأستاذ سيد قطب : (وهكذا تلك القيادات الضالة المضلّة تقيم أصناماً ، تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة فى كل جاهلية ، وتجمع حوالها الأتباع ، وتهيج فى قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كى توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذى يكفل لها الطاعة والانقياد : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام .. أصنام الأحجار ، وأصنام الأشخاص ، وأصنام الأفكار .. سواء !! للصدّ عن دعوة الله وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة ، بالمكر الكبّار ، والكيد والإصرار !) ^(٢) .

ومن هذا يُفهم أن كبراء قوم نوح ورؤساهم هم الذين أضلوا كثيراً من الناس . وقيل : إنه بسبب هذه الأصنام ضل كثير من البشر ، باعتقادهم أنها آلهة تنفعهم وتضرهم ؛ ولذلك عبدوها من دون الله عز وجل ، فضلوا وأضلوا غيرهم وصدّوهم عن سبيل الله .

قال الأستاذ المراغى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ أى وقد ضل بعبادة هذه الأصنام - التى استحدثت على صور هؤلاء النفر - كثير من الناس ، فقد استمرت عبادتها قروناً كثيرة ، كما قال الخليل - عليه الصلاة والسلام - فى دعائه : ﴿ واجنّبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهم أضلّلن كثيراً من الناس ﴾ الآية ^(٣) ، ^(٤) .

ثم دعا نوح (عليه السلام) على الملأ الذين استكبروا من قومه ؛ لتمردهم وكفرهم وعنادهم ومكرهم وضلالهم وصدّهم عن سبيل الله ، فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلّالاً ﴾ وفى هذا بيان لوقوع اليأس من إيمانهم ، وبالتالي فلا يستحقون النجاة .

قال الشوكانى : (قوله تعالى : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلّالاً ﴾ معطوف على ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمّر تسجيلاً عليهم بالظلم . وقال أبو حيان : إنه

١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٦٦٧ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ٢٩ ص ٣٧١٦ .

٣ - من سورة إبراهيم : آية رقم ٣٥ - ٣٦ .

٤ - تفسير المراغى ج ٢٩ ص ٨٨ .

معطوف على ﴿قد أضلوا﴾ . ومعني ﴿إلا ضلالاً﴾ : إلا عذاباً ، كذا قال ابن بحر ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾^(١) وقيل : إلا خسراً ، وقيل : إلا فتنة بالمال والولد ، وقيل : الضياع ، وقيل : ضلالاً في مكرهم^(٢) .

وهكذا أنهى نوح (عليه السلام) إلى ربه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وختم كلامه بأن دعا عليهم . دعا عليهم لما أيس من فلاحهم ، وظهر منهم ما يدل على أنهم لم تنشرح صدورهم للإيمان واتباع الحق . لقد طال مقامه بين أظهرهم ، يدعوهم إلى الله تعالى ، ومع ذلك فما آمن معه إلا قليل . وتبرم الأكثرون بدعوته ، وكذبوا برسالته ، وبما جاءهم به من الآيات . ثم وصموه بالجنون وضمموا على الكفر البواح ، والامتناع الشديد عن الاستجابة لربهم . ثم هددوا نبيهم بالرجم والشتم ، وأذوه بالسخرية ، وطلبوا إليه أن يكف عنهم .

قال تعالى : ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ .

﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ .

﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا ، وقالوا مجنون وازجر﴾^(٣) . لقد لجأ القوم إلى التهديد بالقوة المادية ، وأساليب التخويف والأذى ، تلکم التي يعتمد عليها الطغاة في كل أمة عندما تعوزهم الحجة ، ويعجزهم البرهان . لجئوا إلى التهديد والوعيد والزجر والطرء ، وهتموا برسولهم ليأخذوه ، وقالوا له : لئن لم تنته يا نوح ، عن دعوتك إيانا إلى دينك ، وادعائك الرسالة من الله ، وتقييح ما نحن عليه من عبادة الأصنام ، لئن لم تكف عن ذلك وغيره مما جئتنا به ، لتكونن من المرجومين بالحجارة . وقيل : لتكونن من المشتمين .

ولكن نوحاً (عليه السلام) لما كان ذا عزيمة قوية عبر بدعوته التي استمرت زمناً طويلاً ، ودون أن تمن له إرادة ، أو تتزعزع له عقيدة ولما كان قوى الإيمان بالله تعالى ، مستعيناً به ، معتمداً عليه في كل ما يصادفه من صعاب ، ومشقات وإعراض ، وأذى ، فإنه لم يبال بهذا التهديد والوعيد ، والزجر والتكذيب ، ولم يثن أمام ذلك عن إنذار القوم ، وتذكيرهم بآيات الله تعالى التكوينية والتنزيلية . بل تحدى قومه الذين كذبوه تحدياً واضحاً صريحاً ، على أن يحزموا أمرهم ، ويفعلوا به ما بدا لهم ، وليستعينوا بأصنامهم وأوثانهم ، وبكل قوى البشر من أمثالهم في الشرك ، على تنفيذ ما يكيدون ، ثم ليمضوا إليه ولا يؤخروه ساعة واحدة .

١ - من سورة القمر : آية رقم ٤٧ .

٢ - فتح القدير ج ٥ ص ٣٠١

٣ - قال الراغب في المفردات ص ٢١١ - ٢١٢ (الزجر : طردٌ بصوت ، يقال : زجرته فانزجر . ثم يستعمل في الطرد تارة وفي الصوت أخرى . وقوله : ﴿ما فيه مزدجر﴾ الآية رقم ٤ من سورة القمر) أى طرد ومنع عن ارتكاب المآثم . وقال : ﴿وازدجر﴾ أى طرد ، واستعمال الزجر فيه لصياحهم بالطرد نحو أن يقال : اعزب ، وتنع ، ووراءك) .

قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إلىّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ .

قال الألوسى : (قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم ﴾ أى واتل يا محمد ، على المشركين من أهل مكة وغيرهم ، لتحقيق ما سبق من عدم إفلاح المفتريين ، وكون ما يتمتعون به على جناح الفوات ، وأنهم مشرفون على الشقاء المؤبد والعذاب الشديد . ﴿ نبأ نوح ﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ؛ ليتدبروا ما فيه مما فيه مزدجر ، فلعلهم ينزجرون عما هم عليه ، أو تنكسر شدة شكيمتهم ، ولعل بعض من يسمع ذلك منك ممن أنكروا صحة نبوتك أن يعترف بصحتها ، فيؤمن بك بأن يكون قد ثبت عنده ما يوافق ما تضمنه المثلون من غير مخالفة له أصلاً ، فيستحضر أنك لم تسمع ذلك من أحد ، ولم تستفده من كتاب ، فلا طريق لعلمك به إلا من جهة الوحى ، وهو مدار النبوة .

(وفى ذلك من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه ، واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف على أوليائه وحزنهم ، وتشجيع النبى ﷺ وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ومكائدهم ما لا يخفى)^(١) .

وقال القاسمى : قوله : ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر ﴾ أى شق وثقل ﴿ عليكم مقامى ﴾ أى مكانى ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مدداً طويلاً ، ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو قيامى بالدعوة إلى الله ، من رؤيتكم ذلتى بقلّة الأموال والأعوان ، ومنع عزتكم بها عن الانقياد لى (وتذكيرى بآيات الله) أى بحججه وبراهينه أو تخويفى بعذابه ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أى اعتمدت فى دفع ما قصدتمون به ﴿ فاجمعوا أمركم ﴾ أى شأنكم فى إهلاكى ﴿ وشركاءكم ﴾ يعنى آلهتهم ، وهو تهكم بهم ، أو نظراءهم فى الشرك . والواو بمعنى مع ، أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف ، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بمحذوف ، أى ادعوا شركاءكم ؛ وذلك لأنّ (أجمع) يتعلق بالمعانى . يقال : أجمع الأمر : إذا نواه وعزم عليه ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ﴾ أى مستوراً - من غمه ، إذا ستره - بل مكشوفاً تجاهرونى به ﴿ ثم اقصوا إلىّ ﴾ أى أدوا إلىّ ذلك الأمر الذى تريدون بى ﴿ ولا تنظرون ﴾ أى ولا تمهلون^(٢) .

١ - تفسير روح المعاني ج ١١ ص ١٥٦ - ١٥٧

٢ - تفسير القاسمى ج ٩ ص ٣٣٨٠ - ٣٣٨١

إنَّ هذا التحدى الصريح المثير ، وهذا الإغراء بالنفس ، والتحريض بمثيرات القول من نوح (عليه السلام) للمكذّبين بالدعوة ، من أجل أن ينفذوا ما اعتمروا بشأنه ، وما دبروا له من كيد وإيذاء ، يدلّ هذا على أنه (عليه السلام) كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى ، كما يدلّ على أنه كان راسخ الإيمان بالله وحده ، واثقاً بنصره وتمكينه ، جازماً بأنه سبحانه لا يخلف الميعاد .

ثم بين (عليه السلام) لقومه أنَّ كل ما جاءهم به من الهدى ودين الحق ، وتبليغ رسالة الله إليهم ، وما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار ، ليس هو لطمع دنيوى أو لغرض خسيس . وإنما هو لإبتغاء وجه ربه الأعلى ، وطاعة لله سبحانه وتعالى ، وامثال لأوامره ، وتبليغ لما أنزل إليه من ربه .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ أَنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

والمعنى : فإن ظللتم على عنادكم وتمردكم ، وإعراضكم عني ، وابتعادكم عن تذكيري ونصيحتي ، فما كنت أسألكم في مقابلة عظمتكم أموالكم ، ولا طلبت منكم أجراً على هدايتكم . فلا باعث لكم على التولى والنفور . وما ثوابي على تبليغ رسالة ربي إلا على الله تعالى ، يثيبني به آمنتم أو توليتم . وأمرت بأن أكون من المؤمنين بالله وحده ، المنقادين لحكمه تعالى ، الذين يجعلون أعمالهم خالصة له عز وجل ، لا يأخذون عليها أجراً ، ولا يطمعون في غرض من أغراض الدنيا ، ولا يبتغون جاهاً ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

لقد لجّ القوم في عتوّ ونفور ، ولم تلب قلوب القاسية قلوبهم إلى ذكر الله وما نزل من الحق ، مع أنَّ نوحاً (عليه السلام) طال مكثه بين ظهرائهم ، وقد بذل غاية جهده في سبيل هدايتهم . وفي المقابل لقي منهم الإعراض والتكذيب والأذى والسخرية . وفي النهاية استخفّوه ، واتهموه بالجنون ، وانتهروه وزجره ، وتواعده بالرجم إن لم يكف عنهم . فيش إذ ذاك من صلاحهم وفلاحهم ، وأيس من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وأنهم من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ، ومخالفتهم نبيهم ، قد استحقوا الإهلاك . هناك توجه (عليه السلام) إلى الناصر المعين ، الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين ، يث شكواه ، ويدعوره ، طالباً منه النصر على الكافرين الظالمين ، الضالين المضلين . فلبى المولى عز وجل دعوته ، وأجاب طلبته ، إجابة كاملة وافية بلغ بها مراده .

قال تعالى : ﴿ وَنوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجِئْنَاهُ وَهَلْهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ . وَنصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ .

﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرني بما كذبون ﴾ .

﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ .

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ .

﴿ وكذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحتنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ .

﴿ قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالدي ولن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ .

قال أبو السعود : (قوله تعالى : (ونوحاً) أي اذكر نوحاً ، أي خبره ﴿ إذ نادى ﴾ أي دعا الله تعالى على قومه بالهلاك . ظرف للمضاف . أي اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ فاستجبنا له ﴾ أي دعاءه الذي من جعلته قوله : ﴿ أني مغلوب فانتصر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ أي نجينا نوحاً وأهله من الطوفان ، وقيل : من أذية قومه . وأصل الكرب : الغم الشديد . (ونصرناه) نصراً مستتبعا للانتقام والانتصار ؛ ولذلك قيل : ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وحمله على (فانتصر) يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام . فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر . وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ تعليل لما قبله ، وتهديد لما بعده من قوله تعالى : ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ فإن الإصرار على تكذيب الحق ، والانهماك في الشر والفساد ، مما يوجب الإهلاك قطعاً ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾ أي قال نوح (عليه السلام) داعياً ربه ، مستنصراً به على قومه ، لما طال أمره وأمرهم ، وتماذوا في غيهم : رب انصرني على قومي بسبب تكذيبهم إياي فيما بلغتهم من رسالتك ، ودعوتهم إليّ من توحيدك .

ولما يئس من إيمانهم قال : ﴿ رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني من معي من المؤمنين ﴾ .

قال أبو حيان : (نادى نوح ربه ، وهو أعلم بحال : ﴿ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ ﴾ فدعائى ليس لأجل أنهم آذونى ، ولكن لأجل دينك . (فافتح .) أى فاحكم ، ودعا لنفسه ولن آمن به بالنجاة . وفى ذلك إشعار بحلول العذاب بقومه ، أى ونجنى مما يحل بهم . وقيل : ونجنى من عملهم ؛ لأنه سبب العقوبة (١) .

وقد أجيبت دعوته من خير مجيب ، الله رب العالمين ، فأنجاه هو والذين آمنوا معه من الكرب العظيم ، ثم أغرق الباقين ؛ لعنهم ، وتكذيبهم ، وعدم استجابتهم لربه .

قال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية ، تائيساً للنبي ﷺ وتعزية له . (قبلهم) أى قبل قومك ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعنى نوحاً . الرغشرى : فإن قلت : ما معنى قوله : (فَكَذَّبُوا) بعد قوله : (كَذَبَتْ) ؟ قلت : معناه كَذَّبُوا ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ؛ أى كَذَّبُوهُ تَكْذِيباً عَلَى عَقْبِ تَكْذِيبِ ، كلما مضى منهم قرن مكذَّب تبعه قرن مكذَّب ، أو كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الرسل فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ، أى لما كانوا مكذِّبين بالرسل ، جاحدين للنبوة رأساً ، كَذَّبُوا نُوحاً ؛ لأنه من جملة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى هو مجنون ﴿ وَازْدَجَرَ ﴾ أى زَجَرَ عن دعوى النبوة بالسب والوعيد بالقتل . وقيل : إنما قال : ﴿ وَازْدَجَرَ ﴾ بلفظ ما لم يسم فاعله ؛ لأنه رأس آية . ﴿ فدعا ربه ﴾ أى دعا عليهم حينئذ نوح وقال : رَبِّ (أنى مغلوب) أى غلبونى بتمردهم (فانتصر) أى فانتصر لى . وقيل : إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه . ﴿ ففتحن أبواب السماء ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة ، وفتحن أبواب السماء ﴿ بماء منهم ﴾ أى كثير (٢) .

وقال الأستاذ سيد قطب : (فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذى انتهى إليه القوم فى زمانه . وأحياناً لا يصلح أى علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين ؛ لأن وجودهم يجمد الدعوة إلا الله نهائياً ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهى الحقيقة التى عبر عنها نوح ، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين ، إجهازاً كاملاً لا يبقى منهم دياراً - أى صاحب ديار - فقال : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يَضْلُوا عِبَادَكَ ﴾ . . . ولفظه (عبادك) توحى بأنهم المؤمنون . فهى تحيى فى السياق القرآنى فى مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله فى عافية !

١ - تفسير البحر المحيط ج ٧ ص ٣٢ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ج ١٧ ص ١٣١ .

(ثم إنهم يوجدون بيئة وجوًّا يولد فيها الكفار ، وتوحى بالكفر من الناشئة الصغار ، بما يطبعهم به الوسط الذى ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور ، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التى صنعوها . وهى الحقيقة التى أشار إليها قول النبى الكريم نوح عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ . . فهم يطلقون فى جو الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليد ، ينشأ معها المواليد فجاراً كفاراً ، كما قال نوح .

(من أجل هذا دعا نوح - عليه السلام - دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ، وجرف العواثر التى لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير)^(١) .

استجاب الله دعوته ، وأوحى إليه أنه لن يؤمن أحد من قومك بعد اليوم سوى من آمن برسالتك ، فلا يهمنك أمرهم ، ولا تحزن عما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب واستهزاء وتحذ وإيذاء ومعاداة وإعراض . . . إلى غير ذلك من الأساليب الدنيئة التى جُبِلَ عليها المكذبون بالدعوة . فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، وانتهى الأمر فيهم ، وتقرر مصيرهم إلى الغرق والنار . ثم أمره تعالى أن يصنع سفينة لنجاة المؤمنين ، ونهاه أن يدعو للكفر بالهداية أو النجاة - بعد أن أصروا على الكفر والفسوق والعصيان - فقد انتهى القضاء وامتنع الدعاء .

قال تعالى : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ .

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ .

﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتية عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبى فى الذين ظلموا إنهم

مغرقون .. فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴿

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (قال الله تعالى : (فكذبوه) أى تمادوا على تكذيبه ومخالفته ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، كما نصّ عليه في موضع آخر : ﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ أى السفينة كما قال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ . وقوله : ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ كما قال : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ وقوله : ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ أى عن الحق ، لا يبصرونه ولا يتدبرون له . فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كقوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (١) وهذه سنة الله في عبادته في الدنيا والآخرة : أن العقابة فيها للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين (٢) .

لقد كذب نوحاً قومه ، وأصروا على تكذيبه مع طول مدة إقامته بين أظهرهم ، ولم يؤمن معه منهم إلا قليل ، وخالف جمهورهم أمر ربهم ، ولجأوا في طغيانهم يعمهون . فأنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه في الفلك ، وأغرق المكذبين وأهلكهم ؛ لكونهم عمى القلوب ، لا تنجع فيهم الموعظة ، ولا ينفع معهم الإنذار ، ولا يفيدهم التذكير .

قال تعالى : ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾

قال الشوكاني : (قوله : ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك ﴾ أى استمروا على تكذيبه ، وأصروا على ذلك ، وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن . والمراد بمن معه : من قد أجابه وصار على دينه . والخلائف : جمع خليفة ، والمعنى : أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للمهلكين بالغرق ، ويخلفونهم فيها ﴾ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴿ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به ، أغرقهم الله بالطوفان ﴾ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴿ فيه تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد للمشركين . وتهويل عليهم ﴾ (٣)

١ - من سورة غافر : آية رقم ٥١ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٣ - فتح القدير ج ٢ ص ٤٦٣ .

لقد أغرق الله تعالى الذين كذبوا نوحاً (عليه السلام) وأهلكهم ، وكان هذا منتهى أمرهم ؛ لأنهم استعجلوا نعمة الله بهم وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح بالهلاك والدمار . فهناك أوحى الله تعالى إليه . وآيسه من إيمانهم ، وأنه كالمحال الذى لا تعلق به للتوقع ، وسوف لا يتجاوز الإيمان العدد الذى آمن برسالته فعلاً . فقد انتهى الإنذار ، وحان وقت هلاك الكفار ؛ وذلك لأنه اجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ، وعماهم عن الهدى وسبيل الرشاد ، مع دعوة نبيهم عليهم ؛ وبذلك كانوا أهلاً لملاقاة هذا المصير .

قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسير هذه الآية الكريمة : (أوحى الله تعالى إلى نوح ما يأسره من إيمان أحد من قومه بعد الآن ، غير من قد آمن من قبل منهم ، فهم ثابتون على إيمانهم ، دائمون عليه ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ أى فلا يشتد عليك البؤس والحزن واحتمال المكار بعد اليوم بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من تكذيبهم وعنادهم وإيذائهم لك ولن آمن معك ؛ إذ كنت تُعرض له وتُستهدف لسهامه رجاء فى إيمانهم واهتدائهم . فأرح نفسك بعد الآن من جدالهم وسماع أقوالهم ، ومن إعراضهم ، واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام منهم)^(١) .

ثم إن الله تعالى لما أخبره أنهم لا يؤمنون البتة ، وأنه سبحانه معذبهم ومهلكهم ، عرفه وجه إهلاكهم ، وألهمه الأمر الذى يكون به نجاته ونجاة من آمن معه ، فقال :

﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .

قال الزمخشري : (قوله تعالى : (بأعيننا) فى موضع الحال ، بمعنى : اصنع السفينة محفوظاً ، وحقيقته ملتبساً بأعيننا ، كأن من الله معه أعياناً تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب ، وألاً يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه ، (ووحينا) وإنا نوحى إليك ولنهلك كيف تصنع . عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجؤ الطائر . ﴿ ولا تخاطبني فى الذين ظلموا ﴾ ولا تدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿ إنهم مغرقون ﴾ إنهم محكوم عليهم بالإغراق ، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء ، وحق القلم ، فلا سبيل إلى كفه ، كقوله : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾^(٢) .^(٣)

١ - تفسير المنار ج ١٢ ص ٧٣ .

٢ - من سورة هود : آية رقم ٧٦ .

٣ - الكشف ج ٢ ص ٢٦٨ .

هنالك طفق نوح (عليه السلام) يصنع الفلك كما أمره الله تعالى بإصلاحه وإعداده .
وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجداهم .

قال تعالى : ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

قال أبو السعود : (وقوله تعالى : ﴿ ويصنع الفلك ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة ، وقيل تقديره : وأخذ يصنع الفلك ، أو أقبل يصنعها ، فاقصر على يصنع . وأياً ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالاً من ضميره ، أعنى قوله تعالى : ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ استهزؤا به لعمله السفينة ؛ إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ، ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها ، فتعجبوا من ذلك وسخروا منه ، وإما لأنه كان يصنعها في برية بهاء في أبعد موضع من الماء ، وفي وقت عزته عزة شديدة ، وكانوا يتضاحكون ويقولون : يا نوح ، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً . وقيل : لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق ، فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عيناً ولا أثراً ، عدّوه من باب المحال ، ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك ، فعلوا ما فعلوا . ومدار الجميع إنكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة ، مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التي لا تكاد تطاق ، واستجهاله عليه السلام في ذلك ﴾ قال إن تسخروا منا ﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴾ فإننا نسخر منكم ﴾ أى نستجهلكم فيما أنتم عليه .

(إن سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ، ولم يكن يجيهم في كل مرة ، وإلا لقليل : ويقول : إن تسخروا منا . إلخ . بل إنما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية ، كما يؤذن به الاستئناف ، فكأن سائلاً سأله فقال : فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ ؟ فقيل : قال : إن تسخروا منا . . . أى إن تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لأسباب الخلاص من العذاب إلى الجهل ، وتسخروا منا لأجله ، فإننا ننسبكم إليه فيما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة ، ومن الاستمرار على الكفر والمعاصي والتعرض لأسباب حلول سخط الله تعالى التي من جملتها استجهالكم إيانا وسخريتكم منا .

(والتشبيه في قوله تعالى : ﴿ كما تسخرون ﴾ إما في مجرد التحقق والوقوع ، أو في التجدد والتكرر حسياً صدر عن ملأ غيب ملأ ، لا في الكيفيات والأحوال التي لا تليق بشأن النبي عليه الصلاة والسلام . فكلما الأمرين واقع في الحال . وقيل : نسخر منكم في المستقبل

سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ، ولعل مراده :
نعاملكم معاملة من يفعل ذلك ، لأنَّ نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ، ومع
ذلك لا سداد له ؛ لأنَّ حالهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية ، أو ما يجري مجراها ^(١) .

هكذا أجابهم نوح (عليه السلام) حين سدر المتكبرون المارون به في سخريتهم . أجابهم
في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء . فهو واثق عارف ما وراء عمله من وحى وأمر ، وعارف ما
وراءه من تدبير الله تعالى ، وما ينتظرهم من سوء المصير . ومن ثم هددهم بقوله : فسوف
تعلمون من هو الذي يأتيه عذاب الغرق ، يهينه ويهلكه في الدنيا ، ويحل عليه عذاب النار
الدائم المستمر أبداً في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

وظل المكذَّبون بالدعوة في موقفهم إلى أن حُلَّت اللحظة المرتقبة لهلاكهم ، وجاء عذاب
الدنيا بإغراقهم . وكانت أمانة وقوع العذاب أن فار التنور ، وسحَّ الوابل من السماء ، وأمر
الله تعالى الأرض أن تتفجَّر عيوناً . فاجتمع ماء السماء وماء الأرض ، وارتفع الماء في طوفان
عارم فوق رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حياً سوى
أصحاب السفينة .

قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك
إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها
ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في
معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال ساوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا
عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض
ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم
الظالمين) .

قال الحافظ ابن كثير : (قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ الآية ، هذه
موعدة من الله تعالى لنوح (عليه السلام) إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة ، والهتان الذي
لا يقلع ولا يفتّر ، بل هو كما قال تعالى ﴿ ففتحن أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض
عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن
كان كفر ﴾ . وأما قوله : ﴿ وفار التنور ﴾ فعن ابن عباس : (التنور) وجه الأرض ، أى
صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء ،

وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف . وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه : (التنور)
فلق الصبح وتنوير الفجر ، وهو ضياؤه وإشراقه ، والأول أظهر^(١) .

وقال في البداية والنهاية : (فتقدم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء أمره ، وحل بهم
بأسه ، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من
المأكولات وغيرها ؛ لبقاء نسلها . وأن يحمل معه أهله ، أى أهل بيته ، إلا من سبق عليه
القول منهم ، أى إلا من كان كافراً ، فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ، ووجب عليه
حاول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، وأمره ألا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعاينه
من العذاب العظيم ، الذى قد حتمه عليهم الفعل لما يريد . فإنه لعله قد تدركه رقة عليهم
عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة ؛ ولهذا قال : ﴿ ولا تخاطبني في
الذين ظلموا منكم مغرّقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن آمن ﴾ أى واحمل فيها من آمن بك من
أمتك من غير أهلِكَ . ثم قال تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ هذا مع طول المدة والمقام
بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً ، بضروب المقال ، وفنون التلطفات ، والتهديد
والوعيد تارة ، والترغيب والوعيد تارة أخرى^(٢) .

تلك هى جهود ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولم تثمر غير هذا العدد القليل الذين آمنوا
برسالته (عليه السلام) . وقد جرف الطوفان الكثرة العظمى ، وهم ظالمون بكفرهم
وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة . ونجا العدد القليل مع نوح من عذاب الغرق ، ومن
القوم الظالمين الذين لم تبق منهم عين تطرف .

وفي هذا الحادث الكوني العظيم لعبراً لمن يعتبر من المشركين على مدار التاريخ ، وعظات
وحججاً يستدلون بها على سنة الله تعالى فى المكذّبين الضالّين العاصين الطاغين ، فينجزوا عن
كفرهم ، ويرتدعوا عن تكذيب الرسل ؛ حذراً أن يصيبهم مثل الذى أصاب قوم نوح من
العذاب المهين .

وقد عبّ الله تعالى على قصة نوح كلها وما تضمّنته خطواتها ، من دلائل القدرة
والحكمة ، فقال :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

١ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ٤١ - ٤٢ بتصرف .

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٤٥ .

٢ - قصص الأنبياء ج ١ ص ٩٧ إلى ص ١٠٠ بتصرف .

قال الأستاذ سيد قطب : (والابتلاء ألوان : ابتلاء للصبر . وابتلاء للشكر . وابتلاء للأجر . وابتلاء للتوجيه . وابتلاء للتأديب . وابتلاء للتمحيص . وابتلاء للتقويم . . وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين)^(١) .

ومما سبق ذكره ندرك كيف كان الابتلاء وأثره في حياته (عليه السلام) . لقد كان جهاده لإقرار حقيقة التوحيد في الأرض جهاداً عظيماً ، وصبره على إيذاء قومه صبراً جميلاً . أودى في الله ، وأعرض عنه المكذّبون بالدعوة ، وهو لم يكف عن تبليغ رسالته لمدة تقارب ألف عام ، ولم يضعف أمام هذا الابتلاء عن إبداء النصيح والتذكير وإنذار القوم ؛ ابتغاء مرضاة الله . وقد استعمل معه الملأ الذين استكبروا من قومه صنوف الاستهزاء والاستخفاف والسخرية ؛ ليفلوا من عزمه ، فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات . لقد اتهموه بأنواع الاتهامات : كالفقه والضلال والجنون وكثرة الجدل والافتراء على الله . وقابلوه بالسخرية والتهكم ، وهددوه بالرجم ، وتفتنوا في إيذائه واتهامه . وفي النهاية نهروه وزجروه . فما زاده ذلك إلا إيماناً وصبراً ، وجهاداً . فكان من رسل الله المقربين ، ومن أولى العزم الصابرين .

المبحث الثاني

ابتلاء إبراهيم عليه السلام

نشأ إبراهيم (عليه السلام) وسط بيئة فاسدة سيطر عليها تعدد الآلهة ، ونصبت فيها التماثيل عبادتها من دون الله تعالى . وفي هذا المحيط آتاه الله الرشد ، وهداه إلى الصراط المستقيم . فعرف بصائب رأيه ووحى ربه أن الله واحد لا شريك له ، وأنه المهيمن على هذا الكون والمسيطر عليه . ومن ثم عزم (عليه السلام) على هداية قومه وتخليصهم من الشرك والوثنية . فتوجه إليهم بالنصح ، ونهاهم عما هم فيه من الكفر والشرك والضلال ، واستنكر عليهم عبادة الأصنام ، واستبشع عكوفهم عليها .

وكان (عليه السلام) دائماً في الدعوة إلى التوحيد ، لا يفتأ يذكر قومه وعشيرته الأقربين بالتوبة إلى الله ، وترك عبادة الأصنام . واجه أباه بالدعوة إلى الإيمان ، وترك عبادة الأوثان ، فأبى عليه ، وهدده بالرجم والهجران . ثم وقف وجهاً لوجه أمام قومه يسفّه معتقداتهم ، ويدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحاول إقناعهم بالحجة والبرهان . فلم يجد منهم قلباً تخشع لذكر الله ، ولا آذاناً صاغية لدعوته . بل وجد إعراضاً وعداوة وهجراناً واستكباراً وتكديباً وسخرية . فلم يثنه ذلك عن تبليغ رسالته ، ولم يترعزع ، ولم يضطرب ، ولم يدخل إليه وهن أو ضعف . بل عزم عزمًا أكيداً ألا يتركهم في ضلالهم يعمهون . فاستمر في دعوته محاولاً محو تلك العقائد الفاسدة ، وردّ القوم إلى رشدهم . فعمد إلى أسلوب تكسير الأصنام ، ليظهر لهم أن أوثانهم لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، فكيف يعتقدون أنها تسوق إليهم الخير ، وتدفع عنهم الشر ؟ !

ولكن هذا العمل لم يجِد معهم نفعا ، بل أثار غضب القوم عليه ، وفجر نقيمتهم . فاجتمعت كلمتهم على أن يتنقموا منه لأصنامهم الكسيرة ، وأن يحرقوه بالنار تقرباً للأوثان المحطمة . فما جزع ، ولا اضطرب ، ولا التجأ إلى غير الله ، بل وقف أمام الجمع الهادر من قومه صابراً ، مطمئناً إلى مصيره ، تغمره الثقة بالله تعالى . فتولى سبحانه الدفاع عنه بنفسه ، وسلب النار طبيعة الإحراق . وهكذا أراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ، ونجّاه من كيدهم أجمعين .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ (١) .

(وحاجه قومه قال أتباحون في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء رب

وسع ربى كل شيء علياً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأتى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴿١﴾ .

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيظاً . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيماً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاينين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنئت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقيوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آبائنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وأباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ ﴿٥﴾ .

١ - من سورة الأنعام الآيات ٨٠ - ٨٣ .

٢ - من سورة مريم : الآيات من رقم ٤١ إلى رقم ٤٩ . ٣ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٥١ إلى رقم ٧١ .

٤ - من سورة الشعراء : آية رقم ٦٩ إلى رقم ٧٧ . ٥ - من سورة العنكبوت : آية رقم ١٦ - ١٧ .

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ (١) .

﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال إلا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعيذون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين . وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ (٢) .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (٣) .

لعل هذه الآيات الكريمة هي التي تضمنت ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بالإعراض والأذى من المكذبين بالدعوة . وهو ما ستناوله بالتفصيل في هذا البحث . وسوف نسلك مسلكين في ذلك :
نتكلم أولاً : عن دعوة إبراهيم لأبيه ، وثانياً ، عن دعوته لقومه ، وما لقيه منهم من الأذى في طريق الدعوة إلى الله .

إبراهيم يدعو أباه إلى الإيمان :

كان آزر مشركاً ، ممن يعبد الأصنام ، ولعله كان ممن ينحتها ويبيعها . وهو أقرب الناس إلى إبراهيم (عليه السلام) وأصدقهم به ، وأولاهم بالهداية ، وأجدرهم بإخلاص النصيحة . فمن البر أن يهديه سواء السبيل . ولهذا لم يأل الخليل جهداً في تذكير أبيه ونصحه وتحذيره من عذاب الله .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ .

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ .

قال أبو حيان : (لما ذكر قوله تعالى : ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ (٤) الآية ، ناسب ذكر هذه الآية : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ وكان التذكار بقصة إبراهيم (عليه السلام) مع أبيه وقومه أنسب ؛ لرجوع العرب

١ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٢٤ - ٢٥ .

٢ - من سورة الزخرف : آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

٣ - من سورة الصافات : الآيات ٨٥ - ٩٩ .

٤ - من سورة الأنعام : آية رقم ٧١ .

إليه ، إذ هو جدّهم الأعلى . فذكروا بأنّ إنكار هذا النبي محمد ﷺ عليكم عبادة الأصنام ، هو مثل إنكار جدكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها ، وفي ذلك التنبيه على اقتفاء من سلف من صالحى الآباء والأجداد ، وهم وسائر الطوائف معظّمون لإبراهيم (عليه السلام) . والظاهر أنّ آزر اسم أبيه ، قاله ابن عباس والحسن والسدى وابن إسحق وغيرهم ، وفي كتب التواريخ أنّ اسمه بالسريانية (تارخ) والأقرب أنّ وزنه فاعل ، مثل تارخ وعابر ولازب وشالح وفالغ ، وعلى هذا يكون له اسمان كيعقوب وإسرائيل ، وهو عطف بيان أو بدل (١) .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ قال : (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قتره وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب ، إنك وعدتني ألاّ تخزني يوم يبعثون ، فأنى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرّمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ، ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار) (٢) . فهذا الحديث نصّ على أنّ أباه إبراهيم هو (آزر) .

قال الحافظ ابن كثير : (والمقصود أنّ إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام ، وزجره عنها ، ونهاه فلم ينته ، كما قال : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ أى أتتأله لصنم تعبده من دون الله ؟ ﴿ إني أراك وقومك ﴾ أى السالكين مسلكك ﴿ في ضلال مبين ﴾ أى تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل ، وأمرهم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذى عقل سليم) (٣) .

وفي موضع آخر نجده (عليه السلام) يدعو أباه إلى الحق بالطف عبارة وأحسن إشارة ، وهو يحاول أن يهديه إلى سبيل الرشاد الذى هداه الله إليه ، وإلى الخير الذى علّمه الله إياه ، مبيّناً من خلال ذلك لأبيه ما في عبادة الأوثان من نكارة وكذب وضلال .

قال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ .

لقد نبأ الله تعالى إبراهيم وأوحى إليه . فكان (عليه السلام) بالغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه ، كما كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده . وكان متلفظاً في دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن عبادة الأصنام .

قال الزمخشري : (كان إبراهيم جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات . انظر حين أراد أن ينصحه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم ، والارتكاب

١ - تفسير البحر المحيط ج٤ ص ١٦٣ .

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٦ ص ٣٨٧ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ١٥٠ .

الشنيع الذى عصى فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز ، ومن الغباوة التى ليس بعدها غباوة ، كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين ، والأدب الجميل ، والخلق الحسن ، منتصباً فى ذلك بنصيحة ربه عز وعلا^(١) .

لقد استهل إبراهيم (عليه السلام) كلامه عند كل نصيحة بقوله : ﴿ يا أبت ﴾ تحبباً إلى أبيه ، واستعطافاً لقلبه مع استعمال الأدب الجم اللائق بمقام الأبوة . وبدأ بتقديم البرهان العقلى لأبيه بقوله : يا أبت ، لم تتوجه بعبادتك إلى جاد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟ جاد لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لك ضرراً ولا نفعاً ؟ يا أبت ، الصراط المستقيم هو أن يتوجه الإنسان بعبادته إلى الخالق الرازق ، المحيى الميت ، المثيب المعاقب ، السميع البصير ، القاهر فوق عباده ، اللطيف الخبير .

قال أبو السعود : (ثم دعاه إلى أن يتبعه ؛ ليهديه إلى الحق المبين ، لما أنه لم يكن محظوظاً من العلم الإلهى ، مستقلاً بالنظر السوى ، مصدراً لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال : ﴿ يا أبت إني قد جاعن من العلم ما لم يأتك ﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط ، وإن كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، وإن كان كذلك ، بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق . فاستماله برفق حيث قال : ﴿ فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ﴾ أى مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب ، منجياً عن الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب .

(ثم ثبطه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرء ، مستجلب لضررٍ عظيم ، فإنه فى الحقيقة عبادة الشيطان ، لما أنه الأمر به ، فقال : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ فإن عبادتك للأصنام عبادة له ، إذ هو الذى يسوئها لك ، ويغريك عليها . وقوله : ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ تعليل لموجب النهى وتأكيد له ، ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم . والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جنائياته ؛ لأنه ملاكها ، أو لأنه نتيجة معاداته لأدم (عليه السلام) وذريته ، فتذكيره داع لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته . والتعرض لعنوان الرحمانية ؛ لإظهار كمال شناعة عصيانه^(٢) .

وهكذا مضى إبراهيم (عليه السلام) فى دعوته لأبيه بالحكمة والموعظة الحسنة فى أدب ووقار . فكشف له عما فى عبادة الأصنام من شركٍ ونكارة وكفر وضلال . وبين له المصدر الذى يستمد منه ويعتمد عليه فى دعوته إلى الإيمان . ثم بين له أن الشيطان هو الداعى إلى عبادة الأصنام والمزئزئ لها ، وهو يعكوفه عليها والانقياد لها إنما يعبد الشيطان ، ويلتجئ إلى ساحته . وهو الذى خالف أمر الرحمن واستكبر عن طاعته ، وتوعد الناس بالإغواء ؛ ومن أجل ذلك طرده الله تعالى من رحمته وأبعده من الجنة ، ووعدته بالعذاب المهيّن . فبهذا القول السديد والمنطق السليم كان إبراهيم (عليه السلام) يريد أن يهذى أباه إلى الطريق المستقيم ، وهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضى عليه بأن يكون من أتباع الشيطان وقرنائه فى اللعن المخلد ، وسوء العاقبة ، وشر المصير .

١ - الكشف ج ٢ ص ٥١٠ .

٢ - تفسير أبى السعود ج ٣ ص ٥٨٥ - ٥٨٦ بتصرف .

قال تعالى : ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (والشيطان هو الذى يغرى بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذى يعبدوها كأنما يتعبد الشيطان ، والشيطان عاص للرحمن . وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً . فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة . . نقمة تقوده إلى عذاب أشد ، وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب)^(١) .

ولكن هذه الدعوة إلى الهدى والتوحيد ، وهذه النصائح النافعة ، والمواظب البليغة الواجبة القبول : المقرونة باللطف والرفق : ما إن مرت بسمع آزر حتى رفضها وأعرض عنها ، وقابلها بالجهالة والاستنكار والقسوة والغلظة والفظاظة والتهديد والوعيد . وأصر على كفره وعناده ؛ لفرط غلوّه فى الضلال . وأقبل على إبراهيم ، محترقاً لشأنه ، متعجباً من جرأته ، قائلاً له :

﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرن ملياً ﴾ .

قال الزمخشري : (لما أطلعه على سماجة صورة أمره وهدم مذهبه بالحجج القاطعة ، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاحظات ، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر ، وغلظة العناد ، فناده باسمه ، ولم يقابل (يا أبت) بيا بنى ، وقدم الخبر على المبتدأ فى قوله : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ﴾ لأنه كان أهم عنده ، وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغى أن يرغب عنها أحد . وفى هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله ﷺ عما كان يلقي من مثل ذلك من كفار قومه . (لأرجنك) لأرمينك بلسانى ، يريد الشتم والذم ، ومنه الرجيم : المرمى باللعن ، أو لأقتلنك ، من رجم الزانى ، أو لأطردنك رمياً بالحجارة ، وأصل الرجم : الرمى بالرجام . (ملياً) زمناً طويلاً ، من الملاوة ، أو ملياً بالذهاب عني واهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح)^(٢) .

ثم إن إبراهيم الحليم لما سمع من أبيه ذلك ، وتأكد من إصراره على الكفر والعناد ، لم يغضب . بل قابل تهديد آزر له ، وقسوته عليه ، بصدر رجب ، وتلقى وعيده بنفس مطمئنة فحيّاه تحية توديع ومفاصلة ومتاركة ، ووعدّه بأن يطلب له المغفرة من الله تعالى ، وأن يوفقه للتوبة ، ويهديه إلى الإيمان . ولعل ذلك مما يدل على برّه وعطفه وأدبه المطرد مع أبيه ، وإخلاصه النصيح له .

قال تعالى : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيماً . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيماً ﴾ .

قال الشيخ إسماعيل حقى البرسوى : (قال إبراهيم لأزر : (سلام عليك) فهو سلام مفارقة ، لا سلام لطف وإحسان ؛ لأنه ليس بدعاء له ، كقوله تعالى : ﴿ سلام عليكم لا نبغى الجاهلين ﴾ ^(١) الآية ؛ على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة . ودل على جواز متاركة المنصوح إذا أظهر اللجاج . والمعنى : سلمت منى ، لا أصيبك بمكروه بعد ، ولا أشافهك بما يؤذيكم ، ولكن ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ السين للاستقبال أو لمجرد التأكيد ، أى استدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ، ويهديك إلى الإيمان ، كما يلوح به تعليل قوله : ﴿ واغفر لأبى ﴾ بقوله ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ ^(٢) والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه ، وإنما المحذور استدعاؤه له مع بقاءه على الكفر ، فإنه مما لا مساغ له عقلاً ولا نقلاً ، وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر ، فلا تأباه قضية العقل ، وإنما الذى يمنعه السمع . ألا يرى إلى أنه ﷺ قال لعنه أبى طالب : (أما والله لأستغفرن لك ما لم أأعنيك) الحديث ^(٣) فنزل قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ ^(٤) الآية . ولا اشتباه فى أن هذا الوعد من إبراهيم ، وكذا قوله : ﴿ لأستغفرن لك ﴾ ^(٥) الآية ، وما ترتب عليهما من قوله : ﴿ واغفر لأبى ﴾ إنما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبين أمره : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ ^(٦) الآية . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان بى حفيماً ﴾ أى بليغاً فى البرِّ والألطف ^(٧) .

وقال الأستاذ صديق حسن خان : (ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة ، فقال : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أى أهاجر بدينى عنكم وعن ما تعبدون من الأصنام ، حيث لم تقبلوا نصحتى ، ولا نجعت فيكم دعوى . وهذا فى مقابلة قوله : ﴿ واهجرنى ملياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأدعوا ربى ﴾ أى أعبدته وحده ﴿ عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيماً ﴾ أى خائباً ، كما شقيتم بعبادة الأوثان . وقيل : عاصياً . وقيل : أراد بهذا الدعاء هو أن يهب الله له ولداً ، وأهلاً يستأنس بهم فى اعتزاله ، ويطمئن إليهم عند وحشته . وفى تصدير الكلام (بعسى) التواضع ، وهضم النفس ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل منه . تعالى غير واجبين ، وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيب ^(٨) .

٢ - من سورة الشعراء آية رقم ٨٦ .

٤ - من سورة التوبة : آية رقم ١١٣ .

٦ - من سورة الممتحنة : آية رقم ٤ .

٨ - تفسير روح البيان ج ٥ ص ٣٣٧ بتصرف .

١ - من سورة القصص : آية رقم ٥٥ .

٣ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٢٢ .

٥ - من سورة التوبة : آية رقم ١١٤ .

٧ - فتح البيان ج ٦ ص ٣٠ - ٣١ .

وقد حقق الخليل ما عزم عليه ، فاعتزل أباه ، وترك الكفار الفسقة من قومه وتباعد عنهم معتزلاً لعبادتهم وأوثانهم ، وهجر أهله ودياره ، وهاجر في سبيل الله . فوجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ووهب الله له ذرية طيبة ، وعوّضه خيراً :

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ .

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره : فلما اعتزل إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان ، آنسنا وحشته من فراقهم ، وأبدلناه منهم بمن هو خير منهم ، وأكرم على الله منهم ، فوهبنا له ابنه إسحق ، وابن ابنه يعقوب بن إسحق ﴾ وكلاً جعلنا نبياً ﴿ فوحد ، ولم يقل : أنبياء ، لتوحيد لفظ (كل) ﴾ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴿ يقول جل ثناؤه : ورزقنا جميعهم ، يعنى : إبراهيم وإسحق ويعقوب من رحمتنا ، وكان الذى وهب لهم من رحمة ، ما بسط لهم في عاجل الدنيا من سعة رزقه ، وأغناهم بفضله . وقوله : ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ يقول تعالى ذكره : ورزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل من الناس ﴾^(١) .

تلك هى قصة إبراهيم الخليل مع أبيه آزر ، تتجلى فيها صور الشجاعة والحلم والأناة والصبر . فهو (عليه السلام) لم يطق رؤية والده يتيه في الضلال وينغمس في عبادة الأصنام . فسعى إلى هدايته إلى الصراط السوى بالعقل والمنطق والحجة والبرهان ، وصبر على دعوة أبيه إلى التوحيد ، وتلطف في دعوته غاية التلطف . وهكذا حاول هدايته ليصل به إلى الحق بكل الطرق السديدة . فكانت إجابة الكافر المشرك القاسى القلب ، الجاف الطبع ، على صورة بشعة . لقد ظل في طغيانه يعمه ، ولجّ في عتوّ ونفور ، وأقبل على إبراهيم بخشونة وقسوة ، يهدّده بالرجم ، وينذره بالعذاب المهين ، إن لم يكف عن التعرّض لذكر الأصنام بالسوء . فتحمل الخليل كل ذلك ، وصبر صبراً جميلاً .

هذا هو شأن الإيمان مع الكفر وشأن الفطرة السليمة مع الحق والباطل . إنها قصة العقيدة الإسلامية يصدع بها إبراهيم الخليل المؤمن ، ولا يخشى فيها لومة لائم ، ولا يجامل على حسابها آزر أقرب الأقربين إليه . لقد واجه (عليه السلام) بفطرته السليمة الضلال البين : فأنكره واستنكره ، وجهر بكلمة الحق وصدع بها ، وبين للناس ما في عقيدة الشرك من نكارة وكذب وضلال . وفي سبيل ذلك تلقى نقمة قومه التى كانت أول بوادرها من أبيه آزر .

وهكذا ابتلى الخليل (عليه السلام) وامتنح ، فصبر على إعراض أبيه عن دعوته ، كما صبر على خشونته وقسوته وتهديده ووعيده وأذاه بالمقال والفعال . ثم رحل وترك الديار والأهل

وهاجر إلى ربه . فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وعوّضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة ، تنسل أمة كبيرة ، فيها الأنبياء والصالحون .

إبراهيم يدعو قومه إلى التوحيد فيؤذونه :

وكما دعا إبراهيم (عليه السلام) أباه للتوحيد ، كذلك نادى قومه للإيمان ، أن آمنوا بربكم ، وأخلصوا له العبادة ، واخشوه واتقوه ؛ لعلكم تفلحون . وتركوا عبادة التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، فهي لا تقدّم لكم نفعاً ، ولا ترزقكم شيئاً . إنها حجارة جامدة لا تبصركم أبداً ، ولا تسمع نداءكم ، ولا تحيب دعاءكم ، ولا تغني عنكم من الله شيئاً . يا قوم ، انفضوا عنكم هذه الخرافة والعقيدة الفاسدة واتبعوني أهدكم سبيل الرشاد^(١) .

وهكذا تابع الخليل دعوته إلى الحق ، واستنكر على قومه ما هم عليه من الشرك والوثنية واتخاذ الأنداد من دون الله تعالى . ودعاهم بالحجة والبرهان إلى ترك عبادة الأصنام ، وبين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة . ولكن القوم تنكروا لدعوته ، وسخروا من رسالته ، وبدت منهم العداوة والبغضاء ، وأعرضوا عنه ، وصدوا عن سبيل الله . فلم يثنه ذلك عن قصده ، ولم يقعه عن تبليغ رسالته . بل عزم على تخليص قومه من ذلك الشرك ، وإنقاذهم من تلك الجاهلية العمياء . ثم أزمع أن يحو منهم تلك العقائد الفاسدة ، ويردهم إلى الصراط المستقيم ، ولوناله في ذلك منهم أذى كثير ، أو لحقه شر مستطير ، أو تعرّضت حياته للخطر .

ولمّا رأى (عليه السلام) أن القوم لا يستجيبون لدعوته بالحجة القولية ، والبرهان اللفظي ، عمد إلى أصنامهم وحطّمها ؛ ليشرك أبصارهم مع بصائرهم ، ويقرن حواسهم مع قلوبهم ، في تفهّم عقيدته ، والوقوف على حقيقة دعوته . وليتفكروا في هذا الدليل الحسي الذي يدل على أن الأصنام لا تدافع عن نفسها ، ولا تصيب بالضرر من أرادها بسوء ؛ ولعلهم بذلك يرجعون عن ضلالهم ، ويدركون بأنفسهم فساد ما هم عليه من العقيدة .

ولمّا شاع أن الأصنام قد حطّمت ، عرف القوم أن إبراهيم (عليه السلام) هو الذي كان يذكرها بسوء ؛ فسألوه عن من فعل ذلك بأوثانهم ، وعن السبب الذي حمله على تحطيمها . فأجابهم (عليه السلام) بأن كبير الأصنام غضب من عبادتهم للأصنام الصغيرة فكسرها . وبهذه الإجابة استطاع (عليه السلام) أن يلزمهم الحجة ، ويحملهم على التفكير فيما يعبدون من دون الله ، فرجعوا إلى أنفسهم وأدركوا فساد ما هم عليه عاكفون . ثم نكسوا على

١ - قال الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء ص ٧٩ : (كان إبراهيم (عليه السلام) فتى من أهل (فدان آرام) بالعراق (كما في التوراة) وكان قومه أهل أوثان . وكان أبوه نجاراً ينجح الأصنام ويبيعها لمن يعبدوها - كما نصّ على ذلك في إنجيل برنابا .

رعوسهم ، وجعلوا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، وهموا به (عليه السلام) ليقتلوه حرقاً بالنار ؛ دفاعاً عن الأوثان المحطمة . فحماه الله تعالى ، وخذل شائتيه .

هذا هو تلخيص مختصر لقصة إبراهيم الخليل مع قومه . وبداية هذه القصة ، كما جاءت في سياق الآيات الكريمة من سورة الأنبياء تتضمن الإشارة إلى سبق هدايته (عليه السلام) إلى التوحيد . وكان الله سبحانه وتعالى يحيط علماً بإيمانه وصبره في سبيل الدعوة . ومن ثم أوحى إليه ، وأمره بتبليغ الرسالة . فواجه (عليه السلام) أباه وقومه بإنكاره لعبادتهم ، وسخر من اعتقادهم الفاسد . ودعاهم للإيمان بالله وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ .

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ .

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرنى فانه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ .

أمّا عن قوله تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ فقد قال الأستاذ سيد قطب : (فكانت قولته هذه دليل رشده . . سمى تلك الأحجار والخشب باسمها : (هذه التماثيل) ولم يقل : إنها آلهة ، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة . وكلمة (عاكفون) تفيد الأنكباب الدائم المستمر . وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها . ولكنهم يتعلّقون بها . فهو عكوف معنوي لا زمني . وهو يسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبداً على هذه التماثيل !

(فكان جوابهم وحجتهم أن : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ ! وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمتها الحقيقية لا التقليدية . فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل (١) .

(وقد أجابهم إبراهيم ببيان قبح ما يصنعون ، وبكثهم على سوء ما يفعلون : ﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أى قال لهم : لقد كنتم أيها القوم ، أنتم وآباؤكم بعبادتكم الأصنام في ضلال بين ، وجور واضح عن سبيل الحق لمن تأمله بلبه ، وفكر فيه بعقله (٢) .

وبهذا أراد إبراهيم (عليه السلام) أن يفند زائف آرائهم ، ويبين لهم ما هم عليه من الاعتقاد الفاسد ، والتقليد الأعمى للأباء والأجداد ، ويوضح فساد العرف السائد في أوساطهم من مجاملة بعضهم بعضاً على عبادة الأوثان ؛ استبقاء وتعزيزاً لما بينهم من مودة على حساب الحق والعقيدة . وأشار إلى الضرر والخسران المبين الذى يحيق بهم يوم القيامة بسبب هذه المودة التى يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة . ثم استنكر ما كان يعبد أبوه وقومه من أصنام ، وخالفهم في شركهم ، وأنكر عليهم ما هم عليه من ضلال وسألمهم في عجب واستنكار : هل هذه الأوثان - التى تعبدون من دون الله - يسمعونكم إذ تتوجهون إليهم بالعبادة ويبيصرونكم حين تخشعون لهم ؟ هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم أو تملك لكم خيراً أو ضرراً ؟ وإذا كانت لا تفعل شيئاً من ذلك ، فما معنى عبادتكم لها ؟

فما كان جواب قومه إلا أن : ﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ . وفى هذا إقرار منهم بأن الأصنام لا تسمع داعياً ، ولا تنفع ولا تضر شيئاً ، وإنما رأوا آباءهم يعبدونها من دون الله ، فهم على آثارهم يهرعون .

قال أبو السعود : (اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة . واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد (٣) .

هنالك كرر عليهم إبراهيم الخليل يقول : إنكم بعبادتكم لهذه الأوثان من دون الله لا تستندون إلى برهان أو دليل ، وإنما تخلقون إفكاً ، وتشئون من عند أنفسكم باطلاً لا أصل له ولا قاعدة . فما تعبدون ليس من شأنه أن يُعبد ، ولا أن يكون له عابدون ، إنما هو الإفك

١ - في ضلال القرآن ج١٧ ص ٢٣٨٥ .

٢ - تفسير المراعى ج١٧ ص ٤٤ .

٣ - تفسير أبي السعود ج٤ ص ٢١٧ .

المحض ، والافتراء الذى لا شبهة فيه ؛ ولهذا فإننى براء مما تعبدون إلا الذى خلقنى فإنه سبحانه سيهدينى إلى الصراط المستقيم .

يا قوم ، إني لكم ناصح أمين ، فافقهوا قولى واسمعوا دعوى ، وأطيعوا أمرى ، فإنى حريص على نجاتكم من عذاب يوم القيامة . يا قوم ، أدعوكم أن تتوجهوا بالعبادة إلى الله تعالى ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه وتتقوه حق تقاته . يا قوم ، عليكم بهذا كله فإنه جماع كل خير لو كنتم تعلمون أين يكون الخير .

وهكذا دعا إبراهيم (عليه السلام) قومه إلى التوحيد ، وحاول أن يوقظ قلوبهم الغافية ، وينبّه عقولهم الغافلة ، لعلهم يثوبوا إلى رشدهم ، ويعبدوا ربهم وحده لا شريك له . ومع ذلك لم يستجيبوا لله ورسوله ، ولم يفكروا فى مضمون ما ورثوه من عقيدة فاسدة ، ولم يتدبروا ما هم عليه من الضلال ، ولم يتحققوا منه . بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، وزين لهم الشيطان عبادة التماثيل فأطاعوه ، واتبعوا أهواءهم . وتواصوا بصنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد .

هنالك أعلن لهم إبراهيم الخليل عداوته للأصنام ، ولعقيدتهم الفاسدة التى توارثوها جيلاً عن جيل ، وجاهر بعدايته لجميع ما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون ، قائلاً لهم : إن لى الله وحده لا شريك له ، فى الدنيا والآخرة ، وإننى براء مما تعبدون من دونه من أوثان ، فإنهم أعداء لى ، تجب على مقاومتهم بالدعوة إلى التوحيد ، والعمل على إزالتهم حتى يعبد الله وحده فى الأرض .

ولما رآوه هكذا ثابتاً على استنكار الشرك والعكوف على الأصنام ، راحوا يسألونه سؤال الذى لا يطمئن إلى ما هو عليه ، المزعزع العقيدة . فاستفهموه : أهذا جدّ منه أم لعب ؟ وفى هذا استبعاد منهم أن يكونوا هم وآباؤهم الأقدمون فى ضلال مبين ، وظلوا متعجبين من تضليله إياهم .

قال تعالى : ﴿ قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ .

﴿ قال أفأريتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ .

قال الشيخ إسماعيل حقى البرسوى : (قوله تعالى : ﴿ قالوا أجبنا بالحق ﴾ أى بالجدّ ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ بنا فتقول ما تقول على وجه المزاح واللعب . حسبوا أنهم إنما أنكر عليهم دينهم القديم مع كثرتهم وشوكتهم على وجه المزاح واللعب . وفيه إشارة لطيفة ، وهى كما أن أهل الصدق والطلب يرون أهل الدنيا لاعبين ، والدنيا لعباً وهواً ، كقوله تعالى :

﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾^(١) الآية ، كذلك أهل الدنيا يرون أهل الدين لاعبين ، ويرون الدين لعباً وهواً^(٢) .

ثم أضرب الخليل (عليه السلام) عن قولهم : إنه هازل لاعب ، وعما بنوا عليه مقالهم من تقليد أسلافهم ، واعتقادهم كون تلك الأصنام أرباباً ، وأخبر عن التوحيد ، وبين العقيدة المستقيمة التي كان ينبغي عليهم أن يستمسكوا بها ولا يجحدون عنها إلى عبادة الطاغوت والعقيدة الفاسدة ، فقال تعالى : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ .

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره : قال إبراهيم لهم : بل جئتكم بالحق لا اللعب ، ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن ، وأنا على ذلكم ، من أن ربكم هو رب السموات والأرض الذي فطرهن ، دون التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، ودون كل أحد سواه ، شاهد من الشاهدين ، يقول : فإياه فاعبدوا ، لا هذه التماثيل التي هي خلقه ، التي لا تضر ولا تنفع)^(٣) .

وقال الزخشري : (الضمير في (فطرهن) للسموات والأرض أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم . وشهادته على ذلك : إدلاؤه بالحجة عليه وتصحيحه بها ، كما تصح الدعوى بالشهادة ، كأنه قال : وأنا آيين ذلك وأبرهن عليه ، كما تبين الدعوى بالبيّنات ؛ لأنني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة ، كما تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم)^(٤) .

ثم لما رأى إبراهيم (عليه السلام) أن القوم لم ينتفعوا بالحجة القولية والدلالة العقلية ، ولم تغنهم النذر وقد صدوا عن سبيل الله ، وأعرضوا عن الدعوة ، وظلوا مستمسكين بعبادة أصنامهم ، هنالك اعتزم في شأن أوثانهم أمراً لا انثناء فيه ، وأقسم بالله القوى العزيز ليجتهدن في تحطيمها ، وإلحاق الأذى بها ، بعد أن ينصرفوا مدبرين إلى عيدهم . وقد فعل ذلك ليثبت لهم بالبرهان العملي أن الأصنام لا تضر ولا تنفع ، ولا تستطيع دفع الأذى عن نفسها ، وبالتالي فلا فائدة في عبادتها من دون الله .

قال تعالى : ﴿ وتالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ .

١ - من سورة الأنعام : آية رقم ٩١ .

٣ - تفسير الطبري ج ١٧ ص ٣٧ (طبعة البابي الحلبي)

٢ - تفسير روح البیان ج ٥ ص ٤٩٢ .

٤ - الكشف ج ٢ ص ٥٧٦ .

قال الشوكاني : (قوله : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أخبرهم أنه سيتقل من الحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ، ثقة بالله سبحانه ، ومحاماة على دينه . والكيد : المكر ، يقال : كاده يكيده كيذا ومكيدة . والمراد هنا : الاجتهاد في كسر الأصنام . قيل : إنه عليه السلام قال ذلك سراً ، وقيل : سمعه رجل منهم . ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أى بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون : كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم ، لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة (١) .

ولما خرج القوم إلى عيدهم ، وبعدوا عن المعابد والأصنام ، حيث ذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ولهوهم ولعبهم ومراسم حياتهم في ذلك اليوم ، وجد إبراهيم (عليه السلام) الفرصة التي يريد . فشرع في تنفيذ عزمته التي قررها في نفسه تجاه الأصنام .

قال تعالى : ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

﴿ فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ .

قال البيضاوي : (قوله تعالى : ﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ فرأى مواقعها واتصالاتها ، أو في علمها ، أو في كتابها ، ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم ، وذلك حين سألوه أن يعيد معهم ﴿ فقال إني سقيم ﴾ أراهم بأنه استدل بها - لأنهم كانوا منجمين - على أنه مشارف للسقم ؛ لئلا يخرجوه إلى معيدهم ، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون ، وكانوا يخافون العدوى . أو أراد : إني سقيم القلب لكفركم . أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه . أو بصدد الموت ، ومنه المثل : كفى بالسلامة داء . ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ هاربين مخافة العدوى ﴿ فراغ إلى آلهتهم ﴾ فذهب إليها في خفية - من روعة الثعلب ، وأصله الميل بحيلة (فقال) أى للأصنام استهزاء ﴿ ألا تأكلون ﴾ يعنى الطعام الذي كان عندهم ﴿ مالكم لا تنطقون ﴾ بجواب ﴿ فراغ عليهم ﴾ فمال عليهم مستخفياً - والتعديدية يعلى للاستعلاء ، وأن الميل لمكرهه ﴿ ضرباً باليمين ﴾ مصدر لراغ عليهم ؛ لأنه في معنى ضربهم ، أو لمضمر تقديره : فراغ عليهم يضربهم ضرباً . وتقبيده (باليمين) للدلالة على قوته ، فإن قوة الآلة تستدعى قوة الفعل . وقيل : (اليمين) بسبب الحلف ، هو قوله : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ الآية (٢) .

١ - فتح القدير ج٣ ص ٤١٣ .

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٢ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

فكسّر إبراهيم (عليه السلام) أصنام القوم ، وجعلها حطاماً ، أى قطعاً صغيرة متناثرة هنا وهناك ، وأبقى على صنم كبير منها ؛ ليرجعوا إليه فيسألونه عمن انتهك حرمة المعابد ، وتجراً فحطّم الأوثان ، حتى إذا استيقنوا أنها لا تعقل ، ولا تنطق ، ولا تدفع عن نفسها من أرادها بسوء ، رجعوا إلى صوابهم ، وأقلعوا عما هم عليه مقيمون من عبادتها إلى ما هو عليه من توحيد الله تعالى ، والبراءة من الأصنام .

ولكنهم لفرط جهلهم ، وقلة فقههم ، وجمود أفكارهم عن التأمل والتدبر ، ولكثرة ضلالهم ، وخباياهم ، يتساءلون عمن حطّم آلهتهم المدعاة ، لينقموا عليه : ﴿ قالوا من فعل هذا بألهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ .

لقد عاد القوم فاطلعوا على جذاذ الأصنام فلم يعتبروا ، ولم يروعوا أو يفكروا فيما هم عليه من الضلال ، بل تبادوا في غيهم ، وقالوا على سبيل الإنكار والتوبيخ والتأنيب والتشنيع واللوم والتعنيف : من فعل هذا الفعل الفظيع بالآلهة ؟! ثم وصموا من فعل ذلك بالظلم ؛ لجرأته على تحطيم الأوثان ، وتماديه في الاستهانة بها !

عندئذ تذكّر الذين سمعوا إبراهيم (عليه السلام) أن يكيد لأصنامهم فأشاروا للمتسائلين إليه :

﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ أى قالوا : سمعنا شاباً يسمى إبراهيم يعيب هذه الأوثان ، ويستهزئ بها ، وإنا لنظن أنه هو الفاعل هذا الفعل بالآلهة دون أحد سواه .

كذا قد بحثوا واستعلموا ، فعرفوا في النهاية أن إبراهيم (عليه السلام) هو الفاعل الجريء الذى اعتدى على أصنامهم . فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ، ويحملون بعضهم البعض على الزفيف حوله . فقال قائل منهم : اتتوا به على أعين الناس ؛ ليشهدوا عليه بمقاتته ، ويروا ما يحلّ به من شديد العذاب ، جزاء ما صنعت يده . وعلى ذلك أجمعوا أمرهم ، وقصدوا التشهير به ، وإعلان فعلته للجموع الغفيرة من الجمهور . ثم اعتزموا على أن يوقعوا به أشد العقاب . فتسامع الناس بالخبر ، فتقاطرت وفودهم ، وتكاثرت جموعهم ، واحتشدت في صعيد واحد ، حيث كان هناك جمع غفير هائج غاضب ، كل فرد فيه يرغب في القصاص من محطّم الأصنام ، المعتدى على مقدّساتهم .

قال تعالى : ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾

وقال سبحانه : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (قوله : ﴿ فأتوا به على أعين الناس ﴾ أى على رؤوس الأشهاد فى الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم . وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم (عليه السلام) أن يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا تملك لها نصراً ، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ﴾ قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعنى الصنم الذى تركه لم يكسره ﴾ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم ؛ لأنه جماد (١) .

وقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات : اثنتين منهن فى ذات الله عز وجل : قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقبل له : إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فأسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة ، فقال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، إن هذا سألنى عنك ، فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبنى . فأرسل إليها ، فلمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : أدعى الله لى ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان ، إنما أتيتمونى بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى ، فأومأ بيده : مهيم ؟ قالت : ردَّ الله كيد الكافر - أو الفاجر - فى نحره ، وأخدم هاجر) . قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بنى ماء السماء (٢) .

ولعل اجتماع القوم فى صعيد واحد كان هو الفرصة التى يريد الخليل (عليه السلام) ؛ ليقيم لهم الحجة على بطلان عقيدة الشرك ، ويريم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون . فاستطرد فى حضرة الجمع الغفير من الناس يقول :

﴿ أتعبدون ما تعبتون . والله خلقكم وما تعملون ﴾ أى طفق إبراهيم (عليه السلام) يؤنب قومه ويعيهم بقوله : أتعبدون من دون الله أصناماً أنتم تنجرونها وتبرونها من الخشب والحجر ونحوهما من الأجسام الصلبة ، وتجعلونها بأيديكم ، ثم ترغبون عن عبادة الله الذى

خلقكم ، وصوركم فأحسن صوركم ، الله ربكم الذى خلق عملكم المتضمن صناعة الأصنام وغيرها من الحرف والصناعات . أليس منكم رجل رشيد ينهاكم عن عبادة الأصنام المنحوتة المصنوعة التى خلقها البارئ عز وجل ؟ يا قوم ، إن الخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، فكيف ترغبون عن عبادة خالقكم الذى يصنع كل صانع وصنعتة ، وتعبدون مخلوقات أمثالكم ؟ أما كان الأجدر بكم أن تعبدوا الله البارئ المصور ولا تشركوا به شيئاً من الأوثان التى هى من خلقه ؟ وقد أقررتم أنها لا تعقل ولا تنطق ، ولا تدفع عن نفسها من كادها بسوء ، وبالتالي لا تغنى عنكم شيئاً .

وبهذه المقالة القوية الحجة ، الشديدة الوقع فى النفوس ، نبّه الخليل (عليه السلام) قومه من غفلتهم ، وأيقظهم من غفوتهم ، فتنبّهوا وعلموا أن الشرك لظلم عظيم ، وأنهم على غرور وجهل فى عبادة الأصنام ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وأقروا بأنهم هم الظالمون لأنفسهم باتخاذ الأنداد ، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً .

قال تعالى : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ .

قال القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه . ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ أى بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس ؟)^(١) .

ولكن لعل هذه الحركة التى لامست النفوس ، وجعلتها تنظر وتدبر وتتأمل وتستقيم ، لم تتمكّن من القلوب ، ولم تغلغل فى النفوس ؛ لأنها لم تدم طويلاً ، فما هى إلا لحظات حتى انطفأ شعاعها ، وعاد القوم إلى جهلهم وعنادهم ومجادلتهم بلا عقل ولا تفكير .

قال تعالى : ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

قال الفخر الرازى : (فى المعنى وجوه : (أحدها) أن المراد : استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم ، وأتوا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا فى المجادلة بالباطل ، وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة ، (وثانيها) قلبوا على رؤوسهم حقيقة ؛ لفرط إطراقهم خجلاً وانكساراً وانخذالاً بما بهتهم به إبراهيم ، فما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم ، (وثالثها) قال ابن جرير : قوله ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أى ثم غلبوا فى الحجة ، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة لإبراهيم عليه ،

فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء الأصنام ينطقون . (١) فأقروا بهذه للحيرة التي لحقتهم . قال : والمعنى نكست حجتهم ، فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم (٢) ، (٣) .

ويفهم من قولهم : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أنهم قد أقروا بعجز أصنامهم ، وقصورها عن معرفة ما يجري حولها ، واعترفوا بأنها أجسام صلبة لا روح فيها ولا حياة ، ولا قدرة لها على النفع والضرر . ومن ثم ظهرت حجة إبراهيم الخليل واضحة ، ورأى (عليه السلام) الفرصة سانحة لإلزامهم الحجة . فراح ييكتهم على جهلهم ، ويوبخهم على جمود عقولهم ، وثبوتها على الضلال وعقيدة الشرك ، وعزوفها عن الحق :

﴿ قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

وهكذا أخذ إبراهيم (عليه السلام) ييكت قومه ويوبخهم ويقول : أليق بكم أيها القوم ، أن تعبدوا أصناماً من دون الله لا تقدر على شيء ، ولا تستطيع لكم نفعاً ولا ضرراً وأنتم قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء ، أفلا تستحيون من عبادة جادات هي من صنع أيديكم ؟

قال الزمخشري : (أف : صوت إذا صوّت به علم أن صاحبه متضجر . أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم ، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم ، واللام لبيان المتأفف به : أي لكم ولأهتكم هذا التأفف) (٤) .

فلما غلبوا وانقطعوا بالحجة ، أخذتهم العزة بالإثم فعدلوا عن الجدال والمناظرة والحجاج ، إلى أسلوب الغشم والغلبة ، فلاذوا بالإيذاء ، والغضب لأصنامهم ، وقال بعضهم لبعض : حرقوه أو اقتلوه . وفي النهاية أجمعوا رأيهم على إهلاك إبراهيم (عليه السلام) ، واختاروا أشد أنواع العذاب ، وهو الإحراق بالنار الشديدة التأجج ، التي هي للإعدام والإتلاف بالكلية .

قال تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

٢ - هذا قول ابن جرير في المرجع السابق ٤٢ .

١ - تفسير الطبري ج ١٧ ص ٤١ .

٣ - التفسير الكبير ج ٢٢ ص ١٨٦ .

٤ - الكشف ج ٢ ص ٥٧٧ .

﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ .

وهكذا تشاور القوم في أمر إبراهيم (عليه السلام) فخاطب بعضهم بعضاً ، وطلبوا إلى أنفسهم أن يقيموا بنياناً يملئونه حطباً ، فيضرمونه ، ثم يلقونه فيه . وبذلك يكونون قد نصرُوا أصنامهم - حسب تقديرهم وفهمهم - وتخلصوا ممن لا يؤمن بها ، والذي كان يسبها علناً ، ويعيبها جهاراً .

وعلى هذا الكيد أجمع القوم أمرهم ، وأرادوا أن يؤذوا إبراهيم الخليل ، ويعذبوه بالإحراق بالنار الحامية ، وما طلب منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . ولكن إعلان التوحيد والجهر بدعوة الناس إليه طريق مخوف بالمكاره والفتن ، يحتاج الداعية فيه إلى التزود بالتقوى والصبر . فالمكذَّبون بالدعوة دائماً يلجئون إلى منطق الحديد والنار ، أو إلى أسلوب القوة الغاشمة . وذلك عندما تعوزهم الحجة ، وينقطع بهم الدليل ، ويحيدون عن الحق ، فيظلمون في طغيانهم يعمهون .

هذا ، ولما أوقدت النار ، التي تسابق القوم لإضرارها وتغذيتها بالوقود ، وذهبوا بإبراهيم الخليل إليها ، وألقوه فيها ، عند ذلك قيل : يا نار ، كوني ذات برد وسلام : فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم . وبذلك عصمه الله من كيدهم وأذاهم ، وحفظه من النار ، ونصره وقواه .

قال تعالى : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ .

قال القاسمي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ : (قلنا) أى تعجيزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له في إنجاء من آمن به ﴿ يا نار كوني برداً ﴾ أى باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب ﴿ وسلاماً على إبراهيم ﴾ أى ولا تنتهي في البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة ^(١) .

إنَّ القوم لما قرَّروا اغتياله (عليه السلام) وبدءوا في تنفيذ كيدهم الذي أجمعوا عليه ، لم يكن إبراهيم يملك له دفعا ، ولا يستطيع منه وقاية ، وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . ومع ذلك فما جزع ، ولا اضطرب ، ولا التجأ إلى غير الله تعالى . بل كان ذكره الدائم على لسانه : حسبي الله ونعم الوكيل .

١ - تفسير القاسمي ج ١١ ص ٤٢٨٥ .

روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار : ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾^(١) .

وفي رواية أخرى للبخارى بسنده عن ابن عباس : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم (عليه السلام) حين ألقى في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ الآية^(٢) ،^(٣) .

حقاً لقد تعرّض خليل الرحمن للإيذاء والفتنة والبلاء الشديد ، ولكنه ثبت عليه ، وصبر صبراً جليلاً على ذلك . فكان صادقاً في إيمانه بربه ، واثقاً في نصر الله له ، على الرغم من شدة الابتلاء والهلاك المحقق الذي كاده به قومه فلما علم الله عز وجل منه ذلك ، كفاه شر القوم ، ونجّاه من النار ، ونصره نصراً عزيزاً .

قال الأستاذ سيد قطب : (وكان في نجاته من النار عل النحو الخارق الذي تمت به ، آية لمن تهيأ قلبه للإيمان . ولكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة ؛ فدل هذا على أن الخوارق لا تهدي القلوب ، إنما هو الاستعداد للهدى والإيمان : ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ . الآية الأولى هي تلك النجاة من النار . والآية الثانية هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآية الثالثة هي أن الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبّر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال^(٤)) . ثم قال تعالى : ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ .

﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾ .

وفي هذا بيان للعاقبة التي تحقق وعد الله تعالى لعباده المخلصين بالنصر المبين ، ووعيده سبحانه لأعدائهم المكذّبين بالهلاك والدمار .

لقد أراد الكائدون لإبراهيم الخليل أن ينتصروا عليه فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فأنضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا هنالك ، وانقلبوا بغیظهم لم ينالوا منه شيئاً ، وباءوا

١ - فتح الباری بشرح صحيح البخاری ج ٨ ص ٢٢٩ .

٢ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٧٣ .

٣ - فتح الباری بشرح صحيح البخاری ج ٨ ص ٢٢٩ .

٤ - في ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٧٣١ .

بالخسارة العظيمة والسَّفال ، وجعلهم الله أخسر من كل خاسر ، وردَّ مكرهم عليهم ، وجعل لهم عاقبة السوء ، وجعل لخليله عاقبة النصر والفوز والخير .

قال الشوكاني : ﴿ ثم لما ألقوه في جحيم ذلك البنيان الذي بنوه ، نجَّاه الله منها ، وجعلها عليه برداً وسلاماً ، وهو معنى قوله : ﴿ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ . الكيد : المكر والحيلة . أى احتالوا لإهلاكه ، فجعلناهم الأسفلين المقهورين المغلوبين ؛ لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرُونَ على دفعها ، ولا يمكنهم جحدها ؛ فإنَّ النار الشديدة الانتقاد ، العظيمة الاضطرام ، المتراكمة الجمار ، إذا صارت بعد إلقائه عليها برداً وسلاماً ، ولم تؤثر فيه أقلُّ تأثير ، كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل ، وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ، ظاهر التعصب ، واضح التعسف ، سبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً ، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الضر .

(ولما انقضت هذه الوقعة ، وأسفر الصبح لذي عينين ، وظهرت حجة الله لإبراهيم ، وقامت براهين نبوته ، وسطعت أنوار معجزته ﴿ قال إني ذاهب إلى ربى ﴾ أى مهاجر من بلد قومي الذين فعلوا ما فعلوا تعصباً للأصنام ، وكفراً بالله ، وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرنى بالمهاجرة إليه ، أو إلى حيث أتمكَّن من عبادته ﴿ سيهدين ﴾ أى سيهدينى إلى المكان الذى أمرنى بالذهاب إليه ، أو إلى مقصدى)^(١) .

قال تعالى : ﴿ ونجيناه لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ لقد أكرم الله سبحانه وتعالى إبراهيم الخليل بالنجاة من نار قومه ، ثم أتمَّ عليه النعمة بأن حماه من أعدائه ونجَّاه ، ونجَّى لوطاً (عليه السلام) معه إلى الأرض التي بارك عز وجل فيها للعالمين . وهى أرض الشام كما قال كثير من المفسرين . والسبب فى بركتها إما فى الدين وإما فى الدنيا . فمن ناحية الدين فقد كانت أرض الشام مهبط الوحي فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم (عليه السلام) ، وفيها الأرض المقدسة ، وثانى الحرمين ، فهى مباركة ببركة الوحي والنبوة . ومن الناحية الأخرى فيها بركة الخصب والرزق ، أى هى مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها وخيراتها الوفيرة .

وعلى هذا انتهت دعوة إبراهيم الخليل لقومه ، وما آمن معه إلا فرد واحد غير امرأته ، هو لوط (عليه السلام) الذى هاجر معه من العراق إلى أرض الشام .

قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾^(٢) .

١ - فتح القدير ج٤ ص ٤٠٣ - ٤٠٢ .

٢ - من سورة العنكبوت : آية رقم ٢٦ .

إن إبراهيم (عليه السلام) بعد أن بذل مجهوداً كبيراً في دعوة قومه إلى التوحيد ، وبعد أن حاول أن يهديهم إلى سبيل الرشاد ، وأن يقنعهم بكل أساليب الإقناع على أنهم في ضلال ، لم يجد منهم آذاناً صاغية لدعوته . بل وجد عداوة وإعراضاً وهجراناً ، وهذذه أبوه بالرجم ، وجفاه القوم ، ومكروا به ، وألقوه في نار حامية . فلما وجد الله تعالى - صابراً ، مؤمناً ، مخلصاً له الدين ، وقاه سيئات ما مكروا ، وسلّمه من نارهم ، وحماه من كيدهم .

وبالرغم من جهاده الذي صادف فيه ألواناً من الآلام والأهوال ، وبالرغم من دأبه في الدعوة إلى الله عز وجل ، وفي سبيل هداية قومه ، وبالرغم من ظهور المعجزة الخارقة التي أجراها الله تعالى على يديه ، والتي كانت بها نجاته من النار ، بالرغم من ذلك كله لم يؤمن له من قومه سوى زوجه سارة ، ولوط (عليه السلام) .

وحين تمادى القوم في غيهم ، وأحس الخليل (عليه السلام) العداوة الشديدة منهم ، هاجر من بين أظهرهم ، في سبيل الله ، وترك وراءه أباه وقومه وما هم عليه عاكفون ، وأسلم نفسه لربه ، وتوكل عليه في حله وترحاله ، وكان موقناً أن الله تعالى سيهديه سواء السبيل ، وسيرعى خطاه وينقلها في الطريق المستقيم . ففعلاً حصل ما توقعه (عليه السلام) فقد عوضه الله الأرض المباركة ، وطناً خيراً من وطنه ، وأنعم عليه بالذرية الصالحة ، فوجد أهلاً خيراً من أهله ، وقوماً خيراً من قومه . ولعل هذا كان له جزاء على صبره على الابتلاء ، وخاتمة كريمة لائقة بوفائه وشكره ، وصبره الجميل .

المبحث الثالث

ابتلاء موسى عليه السلام

كانت حياة موسى (عليه السلام) عبارة عن سلسلة مرتبطة الحلقات من الآلام والمحن والابتلاءات . وزاد حياته بلاء على ابتلاء تعرّضه لنقمة فرعون وملئه من جهة ، ولإيذاء قومه ومكائدهم وسفههم من جهة أخرى .

فصبر (عليه السلام) صبراً جميلاً على أذى قومه ، وإعنات أتباعه من بني إسرائيل ، وكثرة تمردهم ، وطول عنادهم ، وقسوة قلوبهم ، حتى قال لهم : لم تصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ؟

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ^(١) فقومه الذين آذوه كانوا يعلمون علم اليقين أنه رسول الله إليهم ، وصنيعهم هذا يعدّ أبلغ في العناد ، وأشدّ ألماً ومحنة .

روى البخارى بسنده عن أبي هريرة (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : (إنّ موسى كان رجلاً حَيّاً سَتِيراً لا يُرَى من جلده شيء استحياء منه . فأذاه من أذاء من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إمّا برص وإمّا أدرة وإمّا آفة . وإنّ الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنّ الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عريانا أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فو الله إنّ بالحجر لَنَدْباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ ^(٢) ^(٣) .

وروى البخارى أيضاً بإسناده عن الأعمش قال : سمعت أبا وائل قال : سمعت عبد الله (رضى الله عنه) قال : قَسَمَ النّبي ﷺ قَسْماً ، فقال رجل : إنّ هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النّبي ﷺ فأخبرته ، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ، ثم قال : (يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر) ^(٤) .

١ - من سورة الصف : آية رقم ٥ .

٢ - من سورة الأحزاب : آية رقم ٦٩ .

٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج٦ ص٤٣٦ .

٤ - المرجع السابق ص٤٣٦ .

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من التصرفات السيئة ، والمواقف السلبية ، التي آذى بها بنو إسرائيل نبيهم موسى (عليه السلام) وهي في مجملها تدل دلالة واضحة على أن نفوس القوم كانت تحتاج إلى عملية استصلاح من الذل والخضوع الذي ألفوه في عهد الفراعنة ، وبما علق بها من رواسب الجاهلية التي ترسبت فيها على الزمن الطويل ، في تلك العهود التي عم فيها الظلم والجور من الطغاة ، فكان على موسى أن يواجه ذلك كله ، وأن يبذل الجهد مضاعفاً لهداية القوم إلى الصراط المستقيم . وفي سبيل ذلك نجده قد صبر صبر الحليم على متاعب قومه والتواءاتهم وانحرافاتهم المترسبة في نفوسهم ، كما صبر صبراً جميلاً على رداءة الطبائع ، وتفاهة الاتهامات ، والانتكاس الذي كان يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة ، والارتداد إلى الجاهلية عند كل بادرة .

فمثلاً : بمجرد خروج موسى (عليه السلام) بنى إسرائيل من مصر ، وتجاوزهم بهم البحر ، الذي أغرق الله فيه عدوهم فرعون وجنوده ، وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ (١) الآية .

وكذلك : بمجرد ذهاب موسى (عليه السلام) إلى الطور لمناجاة ربه ، صنع لهم السامرى من الذهب عجلاً جسداً له خوار ، فاتخذوه إلهاً وعبدوه وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل ثم انقضت العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (٢) .

ولما قال لهم موسى (عليه السلام) : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ قالوا في مواجهته بكل وقاحة وقلة حياء : ﴿ أنتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ (٣) .

ولما أمروا بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، وألاً يرتدوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين ، لم يستجيبوا لأمر الله ، ولم يطيعوا رسولهم موسى (عليه السلام) . وبعد أخذ ورد ، ومحاوره ومجادلة ، كان نهاية موقفهم أن قالوا لرسولهم : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلنا إنا ههنا قاعدون ﴾ (٤) الآية . فلم يملك موسى (عليه السلام) إلا أن يناجى ربه ، فيقول في أسى وحزن : ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ (٥) الآية .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٥١ .

٤ - من سورة المائدة : آية رقم ٢٤ .

١ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٣٨ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٦٧ .

٥ - من سورة المائدة آية رقم ٢٥ .

هذا قليل من كثير من مواقف السوء والأذى التي واجهها موسى (عليه السلام) من جهة قومه بنى إسرائيل ، وصبر عليها . ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة في هذا الشأن ، لنفصل القول في ابتلائه (عليه السلام) بالإعراض والأذى من المكذبين بالدعوة .

وهذا النوع من البلاء هو ما تعرّض له موسى من جهة فرعون وملئه . فقد كان (عليه السلام) هو الرسول المكلف بدعوة فرعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفرعون في أوج سطوته وقمة طغيانه ، علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً . وظل هو وأعوانه يحكمون بنى إسرائيل لفترة من الزمن ، واتخذوا من أنفسهم أرباباً من دون الله ، وانصرفوا عن الإيمان ونور اليقين إلى شهواتهم وهوهم ولعبهم ، وأوغلوا في تعذيب بنى إسرائيل ، والتنكيل بهم ، يذبّحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وساموهم الخسف والذلة ، وكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، وعاثوا في الأرض فساداً ، واستضعفوا هذه الطائفة من البشر .

فاقتضت عدالة الله تعالى وحكمته إنقاذ أولئك القوم الذين كانوا يستضعفون ، بأن بعث الله موسى وهرون (عليهما السلام) إلى فرعون ؛ ليلبّغا ما أرسلاه به من دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى شعب بنى إسرائيل من قبضته وسطوته ، ويتركهم أحراراً يعبدون ربهم حيث شاءوا ، ويتفرغون لتوحيد الله وعبادته .

فما إن أنهى موسى (عليه السلام) رسالته إلى فرعون ، حتى تكبر في نفسه ، وطمع وبغى وتمرد ، وكذب بالدعوة ، وتولى بركنه ، وأبى طاعة خالقه ، ونظر إلى موسى (عليه السلام) بعين الازدراء والتنقص . ثم طفق يسخر ، ويستهزئ ويستنكر ما يدعو إليه رسول الله موسى من توحيد الله سبحانه وتعالى ، وإبطال ألوهية من سواه وما سواه . ثم التفت إلى ملئه وجنوده ينعت موسى (عليه السلام) بالجنون ، ويقول : إنه ساحر كذاب . ثم أخذ يتوعده بالسجن ، ويهدده بالرجم تارة ، وبالقتل تارة أخرى ، إن لم يكف عن تبليغ رسالته .

ولعل هذا وغيره من الإعراض والأذى الذي تلقاه نبي الله موسى من فرعون وهامان وقارون وملئهم ، هو ما تضمنته الآيات الكريمة المبين أرقامها في الجدول الآتي :

رقم السورة	اسم السورة	أرقام الآيات
٧	الأعراف	١٠٣ إلى ١٢٢ ، ١٢٧ إلى ١٣٧ .
١٠	يونس	٧٥ إلى ٨٦ ، و ٨٨ إلى ٩٢ .
١٧	الإسراء	١٠١ إلى ١٠٤ .
٢٠	طه	٤٢ إلى ٥٣ ، و ٥٦ إلى ٧٠ و ٧٧ إلى ٧٩
٢٦	الشعراء	١٠ إلى ٤٨ ، و ٥٢ إلى ٦٧ .
٢٧	النمل	١٣ - ١٤ .
٢٨	القصص	٣٥ إلى ٤٢ .
٤٠	غافر	٢٣ إلى ٢٧ ، و ٣٦ - ٣٧ .
٤٣	الزخرف	٤٦ إلى ٥٦ .
٤٤	الدخان	١٧ إلى ٢٩ .
٥١	الذاريات	٣٨ إلى ٤٠ .
٥٤	القمر	٤١ إلى ٤٢ .
٧٩	النازعات	١٥ إلى ٢٦ .

وقد احتوت هذه الآيات الكريمة قصة موسى منذ أن واجه هو وأخوه هرون (عليهما السلام) فرعون بآيات الله البينات إلى هلاك فرعون وجنوده بالغرق في البحر ، ونجاة موسى وأصحابه من كيدهم . ويلاحظ أنَّ هذه القصة جاءت في حلقات وإشارات في عدة سور من القرآن الكريم ، بأساليب وصيغ متنوعة اقتضتها حكمة التنزيل . ولعل ذلك لتحقيق الهدف القرآني الذي هو الموعظة والتذكير دون السرد القصصي . ففي كل سورة كانت الحلقات التي تُعرض من القصة أو الإشارات ، متناسقة مع موضوع السورة ، أو السياق الذي تُعرض فيه ، كما كانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق .

قال الأستاذ سيد قطب : (ولا نجد تكراراً في عرض القصة أبداً على كثرة ما عرضت في سور القرآن ، لأنَّ هذا التنوع في اختيار الحلقات التي تعرض ، ومشاهد كل حلقة ، والجانب الذي يختار من كل مشهد ، وطريقة عرضه .. كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع ، متناسقة مع هذا الموضع)^(١) .

هذا ، وسوف نراعى عند تفسير هذه الآيات الكريمة - التي نحن بصددتها - تقسيمها إلى ستة أقسام ، جاعلين كل مجموعة من الآي يبدو في وضوح ترابطها قسماً على حدة . وسنقوم بتوضيحها وتفسيرها تحت العناوين الآتية :

أ - موسى يواجه فرعون وملأه برسالته فيتهمونه بالسحر والجنون .

ب - موسى يناظر سحرة فرعون فإذا بهم يؤمنون برب العالمين .

ج - فرعون وملؤه يأترون بموسى وقومه ليؤذونهم .

د - فرعون يتمادى في كفره وضلاله ويستهزئ بموسى .

هـ - جحود فرعون وقومه بآيات الله ظليماً وعلواً .
و - هلاك فرعون وجنوده ونجاة موسى وأصحابه من كيدهم .

موسى يواجه فرعون وملأه برسالته فيتهمونه بالسحر والجنون :

بعد أن أعدَّ الله تعالى موسى (عليه السلام) إعداداً تاماً لتحمل تكاليف الدعوة ، وجاء به من مدين ، سائراً بأهله قاصداً مصر ، ناداه عز وجل بوادى طوى المقدس ، وكلمه تكليماً . وكان فيما كلمه به أن يذهب إلى فرعون الطاغية ويهديه بالتى هى أحسن إلى الصراط المستقيم . ثم أعطاه آيتين تدلان على صدق نبوته ، ألا وهما معجزتا العصا واليد البيضاء ، أى انقلاب عصاه حية تسعى ، وابيضاض يده (عليه السلام) من غير سوء . فخاف موسى (عليه السلام) من القتل إذا هو قام بهذه المهمة ، وخاصة أنه كان قد قتل منهم نفساً ، فطلب العون والمساعدة في هذا التكليف العسير ، كما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هرون ؛ ليكون معيناً له على تبليغ الرسالة . فأجابه الله تعالى إلى ما سأل ، وبعث معه أخاه هرون وزيراً . ثم أمرهما أن يذهبا إلى فرعون مؤيدين بالمعجزات والآيات البيّنات ، حاثاً لهما على المداومة على ذكر الله تعالى . فهو سلاحهما والنور الذى يضىء لهما الطريق ، فعليهما ألا يقصّرا في ذلك ، كما يجب عليهما ألا يفترّيا ولا يقعدا عن تبليغ ما أرسلنا به ، وأمرهما أن يقصدا فرعون نفسه ؛ لأنه طغى وتجبر . وبين لهما الخطة التى ينبغى أن يسيرا عليها في مخاطبته ، ألا وهى اصطناع الرفق واللين والأساليب الهادئة التى يمكن الوصول بها إلى الغاية والنجاح . آنذاك عبّر موسى وهرون (عليهما السلام) وكشفا عما في نفوسهما من الخوف من بطش فرعون وسرعته في إيذائهما ، عند مواجهته بالدعوة ، دون أن يتحرى أمرهما وما أرسلنا به إليه ؛ وذلك لجبروته وقسوته وطغيانه . هنالك تثبتهما تعالى ، وهو العلى الأعلى ، فقال : ﴿ لا تخافا إني معكما ﴾ وزادهما طمأنينة بقوله : ﴿ أسمع وأرى ﴾ كما قال في آية أخرى : ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ . وبعد ذلك هداهما تعالى إلى صورة الدعوة ، حيث أمرهما بالذهاب إلى فرعون لإنذاره وإنقاذ بنى إسرائيل من سطوته وقهره وعذابه ، وتحريرهم من الاستخدام تسخييراً واستعباداً ، والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد . وأن يخبراه بأنّ معهما آية بيّنة تؤيد صدق رسالتهما إليه . ثم يرغباه ويستميلاه ببيان أنّ السعادة والسلام والأمان لمن اتبع الحق وآمن بالله تعالى وصدّق المرسلين ؛ لعله بذلك يهتدى ، أو يروعى ، أو يفكر ، أو يتذكّر أو يخشى الله وعقابه . ولكى لا يلمسا كبرياءه وطغيانه ، وحتى يستمع لهما ، كان عليهما أن يهدّداه ويحذّراه بأسلوب غير مباشر ، كأن يقولاه : إنّ الله تعالى قد أوحى إليهما أنّ كل من كذّب بالدعوة وأعرض عنها ، فقد حقت عليه كلمة العذاب في الدنيا ، ومآله إلى الهلاك والدمار ، ومصيره في الآخرة إلى النار وبئس المصير .

هكذا وضح الله تعالى لهما الخطة وطمانها بأنه في صحبتها ورفقتها أينما كانا ، وبين لهما الأمر ليسيرا في طريق الدعوة آمين عارفين على هدى ونور . فامثل موسى وهرون (عليهما السلام) أمر الله تعالى ، وذهبا إلى فرعون ، وبلغاه الرسالة . ثم أظهر موسى لفرعون برهان رسالته ، وأراه آيتي العصا واليد البيضاء . فكذب فرعون بالدعوة ، وأعرض عن اتباع الحق واتهم موسى (عليه السلام) بالسحر والجنون . ثم طفق يجادله حول وحدانية الله تعالى بتهكم وسخرية واستكبار ؛ وذلك على نحو ما جاء في الآيات الكريمة التالية :

قال الله تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ (١) .

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون اثنوني بكل ساحر عليم ﴾ (٢) .

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى . ﴾ (٣) اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليلاً لعله يتذكر أو يخشى . قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . (٤) قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى . قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند رب في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى .

١ - من سورة الأعراف : الآيات من رقم ١٠٤ إلى رقم ١١٢ . قال الراغب في المفردات ص ١٢٦ : (حقيق : قيل معناه : جدير . وقرئ ﴿ حقيق على ﴾ قيل : واجب) .

٢ - من سورة يونس : الآيات من رقم ٧٦ إلى ٧٩ .

٣ - قال القرطبي في تفسيره ج ١١ ص ١٩٨ - ١٩٩ : (قوله تعالى : ﴿ ولا تنيا في ذكرى ﴾ قال ابن عباس وقتادة : تضعفا ، أى في أمر الرسالة . وقيل : تفترا . والون : الضعف ، والفتور ، والكلال ، والإعياء . وعن ابن عباس أيضاً : لا تبطلنا . وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ ولا تنيا في ذكرى ﴾ وتحميدى وتجميدى ، وتبلغ رسالتى) بتصرف .

٤ - وقال القرطبي أيضاً في المرجع السابق ص ٢٠١ : (يفرط علينا : معناه : يعجل ويبادر بعقوبتنا ، أى يعذبنا عذاب الفارط في الذنب ، وهو المتقدم فيه) .

الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴿١﴾ .

﴿ قال أجبتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل لسانى هرون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبّدت بنى إسرائيل . قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتكم بشىء مبین . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبین . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم ﴾ ﴿٣﴾ .

(قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكها سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون . ﴿٤﴾ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا

١ - من سورة طه : الآيات من رقم ٤٢ إلى رقم ٥٣ .

٢ - من سورة طه : الآيات من رقم ٥٧ إلى ٥٩ .

٣ - من سورة الشعراء : الآيات من رقم ١٠ إلى رقم ٣٧ .

٤ - قال الراغب فى المفردات ص ٣٣٧ : (العضد : ما بين المرفق إلى الكتف ، ويقال : عضدته أى أخذت عضده وقوته ، ويستعار العضد للمعين) أهـ . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : ﴿ سنشد عضدك) سنعينك ونقويك .

بهذا في آياتنا الأولين . وقال موسى رب أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴿١﴾ .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ (٢) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴿٣﴾ .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ (٤) .

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين . وأن لا تملوا على الله إني آتيكم بسultan مبين ﴾ (٥) .

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبين . فتولى بركته وقال ساحر أو مجنون ﴾ (٦) .

﴿ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى ﴾ (٧) .

تدل هذه الآيات الكريمة على أن موسى (عليه السلام) قد واجه فرعون برسالته ، وصدع بما أمره الله تعالى به . وكان فيما بلغه لفرعون أنه رسول رب العالمين ، وجدير به ألا يقول على الله إلا الحق ، بل يجب عليه ذلك ؛ لأنه ملزم ومأخوذ بقول الحق على الله تعالى الذي بعثه ، وقد أيدته بمعجزات وحجج بيّنة ، تدل كلها على أنه حقاً رسول من رب العالمين . ثم طلب إلى فرعون أن يمنح بني إسرائيل حرية الخروج من إمرته ، ومن دائرة ملكه ، ويطلقهم معه لعبادة ربهم وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ .

١ - من سورة القصص : الآيات رقم ٣٥ - ٣٧ .

٢ - قال الراغب في المفردات ٢٣٨ : (وسمى الحجة سلطاناً ، وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب ، لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ .

٣ - من سورة غافر : آية رقم ٢٣ - ٢٤ .

٤ - من سورة الزخرف : آية رقم ٤٦ - ٤٧ .

٥ - من سورة الدخان : الآيات ١٧ - ١٩ .

٦ - من سورة الذاريات : آية رقم ٣٨ - ٣٩ .

٧ - من سورة النازعات : الآيات ١٥ - ٢٢ .

﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ .

﴿ ولقد أرسلنا بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ﴾ .

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين . وأن لا تعلقوا على الله إني آتيكم بسلطان مبین ﴾ .

أرسل الله تعالى موسى (عليه السلام) بالحجج البيّنة والمعجزات إلى فرعون وأشراف قومه . فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، وأنبأهم بأنه رسول رب العالمين إليهم ، وطلب إليهم أن يدفَعوا إليه أو يرسلوا معه بنى إسرائيل ، كما طلب إليهم الاستجابة لخالقهم ، والاستسلام لله تعالى . ثم بين لهم أنه آتيهم بحجة بيّنة على حقيقة ما يدعوههم إليه . ولعل في هذا كله ابتلاء وفتنة لفرعون وقومه .

قال الأستاذ سيد قطب : (إن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنة وابتلاء . والإملاء للمكذّبين فترة من الزمان ، وهم يستكبرون على الله ، ويؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء . وأن إغضاب الرسول ، واستنفاد حلمه على أذاهم ورجائه في هذا آيتهم ، قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد .

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾

(وابتليناهم بالنعمة والسلطان ، والتمكين في الأرض ، والإملاء في الرخاء وأسباب الشراء والاستعلاء .

﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾

(وكان هذا طرفاً من الابتلاء ، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم الذي لا يطلب منهم شيئاً لنفسه ، إنما يدعوههم إلى الله ، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شيء لله وألاًّ يستبقوا شيئاً لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضمنون به على الله تعالى) (١) .

وقال الشوكاني : (قوله تعالى : ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أى كريم على الله ، كريم في قومه . وقال مقاتل : حسن الخلق بالتجاوز والصفح . وقال الفراء : كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة ، ﴿ أن أدوا إلى عباد الله ﴾ أى أن الشأن والحديث أدوا إلى عباد الله . وبعبارة أخرى : أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بنى إسرائيل . قال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب . وقيل المعنى : أدوا إلى عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله .

وقيل : أدوا إلى سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربكم ، ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أى رسول من الله إليكم ، أمين على الرسالة غير متهم ، ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أى لا تتجبروا وتتكبروا عليه بترفكم عن طاعته ، ومتابعة رسله ، وقيل : لا تبغوا على الله ، وقيل : لا تفتروا عليه ، والأول أولى . وجملة ﴿ إني آتيكم بسلطان مبین ﴾ تعليل لما قبله من النهى : أى بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها . وقال قتادة : بعذر بين ، والأول أولى (١) .

وعلى هذا يفهم أن موسى وهرون (عليهما السلام) ذهبا إلى فرعون وأديا الرسالة كما أمرهما الله تعالى . وعلم فرعون أنها رسولان من رب العالمين ، يطلبان إليه أن يطلق بنى إسرائيل ، ولا يستعبدهم ، وأن يخل سبيلهم حتى يسيروا معها إلى أرض الشام خارج حدود سلطانه ، ولكن فرعون فى طغيانه وجبروته لا يطيق أن يواجه بهذه الدعوة ، ويطلب إليه ذلك الطلب . لذا فإنه تعجب واستنكر على موسى ما يذكره من رسالة له ، ورأى فيها انتقاصاً لهيبته ، وخروجاً على طاعته ونظام حكمه . فشرع يمن ويظهر فضله على موسى ، ويستهن به ويحقره ، ويقول له على جهة التقرير والازدراء والتهكم والاستهزاء ، كما حكى تعالى عنه :

﴿ قال ألم نربك فينا وليداً ولبث فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ .

وذلك : أن موسى (عليه السلام) لما باداه بأنه رسول رب العالمين ، وأمره بإرسال بنى إسرائيل معه ، أعرض فرعون بالكلية ، وأخذ ينتقص منه ويضرب عن المرسل وعما جاء به من عنده ، ويذكره بحالة الصغر ، ويمن عليه بالتربية والحضانة والإكرام فى القصر ، ولذلك بقوله : لقد ربيناك لدينا صغيراً فى حجرنا وديارنا ، وكلأناك برعايتنا ، ولم نقتلك فى جملة من قتلنا من الأطفال ، وأنعمنا عليك مدة من السنين حتى صرت رجلاً . فهل هذا جزاء المعروف والإحسان ؟ أن تأتينا اليوم لتخرج على نظامنا وديانتنا ؟ ومع ذلك تنكر علينا الألوهية ؟ وتجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب !

ثم ذكره فى تهويل وتجسيم بجنايته على أحد الأقباط المصريين قبل فراره من مصر ، فقال : وفعلت فعلتك البشعة المنكرة التى ارتكبتها ! وهى قتلك للقبطى الذى وكرته حينما استغاثك الإسرائيلى الذى وجدته يتعارك معه ! فكنت بارتكابك هذه الفعلة الشنيعة من الخارجين على طاعتنا ، الجاحدين بنعمتنا !

قال الزمخشري : (عدّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ، ووبخه بما جرى على

يده من قتل خبازه ، وعظم ذلك وفضعه بقوله : ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ . . . ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ يجوز أن يكون حالاً : أى قتلت وأنت لذلك من الكافرين بنعمتى ، أو وأنت إذ ذك ممن نكفرتهم الساعة . وقد افترى عليه ، أو جهل أمره ؛ لأنه كان يعايشهم بالتقية ، فإن الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ، ومن بعض الصغائر ، فما بال الكفر . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ حكماً عليه بأنه من الكافرين بالنعم ، ومن كانت عادته كفران النعم ، لم يكن قتل خواص النعم عليه بدعاً منه . أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته ، أو من الذين كانوا يكفرون فى دينهم ، فقد كانت لهم آلهة يعبدونها ؛ ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ ويذكر وأهلك ﴾ الآية . وقرئ : إهلك ^(١) .

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه دافعاً لرسالة موسى ، وقادحاً فى نبوته ، ولا يستطيع موسى معه توجيه دعوته . ولكن موسى (عليه السلام) معه ربه يسمع ويرى ، ويمده بالقوة والسلطان ، لا يخشى فرعون كائناً من كان ، ولا يتغير حاله بتذكيره بالنعم السابقة عليه ، ولا يؤثر فيه التوبيخ ، ولا التهديد بالقصاص على جنائية قتل القبطى الذى يحس به من وراء العبارات . فهو (عليه السلام) لا يخاف فى الحق لومة لائم . ومن ثم مضى يفند حجة فرعون ويحجب على مقالته :

﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكماً وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ .

قال موسى (عليه السلام) مجيباً لفرعون : وتلك الفعلة التى ذكرت - يريد قتل القبطى - إنما فرطت منى وأنا إذ ذاك من الجاهلين . فنفى عن نفسه صفة الكفر ، وبرأ ساحته بأن وضع الضالين موضع الكافرين . واختلف فى المقصود من (الضالين) فقيل : من الجاهلين ، أى من الفاعلين فعل أولى الجهل ، أو المخطئين ، أو الناسين . وقيل : من الجاهلين بأن تلك الوكرة تبلغ القتل . وقيل : من الضالين عن النبوة ولم يأتنى عن الله فيه شىء .

قال الفخر الرازى : (قوله : ﴿ فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ المراد بذلك الداهلين عن معرفة ما يؤول إليه من القتل ؛ لأنه فعل الوكرة على وجه التأديب ، ومثل ذلك ربما حسن وإن أدى إلى القتل . فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به ، أو يعد منه كافراً ، أو كافراً لنعمه . فأمّا قوله : ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ فالمراد : أنى فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكاً ، وكان منى فى حكم السهو ، فلم استحق التخويف الذى يوجب

الفرار ، ومع ذلك فررت منكم عند قولكم : ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (١) فبينَ بذلك أنه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة ، بل بأن يكون مسيئاً فيه أقرب من حيث خوف تخويفاً أوجب الفرار . ثم بينَ نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار ، فكأنه قال : أسأتم وأحسن الله إلىَّ بأن وهب لي حكماً وجعلني من المرسلين . واختلفوا في الحكم ، والأقرب أنه غير النبوة ؛ لأنَّ المعطوف غير المعطوف عليه ، والنبوة مفهومة من قوله : ﴿ وجعلني من المرسلين ﴾ فالمراد بالحكم : العلم ، ويدخل في العلم العقل والرأى ، والعلم : الدين الذي هو التوحيد ، وهذا أقرب ؛ لأنه لا يجوز أن يبعثه تعالى إلا مع كماله في العقل والرأى والعلم بالتوحيد (٢) .

ثم كرَّر على امتنانه عليه بالتربية فردَّه عليه ، ونَبَّه على أنَّ ذلك كان في الحقيقة نعمة لا نعمة ، فقال .

﴿ وتلك نعمة تمنها علىَّ أن عبَّدت بني إسرائيل .

قال القرطبي : (اختلف الناس في معنى هذا الكلام ؛ فقال السدي والطبري والفراء : هذا الكلام من موسى - عليه السلام - على جهة الإقرار بالنعمة ، كأنه يقول : نعم ؟ وتربيتك نعمة علىَّ من حيث عبَّدت غيري - أي ذللتهم واتخذتهم عبيداً - وتركتني ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار ، أي أتمن علىَّ بأن رببتني وليداً وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم ؟! أي ليست بنعمة ؛ لأنَّ الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي ، فكيف تذكر إحسانك إلىَّ على الخصوص ؟ وقيل : فيه تقدير استفهام ، أي : أو تلك نعمة ؟ وقال الضحاك : إنَّ الكلام خرج مخرج التبكيت ، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل أبناء بني إسرائيل ما كان هناك سبب في وقوعي عندك وحصولي في تربيتك ، ولرباني أبواي ، فأنت نعمة لك علىَّ ! وهل هذا هو فضلك العظيم ؟! فأنت تمن علىَّ بما لا يجب أن تمن به ، فإنك تمن علىَّ بتعبيد قومي . وقيل : معناه : كيف تمن علىَّ بالتربية وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذل (٣) .

بتلك المقالة المتينة ، والقول الثابت ، غلب موسى (عليه السلام) فرعون . ولما لم يجد هو الآخر من تقريره على التربية وغير ذلك حجة ، شرع في الإعتراض على دعواه (عليه السلام) . فقال على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ماثمَّ رب أرسله :

١ - من سورة القصص : آية رقم ٢٠ .

٢ - التفسير الكبير ج٢٤ ص ١٢٥ - ١٢٦ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج١٣ ص ٩٥ - ٩٦ بمعناه .

﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .

﴿ قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ .

إنَّ فرعون علا في الأرض ، وأنكر وجود الصانع الخالق ، رب كل شيء ومليكه وإلهه ، وجعل نفسه إلهاً حتى دان قومه بعبادته ، وأذعنوا بقداسته . ولهذا فهو لا يريد أن يعترف بأنَّ رب موسى وهرون ربه ، وبالتالي أخذ يحاور موسى (عليه السلام) ويسأله : من ربكما يا موسى ، الذى تتكلمان باسمه وتدعيان أنه أرسلكما ؟

هنالك أجابه موسى (عليه السلام) قائلاً : (ربنا الذى وهب الوجود لكل موجود في الصورة التى أوجده بها وفطره عليها . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التى خلقه لها وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها .) (ثم) هنا ليست للتراخي الزمنى . فكل شيء مخلوق ومعه الاهتمام الطبيعى للفطرى للوظيفة التى خلق لها ، وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته . إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته ، فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلاً . . (١) .

قال البيضاوى : (وهو جواب في غاية البلاغة ؛ لاختصاره ، وإعراجه عن الموجودات بأسرها على مراتبها ، ودلالته على أنَّ الغنى القادر بالذات ، المنعم على الإطلاق هو الله تعالى ، وأن جميع ما عده مفتقر إليه ، منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله ؛ ولذلك بهت الذى كفر فلم ير إلا صرف الكلام عنه : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ أى فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة ؟) (٢) .

قال الطبرى : (فأجابه موسى فقال : علم هذه الأمم التى مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك عند ربى في كتاب . يعنى : في أم الكتاب ، لا علم لى بأمرها ، وما كان سبب ضلال من ضل منهم ، فذهب عن دين الله ﴿ لا يضل ربى ﴾ يقول : لا يخطئ ربى في تدبيره وأفعاله ، فإن كان عذب تلك القرون في عاجل ، وعجل هلاكها ، فالصواب ما فعل ، وإن كان أخر عقابها إلى القيامة ، فالحق ما فعل ، هو أعلم بما يفعل ، لا يخطئ ربى ﴿ ولا ينسى ﴾ فيترك فعل ما فعله حكمة وصواب) (٣) .

١ - في ظلال القرآن ج٦ ص ٢٣٣٨ .

٢ - أنوار التنزيل ج٢ ص ٥١ - ٥٢ .

٣ - تفسير الطبرى ج١٦ ص ١٧٣ .

هذا ، ولما كان قد فجأه من موسى (عليه السلام) أمر لا يقرّه ولا يرضاه ، وهو الدعوة إلى التوحيد ، نجد فرعون في موقف آخر يسأل موسى عن ربه في تهكّم وتجاهل واستهزاء واستنكار واستغراب وإلحاد :

﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ .

كأن فرعون يستفهم موسى (عليه السلام) استفهاماً عن مجهول من الأشياء ، كأنه يقول : أى شيء يكون رب العالمين الذى تزعم أنه أرسلك ؟ وفى هذا دلالة واضحة على كفره ، وتمرده ، وطغيانه ، وجحوده بالخالق جل وعلا ، إذ كان يقول للناس : لا رب لكم سوى فرعون ! بمعنى : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ الآية .

فعند ذلك أضرب موسى (عليه السلام) عن سؤاله ، وأعلمه بعظيم قدرة الله تعالى والى لا يشاركه فيها أحد :

﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (قوله تعالى : ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى خالق جميع ذلك ، ومالكة ، والمتصرف فيه ، وإله لا شريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها : العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثابتة ، والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له ، خاضعون أذلة ﴾ (إن كنتم موقنين ﴾ أى إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكّم والاستهزاء ، والتكذيب لموسى فيما قاله : (ألا تسمعون ؟) أى ألا تعجبون من هذا فى زعمه أن لكم إلهاً غيرى ؟) (١) .

عندئذ زاد (عليه السلام) فى بيان صفات رب العالمين ، بما يحيط فرعون من ادعاء الربوبية إلى مرتبة الربوبية ، فقال له ولن حوله من أشراف قومه :

﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ الآية .

كأن موسى (عليه السلام) يقول لهم : انظروا إلى أنفسكم ؛ لأن رب العالمين الذى أدعوكم إليه هو الذى خلقكم والذين من قبلكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، كما خلق آباءكم الأولين ماتوا وأصبحوا نسياً منسياً ، فكيف تعبدون فرعون هذا المخلوق كخلقكم ، الذى لن يكون مصيره إلا كمصير آبائه الفانين ؟

حينئذ لم يملك فرعون جواباً ، ولم يستطع مقاومة ، فخرج من حدود الحوار بالحجة والبرهان إلى الاستخفاف والسخرية ، ورمى موسى (عليه السلام) في تهكم بالجنون : ﴿ قال إنَّ رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ .

قال أبو السعود عند تفسير هذه الآية الكريمة : (لما واجه موسى (عليه السلام) فرعون بما ذكر ، غاظه ذلك ، وخاف من تأثر قومه منه ، فأراهم أنَّ ما قاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء ، صدأً لهم عن قبوله ، فقال مؤكداً لمقالته الشنعاء بحرفى التأكيد : ﴿ إنَّ رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ ليفتتهم بذلك ، ويصرفهم عن قبول الحق ، وسماه رسولاً بطريق الاستهزاء ، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعاً من أن يكون مرسلًا إلى نفسه)^(١) .

ولكن هذه الأساليب الخبيثة من التهكم والسخرية والالتهام بالجنون . . . لم تغفل من عزم موسى (عليه السلام) ، ولم تنه عن قصده ، ولم تدخل الوهن إلى نفسه ، بل مضى في طريق الدعوة إلى الله تعالى في صبر وثبات وقوة ، يصدح بكلمة الحق عند السلطان الجائر الجاحد :

﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ .

قال الشوكاني : (لم يشتغل موسى بدفع ما نسب إليه من الجنون ، بل بينَّ لفرعون شمول ربوبية الله سبحانه للمشرق والمغرب وما بينهما ، وإن كان ذلك داخلًا تحت ربوبيته سبحانه للسموات والأرض وما بينهما ، لكن فيه تصريح بإسناد حركات السموات وما فيها ، وتغيير أحوالها وأوضاعها ، تارة بالنور وتارة بالظلمة ، إلى الله سبحانه . وثنية الضمير في (وما بينهما) الأول لجنسى السموات والأرض . وقوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أى شيئاً من الأشياء ، أو إن كنتم من أهل العقل : أى إن كنت يا فرعون ، ومن معك من العقلاء ، عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك)^(٢) .

وقال الأستاذ سيد قطب : (والطاغية لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظه الشعوب ، وصحوة القلوب ؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعى واليقظة ؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية . ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب . فينهي الحوار بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح ، الذى يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين :

﴿ قال لئن اتخذت إهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

١ - تفسير أبى السعود ج٤ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٢ - فتح القدير ج٤ ص ٩٨ .

(هذه هي الحجة ، وهذا هو الدليل : التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين . فليس السجن عليه ببعيد . وما هو بالإجراء الجديد ! وهذا هو دليل العجز ، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع . وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد !)^(١) .

إنَّ فرعون الذي بلغ الغاية في عتوه وغلوه عندما ادعى الألوهية ، نجده في قوله هذا يهدد موسى (عليه السلام) ويطلب إليه أن يترك دعوى الرسالة ، ولا يتعرَّض له ؛ ويكلفه أن يتخذه إلهاً ! وإلا لجعله ممن يعذَّبون في سجنونه المهلكة ! يبدو ذلك واضحاً في تعجبه وتعجيبه من جواب موسى الأول ، وتهكمه وسخريته واتهام موسى (عليه السلام) بالجنون في الجواب الثاني . كان كل ذلك لنسبته (عليه السلام) الربوبية لرب العالمين .

ولما كان موسى (عليه السلام) شديد الحزم ، قوى العزم ، ماض في أمره ، فإنَّ التهديد لم يفقده رباطة جأشه . بل مضى في طريقه يلاطف فرعون ؛ طمعاً في إجابته ، وإرخاء لعنان المناظرة معه ، ومريداً لقهره بالمعجزات . ومن ثم عرض له القول على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة :

(قال أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ)

(قيل : الواو في قوله : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ ﴾ للعطف على مقدَّر ، دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير . والمعنى : أتسجنني حتى في هذه الحالة التي لا تناسب أن أسجن وأنا متلبس بها ؟ وقيل : هي واو الحال ، دخلت عليها همزة الاستفهام . والمعنى : أتجعلني من المسجونين حتى ولو جئتُك بحجة بيِّنة على صدقي ، وبرهان واضح يظهر عنده صحة دعواي ؟)^(٢) .

وهذا وضع موسى (عليه السلام) فرعون في موقف حرج أمام أشراف قومه الذين حضروا المحاورة - التي دارت بينهما - منذ البداية . ولو أعرض فرعون عن هذا البرهان ، ونأى بجانبه إلى عدوة الجور والاعتساف ، لدلَّ على خوفه من حجة موسى (عليه السلام) ، وهو منذ لحظات كان يدَّعي أنه مغلوب على عقله . ومن ثم وجد فرعون نفسه مضطراً أن يطلب منه الدليل :

﴿ قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ .

﴿ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ .

١ - في ظلال القرآن ج٩ ص ٢٥٩٣ .

٢ - البحر المحيط ج٧ ص ١٤ بتصرف .

قال فرعون متحدياً موسى (عليه السلام) وطامعاً في أن يجد أثناء ذلك موضع معارضة :
إن كنت محقاً في دعواك ، صادقاً في أنك جئتنا بمعجزة باهرة وشيئاً مبيناً يدل على صحة
رسالتك ، فاكشفه لنا لنقف على حقيقة ما تقول .

والظاهر من هذا التحدى أن فرعون ما زال في شك مما جاءهم به موسى من البينات ،
ويريد أن يشكك من حوله في موسى (عليه السلام) حتى لا تصل حجته إلى القلوب .
هنا أبرز موسى معجزتيه ، وقد أخرهما للوقت المناسب :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾

رمى موسى (عليه السلام) عصاة التي كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه التي كان
يرعاها ، رمى تلك العصا أمام فرعون وملئه فإذا بها تتحول فعلاً إلى ثعبان تدب فيه الحياة .
ثم أخرج يده من جيبه فرأها المشاهدون بيضاء فعلاً ، صافية في بياضها . وهذا الأمر لم يكن
تخيلاً كما هو الحال في السحر . وإنما هو أمر خارق للعادة أجراه الله رب العالمين على يد موسى
(عليه السلام) مقروناً بالتحدى ودعوى الرسالة ، بمعنى أنه دليل مادي من الله تعالى على
صدق رسوله في الرسالة .

آنذاك أحس فرعون بعظمة المعجزة وقوتها ، وبدأ عليه الخوف على مركزه الذي أصبح في
موقف حرج ، وخشى على هيئته أن تذهب ، وعلى سلطانه أن ينهار أمام ما جاء به موسى
(عليه السلام) من المعجزات والآيات البينات التي لم يشأ فرعون أن يعترف بأنها معجزات ؛
كبراً وعناداً وعتواً . واتهم موسى (عليه السلام) بأنه ساحر بارع في فنون السحر ، ونبه قومه
بأن هذا الساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم وديارهم بقوة سحره . ثم استشارهم في أمره ،
وطريق الخلاص منه . وبهذا أثار فرعون حفيظة القوم ، وحرك فيهم دواعي الإشفاق على
وطنهم ؛ وذلك ليصرفهم عن التأثير بمعجزات موسى ، وليغريهم به (عليه السلام) .

قال تعالى : ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم
بسحره فماذا تأمرون ﴾ .

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا
تأمرون ﴾ .

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما
جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون
لكم الكبرياء في الأرض وما نحن لكم بمؤمنين ﴾ .

﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ .

فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . وقال موسى رب أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴿ ١ 》 .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ .

﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ .

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾ .

(فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى ﴾ .

لقد أرسل الله تعالى موسى (عليه السلام) إلى فرعون وهامان وقارون وملئهم ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة من سواه وما سواه . وبعث معه آيات بينات ، وحجة قوية ، ودليلاً واضحاً على صدق دعواه . فلما أظهر لهم ذلك ، استكبروا استكباراً ، وكذبوا بالآيات ، وسخروا منها ، واستقبلوها وهم يضحكون ، شأن الجهال الطغاة المتعاليين . أمّا فرعون فقد كان من المبادرين بالإعراض عما جاء به موسى من الحق المبين ، ومن المكذبين به للوهلة الأولى ؛ استكباراً وعناداً ، وقد خالف ما أمره به موسى (عليه السلام) من الطاعة والانقياد لخالقه . ومن ثم لجأ إلى الجدال بالباطل ليدحض به الحق ، وطفق يقول : لا يخلو أمرك يا موسى ، فيما جئني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً .

قال تعالى : ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (والسultan المبين الذى أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية والبرهان القاطع ، وهو الهيبة الجليلة التى خلعتها عليه وهو معها يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح ، والبرهان القاطع وقال عن موسى النبى الذى كشف له عن آيات الله الخوارق : ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ . . . مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهب للهدى ، ولا تقطع لساناً يصصر على الباطل ويفترى)^(١) .

وقال الحافظ ابن كثير : (إنَّ الله تعالى أرسل موسى بن عمران عليه السلام بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، فقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾

والسلطان : هو الحجة والبرهان ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو مَلِك القبط بالديار المصرية (وهامان) وهو وزيره في مملكته (وقارون) وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ أى كَذَّبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً ممهاً كذاباً فى أَنَّ الله تعالى أرسله إليهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ (١)(٢) .

ويبدو أنَّ قولهم : ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ كأنه شىء واحد يتعارف عليه المكذَّبون فى جميع العصور ! فالطغاة عن أمر ربهم ، دائماً يتلقون آيات الله تعالى بالإعراض والتكبر ، وكأنهم يوصى بعضهم بعضاً بالكذب ومعارضة الحق بشتى الأساليب الخبيثة ، ورمى الدعاة بأشنع التهم .

ففرعون وأشراف قومه وكبرائهم كانوا من هذا الصنف من البشر . جاءهم موسى (عليه السلام) بالآيات البيِّنات ، والسلطان المبين على صدقه فيما أخبر به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره . فلما عاينوا ذلك وشاهدوه وتحققوه وابقنوا أنه من عند الله استكبروا عن الإقرار به ، وعدلوا بكفرهم وبغيتهم إلى العناد والمباهة . فكذبوا رسولهم موسى (عليه السلام) واتهموه بالسحر والجنون ، وزعموا أنَّ ما جاءهم به من آيات الله ما هو إلا سحر مفترى ، كما زعموا أنه (عليه السلام) لا يبتغى بدعوته إلا سلب سلطانهم منهم ، والافتراء بالرياسة الدينية والملك ، والتمتع بالكبرياء فى الأرض .

قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بيِّنات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

بهذا القول الثابت ألقمهم موسى (عليه السلام) الحجر ، فعجزوا عن الإتيان بكلام له تعلَّق بكلامه ، واضطروا إلى الكشف عن حقيقة الدوافع التى تصدهم عن التسليم بآيات الله . ولعلها هى الخوف من تحطيم أصنامهم وتقاليدهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسى والاقتصادى . وبمعنى آخر : هى الخوف على مركزهم وسلطانهم فى الأرض ، القائم على الخرافات والأوهام وعبادة الأصنام ، وعلى تعبيد الناس لأرباب من دون الله تعالى ؛ ولهذا فقد تبجحوا وجأهروا بكفرهم وعصيانهم ، وكانوا قوماً مجرمين ، كما حكى الله تعالى عنهم ، فقال :

١ - من سورة الذاريات : آية رقم ٥٢ - ٥٣ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٧٦ .

﴿ قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا عند تفسير هذه الآية الكريمة : (الاستفهام في قولهم : ﴿ أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ هذا استفهام توريط وتقرير تجاه ما أورده موسى من استفهام الإنكار والتعجيب ، فحواه : أنقر وتعترف بأنك جئنا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من الدين القومى الوطنى ، لتتبع دينك ، وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية ، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها فى أرض مصر كلها ؟ يعنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا ، وإن لم تعترف به اعترافاً ، ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أى وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان فيما نخرجنا من دين آبائنا الذى تقلده عامتنا ، ويسلبنا ملكنا الذى تتمتع بكبريائه خاصتنا - وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيه . وهذان الأمران هما اللذان كانا يمتنعان جميع الأقوام من اتباع الأنبياء والمصلحين فى كل زمان ^(١) .

وهذه العلل التى يتشبثون بذيولها ، ليصدوا عن التسليم بآيات الله تعالى ، هى عبارة عن ممارسة فى الحق الظاهر الواضح الذى لا يمكن دفعه . ممارسة مكرره حيثما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب . إنهم يدعون أنه سحر مكذوب مختلق ، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم ، لم يسمعوا بمثله فى آبائهم الأولين .

قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ .

قال الطبرى : (يقول تعالى ذكره : فلما جاء موسى فرعون وملأه بآدلتنا وحججنا بينات أنها حجج شاهدة بحقيقة ما جاء به موسى من عند ربه ، قالوا لموسى : ما هذا الذى جئنا به إلا سحر افتريته من قبلك وتخرصته كذباً وباطلاً ، وما سمعنا بهذا الذى تدعونا إليه من عبادة من تدعونا إلى عبادته فى أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا .

(وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ الآية ، يقول تعالى ذكره : وقال موسى مجيباً لفرعون : ربى أعلم بالمحق منا يا فرعون ، من المبطل ، ومن الذى جاء بالرشاد إلى سبيل الصواب ، والبيان عن واضح الحججة من عنده ، ومن الذى له العقبى المحمودة فى الدار الآخرة منا . وهذه معارضة من نبي الله موسى عليه السلام لفرعون ، وجميل مخاطبة ، إذ ترك أن يقول له : بل الذى غر قومه وأهلك جنوده ، وأضل أتباعه ، أنت لا أنا ،

ولكنه قال : ﴿ ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ . ثم بالغ في ذم عدو الله فقال : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يقول : إنه لا ينجح ولا يدرك طلبتهم الكافرون بالله تعالى ، يعنى بذلك فرعون أنه لا يفلح ولا ينجح ، لكفره به ^(١) .

حقاً ، إنه لا يفلح الظالمون ، لأنهم مجرمون ، يمارون في الحق بعد ما يتبين ، ويجادلون بالباطل ، ومع هذا لا يستندون إلى حجة أو برهان .

لقد جاء موسى (عليه السلام) بالبيّنة والآية الكبرى على صدق دعواه . ولكن فرعون وملاه يصدون عن سبيل الله بتحويل الأنظار عن دلالة الحق ، باتهام موسى بأنه ساحر فائق في السحر ، ويؤكدون هذا الاتهام بتبجح مسافر ، بحرف (إن) وهم لا يستندون مع هذا إلى دليل ، وإنما هو الخوف على مركزهم وسلطانهم في الأرض من الزوال ، يحملهم على الكذب والخداع والكيد وإطلاق كل ما من شأنه تغيير الناس عن موسى ودعوته .

قال تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ .

قال الأستاذ المراغى : (ولما رأى فرعون هذه الحجج - يعنى آيتى العصا واليد البيضاء - بادر بالتكذيب والعناد ، وذكر لإشراف قومه أمورا . ثلاثة :

(أ) ﴿ قال الملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ أى قال لرؤساء دولته وأشراف قومه الذين حوله ، ليرؤج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل لبارع في السحر ، حاذق في الشعوذة . ومراده من هذا : أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر ، لا من وادى المعجزات .

ثم هيّجهم وحرّضهم على مخالفته ، والكفر به ، والتنفير منه ، بقوله :

(ب) ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه ، بسبب هذا السحر ، فيكثر أعوانه وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم .

(ج) ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أى فأشيروا على ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ؟ ومثل هذا

القول يوجب جذب القلوب ، والتضافر في مكافحة العدو ، والتغلب عليه جهد المستطاع (١) .

وقال أبو السعود : (بهر فرعون سلطان المعجزة وحيّره ، حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع (لعبده) - في زعمه - والامثال بأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعد ما كان مستقلاً في الرأي والتدبير ، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ، ونسب الإخراج والأرض إليهم ؛ لتفجيرهم عن موسى عليه السلام) (٢) .

(وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم . عندئذ يلينون في القول بعد التجبر ، ويلجئون إلى الشعوب ، وقد كانوا يدوسونها بالأقدام . ويتظاهرون بالشورى في الأمر ، وهم كانوا يستبدون بالهوى . ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر ، ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون) (٣) .

وهكذا قال الملاء من قوم فرعون ، يتشاورون مع فرعون ، ويسألونه الرأي فيما يصنعون إزاء درء هذا الشيء العظيم المفاجيء الذي أتاهم به موسى (عليه السلام) :

﴿ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

وفي النهاية أشار أشرف القوم على فرعون أن يمهّل موسى وأخاه إلى أجل ، وأن يرسل في أنحاء مصر ومدنها الكبرى من يجمع له كبار السحرة المهرة ؛ ذلك ليواجهوا موسى (عليه السلام) ويناظروه ولعلهم يغلبونه بسحرهم ويبطلون ما جاء به من الآيات !

وكذا قد أجمعوا أمراً ، واستقر رأيهم عليه :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

قال الشوكاني : (ومعنى : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أخر أمرهما ، من أرجأته ، إذا أخرته ، وقيل : المعنى : احبسهما ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ وهم الشرط الذين يحشرون

١ - تفسير المراغي ج ١٩ ص ٥٧ .

٢ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢١١ .

٣ - في ظلال القرآن ج ١٩ ص ٢٥٩٤ .

الناس : أى يجمعونهم ﴿ يأتوك بكل سحر عليم ﴾ هذا ما أشاروا به عليه ، والمراد بالسحر العليم : الفائق فى معرفة السحر وصنعتة ^(١) .

ولعل هذا الأمر الذى استقر رأيهم عليه ، قد صادف هوىً فى نفس فرعون الوجلة على السلطان من الزوال . فتمادى فى تكذيب موسى (عليه السلام) جحوداً وعناداً وعتواً واستكباراً ، واتجه إلى موسى ينكر ما عرضه عليه من آيات الله الكبرى ، ويصفها بأنها سحر ، ويتحدها بأنه سيلغى ذلك بسحر سحرة مهرة بارعين فى فنون السحر .

﴿ قال أجتئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى ﴾ .

ولما رأى فرعون الآيات التى أتاه بها موسى ، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعباناً ، ونزع يده من جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء ، إذ ذاك حمل فرعون قومه على غاية المقت لموسى (عليه السلام) بقوله : هذا سحر جئت به لتسحرنا ، ولتوهم الناس أنك جئت بأية توجب اتباعك والإيمان بك ، حتى تغلب علينا وعلى أرض مصر ، وبالتالي تخرجنا من ديارنا ؟

قال الزمخشري : (يلوح من قوله : ﴿ أجتئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ﴾ أن فرائضه كانت ترعد خوفاً مما جاء به موسى عليه السلام ؛ وإيقانه أنه على الحق ، وأن الحق لو أراد قود الجبال لانقادت ، وأن مثله لا يخذل ، ولا يقل ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لا محالة . وقوله : (بسحرك) تعلل وتحير ، وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر ^(٢) .

ثم ادعى فرعون أنه يعارض موسى بمثل ما أتى به (عليه السلام) فقال : ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ أى لنجىء بسحر مثل الذى جئت به ، فننظر أينما يغلب صاحبه ، حتى يتبين للناس أن ما أتيت به سحر لا معجز .

ثم طلب إلى موسى تحديد موعد لمعارضة ما جاء به من الحق بما عندهم من السحر ، وتحدها بأن ترك له تعيين الوقت والمكان : فقال : ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ﴾ أى اجعل لنا يوماً معلوماً ، نلتقى نحن وأنت فيه للمناظرة ، فى مكان معروف مكشوف يظهر فيه العدل والنصفة ، على أن يكون ذلك وعداً غير مكذوب .

١ - فتح القدير ج٤ ص ٩٨ .

٢ - الكشف ج٢ ص ٥٤١ .

ولعل هذا ما كان يرغب فيه موسى (عليه السلام) أن يجتمع الجمهور في صعيد واحد ، ثم يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرتهم ؛ ولهذا قبل (عليه السلام) ما تحدّاه به فرعون ، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة عندهم في مصر ، في أوضح فترة من نهار ذلك اليوم : ﴿ قال موعداكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ أى قال موسى لفرعون وملئه : موعداكم للاجتماع يوم الزينة ، وهو يوم عيد كان لهم ، أو سوق ، كانوا يأخذون فيه زينتهم ، ويتجمعون في الأمكنة العامة المكشوفة . وحدّد لهم ذلك اليوم ، وطلب أن يُساق الناس جميعهم من كل فج وناحية (ضحى) وقت انبساط الشمس وامتداد النهار ؛ ذلك ليشاهدوا بكل وضوح معجزات النبي موسى ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية .

ويبدو أنّ فرعون وافق على ما قرره موسى (عليه السلام) من تحديد زمان ومكان مهرجان السحرة ، ثم انصرف لتدبير الأمر ، والتهيئة والاستعداد لليوم الموعود . فطلب إلى ملئه أن يحشدوا له جميع الطاقات الماهرة التي تباشر السحر في مدائن مصر ، على أن تلتقى بموسى وهرون في اليوم المحدد للمناظرة :

﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ .

قال أبو السعود : (قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ﴾ توحيد الفعل ؛ لأنّ الأمر من وظائف فرعون ، أى قال لملئه ، يأمرهم بترتيب مبادئ إلزامها (عليهما السلام) بالفعل ، بعد اليأس من إلزامها بالقول : ﴿ ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ بفنون السحر ، حاذق ماهر فيه ، وقرىء : سحار^(١) .

وهكذا ابتدأ فرعون في جمع كيده وتحديد لموسى (عليه السلام) بأن أرسل في مدائن مصر حاشرين يأتونه بكل سحار عليم . وبهذا أراد فرعون أن يخدع الناس ويعقد حلقة للسحرة يتحدّى بها موسى ، ويعارض ما جاء به (عليه السلام) من الحق المبين بزخارف السحر وفنون السحرة ؛ ليخزجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً . وبذلك ينفّض الناس من حوله ، ويعودون للاستمسك بعقائدهم وشعائدهم الموروثة ، ويظل فرعون في مركزه ، ويتمرّز بذلك سلطانه . هذا ما أراده فرعون وملؤه ، وقد جندوا كل القوى لتنفيذ ذلك وتحقيقه .

وسوف نقف بالتفصيل ، في القسم الثاني من هذا البحث ، على نتائج هذا التآمر ، وجمع

١ - تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٦٩٨ - ٦٩٩ .

السحرة ، وحشد الناس للمناظرة الكبرى . كما سيتضح لنا عما قريب أن فرعون وملاه إنما أرادوا بفعلهم هذا أن يمكروا بموسى (عليه السلام) ولكن يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

موسى يناظر سحرة فرعون فإذا بهم يؤمنون برب العالمين :

قال الله تعالى : ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلمًا ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون ﴾ (١) .

﴿ فلمًا جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فلمًا ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ (٢) .

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا حبابهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى ﴾ (٣) .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلمًا جاء السحرة قالوا لفرعون أين لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبابهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون ﴾ (٤) .

١ - من سورة الاعراف : آية رقم ١١٣ إلى رقم ١٢٢ .
٢ - من سورة يونس : الآيات رقم ٨٠ إلى رقم ٨٢ .
٣ - من سورة طه : الآيات رقم ٦٠ إلى رقم ٧٠ .
٤ - من سورة الشعراء : الآيات من رقم ٣٨ إلى رقم ٤٨ .

يبدو من هذه الآيات الكريمة ، أنَّ فرعون وملأه أرادوا بهذه المناظرة الفعلية بين موسى (عليه السلام) والسحرة ، أن يحتالوا في إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وأن يبرهنوا على أنه كذاب . وذلك حتى لا يستميل الناس بدعوته وبما معه من آيات الله البينات ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم . ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . فقد انتهت المناظرة بغلبة موسى (عليه السلام) للسحرة ، وهزيمة من استنصر بهم فرعون وهكذا دائماً شأن الحق والباطل ، والإيمان والكفر . ما تواجه المؤمنين الصابرين الناصرين لله تعالى . قال سبحانه : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ (١) وقال عز وجل : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (٢) وقال الله جل جلاله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٣) وقال المولى جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٤) .

هذا ، ولكي يكيد لموسى وهرون (عليهما السلام) كيداً ، اهتم فرعون بأمر السحرة ، وأسرع في إرسال الحاشرين في مدائن مصر ؛ ليأتوه بكل ساحر عليم . واجتهد في حشدهم ، ثم أتى بهم في الزمان والمكان المعلومين ، في اليوم الموعود لالتقاء السحرة بموسى (عليه السلام) . وكان فرعون مؤملاً في استعلائهم ، متفائلاً بنصرهم ؛ لكثرتهم في العدد والعدد ، بينما كان من وراء ذلك حريصاً على مركزه وسلطته من الانهيار والزوال . كل هذا مما كان يدفعه دفعاً إلى مساجلة موسى (عليه السلام) والقضاء على دعواه :

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ .

قال الفخر الرازي : (أمّا قوله : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ فاعلم أن التولى قد يكون إعراضاً وقد يكون انصرافاً . والظاهر ههنا أنه بمعنى الانصراف ، وهو مفارقتها لموسى عليه السلام على الموعد الذي تواعدوا للاجتماع فيه . قال مقاتل : فتولى : أي أعرض وثبت على إعراضه عن الحق ، ودخل تحت قوله : ﴿ فجمع كيده ﴾ السحرة وسائر من يجتمع لذلك ، ويدخل فيه الآلات ، وسائر ما أورده السحرة ﴿ ثم أتى ﴾ دخل تحتها أي الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات (٥) .

٢ - من سورة الأنبياء : آية رقم ١٨ .

٤ - من سورة محمد : آية رقم ٧ .

١ - من سورة الإسراء : آية رقم ٨١ .

٣ - من سورة غافر : آية رقم ٥١ .

٥ - التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٧٣ .

وهكذا حشد فرعون السحرة المهرة من مدائن مصر للميقات المعلوم ، وأعلن الناس بالاجتماع ، وحثهم على المبادرة لتشجيع السحرة ؛ لكي يهتّموا بسحرهم ويحدّوا في الغالبة : ﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ .

قال الأستاذ المراغى : (قوله : ﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أى وقيل للناس حثاً لهم على المبادرة إلى الاجتماع ، ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون في ذلك الميقات لتروا ما سيكون في ذلك اليوم المشهود ؟ وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وقد طلب أن يكون ذلك بمجمع من الناس ؛ لئلا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع من موسى الموقع الذى يريده ؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة ، وحجة الكافرين هي الداحضة ، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين ، وقهر المبطلين . وقوله : ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى إنا نرجو أن يكون لهم الغلبة ، فنتبعهم ، ونستمر على دينهم ، ولا نتبع دين موسى ^(١) .

فتجمّع المصريون ليشهدوا المناظرة الفعلية بين السحرة وموسى (عليه السلام) . وقام السحرة بين يدى فرعون يطلبون منه الجائزة والمال ، ويطمثون على ذلك إن كانوا هم المتفوقين . فوعدهم بالأجر الجزيل وأغراهم بالمال والمنصب ، وأن يكونوا من خاصته المقربين إليه ، إذا تمكّنوا من موسى وغلبوه :

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ .

بهذا القول اطمأن السحرة على الأجر والجزاء ، وعادوا إلى مقام المناظرة ، يدفعهم الأمل في الثراء والقرب من فرعون وسلطانه وجاهه . هنالك تصدّى لهم موسى (عليه السلام) ونصح لهم ، وقال لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ، وحذّرهم عقاب الله وهلاكه إياهم إن هم اختلقوا عليه الكذب ، أو أشركوا به شيئاً ، أو ادعوا أن المعجزات التى جاءهم بها سحر : ﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تقفروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ .

وهكذا كان موسى (عليه السلام) لا يترك فرصة تمرّ دون أن يدعو إلى الله تعالى ، سواء أمام فرعون أو غيره . ولعل نصحه وقوله هذا كان له صدق في صفوف السحرة ، وتأثيراً في نفوس بعضهم ، الأمر الذى جعلهم يتناجون سراً ، ويتشاورون فيما بينهم في أمرهم ،

ويتفاوضون ويتفاهمون ، ويبحث بعضهم بعضاً على الإقدام والتجمع والترابط والثبات ، خاصة في مثل هذا اليوم الذى يجب فيه توحيد الصفوف ، يوم المعركة الفاصلة ، يوم الاستعلاء والفلاح والنجاح لمن يغلب فيها . قالوا هذا بعد أن استقر رأيهم على أن موسى وهرون (عليهما السلام) هما إلا ساحران يريدان إخراج المصريين من أرضهم بسحرهما ، وتبديل دين آبائهم وأجدادهم :

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ .

قال أبو السعود : ﴿ قوله تعالى : ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ تصريح بالمطلوب إثر تمهيد المقدمات ، أى إذا كان الأمر كما ذكر من كونها ساحرين ، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج والإذهاب ، فآزمعوا كيدكم ، واجعلوه مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم ، وارموا عن قوس واحدة ، وقيل : فأجمعوا أدوات سحرهم ، ورتبوها كما ينبغي ﴾ ثم اتوا صفاً ﴾ أى مصطفين ، أمروا بذلك ؛ لأنه أهيب في صدور الرائيين ، وأدخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين . ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ أى قد فاز من غلب منهم ، حثاً لهم على بذل المجهود في المغالبة ^(١) .

ولما حان الوقت المحدد للمناظرة ، أجمع السحرة كيدهم ، ثم أتوا صفاً ، معجبين بعلمهم ، مزهوين بغرورهم ، فقاموا في المكان المعلوم ، وتوجهوا إلى موسى يخبرونه في أمرين : إما أن يلقى ما معه أولاً وإما أن يبدعوا هم بالإلقاء . ولعل ذلك كان ثقة منهم بسحرهم ، وإظهاراً للتحدى ، واعتقاداً بالغلبة . ولكن موسى (عليه السلام) كان مطمئناً إلى الحق الذى معه ، فلم يكثر لجموع السحرة ، ولم يبال بسحرهم ، بل استخف بخطبهم ، واستهان بتحديثهم له ، وأذن لهم بأن يمارسوا صنعتهم ، ويلقوا حبالهم وعصيهم على الأرض ، حتى يستنفدوا طاقتهم في هذا الفن ، ثم يقهرهم بالحجة ، ويظهر لهم أن الذى جاء به ليس هو من جنس السحر الذى أرادوا معارضته وتحديه به . آنذاك جمع السحرة أقصى مهارتهم ، وأعظم كيدهم في علم السحر ، وبذلوا غاية جهدهم في هذا الفن الذى اكتسبوه بالخبرات الطويلة حتى حذقوه ، ثم بدءوا المناظرة الكبرى باسم فرعون وعظمته !

قال تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ .

﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ .

﴿ قالوا يا موسى إماماً أن تلقى وإماماً أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ .

﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ .

لقد تقدّم السحرة ، وألقوا حبالهم وعصيهم في ساحة العرض ، ونظر موسى (عليه السلام) وإذا بهذه الحبال والعصى كأنها حيات وثعابين تتحرك بفعل السحر . وفوجئ الناس بسحر عظيم مرعب مخيف ، أثار الرهبة والخوف في قلوبهم . وذلك أن السحرة بشعوذتهم وحيلهم وخفة أيديهم ، استطاعوا أن يخيلوا لأبصار الناس ما لا حقيقة له في الواقع ، وأرهبوهم بهذا الفن إرهاباً شديداً ، لدرجة المبالغة في الإرهاب ، حتى إن موسى (عليه السلام) هاله هذا الأمر ، وأوجس في نفسه خيفة منه ، ولكن الله حماه ورعاه أمام ذلك الحشد الهائل من جمهور الناس والسحرة ، حيث أوحى إليه ألا تخف فإنك أنت المنصور والغالب . ألق ما في يمينك تتحوّل إلى ثعبان لا شك في خليقته وصفته ، فإذا هو يتلع في أسرع ما يكون كل ما قذف به السحرة من صنعة وخيال ، في ساحة النزال .

قال الأستاذ سيد قطب : (وموسى لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسبه لحظة أنه الأقوى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى :

﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ فمعك الحق ، ومعهم الباطل . معك العقيدة ، ومعهم الحرفة . معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة . أنت متصل بالقوة الكبرى ، وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً .

(لا تخف ﴾ وألق ما في يمينك ﴾ بهذا التنكير للتضخيم ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ فهو سحر من تدبير ساحر وعمله . والساحر لا يفلح أي ذهب ، وفي أي طريق سار ؛ لأنه يتبع تخيلاً ، ويصنع تخيلاً ، ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية . شأنه وشأن كل مبطل أمام القائم على الحق ، المعتمد على الصدق . وقد يبدو باطله ضخماً فخماً ، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبخر ولا تتطاوّل ولا تتظاهر ؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية ، فإذا هو زاهق ، وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى) (١) .

ورأى موسى (عليه السلام) قبل أن يلقي عصاه أن يبين للسحرة أن ما جاءوا به من حركات الحبال والعصى على الأرض هو السحر بعينه ، وأن الله تعالى سيمحقه ، ويظهر بطلانه للناس ، بإزالة جميع آثاره بما يجريه على يد رسوله من المعجزة ؛ ذلك لأن السحر عمل غير صالح ، بل هو إفساد وتمويه لا حقيقة له . وسيثبت الله الحق بأوامره ، وكلماته التكوينية ، ويقويه ، حتى ولو كره ذلك كل مجرم من السحرة ، أو من أولئك الذين معهم على مسرح الضلال يشجعونهم ويناصرونهم ويشدون من أزرهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُظِلُّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

ثم ما إن ألقى موسى (عليه السلام) عصاه التي بيده في الساحة الكبرى التي شهدت ذلك السحر العظيم ، حتى طفقت تبتلع كل ما طرحوه من حبال وعصى ، في أسرع حركة يمكن أن تكون للأكل ، والناس في فزع واضطراب ودهشة واستغراب :

﴿ وَأَوْحِينَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

﴿ فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ .

هنالك ظهر الحق ، وثبت واستقر ، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود ، وغلب فرعون وقومه ، وقهروا وانهزموا وصاروا أذلاء مبهوتين .

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغَلَبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ .

أما السحرة فقد بهرهم الحق ، وعرفوه عن يقين ، فتحوّلوا من التحدى السافر إلى التسليم المطلق ، وخروا للأذقان سجداً من غير تلثم ولا تردد ، غير مالكين لأنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي يجدون برهانه في أنفسهم ، كأن ملقياً ألقاهم ، لعلمهم بأن مثل هذا الأمر ليس سحراً ولا تخيلاً ، وإنما هو أمر رباني قد ظهر على يده (عليه السلام) لتصديقه في دعواه . ومن ثم أعلنوا إيمانهم بالله رب العالمين ، رب موسى وهرون :

﴿ وَالْقَى السَّحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون ﴾ .

﴿ فَالْقَى السَّحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى ﴾ .

﴿ فَالْقَى السَّحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (فكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعدر ، وحجة

دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم ، وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا وخضعوا ، وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين الذى أرسل موسى وهرون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل ، فشرع يتهدهم ويتوعدهم ، ويقول : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ ^(١) وقال : ﴿ إن هذا لمرموموه فى المدينة ﴾ ^(٢) (الآية) ^(٣) .

لقد أحسَّ فرعون بأنَّ هيئته قد سقطت ، وشعر بالخطر يهدد عرشه ، وهز سلطانه ويعزله عن الربوبية التى يدَّعيها ! كما علم أنَّ موسى (عليه السلام) قد أعجزه وقهره وهزمه أمام الجمع الزاخر والحشد الهائل . ففرع لذلك وخاف وانزعج . ومن ثم حاول أن يستر ذلك العوار كله ، ويعمِّيه على العامة ، ويضلِّلهم ويصرفهم عن الحق . فلجأ إلى المكر والخذاع ، وسارع فى اتهام السحرة بالتآمر عليه وعلى قومه مع موسى ؛ لإخراجهم من ديارهم ، واتهم موسى (عليه السلام) بأنه كبيرهم الذى علمهم السحر . ثم طفق يظهر جيروته على السحرة ، ويهددهم بالتعذيب والتشويه والتنكيل ، ويتوعدهم بالقتل والصلب . ولكن السحرة ثبتوا على الإيمان ، ولم يبالوا بتهديده ووعيده ، كما سيأتى بسطه وبيانه فى مبحث ابتلاء سحرة فرعون .

فرعون وملؤه يأتُمرون بموسى وقومه :

لما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو إظهار الله الحق المبين ، والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه وأهل دولته وملته ، فى ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم ، لم يزد هم ذلك إلا طغياناً وكفراً وعناداً وبعداً عن الحق . فعصوا أمر بارئهم ، واثتمروا بأمر فرعون على ما فيه من الجهل والحماقة والشطط ، ومشوا خلفه فى طريق الكفر والضلال ، واتبعوه بلا وعى ولا تفكير ولا تدبُّر ، وثبتوا على تكذيب موسى (عليه السلام) وأصروا واستكبروا استكباراً .

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ ^(٤) .

لقد كان فرعون غالباً فى أرض مصر ، طاغياً ، عاتياً ، متجبراً ، مسرفاً فى الظلم والفساد

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٢٣ .

٤ - من سورة هود : آية رقم ٩٦ - ٩٧ .

١ - من سورة طه : آية رقم ٧١ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٣٤ .

بالقتل وسفك الدماء . ولعل هذا مما جعل الناس يتبعون أمره ، ويعرضون عن موسى ودعوته ، مع ظهور الآيات القاهرة ، والحجج والأدلة البينة . ومن ثم لم يؤمن له (عليه السلام) إلا ذرية من قومه - من بنى إسرائيل - وهم خائفون من فرعون وملثهم أن يفتنهم :

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملثهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾^(١) .

قال الأستاذ سيد قطب : (يفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بنى إسرائيل كانوا هم الفتیان الصغار ، لا مجموعة الشعب الإسرائیلی . وأن هؤلاء الفتیان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى ؛ خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوى المصالح عند أصحاب السلطان ، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل . وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت ، كما كان مسرفاً في الطغيان ، لا يقف عند حد ، ولا يتحرج من إجراء قاس)^(٢) .

ولعل هذا الموقف السلبي الذى وقفه كبار شعب بنى إسرائيل إزاء رسالة موسى وهرون (عليهما السلام) وهو تكذيبهم بالدعوة ، وكفرهم وعنادهم وإعراضهم عن الرسالة ، ثم وقوفهم في صف فرعون وملثه ، يأتمرون بأمرهم ، ويدينون لهم بالولاء والطاعة ، حتى لكأنهم يعبدونهم ، خضوعاً وتذلاً وانقياداً ، لا يعصون لهم أمراً ، ولا ينقضون لهم شريعاً ... لعل هذا الوضع السيئ ، وذلك الموقف السلبي ، هو ما شجع فرعون وملأه على التكذيب بالدعوة ، والاستهانة بموسى وهرون (عليهما السلام) وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى استكبر فرعون وقومه عن الإيمان والمتابعة للرسولين الكريمين ، والانقياد لأمرهما ، لكونهما بشرين ، لم يرتقيا إلى مستوى الملائكة :

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾^(٣) .

لقد كان فرعون وملؤه قوماً عادتهم الاستكبار والتمرّد ؛ ولذلك فهم بهذا القول إنما ينصح بعضهم لبعض بالإصرار على الكفر والمكابرة والعناد والإعراض عن رسل الله موسى وهرون ، وعدم الاستجابة لهما (عليهما السلام) .

وفعلًا تمادى فرعون في تكذيب موسى ، وعتا عن أمر الله تعالى ، وأصرّ على عناده . أمّا

٢ - في ظلال القرآن ج ١١ ص ١٨١٥ .

١ - من سورة يونس : آية رقم ٨٣ .

٣ - من سورة المؤمنين : آية رقم ٤٧ .

الملا من قومه فبعد ما شاهدوا من أمر موسى (عليه السلام) وشعروا بالهزيمة والخذلان في معركة الحق والباطل ، كبر عليهم أن يذهب موسى سالماً ، منتصراً ، مستريح البال مع أصحابه الذين استجابوا له من قومه . ولذلك راحوا ياتَمرون بموسى ومن معه ، ويَحْرَضون فرعون عليهم ، ويَحْوَفونه عاقبة التهاون في أمرهم ، من ضياع هيئته وسلطانه ، بانتشار الدعوة إلى توحيد الله تعالى . آنذاك تنبَّه فرعون وشعر بالخطر الحقيقي الذي يهدد نظام حكمه وسلطانه ، فانطلق - وهو هائج متزعج - يعلن قراراته الوحشية البشعة ، ويعتز بماله على بني إسرائيل من القهر والغلبة والسلطان :

﴿ وقال الملا من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ (١) .

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٢) .

وهكذا تمالاً أشراف قوم فرعون على إيذاء موسى (عليه السلام) وإذلال الذين آمنوا معه وقهرهم ، وأغزوا فرعون بهم ، لاثمين له ، منكرين عليه ترك موسى وقومه يفسدون في أرض مصر بتغيير مفاهيم الناس وتصوراتهم ، واعتقادهم في الشرك والضلال ، وصرفهم عن متابعته : ﴿ أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك ﴾ أى أَيْكون منك ترك موسى وأصحابه ويكون تركهم إياك وأصنامك التي تعبدها أنت وقومك ؟ وهم بهذا التساؤل إنما يعنون أن فرعون لو ترك موسى (عليه السلام) وأصحابه أحراراً ، فإنهم سيحاولون أن يصلوا إلى الناس ، وينشروا دعوتهم في أوساط الجمهور ومجتمعاتهم . ومن ثم يستولون كل يوم على النفوس والقلوب ، وبالتالي يصرفون الناس عن متابعة فرعون ، والخضوع لسلطانه ، وسيصبح هو في يوم من الأيام وقد بدَّل موسى (عليه السلام) نظام الحكم عليه ، وغير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وأنشأ وضعاً آخر مخالفاً تماماً لهذه الأوضاع ، الحاكمية فيه لله تعالى ، لا للبشر . ولعل هذا هو معنى الإفساد في الأرض من وجهة نظرهم . فقال فرعون مجيئاً لهم ومثبِّتاً لقلوبهم على الكفر : ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ .

وبهذا يكون فرعون قد وعد ملاء بما قرره في شأن الذين آمنوا لموسى (عليه السلام) وهو أنه سيقتل أبناءهم ويترك نساءهم أحياء . وقد كان هذا القرار منفذاً على بني إسرائيل قبل

ولادة موسى (عليه السلام) حذراً من وجوده . فقد عانوا مثل هذا التنكيل من فرعون وملئه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ (١) .

وكان فرعون وهامان وقارون في أثناء التآمر قد أجازوا هذا الأمر الوحشي البشع ، وأجمعوا عليه : ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ الآية .

قال الزمخشري : (قوله : ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم : يعني أنهم باسروا قتلهم أولاً ، فما أغنى عنهم ، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه ، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني . وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الولدان ، فلما بُعث موسى وأُحسَّ بأنه قد وقع ، أعاده عليهم ؛ غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى ، وما علم أنَّ كيده ضائع في الكرَّتين جميعاً ﴾ (٢) .

ثم بعد أن استقر رأى فرعون وملئه - وهم يتآمرون - على قتل وإبذاء ذرية أصحاب موسى (عليه السلام) وشرعوا في تنفيذ ذلك الأمر ، أخذوا يقلِّبون أوجه الرأي في شأن موسى وكيفية الخلاص من دعوته . فاقترح فرعون قتل موسى (عليه السلام) ؛ ليستريح منه ، وطلب إلى الملأ أن يقرَّوه على هذا الأمر ، ويأذنوا له في إعدامه (عليه السلام) ؛ حتى لا يكون منه تغيير لدين القوم ، أو فساد في أرضهم .

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ (٣) .

قال الشوكاني : (قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى ﴾ إنما قال هذا لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب ، والمعنى : اتركوني أقتله ﴾ وليدع ربه ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك : أي لا يهولنكم ذلك ، فإنه لا رب له حقيقة ، بل أنا ربكم الأعلى ! ثم ذكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله فقال : ﴿ إني أخاف أن يبدِّل دينكم ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده ﴾ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ أي يوقع بين الناس الخلاف

٢ - الكشف ج٣ ص ٤٢٢ .

١ - من سورة القصص : آية رقم ٤ .

٣ - من سورة غافر : آية رقم ٢٦ .

والفتنة . جعل فرعون ظهور ما دعا إليه موسى وانتشاره في الأرض واهتداء الناس به فساداً ،
وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه (١) .

ويبدو واضحاً - فيما هم به فرعون وأضره من الشر لموسى (عليه السلام) - التهديد
بالقتل والوعيد بالرجم والتحدى السافر لله عز وجل في قوله : ﴿ وليدع ربه ﴾ بل لعل هذه
الكلمة الخبيثة من فرعون كانت تبجحاً واستهتاراً . فأما موسى (عليه السلام) فالتجأ إلى ربه
أمام هذا التهديد والوعيد ، واعتصم واستجار بالله من شر فرعون ، وشر أمثاله المتعظمين عن
الإيمان بالله تعالى ، الكافرين بالبعث والنشور :

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ (٢) .

﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ (٣) .

وبينما هم يأترون بموسى (عليه السلام) ليقتلوه ، وأثناء إجمالة الفكر في الإقدام على هذه
الجريمة المنكرة البشعة ، فجأهم رجل من آل فرعون برأيه ، رجل مؤمن بالله تعالى ورسله ،
قوى الإيمان ، شجاعاً ، لا يخشى في الحق لومة لائم . فقام إلى فرعون ومثله يجاهد أفضل
الجهاد ، ويصدع بكلمة الحق عند السلطان الجائر ، وقد أخذته غضبة لله عز وجل . فدافع
عن موسى (عليه السلام) أشد الدفاع ، واحتال لدفع المتآمرين عنه ، وأمرهم بالمعروف
ونهاهم عن المنكر بشتى الأساليب : ينصح لهم ، ويعظهم تارة ، ويخوفهم ويذكرهم ببأس الله
وبطشه تارة أخرى . ثم بين لهم سوء أمرهم ، وعاقبة تدبيرهم ، وفند حججهم ، وزيف
ضلالهم ، وطفق يضرب المثل ويتقوى بالحجج ، وأبلى في ذلك بلاء حسناً ، شكره الله تعالى
له ، وأنزل فيه قرآناً يتلى إلى الأبد :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد
جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي
يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض
فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل
الرشاد . وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح
وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم
التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد
جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله

٢ - من سورة غافر : آية رقم ٢٧ .

١ - فتح القدير ج ٤ ص ٤٨٨ .

٣ - من سورة الدخان : آية رقم ٢٠ - ٢١ .

من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴿١﴾ .

﴿ وقال الذى آمن يا قوم أتبعون أهدكم سبل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعونى إلى النار . تدعونى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعونى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول كم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاء الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ (٢) .

لقد قام هذا الرجل المؤمن يدافع عن رسول الله موسى ، وهو يكتم إيمانه من فرعون وملئه ؛ لأنه أراد التواضع معهم ، وإيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوته . فبدأ بتفطيع ما هم مقدمون عليه :

﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ .

قال أبو حيان : (قوله : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ أى لأن يقول ربي الله . وهذا إنكار منه عظيم ، وتبكيك لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة ، وما لكم عليه فى ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها ، وهى قوله : ﴿ ربي الله ﴾ مع أنه قد جاءكم بالدلائل البينة على التوحيد ﴿ من ربكم ﴾ أى من عند من نسب إليه الربوبية ، وهو ربكم لا ربه وحده ، وهذا استدراج إلى الاعتراف ﴾ (٣) .

ثم تلطف الرجل المؤمن فى الدفع عن موسى (عليه السلام) وسلك مع المتأمرين طريق المناصحة لهم والمداواة ، حيث قسم أمره إلى كذب وصدق ، وأدى ذلك فى صورة احتمال ونصيحة ، فقال :

﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ .

٣ - البحر المحيط ج ٧ ص ٤٦٠ .

١ - من سورة غافر : آية رقم ٢٨ - ٣٥ .

٢ - من سورة غافر : آية رقم ٣٨ - ٤٥ .

قال الحافظ ابن كثير : (قوله : ﴿ وَإِنْ يَكَازِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ الآية ، يعنى : إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فَإِنْ يَكَازِبًا فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيِّجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعَقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ يَكَازِبًا ، وقد آذيتموه ، يصيبكم بعض الذى يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَتُوبُوا لِي فَاَعْتَزِلُونِ ﴾ (١) (٢) .

ثم إن مؤمن آل فرعون فى أثناء دفاعه عن موسى (عليه السلام) حذّر من طرف خفى فرعون وملاه عاقبة الإصرار على المعاصى ، والإفتراء على موسى وربه ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أى لو كان مسرفاً كذاباً فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَهْدِيهِ وَلَا يُوَفِّقُهُ وَلَا يُؤَيِّدُهُ بِالْمُعْجَزَاتِ ، وإنما يخذله ويهلكه . ومن ثم فلا حاجة لكم فى قتله ، فدعوه يحمل تبعة عمله ، ويلاقى جزاءه من ربه . ولعل الرجل المؤمن بهذا المنطق السليم يعرّض لفرعون بأنه مسرف كذاب ، لا يهديه الله عز وجل سبيل الصواب ومنهاج النجاة .

وحين يصل بهم إلى بيان مصير المسرف الكذاب ، يدخل عليهم من طريق الحكمة والموعظة الحسنة والملاطفة ؛ ليكونوا أقرب إلى قبول نصحه ، فيذكر قومه بما لهم من نفوذ وسلطان فى أرض مصر ، وغلبة على الناس هناك واستعلاء عليهم ، وما هم فيه من نعمة عظيمة تستحق الشكر ، لا التماذى فى الكفر . ثم يضم نفسه إلى القوم ، ويقف بأسلوب الناصح الأمين ، المشفق على قومه ، يحذّرهم زوال نعمة الله عنهم ، ويخوّفهم بحلول نقمة الله وبأسه ، محاولاً إشعارهم أن بأس الله إذا جاء فلا ناصر منه ولا مجير ، مهما يكن لهم من قوة وملك وسلطان :

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

وهنا أخذت فرعون العزة بالإثم ، فقام يرد على ما أشار به هذا الرجل الصالح ، وقد وجّه أقواله إلى الملأ يجرّضهم على معارضته . فجاء بمراوغة يوهّم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بما كان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم ، ودفع الضرر عنهم :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

١ - من سورة الدخان : آية رقم ٢١ .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٧٧ - ٧٨ .

ولعل فرعون كان يريد بهذا القول أنه ما أشار على الملأ المتآمرين إلا بما رآه صواباً من قتل موسى (عليه السلام) واعتقده نافعاً لهم . وهو بهذا الرأي إنما يدّعي أنه يهدي قومه سبيل الرشـد والصواب والصـلاح !

ولكن مؤمن آل فرعون يجد من إيمانه أن عليه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والوقوف إلى جوار الحق الذي يعتقده ، وأن يصدع بكلمة الحق لا يخشى في ذلك لومة لائم ؛ ولهذا عاد إلى الكلام مكرراً تذكير قومه ، ومخذراً لهم عذاب الله وبطشه في هذه الدنيا ، وضرب لهم الأمثال بمصارع الذين من قبلهم ممن كذبوا رسلهم ، وتعرضوا لهم بالسوء والأذى . ثم أشار لهم على وقائع قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم كقوم لوط ؛ لتلين شكيمتهم ، ولتكون لهم عظة وعبرة ، فهي شاهدة ببأس الله تعالى في أخذ المكذبين والطغاة ؛ جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب ، حيث أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً ، وقد استوجبه بأعمالهم السيئة وكثرة ذنوبهم . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظملاً للعباد ﴾ .

ثم أخذ هذا المؤمن يزيدهم في الوعظ والتذكير ويخوفهم أمر الآخرة :

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : ﴿ وفي ذلك اليوم ينادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف . وينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار . وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار ، وأصحاب النار أصحاب الجنة . . . فالتنادى واقع في صور شتى . وتسمية ﴿ يوم التناد ﴾ تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ، وتصوّر يوم زحام وخصام . وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن : ﴿ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ﴾ . . . وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم ، أو محاولتهم الفرار . ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار . وصورة الفرز والفرار هي أول الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض ، أصحاب الجاه والسلطان !

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . . . ولعل فيها إشارة خفية إلى قوله فرعون : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . . . وتلميحاً بأن الهدى هدى الله . وأن من أضله الله فلا هادى له . والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال ^(١) .

ثم طفق الرجل المؤمن يوبخهم على الكفر وتكذيب الرسل ، ويذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء ، وموقفهم من يوسف (عليه السلام) خاصة ؛ حتى لا يكرروا نفس الموقف مع موسى (عليه السلام) :

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

أى لقد أتاكم يوسف بالمعجزات الواضحة من قبل موسى فشككتهم فيها ، ولا تزالوا شاكّين وكافرين بما جاءكم به ، حتى إذا التحق الرفيق الأعلى زعمتم أن لن يبعثكم من بعده رسول مبعوث من الله تعالى ، وحكمتهم بهذا من عند أنفسكم من غير برهان ، وجزمتهم به من غير دليل ، ومن ثم عزمتهم على تكذيب الرسل ، فإذا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم وجحدتم وكذبتهم وحاولتهم اغتياله ، بناء على حكمكم الباطل الذى أسستموه على شفا جرف هار . وعلى ذلك فإنى أنذركم بإضلال الله الذى يتنظر كل مسرف فى معاصى الله ، مستكثراً منها ، مراتب فى دين الله ، شك فى وحدانيته ووعده ووعيده . ثم أخذ يشتد فى مواجهتهم ويحذّرهم من ذم الله لهم ولعنه إياهم وغضبه عليهم وإحلال العذاب بهم ، إذا هم ظلّوا يجادلون فى آيات الله الظاهرة بغير حجة ولا برهان . ثم ندّد بالتكبر والتجبر ، وأنذر بصرف الله لقلوب المتكبرين المتجبرين عن الهداية ، وختم الله عليها حتى يصبح شأنها الإسراف والارتباب والمجادلة بالباطل :

﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (قوله عز وجل : ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أى الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أى والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفاته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ، ولا ينكر منكراً ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أى على اتباع الحق (جبار) آيته سفاك الدماء والقتل بغير حق (١) .

وعلى الرغم من هذا الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل على هداية القوم إلى سواء السبيل - الذى قام به الرجل المؤمن - فقد تمادى فرعون وملؤه فى

الضلال ، وأصروا على الكفر والعناد . فتابع هذا المؤمن دعوتهم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الهدى والرشاد :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ .

ثم كشف لهم عن حقيقة هذه الحياة الدنيا ، وبين لهم أنها زائلة فانية ، يُتَمَتَّعُ بما فيها أياماً ثم تنقطع وتزول . ونصح لهم بعدم الاغترار بها ، وشوَّعهم إلى نعيم الدار الآخرة ، دار الاستقرار والخلود :

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ .

ثم بين لهم قاعدة الحساب والجزاء في الدار الآخرة :

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

فقد اقتضت عدالة الله تعالى مضاعفة الحسنات دون السيئات ، فضلاً من الله ورحمة بعباده ، واعتباراً لضعفهم . وجعل الحسنات كفارة للسيئات^(١) فمن عمل في هذه الحياة الدنيا معصية فلا يجزى إلا مثلها ، ولا يعذب إلا بقدرها . ومن عمل عملاً صالحاً - سواء كان رجلاً أو امرأة - وهو مؤمن بالله تعالى وبما جاء به رسله (عليهم السلام) يدخله الله الرحيم الودود الجنة ، ويرزقه فيها بكرة وعشياً بغير تقدير أو محاسبة .

ويبدو أن فرعون وملأه قد فهموا من تلك الدعوة إلى اتباع موسى (عليه السلام) وهذا البيان لحقيقة الدنيا والآخرة ، أن هذا الرجل المؤمن من أصحاب موسى الذين آمنوا معه . ولهذا قلوبهم وكذبوه وجهدوا أن يردّوه إلى دين قومه ، دين الكفر والشرك والضلال ، فلم يفلحوا في ذلك . بل تعجّب لأمرهم ؛ لأنه يدعوهم إلى طريق الإيمان والتوحيد الموصل إلى الجنة ، وهم من فرط ضلالهم يدعونه إلى سبيل الغيّ الموصل سالكه إلى النار . وبهذا المنطق السليم يكون قد صرّح بإيمانه ، ولم يسلك معهم المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم :

﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدهونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ .

قال أبو السعود : (كرّر نداءهم إيقاظاً لهم عن سِنَةِ الغفلة ، واعتناء بالمنادى له ، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه ، ومدار التعجب الذي يلوح به الاستفهام دعوتهم إياه

١ - إن من فضل الله تعالى على عباده أنه جعل الحسنات يذهبن السيئات . قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ من سورة هود : آية رقم ١١٤ .

إلى النار ودعوته إياهم إلى النجاة ، كأنه قال : أخبروني كيف هذه الحال : أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر^(١) .

ثم قرّر الرجل المؤمن في مواجهة فرعون وملئه بكل شجاعة وصراحة ووضوح أنّ هؤلاء الشركاء الذين عبدوهم من دون الله ليس لهم شأن لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وأنّ المرجع والمصير إلى الله عز وجل ، فيجازي كل أحد بما يستحق من خير وشر ، وأنّ المسرفين في الضلالة والطفیان ، كالمشركين والمتعدين حدود الله تعالى ، هم أصحاب النار ، الملازمين لها ، الخالدين فيها :

﴿ لا جرم أنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأنّ المسرفين هم أصحاب النار ﴾ .

ولعل فرعون وملأه إلى هنا قد ضاقوا ذرعاً بهذا الرجل المؤمن الذي فجأهم برأيه ، وتحداهم تحدياً صريحاً واضحاً بكلمة الحق ، وهو لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار ولا ملأه المتآمرين معه . وعندئذ يبدو أنهم ناووه وتوعده وهموا به ليقتلوه ، فختم كلامه بأسلوب فيه تخويف وتهديد لهم ، بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى والا الندم :

﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد ﴾ .

بهذا القول الثابت الذي يدل على قوة إيمان مؤمن آل فرعون ، ينتهي الجدل والحوار . وقد أخلص لهم النصيح ، وقال كلمة الحق عند السلطان الجائر ، ومضى بعد أن توكل على الحى القيوم ، وأسلم أمره إلى البصير بأحوال العباد ، الحارس من يلوذ به من المكارة . فتجأه الله تعالى ، من شدائد مكرهم وما أرادوه به من الشر والأذى ، بينما نزل ولاً بآل فرعون ما هموا به من تعذيب المؤمنين ، ورجع عليهم كيدهم أجمعين :

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

فرعون يتمادى في كفره وضلاله ويستهزئ بموسى :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى وإنّي لأظنه من الكاذبين .

واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴿١﴾

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ ﴿٤﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (وعلى الرغم من الجولة الضخمة التى أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها ؛ فقد ظل فرعون فى ضلاله ، مصراً على التنكر للحق . ولكنه تظاهر بأنه أخذ فى التحقيق فى دعوى موسى . ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها . فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ .

(يا هامان ابن لى بناء عالياً لعلى أبلغ به أسباب السموات ؛ لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴾ ﴿ وإنى لأظنه كاذباً ﴾ . . هكذا يمّوه فرعون الطاغية ومحاور ويداور ؛ كى لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحداية التى تهز عرشه ، وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه . وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه . وبعيد أن يكون جادا فى البحث عن إله موسى على هذا النحو المادى الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور . إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة ، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى . وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن فى حديث الرجل المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجحها فى جحوده : ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ . . وهو مستحق لأن يصد عن السبيل ، بهذا المراء

٢ - من سورة غافر : آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

١ - من سورة القصص : آية رقم ٣٨ - ٣٩ .

٤ - من سورة النازعات : الآيات من رقم ٢١ - ٢٤ .

٣ - من سورة الزخرف : الآيات من رقم ٥١ - ٥٤ .

الذى يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل . ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار : ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾^(١) .

ويبدو واضحاً من هذا المسلك الذى سلكه فرعون من المراوغة واللهو والسخرية والاستهتار والإصرار على الكفر والضلال ، أنه إنما كان يرمى إلى صد الناس عن الهدى وتصديق موسى (عليه السلام) وحثهم على تكذيبه ، ومقابلته - بدل التصديق والإيمان بما جاء به - بالكفر والإعراض والأذى . ومن أجل هذا تمادى فرعون في غيه وتطاول وطغى وتجبر لدرجة أنه ادعى الألوهية :

﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غير فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾

﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ بهذه الكلمة الخبيثة العظيمة ، كفر فرعون وطغى وافترى على الله الكذب ، كما قال تعالى عنه : ﴿ فحشر فنادى : فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ يعنى : أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك الفجور ! مع أنه يعلم علم اليقين أن له رباً هو خالقه وخالق قومه : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾^(٢) وكذبه بعدم علمه بإله غيره ظاهر من قوله حالة غرقه : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ الآية^(٣) .

قال الفخر الرازى : (ليس مراده من ادعاء إلهية نفسه أنه خالق السموات والأرض والبحار والجبال ، وخالق لذوات الناس وصفاتهم ، فإن العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول ، فالشك فيه يقتضى زوال العقل ، بل الإله هو المعبود ، فالرجل كان ينفى الصانع ويقول : لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره . فهو كان عارفاً بالله تعالى ، وكان يقول ذلك ترويحاً على الأغمار من الناس)^(٤) .

ولعل من الدوافع التى دفعت فرعون وجنوده إلى العناد والجحود وتكذيب موسى (عليه السلام) توهمهم عدم الرجعة إلى الله تعالى بالبعث والمعاد ؛ ولهذا طغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد ، وصدوا عن سبيل الله ، كما صدوا غيرهم عن الهدى :

﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ .

٢ - من سورة الزخرف : آية رقم ٨٧ .

١ - فى ظلال القرآن ج٤ ص ٣٠٨١ - ٣٠٨٢ .

٤ - التفسير الكبير ج٤ ص ٢٥٢ .

٣ - من سورة يونس : آية رقم ٩٠ .

لقد أتى موسى (عليه السلام) لفرعون بالآيات البينات والبنات ، ولكنه تمادى في كفره وضلاله وأصرَّ على عناده ، واستكبر في الأرض بغير الحق ، وشقَّ عليه أن يلبي دعوة موسى ويتبع دينه مع ما له من عزة السلطان ووافر الثروة . فاشتط في غوايته وظل في جهالته ، وجمع قومه ، يريد الترويج عليهم وبهرهم بالقوة وتثبيتهم على الكفر والمذلة . فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها :

﴿ ونادى فرعون في قومه يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

قال الشوكاني : (قيل : لما رأى فرعون تلك الآيات ، خاف ميل القوم إلى موسى ، فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم ، أو أمر منادياً ينادى بقوله : ﴿ يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ لا ينازعني فيه أحد ولا يخالفني مخالف ، وهذه أنهار النيل تجري من تحت قصرى وبين يدي وتحت أمرى ، أفلا تبصرون ذلك وتستدلون به على قوة ملكي وعظيم قدرى ، وضعف موسى عن مقاومتى ؟ بل أنا خير من هذا الذي هو مهين : أى ضعيف حقير ممتهن في نفسه لا عز له ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ أى الكلام ، قاله افتراء عليه ، وتنقيصاً له (عليه السلام) في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه من نوع رُتة ، كانت ذهبت عنه لقوله تعالى : ﴿ قد أوتيت سؤلِكَ يا موسى ﴾ (١) أمّا قوله : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ﴾ أى فهلاً حُلَّ بأسورة الذهب إن كان عظيماً ؟ وكان الرجل فيهم إذا سَوَّدوه سَوَّرَه بسوار من الذهب ، وطَوَّقوه بطوق من ذهب ، علامة لسيادته ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أى هلاً جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صابداً ؟ يعينونه على أمره ويشهدون له بالنبوة ؟ فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابة ومحفوفين بالملائكة ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أى حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله وكيد وغروره ، فأطاعوه فيما أمرهم به وقيلوا قوله وكذبوا موسى ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . قال ابن الأعرابي : المعنى : فاستجهل قومه فأطاعوه بخفة أحلامهم وقلة عقولهم . وقيل : استخف قومه : أى وجدهم خفاف العقول ، وقد استخف بقومه وقهرهم حتى اتبعوه (٢) .

وهكذا تمادى فرعون في كفره وضلاله واستهزأ برسول الله موسى . قال تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ (٣) فاستخف فرعون قومه بالتمويهات والشبهات ، ودعاهم إلى طريق الغي ، فاتبعوه في سبيل الضلال ، وما كان له أن

٢ - فتح القدير ج٤ ص ٥٥٩ - ٥٦٠ يتصرف .

١ - من سورة طه : آية رقم ٣٦ .

٣ - من سورة يس : آية رقم ٣٠ .

يفعل بهم هذا إلا وهم فاسقون ، لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسون بحبل الله ، ومن ثم صدهم عن الهدى ودين الحق ، فصرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد .

جحد فرعون وقومه بآيات الله ظلماً وعلواً :

قال الله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ^(١) .

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ ^(٢) .

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ ^(٣) .

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ ^(٤) .

﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ ^(٥) .

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ^(٦) .

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ ^(٧) .

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ ^(٨) .

٢ - من سورة الاعراف : الآيات رقم ١٣٠ - ١٣٥ .

٤ - من سورة الإسراء : آية رقم ١٠١ - ١٠٢ .

٦ - من سورة النمل : آية رقم ١١٣ - ١١٤ .

٨ - من سورة القمر : آية رقم ٤١ - ٤٢ .

١ - من سورة الاعراف : آية رقم ١٠٣ .

٣ - من سورة يونس : آية رقم ٧٥ .

٥ - من سورة طه : آية رقم ٥٦ .

٧ - من سورة الزخرف : آية رقم ٤٨ - ٥٠ .

إنه على الرغم من تمادى فرعون في كفره وضلاله واستهزائه برسول الله موسى ، فقد ظل (عليه السلام) يدعو إلى الله تعالى ، لا يثنيه وعيد ، ولا يخيفه تهديد ، ولا يقعه استهزاء ، ولا يصده عن قصده ازدراء أو سخرية . لقد مضى في طريقه صابراً محتملاً كل ما يلاقه في سبيل الله من شدة وبلاء ، مضى يدعو فرعون إلى الإيمان بربه والرجعى إلى خالق السموات والأرض ، وأن يطلق معه بنى إسرائيل . ولكن ذلك الطاغية الجبار أخذته العزة بالإثم ، فعتا عن أمر الله عتواً كبيراً ، وتمادى في تكذيب موسى ، واستمر في تنفيذ وعيده وتهديده ، فقتل الرجال واستحى النساء . وقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون فرج الله ، ويصبرون على الابتلاء . آنذاك أخذ المولى عز وجل فرعون وملأه بالسنين ونقص من الثمرات ؛ لعلهم يرجعون إلى الله ويتضرعون . ولما لم يتوبوا إلى بارئهم ، أخذهم سبحانه وتعالى بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . فكانوا يستغيثون بموسى (عليه السلام) في كل مرة أن يدعوا ربه ليرفع عنهم البلاء ، كما كانوا يعدُّونه بالإيمان له والكف عن إيذاء أتباعه المؤمنين . حتى إذا رفع الله عنهم العذاب ، عادوا إلى طغيانهم ، ونقضوا عهدهم ، وتمردوا على خالقهم ، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . فكانت عاقبة هؤلاء القوم المفسدين أن أغرقهم الله تعالى في اليم بتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه ، وفق السنة الربانية الجارية في أخذ المكذِّبين بالضراء ثم بالسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك^(١) .

قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ .

﴿ وما نريهم من آية إلا هم أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ .

إنَّ آل فرعون كفروا بربهم ، وفسقوا عن دين الله ، وبغوا في الأرض ، وظلموا عباد الله ، ومن ثم أخذهم الله تعالى بالابتلاء - كالجذب والشدة والقحط ونقص الثمرات - لكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر والعتو والعناد ، ويتوبوا إلى بارئهم ، ويتذكروا ويتعظوا بتلك الشدة ، ويقفوا على أنَّ ذلك العذاب الذى نزل بساحتهم ما هو إلا لأجل خطيئاتهم ومعاصيهم ، فينزعجوا بذلك ، ويرغبوا فيما عند الله سبحانه ، ويتقوا يوماً يرجعون فيه إلى الله تعالى .

لم يتعظ آل فرعون بهذا ، ولم ينتبهوا إلى الحكمة الكامنة وراء هذه الأحداث ، ولم يفكروا في العلاقة فيما هم عليه من الضلال وهذه الظواهرات الكونية التى أراد الله تعالى أن تحل بهم جزاء ما صنعت أيديهم . بل كفروا بآيات الله وجحدوا واستكبروا ، وتمادوا في الغى ، وطفقوا ينسرون ما يأتهم من الخير - كالسعة والخصب - بأنه لهم ، وأنه أهله الجديرون

١ - قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ آية رقم ٩٤ - ٩٥ من سورة الأعراف .

به ، وإذا نزل بهم الجذب والبلاء تشاءموا بموسى (عليه السلام) ومن معه ، وتوهموا أن ما أصابهم إنما هو بشؤمهم . وهذا مما يدل على جهلهم وغباوتهم وغفلتهم عن سنن الله الجارية في الكون .

قال تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ .

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً ﴾ .

﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ .

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ .

قال الأستاذ محمد عزة دروزة : (أرسل الله سبحانه موسى إلى فرعون وأيده بآياته التسع ولم يبال . ونسب فرعون إلى موسى السحر ، فأكد له موسى أنها آيات ربانية لتكون وسيلة لتبصير الناس بما يجب عليهم ، وأنذره بالهلاك إذا ظل على بغيه ، ولكن فرعون لم يرتدع ، وازداد في البغي ، واشتد في إزعاج بنى إسرائيل ، فأغرقه الله ومن معه جميعاً ، ثم مكّن لبنى إسرائيل في الأرض بعده إلى الأجل المحدود في علمه حيث يبعث جميع الناس ويوفيههم أعمالهم)^(١) .

لقد كان فرعون وقومه خارجين على الحدود في الكفر والعتو والعدا ؛ ولذلك لما ظهرت

آيات الله البينات على يد موسى (عليه السلام) زعموا أنها سحر واضح في فنونه ، وأصروا على التكذيب بها ، وقد علمتها أنفسهم علماً يقينياً أنها حق من عند الله عز وجل ، ومع هذا فقد حطوها عن رتبها العالية ، وسمّوها سحراً ؛ ترفعاً عن الإيمان بها ، وتكبراً عن اتباع الحق ، وصدّاً للناس عن سبيل الله . حتى إنهم لعنوّهم وعنادهم وكمال طغيانهم وغلوهم فيه أعلنوا صراحة لرسولهم موسى إصرارهم على الكفر والعناد وإعراضهم عن الحق :

﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

هكذا يقولون وهم يستهزئون : أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ، وما نحن بمصدّقين لك ولا مؤمنين لنبوّتك ولا مقتنعين بما جئت به .

عندئذ أرسل الله تعالى عليهم أنواعاً من العذاب وصنوفاً من البلاء ، وهى آيات واضحة الدلالة على رسالة موسى ونبوّته ، جاءتهم مفرقة متتابعة منسقة الخطوات ، تصدّق اللاحقة منها السابقة . وكلّ منها بالغة أقصى مراتب الإعجاز والكبر من غير ملاحظة قصور في شيء منها . وكانوا في كل مرة يقع فيها عليهم عذاب الله وبلاؤه ، يطلبون إلى موسى تحت ضغط الابتلاء أن يدعوهم الله العظيم لينقذهم من العذاب ، ويعدّونه بأنهم سيخلصون لله الدين ويكونون من الشاكرين ، ويرسلون معه بنى إسرائيل . ولكنهم كانوا في كل مرة ينقضون عهدهم ، ويتجاوزون أمر الله إلى الكفر والعصيان ، ويبغون في الأرض الفساد .

قال تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

﴿ وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هو ينكثون ﴾ .

لقد ابتلى الله تعالى آل فرعون بالحسنات والسيئات ، وبالشر والخير فتنة ، وأرسل عليهم آيات معلومات تلا بعضها بعضاً ، كانت بمثابة إنذار وابتلاء لهم ؛ ليعودوا إلى رشدهم ويثوبوا إلى صوابهم . ولكنهم كانوا عند البلاء يخادعون الله والذين آمنوا ، ويظهرون بالسستهم من القول والتصديق خلاف الذى في قلوبهم من الشك والتكذيب . وكانوا يستغيثون في كل مرة بموسى (عليه السلام) ليرفع الله عنهم العذاب . فبمجرد أن يكشف الله عنهم الرجز ينقضون ما عاهدوا عليه الله ورسوله ، ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل رفع العذاب ، عنهم . وهكذا كَفَرَ آل فرعون برهم وعتوا عن أمره وجحدوا بآياته ظليماً وعلواً مع استيقانهم بصدق كونها من عند الله تعالى .

هلاك فرعون وجنوده ونجاة موسى وأصحابه من كيدهم :

قال الله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ونمت كلمة ربك الحسنی على بنی إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (١) .

﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ (٢) .

﴿ وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون . وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ (٣) .

﴿ فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيماً ﴾ (٤) .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ (٥) .

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشردمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا . إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود

١ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٣٦ - ١٣٧ .

٢ - من سورة يونس : آية رقم ٨٤ - ٨٦ .

٣ - من سورة يونس : الآيات من رقم ٨٨ - ٩٢ .

٤ - من سورة الإسراء : آية رقم ١٠٣ - ١٠٤ .

٥ - من سورة طه : آية رقم ٧٧ - ٧٩ .

العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١﴾ .

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ فلم آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون . واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ فأخذته الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ﴿٦﴾ .

لقد دعا موسى (عليه السلام) فرعون وملأه إلى الله تعالى ليعبدوه ويرجعوا إليه ، ولكنهم تمادوا في كفرهم وعنادهم ومخالفتهم لأمر بارئهم ، ولم تنفعهم النذر ، وأبت نفوسهم الموغلة في سوء الإذعان لآيات الله البينات ، فاستكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين . أما فرعون فقد تمرد واستكبر وأخذته الحمية حمية الجاهلية والنفس الخبيثة الأبية ، فركب رأسه وتولى بركنه ، وادعى ما ليس له ، وكفر بربه ، وعتا ، وبغى في الأرض بغير الحق ، وأهان حزب الله من بنى إسرائيل . وصمم هو وملؤه على العناد والجحود والمكابرة والتكذيب بالدعوة . وبعبارة أخرى : أبوا قبول الحق ، واستمروا على كفرهم ، وأصرّوا على ضلالهم ، معاندين ، جاحدين ، ظلماً وعلواً وتكبّراً وعتواً . ولم يؤمن لموسى (عليه السلام) مع ما جاء به من الآيات البينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الساطعات ، إلا ذرية من قومه على وجل من فرعون وملئهم أن يردّهم إلى الكفر والضلال .

إذ ذاك دعا موسى الله تعالى على فرعون وملئه بأن يهلك أمواهم ويختم على قلوبهم حتى

١ - من سورة الشعراء : آية رقم ٥٢ - ٦٧ .

٢ - من سورة القصص : آية رقم ٤٠ - ٤٢ .

٣ - من سورة الزخرف : آية رقم ٥٥ - ٥٦ .

٤ - من سورة الدخان : آية رقم ٢٢ - ٢٩ .

٥ - من الذاريات : آية رقم ٤٠ .

٦ - من سورة النازعات : آية رقم ٢٥ - ٢٦ .

يعاينوا العذاب الأليم ويوقنوا به . ثم طلب (عليه السلام) إلى بنى إسرائيل أن يتوكلوا على الله جل جلاله . فامثل القوم ذلك وتوجهوا إلى المولى عز وجل يدعونه بالألّا يَمَكِّن آل فرعون منهم ، وأن يعصمهم من تسلطهم عليهم ، حتى لا يتوهموا أنهم إنما انتصروا على المؤمنين لأنهم على الحق ، فيفتنوا بذلك ويلجأوا في طغيانهم يعمهون . ثم سألوا الله سبحانه أن يخلصهم برحمة منه وإحسان من هؤلاء القوم الذين كفروا بربهم وخالفوا أمره عز وجل .

قال تعالى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (واتجه موسى - عليه السلام - إلى ربه ، وقد يش من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجي لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه ، الذين يملكون المال والزينة ، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين ، فتنتهي إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، وإلى الضلال . . اتجه موسى إلى ربه يدعو أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب الله الدعاء) (١) .

وهناك أوحى سبحانه لموسى (عليه السلام) أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر . فيتخذ لهم طريقاً في البحر يابساً ، وأن يكون مطمئناً إلى أن الله يرعاهم بعنايته ، وهو معهم أينما كانوا ، فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده الذين حشدوا لمتابعتهم ، ولا يخشى الفرق ، وأن يدع البحر ساكناً على هيئته التي مرّ هو وقومه فيها ، فإن فرعون وجنده مغرقون فيه ، وكان أمراً مقضياً :

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ .

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ﴾ .

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَكُمْ مَتَبِعُونَ . وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جِنْدٌ مَفْرُقُونَ ﴾ .
 فلما نأى إلى علم فرعون خروج بنى إسرائيل خلصة ، غاظه ذلك واشتد غضبه ، وطفق
 يتأمر ويجمع جنوده أجمعين . فأرسل فوراً في بلاده جامعين يحشرون له الجنود ؛ ليدرك موسى
 وأصحابه ويفسد عليهم تدبيرهم . فانطلق الحاشرون ينفذون أمر فرعون ويحشدون الجند ،
 وكانوا يقولون لأهل المدائن ما يقلل من شأن بنى إسرائيل الخارجين بغير إذن من فرعون ،
 ويصفون سلوكهم بأنه مما تضيق به الصدور ويملؤها غيظاً ؛ ولهذا فإن فرعون وملأه لجمع
 مستيقظون لمكرهم وسعيهم بالفساد في الأرض ، محتاطون لأمرهم مما لديهم من قوة وجند ،
 ممسكون بزمام الأمور ، ومستعدون بالسلاح لإبادتهم وقطع دابرهم !

وبهذا المكر استطاع فرعون أن يجمع جيشاً عرمرماً . ثم خرج بجنوده يتبعون موسى وقومه
 في وقت شروق الشمس . فلما تقارب الجمعان بحيث يرى كل واحد منهما الآخر ، شعر بنو
 إسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك ، فالبهر أمامهم ، وفرعون وجنوده خلفهم شاكي السلاح
 يطلبونهم ولا يرحمون ! حينذاك قالوا : يا موسى ، إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم ! هنالك
 سگن موسى (عليه السلام) روعهم ، وأزال خوفهم ، فقال لهم بكل جزم وتأکید ویقین :
 كلا ، لن نكون من الهالكين ، فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ، وهو سبحانه معنا بالنصرة
 والهداية وسيوجهني لطريق النجاة . آنذاك أوحى الله لرسوله موسى أن يضرب بعصاه البحر ،
 فضربه فانفلق ، ووقعت المعجزة حيث انكشف بين فرقى الماء طريق يابس ، ووقف الماء على
 جانبي الطريق كالجليلين الكبيرين . (١) فسار هو وأصحابه في ذلك الطريق المكشوف حتى
 جاوزوا البحر من الجانب الآخر (٢) إذ ذاك قرب الله تعالى فرعون وجنوده لمصيرهم المحتوم حتى
 دخلوا على إثر بنى إسرائيل ، فانطبق الماء عليهم وأغرقوا أجمعين .

قال تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرذمةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ
 لَنَا لِفَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ ﴾ .

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا
 إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
 كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا
 الْآخِرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ
 الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضَعِفُونَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى

١ - قال ابن كثير في تفسيره جـ ٣ ص ٣٣٦ : (وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق) .

٢ - مكان عبور بنى إسرائيل البحر هو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات .

على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴿ .
﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه
الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿ .
﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما
هدى ﴿ .

﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبني إسرائيل
اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفياً ﴿ .

﴿ فأخذناه وجنوده فنبدناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿ .

﴿ فأخذناه وجنوده فنبدناهم فى اليم وهو مليم ﴿ .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إِنَّ فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴿ .

وكما يبدو من هذه الآيات الكريمة فقد جاء بيان مصير فرعون وجنوده ، ونجاة أولياء الله
من كيدهم ، فى عدة مواضع من القرآن الكريم . ومنها يتضح أنه جزاء على الظلم والبطر
والبغي والتجبر والتكذيب بآيات الله والغفلة عنها ، جرت سُنَّةُ تعالى بإنزال العذاب والهلاك
بفرعون الجبار وقومه الظالمين ، بعد الابتلاء بالضراء والسراء ، ودمر الله عليهم بعد أن
أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه . فأخذهم أخذاً شديداً أليماً ، ونبدهم فى اليم ، وأغرقهم
أجمعين . ومضت آية فى الزمان تتحدث عنها الأجيال عبر القرون . فهى عاقبة مشهودة
ومعروضة للعالمين ، وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للمكذِّبين . ومن جهة أخرى حقق الله
عزل وجل وعده لعباده المؤمنين الصابرين من بنى إسرائيل ، فقد كلأهم برعايته وحمايته ،
ونجَّاهم من العذاب المهين ، من فرعون وقومه الطغاة المتجبرين . وأورث الله الأرض للذين
كانوا يستضعفون ، وجعل لهم العاقبة الحسنى ؛ جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة
الذى عاشوه فترة من الزمن فى مملكة فرعون .

المبحث الرابع

ابتلاء عيسى عليه السلام

من بعد موسى (عليه السلام) توالى رسل الله تعالى إلى بنى إسرائيل تترى ، يقفوا بعضهم بعضاً ، مبشرين ومنذرين لهم ؛ لعلهم يخرجون من الظلمات إلى النور . ولكنهم لعنواهم وعنادهم واتباع أهوائهم ، استقبلوا هذا الجمع من الرسل^(١) بالجحود والكفران والإعراض والأذى ، وعاملوهم أسوأ المعاملة ، فكان كلما جاءهم رسول بما لا تحبه أنفسهم الشريرة استكبروا عن اتباعه والإيمان له ، وأقبلوا على أولئك الرسل : ففريقاً منهم كذبوه ، وفريقاً آخر منهم يقتلونه غير مكنتين بالكذب . حتى بعث الله تعالى إليهم عيسى بن مريم (عليه السلام) ؛ ليهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقد آتاه الله الحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقه في نبوته ورسالته ، وأيده بروح القدس جبريل (عليه السلام) ومع ذلك لم يجد منهم إلا التكذيب والعصيان والإعراض والأذى .

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾^(٢) .

وقد واجه عيسى (عليه السلام) في مولده ألوان الشكوك والشبهات التي لم يتورع بنو إسرائيل أن يلصقوها بأمه مريم الطاهرة ، وتقوهم عليها ما هي بريئة منه ، وغافلة عنه ؛ بسبب أنها ولدته (عليه السلام) من غير أب . كما واجه من المكذبين بالدعوة العنت والاستكبار والتمرد . . لقد رفض اليهود دعوته ، وكفروا به ، ولم يعترفوا له بالنبوة ، وتهكموا برسالته ، وتطاولوا على شخصيته ، واتخذوا جميع السبل لإيذائه ، وفي النهاية باتوا يكيدون له ويمكرون به ، ويتآمرون عليه ، وكان ثمرة هذا الكيد أن تقرر قتله وصلبه (عليه السلام) لولا أن الله عز وجل صرف مكرهم عنه ونجاه من شرهم .

وقبل أن نتكلم عن ابتلاء المسيح عيسى بن مريم بالإعراض والأذى من المكذبين بالدعوة يحمل بنا في هذا المقام أن نلخص قصة أمه مريم البتول وولادته (عليه السلام) .

١ - لقد أرسل الله تعالى رسلاً بعد موسى (عليه السلام) منهم : داود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى . عسى عليهم الصلاة والسلام .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٨٧ .

قال الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني : (قبيل ميلاد المسيح عيسى بن مريم ، كان زكريا من كبار الربانيين الذين لهم شركة في خدمة الهيكل . وكان عمران والد مريم إمامهم ورئيسهم والكاهن الأكبر فيهم . قالوا : ويتصل نسبه بدادود (عليه السلام) ، فهو على هذا من سبط يهوذا ، والله أعلم .

(وكان لزكريا زوجة تسمى إيشاع ، وهي أخت حنة زوجة عمران . وكانت حنة من العابدات ، وعاقراً لا تلد . وبعد أن لبثت ثلاثين سنة مع زوجها دعوا الله أن يرزقهما بولد صالح ، فاستجاب الله تعالى لدعائهما ، فحملت حنة ، فنذرت أن تهب ولدها لخدمة بيت المقدس ، وكانت ترجو أن يكون ذكراً . فلما وضعت تبين أن الجنين الذي انفصل منها أنثى ، لكنها شكرت الله على عطائه ، وسمتها مريم ، وسألت الله العظيم أن يعصمها ويحصنها هي ونسلها من الشيطان الرجيم . فقبل الله سبحانه هبتها بقبول حسن وأنبئها نباتاً حسناً وحفظها ولدها من شر الشيطان الرجيم .

(وحملت حنة ابنتها مريم وقدمتها إلى بيت المقدس ، ودفعتها إلى العباد والربانيين فيه ؛ تنفيذاً لنذرها ، وكان هذا من أحكام الشريعة اليهودية . وهناك تنافسوا في كفالتها ؛ لأنها ابنة رئيسهم وكاهنهم الأكبر - ويظهر أن عمران أباهما كان قد توفي في هذه الأثناء - وأصر زكريا (عليه السلام) زوج خالتها على أن يكفلها هو ، وحصل الخصام بينهم أيهم يكفل مريم ، ثم لجئوا إلى القرعة ، فكانت كفالتها من حظ زكريا . وشبَّت مريم في بيئة عبادة وتقوى داخل بيت المقدس . وأكرمها الله تعالى بكرامات عديدة ، فكان زكريا (عليه السلام) يجد عندها رزقاً من رزق الله لم يأتيها به ، ولا وجود له عند الناس في ذلك الوقت . وكانت ملائكة الله تعالى تأتي إلى مريم وتخبرها بأن الله عز وجل اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ، وتحثها على الاجتهاد في العبادة والقنوت لله عز وجل (١) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةَ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

١ - العقيدة الإسلامية وأسسهها ج٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ بتصرف .

٢ - من سورة آل عمران : الآيات من رقم ٣٣ إلى رقم ٣٧ .

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (١) .

وهكذا نشأت مريم البتول نشأة عظيمة ، مكلوة بعناية الله ، محروسة بحراسته ، ورعايته فهي قد حفظت الله فحفظها ، واستمسكت بالتطهر والعفاف والقنوت والعبادة والتبتل وإخلاص الطاعة لربها ليمنحها الله هذا الإكرام ويخصها بهذه المزايا والفضائل ، حتى لتخاطبها الملائكة ، وتبشرها بأن الله تعالى اختارها لأن تكون أمّاً لولد صالح يخلقه سبحانه بغير الأسباب المعتادة في تكوين الجنين ، ويكون نبياً كريماً وذو شأن عظيم في الدنيا ، كما أنه في الآخرة يميز بعلو درجته ، فهو من المصطفين الأخيار ، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر .

قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ (٢) .

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾ (٣) الآية .

قال الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور : (وخص تكليمه بحالين : حال كونه في المهد ، وحال كونه كهلاً مع أنه يتكلم فيما بين ذلك ؛ لأنّ لذيнок الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إياه . فأما تكليمه الناس في المهد فلأنه خارق عادة إرهاباً لنبوته ، وأما تكليمه كهلاً فمراد به دعوته الناس إلى الشريعة) (٤) .

وقال الأستاذ المراغى : (إنه يكلم الناس طفلاً في المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها ، وحجة على نبوته . وبالعأ كبيراً بعد أن يرسله الله وينزل عليه وحيه وأمره ونهيه) (٥) .

ولما تلقت مريم البشارة من الملائكة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم ، توجهت إلى الله تعالى متعجبة متحسرة ، تناجيه متطلعة إلى كشف ما بشرت به من الولد الصالح ، وهي الفتاة الطاهرة العذراء التي لم تتزوج بعد . إذ ذاك أخبرتها الملائكة بما رفع تعجبها وإنكارها ، وأزال حيرتها ، وطمأن قلبها ، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى قادر على ما

١ - من سورة آل عمران : الآيات ٤٢ - ٤٤ .
٢ - من سورة آل عمران : آية ٤٨ - ٤٩ .
٣ - تفسير المراغى ج٣ ص ١٥٥ - ١٥٦ .
٤ - تفسير التحرير والتنوير ج٣ ص ٢٤٧ .
٥ - آل عمران : آية ٤٥ - ٤٦ .

يشاء ، ومثل ذلك الخلق الذى اختارها الله لإنجابه على غير مثال ، يخلق الله ما يشاء ؛ فإنه جل وعلا إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (١) .

هذا ولما أراد الله سبحانه أن يرزقها بعبده ورسوله عيسى (عليه السلام) اعتزلت أهلها وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقى المسجد المقدس لشأن من شئوننا الخاصة فاستترت منهم وتوارت . وبينما هى فى خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها ، إذ أرسل الله إليها الروح الأمين جبريل (عليه السلام) فظهر لها فى صورة رجل مكتمل سوى ، ففزعت وخافت على نفسها منه ، وارتابت فى أمره ؛ لأنه فاجأها وعرض لها فى المكان الخالى ، فالتجأت إلى الله تستعيز به وتستنجد ، وتثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل والخوف من الله عز وجل ؛ لعله يتذكر رقابة الرحمن الذى يعلم خائنة الأعين وما تحفى الصدور ، فيخشى الله ويتقيه ، ويبتعد عنها ويرجع من حيث أتى . حينئذ أزال الملك الكريم ما حصل عندها من الخوف والفرع والارتياب ، وأخبرها بأنه ملك من ملائكة الله بعثه المولى عز وجل إليها ؛ ليهب لها ولداً صالحاً تقياً مباركاً .

قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ (٢) .

قال أبو حيان : (قيل : وإنما مثل لها الملك فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ، ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها فى الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه ، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالرحمن من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكان تمثله على تلك الصفة ابتلاء لها ، وسبراً لعفتها) (٣) .

حقاً إنها مريم الفتاة العذراء القديسة الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة ، التى نشأت فى وسط صالح وكفلها زكريا (عليه السلام) . إنها مريم البتول التى لا يعرف أحد عنها إلا الطهر والعفاف ، ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم الزمان ، تتلقى البشارة بولاده ولد صالح وهى ما زالت عذراء من غير بعل . فتعجبت من هذا الأمر ، وسألت الملك : كيف يكون لى غلام ؟! أى على أى صفة يوجد ذلك الغلام منها ، وهى ليست بذات

٣ - البحر المحيط ج٦ ص ١٨٠ .

١ - من سورة آل عمران : آية رقم ٤٧ .

٢ - من سورة مريم : الآيات من رقم ١٦ إلى رقم ١٩ .

زوج ، وما هي بغى ، ولا يتصور منها الفجور . فأجابها جبريل . (عليه السلام) بما اطمأنت به نفسها وأذهب عنها الحزن ورفع تعجبها ، حيث أخبرها بأن ربها قد قال : إنه سيهب لك غلاماً زكياً وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك منكر ولا فسوق ، فإنه تعالى على ما يشاء قدير لا يعجزه شيء ، وأنه سبحانه أراد أن يجعل هذا الحادث الخارق للعادة المألوفة للبشر - دلالة وعلامة للناس على وجوده جل وعلا وكمال قدرته وعظيم سلطانه وحرية إرادته . وأن يجعله رحمة لبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادته عز وجل وتوحيده ، ورحمة للناس جميعاً ، وذلك بإبراز هذه الآية التي تقودهم إلى معرفة بارئهم وعبادته وابتغاء رضاه . على أن هذا كله هو أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ، وقد عزم سبحانه عليه فليس منه بد . قال الله جل ثناؤه :

(قالت أن يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً)^(١) .

﴿ والى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابناً آية للعالمين ﴾^(٢) .

﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾^(٣) .

لقد أحصنت مريم ابنة عمران فرجها فحفظته وصانته من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية . وهذه شهادة من الله تعالى لمريم على براءتها وطهرها وعفتها وتجودها لله منذ نشأتها ، وتزنيهاً لها عن كل ما رماها اليهود . لقد أحصنت فرجها ، فبعث الله عز وجل الروح الأمين جبريل إليها فتمثل لها بشراً سوياً ، وكان حاملاً وموصلاً لنفخة الروح العلوية التى كانت منها عيسى (عليه السلام) :

﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾^(٤) .

لقد حملت مريم بعيسى بإذن الله تعالى . أمّا مدة الحمل فقد اختلف المفسرون فيها . فقيل : إنها كانت ساعة ، وقيل : سبعة أشهر ، وقيل : ستة ، وقيل : ثمانية . ولعل الصواب أنها حملت به حملاً طبيعياً ، ووضعته في مدة تسعة أشهر كإباحة النساء ، والله أعلم .

٢ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٩١ .

٤ - من سورة مريم : آية رقم ٢٢ - ٢٣ .

١ - من سورة مريم : آية رقم ٢٠ - ٢١ .

٣ - من سورة التحريم : آية رقم ١٢ .

قال الحافظ ابن كثير : (الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر قمرية كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر . قال بعضهم : حملت به تسع ساعات ، واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ فحملته فالتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ الآية : والصحيح : أن تعقيب كل شيء يحسبه ، كقوله : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾^(١) وكقوله : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾^(٢) . ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه^(٣) .

وعلى أية حال فقد حملته وانتبذت به مكاناً بعيداً عن قومها ؛ ذلك لعلها استشعرت منهم اتهامها بالريبة ، فاتخذت من دونهم حجاباً ، وكانت في محنة والام نفسية ، ولا ريب أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها زوج . ففزعت لهذه الخواطر وما ستواجه من أهوال ، وعاشت في حالة قلق واضطراب وخوف من مواجهة المجتمع واتهامهم لها عند رؤية وليدها ، وضاعت ذرعاً ولم تدر ماذا تقول للناس ، فإنها تعلم أنهم لا يصدقونها ولا يفقهون قولها .

هذا ، ولما حان أوان وضع حملها اضطرها ألم الولادة للالتجاء إلى جذع نخلة لتستتر به وتستند عليه ، وهي وحيدة فريدة تعاني حيرة العذراء في أول مخاض . فتمنت حينئذ لو كانت لقيت منيتها قبل هذا ، أو كانت شيئاً لا يذكر ولا يُعرف لتفاهته وحقارته ؛ وذلك لما قاسته من الأم الولادة والوحدة ، ولما هي قادمة عليه من لوم اللاثمين من قومها ، وما سيرمونها به من الوصم الشائن ، ويظنون بها الشر والسوء في دينها .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : (عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ، قالت : ﴿ يا ليتني مت قبل هذا ﴾ أى قبل هذا الحال ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ أى لم أخلق ولم أك شيئاً ، قاله ابن عباس ، وقال السدي : قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس : يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بل ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ نسي فترك طلبه ، كخرق الحيض إذا ألقيت وطرحتم لم تطلب ، ولم تذكر ، وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي^(٤) .

١ - من سورة الحج : آية رقم ٦٣ .

٢ - من سورة المؤمنين : آية رقم ١٤ .

٣ - قصص الأنبياء ج ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١١٧ .

ولكن الله لطيف بعباده ، فسرعان ما سمعت صوتاً يناديها ، يسكن روحها ويهديء بالها ، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ، ويخبرها بأن الله تعالى متول أمرها ، وهو سبحانه قادر أن يرد عنها قذف القاذفين ، ويصرف عنها كيد الظالمين . وهذا المنادى قيل : هو جبريل (عليه السلام) كان في أسفل الوادي ، وقيل : المنادى هو عيسى (عليه السلام) سمعته يناديها بأن الله تعالى قد كفّل لها رزقها ، وما عليها إلا أن تهز جذع النخلة فيسقط عليها رطب جنى فتأكل هنيئاً ، وتشرب من الجدول السارى الذى أجراه الله تحت قدميها ، وتطمئن قلباً . فأمّا إذا قابلت أحداً من الناس فلا تجبه عن سؤال ، ولتقل : إني نذرت للرحمن صوماً عن الكلام ، وفى ذلك الحين يتولى الله تعالى البرهنة على براءة ساحتها .

قال تعالى : ﴿ فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى قرى عيتاً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ (١) .

رأت مريم البتول تلك الخوارق ، وذلك الإكرام فطابت نفسها واطمأنت إلى أن الله تعالى لا يتركها ، فأمنت بكلمات ربها ، وسلّمت لأمره عز وجل ، واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله ، ولما رأوها تحمل طفلاً ارتابوا لهذا الخطب العظيم ، وزاد في دهشتهم ما كانوا يعلمونه عنها من طهارة المنب ، وطيب البيئة ، ونشأة التقوى التى نشأتها ، فحملهم ذلك على تقيعها وتأنيبها ولومها على ما أتت به من شيء فظيع مستنكر . ثم أخذوا يتهمون بها تهكماً مريراً بقولهم : ﴿ يا أخت هرون ﴾ نبي الله الذى تولى الهيكل هو وذريته من بعده ، والذى تتسعين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل ، لقد قطعت العلاقة بينك وبينه بما قارفتيه من منكر ! يا أخت هرون ، ما كان أبواك من الفاسدين الفاسقين حتى تأتى بهذه الجريمة النكراء التى لا تأتيها إلا خضراء الدّمن ! وهكذا قذف القوم مريم الطاهرة ، ورموها بالفرية ، واتهموها بما هى بريئة منه . فما كان منها إزاء هذه العاصفة إلا أنها التزمت الصمت ، وأشارت إلى ابنها فى المهد ليسألوه عن سرها ، فليس أدل على طهارتها وبراءتها ونزاهتها من أن يتكلم هذا الطفل ، وهو لم يزل بعد فى المهد ، ويحييهم على تلك الاتهامات والافتراءات .

قال سبحانه : ﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إني عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى

بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿١﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (وهكذا يعلن عيسى (عليه السلام) عبوديته لله تعالى . فليس هو ابنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلهاً كما تدعى فرقة . وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعى فرقة . . . ويعلن أن الله جعله نبياً ، لا ولداً ولا شريكاً . وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته . فله إذن حياة محدودة ذات أمد . وهو يموت ويبعث . وقد قدر الله له السلام والإيمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . . . والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه . وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة (ولا جدالاً) ﴿٢﴾ .

والى هنا نكون قد وقفنا على البلاء الشديد الذي تعرضت له مريم الطاهرة ، والمحنة القاسية التي عرّضتها للقيّل والقال ، وجعلتها لسلطة السنة اليهود ، ولأذع سخرتهم ، وعظيم اتهاماتهم وافتراءهم ، لو لا دفاع ابنها عنها وتعرضه لهم بتلك الآية التي تسكت كل لسان ، وتقطع حجة كل ذي بيان . وخرجت من ذلك الابتلاء الشديد بفضل الله ورحمته حين صبرت صبراً جميلاً ، وازداد إيمانها بربها ، وثقتها بنصره . وبقينها بوجوده معها . وبهذا دخلت مريم الطاهرة ديوان الصديقين ، وسجل الله لها ذلك في كتاب الخلود : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ﴿٣﴾ الآية . فقد آمنت بكلمات ربها وكتبه وكانت من المطيعين لله تبارك وتعالى .

ونغضى مع المسيح عيسى (عليه السلام) في جهاده وتبليغ رسالة ربه إلى بني إسرائيل لنرى كيف كان استقبالهم له ، وما موقفهم معه ومن رسالته . ولعل أهم النصوص - من القرآن الكريم - في هذا الصدد هي ما يلي :

قال الله تعالى : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بأية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد أنا مسلمون .

٣ - من سورة المائدة : آية رقم ٧٥ .

١ - من سورة مريم : الآيات رقم ٢٧ - ٣٥ .
٢ - في ظلال القرآن ج ١٦ ص ٢٣٠٨ .

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴿١﴾ .

﴿ وفيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٢) .

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الأنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ (٣) .

﴿ إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (٤) .

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ (٥) .

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ (٦) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ (٧) .

٢ - من سورة النساء : الآيات رقم ١٥٥ - ١٥٨ .

٤ - من سورة المائدة : آية رقم ١١٠ .

٦ - من سورة الصف : آية ٦ .

١ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ٤٩ - ٥٥ .

٣ - من سورة المائدة : آية رقم ٤٦ .

٥ - من سورة الزخرف : الآيات ٦٣ - ٦٥ .

٧ - من سورة الصف : آية رقم ١٤ .

يبدو من هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى بعث المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) رسلاً إلى بني إسرائيل ، وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وجاء (عليه السلام) مصداقاً لما بين يديه من التوراة التي نزلت على موسى (عليه السلام) فاعتمد شريعتهما فيما عدا تعديلات قليلة في بعض الأحكام جاءت في الإنجيل الذي آتاه الله عيسى . فقام المسيح (عليه السلام) يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه ، ويوجههم إلى الطريق القويم . وقد جاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه ، وليحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم في شريعة موسى بسبب بغيتهم وعدوانهم . وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقسّت قلوبهم وحرّفوا شريعة الله ، واختلفوا في كثير مما جاءهم به موسى (عليه السلام) وانقسموا فرقا وشيعاً . فجاء عيسى (عليه السلام) ليهديهم إلى سبيل الرشاد ، ويصحح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل ، فأهاب بهم أن يرجعوا إلى الله عز وجل ويعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يمثلوا أوامره ويحجبوا نواهيه ، وأن يتبعوه ويطيعوه فيما جاءهم به من عند الله تبارك وتعالى .

وهكذا دعاهم (عليه السلام) إلى تقوى الله وطاعته ، وجهر بكلمة التوحيد . وقد أجرى الله تعالى على يده خارق المعجزات - التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله ، تصديقاً لنبوته وتأييداً لرسالته . فكان من هذه المعجزات أنه (عليه السلام) يصور من الطين كهية الطير بإذن الله فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، ويرى المولود أعمى كما يرى الأبرص بإذن الله ، ويحيى الموتى من الناس بإذن الله ، ويخبر بالمدخر من الطعام وغيره في بيوت بني إسرائيل وهو بعيد عن رؤيته بعينه .

ومع هذا كله لقي عيسى (عليه السلام) من اليهود تعتاً واستكباراً . وانقسم بنو إسرائيل إزاء دعوته إلى جماعتين : جماعة آمنت له وصدقته ، والأخرى كفرت به وكذبت أهد التأكيد وأقبحه ونفروا عنه ، ومنعوا الناس من سماع دعوته ، وزعموا أن ما جاء به من المعجزات ما هو إلا سحر .

قال الأستاذ سيد قطب : (لقد كانت رسالة عيسى (عليه السلام) إلى بني إسرائيل ، وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان ، وقد طال انتظارهم له ، فلما جاءهم نكروه وشاقوه وهما أن يصلبوه !

(ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلاً كثيرة ، أهمها أربع فرق أو طوائف :

(طائفة الصدوقيين ، نسبة إلى (صدوق) وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان . وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هرون أخى موسى . فقد كانت ذريته هي

القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون " البدع " في الوقت الذى يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة ، ولا يعترفون بأن هناك قيامة !

(وطائفة الفريسيين ، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين . ينكرون عليهم تشدهم في الطقوس والشكليات ، وجحدهم للبعث والحساب . والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف ، وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة . وكان المسيح (عليه السلام) ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان !

(وطائفة السامريين ، وكانوا خليطاً من اليهود والأشوريين ، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية ، وتنفى ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة مما يعتقد غيرهم بقداسته .

(وطائفة الآسين أو الآسينيين . وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية ، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود ، يأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف ، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

(وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بنى إسرائيل الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستبدلين المكبوتين ، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

(فلما أن جاء المسيح - عليه السلام - بالتوحيد الذى أعلنه : ﴿ إن الله هوربها وربكم فاعبدوه ﴾ الآية ، وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحى والعناية بالقلب البشرى قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس (١) .

لقد بادر اليهود دعوته بالكذب والشتيم ، وكفروا به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، واتهموه بالكذب والشعوذة ، ثم أخذوا يمحكون ضده المؤامرات ، ويسعون لدى ولاية الأمور ليتمكنوهم من قتله حتى سلم لهم الحاكم الرومانى هذا الأمر بعد أن ادعوا زوراً وبهتاناً أنه (عليه السلام) يحرض الناس للخروج ضد السلطان وأنه مشعوذ ، يفسد عقيدة الجماهير !

فلما أحس عيسى (عليه السلام) منهم إصرارهم على الكفر ، وأدرك منهم الغدر والتدبير لقتله ، وأخبر بتمالثلهم عليه ، دعا دعوته : من أنصارى لإظهار الدعوة إلى الله ؟ من أنصارى

في ظلال القرآن جـ ٢٥ ص ٣٢٠٠ .

إلى دين الله ودعوته ونظامه وتبليغ شريعته ؟ هنالك بادر الحواريون ، وهم أصحاب عيسى (عليه السلام) الذين آمنوا به ولازموه ، فقالوا : نحن أنصار الله ، نصر دين الله ، ونهض معك ، ونحمل الدعوة ، ونحامي دونها ، ونبلغها للناس كما ينبغي علينا أن نفعل ، ونقوم بعدك عليها . ثم أشهدوه (عليه السلام) على إسلامهم وانتدابهم لنصرة دين الله ورسوله ، كما أشهدوا ربهم على ما هم عليه من تصديقهم بالدعوة واتباع الرسول ، وتوجهوا إليه سبحانه أن يجعلهم مع الذين يشهدون له تعالى بالوحدانية ، ولرسوله بالرسالة والصدق والتبليغ .

قال تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

﴿ ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ .

قال الألوسي : (قوله تعالى : ﴿ ويكفرهم وقولهم على مريم ﴾ عطف على (كفرهم) الذي قبله : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ﴾ ولا يتوهم أنه من عطف الشيء على نفسه ، ولا فائدة فيه ، لأن المراد بالكفر المعطوف : الكفر بعيسى ، والمراد بالكفر المعطوف عليه : إما الكفر المطلق أو الكفر بمحمد ﷺ لاقتراحه بقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ وقد حكى الله تعالى عنهم هذه المقالة في مواجهتهم له ﷺ في مواضع ، ففي العطف إيذان بصلاحية كل من الكافرين للسببية (١) .

ولقد تبجح اليهود بكذبهم واقترائهم على مريم الطاهرة ، وبهتوها بالقول الباطل ، ورموها بالزنى وارتكاب الفاحشة ، وادعوا قتل عيسى (عليه السلام) مع تفاخرهم بذلك ، وتهكمهم برسالته وتديبرهم لإيذائه وقتله وصلبه ، ولكن الله تعالى خيب سعيهم وأبطل مكروهم وصرف كيدهم عنه ، وعصمه من قتلهم ، وطهره من سوء جوارهم ومخالطتهم ، بأن رفعه إليه دون أن يمسه منهم سوء .

قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ .

١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج ٦ ص ٩ .

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

قال الفخر الرازي : (فإن قيل : اليهود كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فكيف قالوا : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ؟

(والجواب عنه من وجهين : الأول : أنهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ ^(١) الآية ، وكقول كفار قريش لمحمد ﷺ : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ ^(٢) الآية . والثاني : أنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسى (عليه السلام) عما كانوا يذكرونه به) ^(٣) .

ولعل من أكبر المفتريات والأكاذيب التي تبجح بها اليهود هي زعمهم قتل النبي عيسى (عليه السلام) وابتهاجهم بذلك ، وهو كفر عظيم منهم . ومن ثم فقد رد الله عليهم هذا الافتراء ، وكذبهم في هذه الدعوى ، فقال : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ الآية . فالحق أنهم ما قتلوا عيسى بن مريم (عليه السلام) ولكن وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواء .

قال الزمخشري : (فإن قلت : (شبه) مسند إلى ماذا ؟ إن جعلته مسند إلى المسيح فالمسيح مشبه به ، وليس بمشبه ، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر ؟ قلت : هو مسند إلى الجار والمجرور وهو (لهم) كقولك : خيّل إليه كأنه قتل ، ولكن وقع لهم التشبيه . ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول ، لأن قولهم : ﴿ إنا قتلنا ﴾ يدل عليه كأنه قتل : ولكن شبه لهم من قتلوه) ^(٤) .

وقال الأستاذ حسنين محمد مخلوف عند قوله تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ : (زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، فأكذبهم الله تعالى في ذلك ، وقال : ﴿ ولكن شبه لهم ﴾ أي شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح ؛ فلما دخلوا ليقتلوا المسيح وجدوا الشبيهة فقتلوه وصلبوه ، يظنونهم المسيح وما هو به في الواقع ، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء ، ونجاه من شر الأعداء . وقيل المعنى : ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهمهم ذلك أحبارهم) ^(٥) .

١ - من سورة الشعراء : آية رقم ٢٧ .

٢ - التفسير الكبير ج ١١ ص ٩٩ .

٣ - صفوة البيان ج ١ ص ١٧٨ .

٢ - من سورة الحجر : آية رقم ٦ .

٤ - الكشف ج ١ ص ٥٨٠ .

هذا ، وللمفسرين في بيان كيفية تشبيه المسيح وجوه ، أهمها اثنان : الأول - أن الله سبحانه ألقى شبه المسيح على أحد تلامذته ، وهو رجل خائن يدعى (يهوذا الاسخريوطى) كان ملازماً لعيسى (عليه السلام) ولكنه كان منافقاً خالصاً ، فقد أرشد أعداء المسيح الذين أرادوا قتله إلى مكانه . فلما دخل بيت عيسى ليدهم عليه رفع الله المسيح إليه . وألقى شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الاسخريوطى) فدخلوا عليه وأخذوه وهم يظنونهم عيسى (عليه السلام) فقتلوه وصلبوه ، ورد الله كيدة في نحره ، وجازاه على مكره وخيائته .

ولقد وافق هذا الأثر إنجيل برنابا موافقة تامة في وصف محاولة قتل المسيح (عليه السلام) حيث يقول : (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع سمع يسوع دنوهم غفير . فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نياماً . فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفاثيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرقة على الجنوب . فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التى تسبح الله إلى الأبد . ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع . وكان التلاميذ كلهم نياماً . فأتى الله بأمر عجيب . فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت يا سيد هو معلمنا . أنسينا الآن ؟ أما هو فقال متبسماً : هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الاسخريوطى . وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهاً بيسوع من كل وجه . أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ، ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين . ويوحنا الذى كان ملتفاً بملحفة من الكتان استيقظ وهرب . ولما أمسكه جندي بملحفة الكتان ترك ملحفة الكتان وهرب عرياناً . لأن الله سمع دعاء يسوع وخلص الأحد عشر من الشر . فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه ساخرين منه . لأنه أنكر وهو صادق أنه هو يسوع . فقال الجنود مستهزئين به : يا سيدى لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكاً على إسرائيل . وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة . أجاب يهوذا : لعلمكم جننتم أنكم أتيتم بسلام ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصرى كأنه لص أفثوثقوننى أنا الذى أرشدتكم لتجعلوني ملكاً ! حينئذ خان الجنود صبرهم وشرعوا يمتحنون يهوذا بضربات ورفسات وقادوه بحق إلى اورشليم . وتبع يوحنا ويطرس الجنود من بعد . وأكدوا للذى يكتبونها شاهدًا كل التحرى الذى تمراه بشأن يهوذا رئيس الكهنة ومجلس الفريسيين الذين اجتمعوا ليقتلوا يسوع . فتكلم من ثم يهوذا كلمات جنون كثيرة . حتى إن كل واحد أغرق في الضحك معتقداً أنه بالحقيقة يسوع وأنه يتظاهر بالجنون خوفاً من الموت (١) .

ويعضى إنجيل برنابا في تصوير حالة يهوذا وما تلقاه من الذل والسخرية والمهانة والعذاب ، ثم قتلوه وصلبوه في النهاية ، وهم يحسبون أنهم قتلوا المسيح (عليه السلام) .

الثاني - يرى بعض المفسرين أنَّ الله عز وجل ألقى شبه عيسى (عليه السلام) على أحد الحواريين المخلصين عندما عزم اليهود على قتله ، فأوحى الله إليه بأنه رافعه إليه ومطهره من الذين كفروا ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقام رجل منهم ورضى بشراء نفسه بالجنة ، فألقى الله عليه شبه المسيح فقتل الرجل وصُلب .

قال الحافظ ابن كثير : (قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إنَّ منكم من يكفر بي اثني عشر مرة بعد أن آمن بي . قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا ، فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب ، فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : هو أنت ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثني عشر مرة بعد أن آمن به ، واختلفوا ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمين . فظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ^(١) .

هذا ، وإنَّ الذين اختلفوا في شأن عيسى (عليه السلام) من بنى إسرائيل لفي حيرة وتردد من حقيقة أمره ، وليس عندهم علم قطعي في شأنه أو شأن قتله ، ولكنهم ما يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن ، والظن لا يغني عن الحق شيئاً .

قال الأستاذ حسين محمد مخلوف : (والذين اختلفوا فيه هم اليهود والنصارى . فاليهود قال بعضهم : قتلناه حقاً ، وتردد فيه آخرون . أما النصارى فقال بعضهم : صُلب الناسوت ورُفع اللاهوت ، وقال بعضهم : قتلنا معاً ، وقال فريق : رأيناه قُتل ، وفريق : رأيناه رُفع .

١ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٧٤ - ٥٧٥ . قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الأثر : (وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه ، وكذا ذكره غير واحد من السلف أنه قال لهم : أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكان وهو رفيقي في الجنة ؟)

وكلهم ضلّال كذبة ، وما لهم بذلك من علم ! ولكنهم يظنون ظناً ، ويتبعون وهماً ، وما قتلوه متيقنين أنه هو ، بل رفعه الله إلى السماء التي لا حكم فيها إلا الله تعالى ، وطهره من الذين كفروا^(١) .

وإلى هنا نكون قد وقفنا على ابتلاء المسيح عيسى بن مريم رسول الله إلى بني إسرائيل . فهو (عليه السلام) كان جاداً في رسالته ، غير متوان في دعوته . جاهد في الله حق جهاده ، وأنكر على اليهود ما درجوا عليه من النظم التي ما أنزل الله بها من سلطان ، كما أنكر عليهم تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على موسى (عليه السلام) وتلاعبهم بنصوص التوراة وانحرافهم عن الصراط المستقيم . ثم دعاهم إلى توحيد الله وعبادته والاستمسك بالعروة الوثقى ، وإلى اتباعه وطاعته . ولكنهم كذبوه بغياً وعداوة وحسداً من عند أنفسهم ، وأعرضوا عنه وحرّضوا عليه الحاكم الروماني ، ورموه وأمه بالعظائم واتهموه بالشعوذة والسحر ، وتفتنوا في إيدائه . ثم أجمعوا أمرهم بينهم على مناواته ، وبيتوا له الشر ودبروا له القتل والصلب .

وهذا لقي عيسى (عليه السلام) في سبيل الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته أشد العنت و أقسى الأذى ، فاحتمل وصبر على المكروه ، وثبت على الحق ، ولم يجزع ولم يياس ، ولم يمل . بل لم يثن ، أو يتراجع أو يحدث نفسه بشيء من هذا ، حتى حكم الله بينه وبين أعدائه بالحق ، وهو خير الحاكمين ، فنجّاه من كيد الكائدين ، وجعل أعداءه هم الأخسرين .

الفصل الرابع

ابتلاء بالنعم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : صور من ابتلاء بنى إسرائيل بالنعم .

المبحث الثانى : ابتلاء أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم فى سورة القلم .

المبحث الأول

صور من ابتلاء بنى إسرائيل بالنعم

لقد تلقى بنو إسرائيل على عهد موسى (عليه السلام) ألواناً من النعم ، وصنوفاً من الخير والبركات . فما إن جاوز الله بهم البحر وأنجاهم من فرعون وملته حتى صارت نعم الله تتوالى عليهم : من تظليل الغمام إلى المن والسلوى إلى تفجير الصخر بالماء إلى غير ذلك من وجه النعم والخيرات الوفيرة . ولكن موقفهم إزاء هذه الآلاء كان موقف المتعنت الملمح في طلب الخوارق ، ثم الاستكبار والاستمرار في العناد والجحود . مع أنه كان ينبغي عليهم أن يستشعروا أن كل نعمة من هذه النعم محفوفة بالابتلاء ، فياخذوا حذرهم ، ويكونوا على صلة بربهم ، ويقظة تامة ليجتازوا هذا الابتلاء ، ويستعينوا بالله تعالى ليتقوا عليه . كما كان ينبغي عليهم أن يعرفوا هذه النعم التي أفاضها المولى عز وجل عليهم ، ويشعروا بفضل المنعم ، ليعلم الله منهم هذا الشعور فيتولاهم . هذا هو اللائق بهم : أن يشكروا الله تعالى على آلائه ؛ لأن من شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء .

ولكن قوم موسى (عليه السلام) لم يفقهوا ذلك ؛ ولهذا لم يثبتوا للابتلاء بالخير والرخاء . فجحذوا بالنعم ، وكفروا بالآيات والنذر وحادوا عن الطريق القويم . ومن ثم حرمهم الله عز وجل من الخلافة في الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وحذر المؤمنين كيدهم كما حذرهم مزالقهم . وسنحاول في هذا المبحث أن نفق على ذلك كله باستعراض طائفة من الآلاء التي أسبغها الله على بنى إسرائيل . ولعل في هذه الطائفة ما يكفى للإحاطة بابتلائهم بنعم الله ، واستقبالهم لها وموقفهم منها . وسوف نلخص ذلك تحت العناصر الآتية^(١) :

- أ - نعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم .
- ب - نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم .
- ج - نعمة بعثهم من بعد موتهم .
- د - نعمة شمول الله إياهم بفضله ورحمته برغم نقضهم للميثاق .
- هـ - نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم .
- و - نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش .

١ - هناك نعم جليلة أنعمها الله سبحانه على بنى إسرائيل ، وقد سبق أن تكلمنا عنها في المبحث الثالث من الفصل الأول في هذا الباب ، وهي : نعمة عفو الله عنهم بعد عبادتهم العجل ، وإرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم ، ونعمة تمكينهم من دخول الأرض المقدسة . وتجنباً للتكرار فقد رأينا عدم إعادة الكلام عنها في هذا المبحث .

نعمة تفضيل بنى إسرائيل على العالمين :

إنَّ الله سبحانه وتعالى فضَّل بنى إسرائيل على من عاصرهم من الأمم قبل بعثة نبينا محمد ﷺ ولعل هذا التفضيل يتجلّى في اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين ، وفي اختيارهم لتوريثهم الأرض المقدسة التي كانت إذ ذاك في أيدٍ مشركة . هذا ، مع ما حباهم الله به من النعم الكثيرة . فقد جعل منهم الأنبياء والرسل والملوك والقيادات التي تتجه بهم إلى الله تعالى على هدىً وبصيرة واستقامة ، ونزل عليهم الكتب ، وآتاهم ما لم يؤث أحداً من العالمين في زمانهم .

وفي مقدمة ما أسبغه الله عليهم من الآلاء بفضله وكرمه كانت نجاتهم من العذاب المهيّن ، حيث كان آل فرعون يديمون عذابهم ، فأهلك الله عدوهم وهم ينظرون - وكفى الله المؤمنين القتال - وجعلهم بعد ذلك أحراراً بعد أن عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة . ثم أنزل الله التوراة على موسى (عليه السلام) لتكون هداية لهم ، ومنحهم الحكمة والفقه في الدين ، وجعل النبوة في عدد كبير منهم ، وساق لهم على أيدي أنبيائهم الكثير من المعجزات الباهرات ، والدلائل البيّنات التي تزيد إيمانهم وترشدهم إلى الطريق القويم . ثم رزقهم من طيبات الأغذية والأشربة ، وكانت سهلة ميسرة في تناول اليد دون تعب ومشقة . وكل هذه المنن كانت كفيلة بأن تذكر وتُشكر ؛ وذلك لما في هذه النعم والمعجزات من اختبار لقلوبهم وامتحان لنفوسهم ، ولما في ذلك الابتلاء من عبرة ، أى الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء . وبما أن نفوسهم كانت قد فسدت بالذل والخضوع للطغيان الفرعونى ، فإنها لم تتعظ ولم تستيقظ في الابتلاء بالخير ، بل قابلت هذا الفيض المدرار بالجحود والكفران دون الشكر والعرفان . فأزال الله تعالى عنهم تلك النعم ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا ، وتوعدهم بشديد العذاب في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ ^(١) .

﴿ وإذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤث أحداً من العالمين ﴾ ^(٢) .

﴿ قال أغير الله أبغيتكم إلهاً ، وهو فضلكم على العالمين ﴾ ^(٣) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٤٧ وآية رقم ١٢٢ .

٢ - من سورة المائدة : آية ٢٠ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٤٠ .

﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين .
ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وأتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ (١) .

﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على
العالمين . وأتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك
يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٢) .

قال الأستاذ سيد قطب : (تفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم
واختيارهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ،
وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة
والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد ، وحق عليهم الوعيد .

(وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين ، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده ؛
وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية فيعودوا إلى موكب الإيمان ،
وإلى عهد الله ؛ شكراً على تفضيله لأبائهم ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذى يناله
المؤمنون) (٣) .

ولعل مما يدل على تفضيل بنى إسرائيل على عالمى زمانهم دون سواهم ، هو قوله تعالى
خطاباً لهذه الأمة الإسلامية : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن
المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم
الفاسقون ﴾ (٤) .

والخلاصة ، أن الله تعالى أعطى الخلافة فى الأرض لبنى إسرائيل فترة من الزمن ؛ جزاء
على صبرهم واجتيازهم ابتلاء العذاب الأليم الذى كان يديمه عليهم آل فرعون . وفى تلك
الفترة فضلهم الله على العالمين ، وجمع لهم من المحامد ما لم يجمع لغيرهم فى ذلك الحين من
الزمان . فقد حباهم بكثير من النعم ، وآتاهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ؛ ليتقوا الله
ويخشوه ، ويحمدوه على جزيل أنعمه . فلم يفلحوا فى اجتياز هذا الاختبار ، ولم يرعوا هذه
النعم حق رعايتها . بل بدّلوا نعم الله كفراً ، وقابلوها بالجحود والطغيان ؛ فسلبها الله
عنهم ، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم .

١ - من سورة الدخان : الآيات ٣٠ - ٣٣ .

٢ - من سورة الجاثية : الآيات ١٦ - ١٧ .

٣ - فى ظلال القرآن ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ .

٤ - من سورة آل عمران : آية رقم ١١٠ .

نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم :

من نعم الله تعالى على بنى إسرائيل - بعد خروجهم من البحر - نزول الشريعة التى بها صلاح أمورهم ، وانتظام حياتهم ، وتأليف جماعتهم ، وهى التوراة التى أوتيتها موسى (عليه السلام) . وكان ينبغي عليهم أن يتدبروا فيها ، ويعملوا بما تحويه من الشرائع والأحكام ؛ ليهتدوا إلى الحق البين بعد الضلال المبين ، وليخرجوا من الظلمات إلى النور . فهى نعمة عظيمة جدية بأن تُذكر وتُشكر .

قال تعالى : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ (١) .

﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلاً ﴾ (٢) .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدىً ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ (٣) .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدل على أن الله تعالى أنزل التوراة لهداية بنى إسرائيل إلى الصراط المستقيم . ومع ذلك فقد تلقوا هذه النعمة الجليلة بالجحود والمخالفة والاستنكار ، فحرّفوا التوراة وبدّلوها وخالفوا أوامرها وأولّوها ، اتباعاً لأهوائهم وآرائهم . ولقد ذمهم الله عز وجل على ذلك ، وشبّههم فى حملهم التوراة وحفظها لفظاً دون فهمها والعمل بمقتضاها ، كالحمّار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها . بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات العجماوات ؛ لأنّ هؤلاء اليهود لهم عقول عطلوها ولم يستعملوها فى إدراك وفهم وفقه الكتاب الذى أنزل لهدايتهم .

قال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٤) .

قال الزخشرى : (شبّه اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها ، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به ، ولم يؤمنوا به - بالحمّار حمل أسفاراً : أى كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا ما يمر بعينيه وظهره من الكدّ والتعب ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل) (٥) .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٥٣ .

٢ - من سورة الإسراء : آية رقم ٢ .

٣ - من سورة القصص : آية رقم ٤٣ .

٤ - من سورة الجمعة : آية رقم ٥ .

٥ - الكشاف ج٢ ص ١٠٣ .

وقال القاسمى : (قال الإمام ابن القيم فى (إعلام الموقعين) : قاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه - كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدرى ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التى على ظهره . فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ، ولم يؤدِّ حقّه ، ولم يره حق رعايته (١) .

ومن هذا يبدو أن الله تعالى قد أنعم على بنى إسرائيل بالتوراة ، الكتاب الذى جاء به موسى لهدايتهم وسعادتهم ، وكلفهم سبحانه أمانة العقيدة والشريعة ، فما نهضوا بحمل هذه الأمانة ، ولا فهموا حقيقتها ، ولا عملوا بها ، ولا قاموا بواجب الشكر لبارئهم . بل استحبوا العمى على الهدى ، وأخلدوا إلى الأرض ؛ ومن ثم أصبحوا فى منزلة الحمار فى الفهم والإدراك .

نعمة بعثهم من بعد موتهم :

من نعم الله الجليلة التى أسبغها على بنى إسرائيل : نعمة بعثهم من بعد موتهم . وذلك أنهم لما جاءهم موسى (عليه السلام) بالتوراة رفضوا الإقرار بالإيمان له ، والتصديق بما كان معه من الفرائض فى الألواح ، إلا أن يروا الله عياناً وعلانية . عندئذ أوقفهم الله عز وجل فى ابتلاء وامتحان ؛ لكى تستيقظ نفوسهم ويكونوا على صلة بربهم ويعترفوا بفضله عليهم . فهم على الجبل فى الميقات المعلوم حين أخذتهم الرجفة فصعقوا ؛ جزاء على ما بدا منهم من التعتن وقلة الاكتراث بما أوتوا من النعم ، وما شاهدوا من المعجزات . إذ ذاك توجه موسى (عليه السلام) إلى ربه يتضرع إليه أن يغفر للقوم ويرحمهم ، وأن يرد عنهم فتنته ، وألاً يهلككم بفعله السفهاء منهم . فاستجاب الله جل وعلا لدعائه وشفاعته ، وأكرم قومه بأن وهب لهم فرصة الحياة مرة أخرى عسى أن يذكروا ويشكروا هذه النعمة العظيمة .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ (٢) .

١ - تفسير القاسمى ج ١٦ ص ٥٨٠ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٥٥ - ٥٦ .

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذاب أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (١) .

قال الطبرى عند تأويل قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ الآية : (ذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم ، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم ، مع كثرة معانياتهم من آيات الله جل وعز وعبره ما تتلج بأقلها الصدور ، وتطمئن بالتصديق معها النفوس . وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم ، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهاً غير الله . ومرة يعبدون العجل من دون الله . ومرة يقولون : لا نصدقك حتى نرى الله جهرة . وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ومرة يقال لهم : قولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم ، فيقولون : حنطة في شعيرة ! ويدخلون الباب من قبل أستاههم ، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم عليه السلام ، التي يكثر إحصاؤها .

(فأعلم ربنا تبارك وتعالى ذكره الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل ، الذين كانوا بين ظهرائى مهاجر رسول الله ﷺ ، أنهم لن يعدوا أن يكونوا - فى تكذيبهم محمداً ﷺ ، وجحدوهم نبوته ، وتركهم الإقرار به وبما جاء به مع علمهم به ، ومعرفتهم بحقيقة أمره - كأسلافهم وآبائهم الذين فصل عليهم قصصهم ، فى ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى ، وتوئبهم على نبيهم موسى صلوات الله وسلامه عليه تارة بعد أخرى ، مع عظيم بلاء الله جل وعز عندهم ، وسبوغ آلائه عليهم) (٢) .

هذا ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الذين طلبوا إلى موسى (عليه السلام) رؤية الله جهرة هم السبعون الذين اختارهم للذهاب معه إلى ميقات ربه . فلما تمردوا وعصوا أخذتهم الرجفة والصاعقة فماتوا ، ثم بُعثوا من بعد موتهم لبقية آجالهم ، لعلهم يكونون من الشاكرين لأنعم الله الخى القيوم .

قال الحافظ ابن كثير : (اختار موسى سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا من عبادة العجل وترك البقية ، وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ، ولم

١ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٥٥ - ١٥٦ .

٢ - تفسير الطبرى ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ ط . دار المعارف بمصر .

يحك كثير من المفسرين سواه . وقيل : المراد عامة بني إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء السبعين ، وذلك أن موسى (عليه السلام) لما رجع من عند ربه بالألواح ، قد كتب فيها التوراة ، فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا ، فتاب الله عليهم فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ، ونهيكم الذى نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا ويقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ، فجاءت غضبة من الله ، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ، ثم أحياهم الله من بعد موتهم . فقال لهم موسى (عليه السلام) : خذوا كتاب الله ، فقالوا : لا ، فقال : أى شيء أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال : خذوا كتاب الله ، قالوا : لا ، فبعث الله ملائكة فتفتت الجبل فوقهم . وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا . وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين : أحدهما : أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق ، والثانى : أنهم مكلفون ؛ لثلا يخلو عاقل من تكليف . قال الطبرى : وهذا هو الصحيح ؛ لأن معاينتهم للأمر الفطرية لا تمنع تكليفهم ؛ لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات ، وهم فى ذلك مكلفون ، وهذا واضح والله أعلم^(١) .

وبعد ، فإن بني إسرائيل بالرغم مما أوتوا من نعم عظيمة ، وبالرغم مما شاهدوا من خوارق العادات التى أجراها الله على يد موسى (عليه السلام) وما جاءهم به من آيات الله البينات ، فإنهم تطاولوا وطلبوا إليه (عليه السلام) أن يروا الله جهرة حتى يصدقوه فيما جاءهم به ولا يخالفوه . وهذا مما يدل على ما جبلوا عليه من الفكر المادى والطبيعة الجاسية التى لا تؤمن إلا بالمحسوس . هنالك ابتلاههم الله عز وجل ، فأخذتهم الصاعقة ، عقوبة لهم فى طلبهم ما ليس من شأنهم . ثم عفا الله عنهم وأحياهم من بعد موتهم . وفى هذا معجزة لموسى (عليه السلام) استجابة لدعائه ، وشفاعته ، وإكرام من الله لقومه ، ولون جديد من نعم الله عز وجل على بني إسرائيل ، ما أحرأهم بشكره لو كانوا يفقهون .

نعمة شمول الله إياهم بفضله ورحمته برغم نقضهم للميثاق :

ومن نعم الله تعالى على بني إسرائيل الكفيلة بالذكر والشكر نعمة شمول المولى عز وجل إياهم بفضله ورحمته ومنه وكرمه برغم إعراضهم عن التمسك بالتوراة ومخالفتهم عن عهد الله معهم يوم أعطاهم الكتاب ، ولولا أن لطف الله بهم ووفقهم إلى التوبة ، لكانوا من الخاسرين فى الدنيا والآخرة ، بسبب نقضهم للميثاق وانصرافهم عن طاعة ربهم .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشَيْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٥) .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٦) .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٧) .

تفيد هذه النصوص الكريمة أنَّ الله تعالى أخذ على بني إسرائيل الميثاق إذ رفع فوقهم الطور ، وأمرهم أن يأخذوا ميثاقهم بقوة ، وأن يذكروا ما فيه . وقد تضمَّن ذلك الميثاق : ألا يعبدوا إلا الله تعالى ، وأن يحسنوا إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين ، وأن يخاطبوا

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٨٣ - ٨٤ .

٤ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٨٧ .

٦ - من سورة المائدة : آية رقم ١٢ .

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٦٣ - ٦٤ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٩٣ .

٥ - من سورة النساء : آية رقم ١٥٤ - ١٥٥ .

٧ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٧١ .

الناس بالحسنى . كما تضمن فريضة الصلاة ، وفريضة الزكاة ، وأمرهم ببيان التوراة للناس وتبليغه وعدم كتمانها . وكان في ذلك الميثاق أن يدخلوا بيت المقدس سجداً . وأن يعظموا السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيداً ، إلى غير ذلك من التكاليف والأوامر والنواهي الربانية التى جاءهم بها موسى (عليه السلام) .

فعندما رأوا الجبل معلقاً فوق رؤوسهم يهددهم بالوقوع عليهم ، ارتاعوا واستسلموا وأخذوا العهد . ولقد كانوا آنذاك في تمرد وعناد عن إعطاء الميثاق ، فأعطوه في ظرف التهديد الشديد بالسحق . ولقد أمروا - وهم يعطون الميثاق - أن يأخذوه بجد وعزم واجتهاد ، وأن يؤدوا بحزم كل ما أمرهم الله تعالى به وكل ما افترض عليهم فيه ، وألاً يتقصوه ، ولا يتهاونوا فيه ، وأن يظلوا ذاكين لما فيه بالمداومة على تلاوة الكتاب وتدبره والسير على هديه ؛ وذلك لعلهم يتقون الله ويخشونه ويظلون على صلة به سبحانه .

ولكن بنو إسرائيل أعرضوا عن طاعة الله عز وجل ، ولم يشكروا النعم التى حباهاهم الله بها ، ولم يراعوا العهد ، ولم يذكروا الميثاق . بل أهملوا العمل بالكتاب الذى جاءهم به موسى (عليه السلام) ولم يتأثروا بآيات الله ونذره ، ولم يعتبروا بها ، ونسوا الله سبحانه ، ولجوا في المعاصي ، حتى استحقوا غضب الله عز وجل ولعنته وعذابه . ولكن حال دون ذلك فضل الله ومنه وكرمه الذى تداركهم ، ورحمته سبحانه التى وسعتهم ، ولطفه تعالى وإمهاله لهم . ولولا ذلك لكانوا من الهالكين ، الخاسرين للدنيا والآخرة . وتلك نعمة عظيمة جديرة بالذكر والشكر لو كان بنو إسرائيل يعقلون .

نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم :

إن من بين النعم الجليلة التى أسبغها الله تعالى على بنى إسرائيل : نعمة تظليلهم بالسحاب الأبيض ؛ ليقبهم حر الشمس المحرق فى الصحراء القاحلة حين دخلوا التيه إلى أن خرجوا منه إلى الأرض المقدسة . وفى أثناء تلك الفترة أفاء الله عليهم بالمن والسلوى بلا مثونة ولا مشقة . ولكنهم مع هذا اللطف والرعاية الإلهية لهم فى تلك الصحراء ، كفروا بما منحهم الله عز وجل من النعم ، ولم يشكروه عليها ، وطلبوا ما هو أدنى منها ، فكانوا بذلك من الظالمين لأنفسهم .

قال الأستاذ سيد قطب : (تذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهجرة . والصحراء - بغير مطر ولا سحب - جحيم يفرور بالنار ، ويقذف بالشواظ . وهى بالمطر والسحاب رخية ندية تصح فيها الأجسام والأرواح . . وتذكر الروايات كذلك أن الله سخر لهم (المن) يجدونه على الأشجار حلواً كالعسل ، وسخر لهم (السلوى) وهو طائر السماني ،

يجدون بوفره قريب المنال . وبهذا توافر لهم الطعام الجيد ، والمقام المريح ، وأحلت لهم هذه الطيبات . ولكن أترأهم شكروا واهتدوا . . إِنَّ التعقيب الأخير في الآية - الآتية - يوحى بأنهم ظلموا وجحدوا ، وإن كانت عاقبة ذلك عليهم ، فما ظلموا إلا أنفسهم ! (١) .

قال تعالى : ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) .

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٣) .

﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحل عليه غضبي فقد هوى ﴾ (٤) .

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٥) .

لقد تضمنت هذه الآيات الكريمة تذكير بني إسرائيل بفيض من الآلاء التي أفاضها الله عليهم . فهو سبحانه يسر لهم الطيبات من الرزق في الصحراء الجرداء ، وكلأهم برعايته ، وأسبغ عليهم نعمة ظاهرة ليعرفوها ويشكروها ، ولكنهم قابلوا هذا الفيض المدرار من المن بالبحود المنكر والتعنت والبطر . فقد تضجروا بما صاروا فيه من النعمة والعيش الطيب ، ونزعوا إلى ما ألفوه قبل ذلك من الأطعمة المتنوعة في مصر ، واستخفوا بما حباهم الله به من المن والسلوى ، ولم يقدروا هذه النعمة قدرها . فطفقوا يطلبون إلى نبيهم موسى (عليه السلام) الأطعمة الدنية من العدس والثوم والبصل والقثاء ونحوها . ولقد تلقى موسى (عليه السلام) طلبهم هذا بالاستنكار ، ولم يجبههم إليه ؛ لأنهم بسلوكهم هذا خالفوا ما أمرهم الله به من الأكل من الطيبات التي يسرها لهم ، وعصوا ربهم ونبيهم ، ولم يشكروا الله على نعمه .

١ - في ظلال القرآن جـ ١ ص ٧٢ - ٧٣ .

٢ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٦٠ .

٣ - من سورة البقرة : آية رقم ٦١ .

٢ - من سورة البقرة : آية رقم ٥٧ .

٤ - من سورة طه : آية رقم ٨٠ - ٨١ .

وعلى هذا فقد ظلموا أنفسهم بالمعصية عن أمر الله ، وآذوها بالالتواء عن صراطه السوى ، فكانوا من الخاسرين فى الدنيا والآخرة .

نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش :

ومن مظاهر عناية الله تعالى ببني إسرائيل فى الصحراء الجافة إجابته لنبيهم موسى (عليه السلام) حين استسقاها لهم ، وتيسيره الماء لهم ، وتفجييره من الصخر بضربة من عصا موسى ، وإخراجه من اثنتى عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل - الذى هم ذرية الاثنى عشر من أولاد يعقوب (عليه السلام) - فكان لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها ، فلا يعتدى بعضهم على بعض : ثم أباح الله لهم الشرب من هذا الماء الذى أخرجه لهم بلا سعى منهم ولا تعب . وفى هذا تتجلى رعاية المولى عز وجل وفصله وإنعامه ، لعلمهم يقابلون ذلك بالشكر لله الذى أفاض عليهم الماء المعين فى تلك الصحراء المحرقة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

قال الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور عند تفسير هذه الآية الكريمة : (تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهى : الرى من العطش ، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ؛ ولذلك شاع التمثيل برى الظمان فى حصول المطلوب . وكون السقى فى مظنة عدم تحصيله ، وتلك معجزة لموسى وكرامة لأئمة ؛ لأن فى ذلك فضلاً لهم . وكون العيون اثنتى عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا) (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أُسْبَاطًا أَمْثَلًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣) .

ومن هذا يُفهم أن الله جل وعلا ظلل بني إسرائيل برعايته فى تلك الصحراء المجدية ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة مشهودة ، وأباح لهم التمتع بما من عليهم به من مأكَل طيّب وماء

٢ - تفسير التحرير والتنوير ج١ الكتاب الثانى ص ٥١٧

١ - من سورة البقرة : آية رقم ٦٠ .

٣ - من سورة الأعراف : آية رقم ١٦٠ .

معين وشراب هنيء ، رزقهم الله إياه من غير كد ولا مشقة ، ونصح لهم بأن يعملوا على شكرها ، وحذّرهم مقابلتها بالعصيان والاعتداء والإفساد فى الأرض ؛ حتى لا تُسلب منهم ، أو تتحوّل من نعم إلى نقم ، فيصبحوا على ما فعلوا نادمين .

وإلى هنا نكون قد وقفنا على صور من اختبار بنى إسرائيل بالنعم التى أفاضها المولى عز وجل عليهم . ولقد كان ينبغى عليهم أن يقابلوها بالذكر والشكر والصبر على طاعة الله والإنابة إليه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، وإنما قابلوا هذه المنن بالجحود وبطر الحق ، وسوء الأدب ، والاستخفاف بها ، وتعدى حدود الله عز وجل ، والفسق عن أمره . ومن ثم سلبها الله عنهم ، وعاقبهم على مسلكهم هذا بما هم أهل له من إحلال الذلة والخزى بهم فى العاجلة - الدنيا - مع ما ادخر لهم فى الآخرة من العقوبة والعذاب الأليم . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

المبحث الثاني

ابتلاء أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم

هذا نموذج آخر من الابتلاء بالنعم ، يتجلى فيه سوء عاقبة البطر بالنعمة ، والبخل بالخير ، والاحتيال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده . فأصحاب الجنة هؤلاء كانوا في غفلة عن ذكر الله تعالى حين حاولوا أن يستأثروا بثمرها دون المساكين . ولعلهم حسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا وبيتوا نيتهم السيئة وتديبرهم الردىء ، وقد نسوا الله ونسوا أن يحمده ويذكروه ويشكروه على ما أعطاهم . فلما بطروا وظلموا أنفسهم ابتلاهم الله تعالى بأن أحرق جميع أنواع الفواكه والثمار المشتمل عليها بستانهم . فلتنظر إذن كيف جرت الأحداث كما هي في سياقها القرآنى :

﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (١) .

إن فاتحة هذه الآيات الكريمة تشير إلى أن الله تعالى ابتلى كفار مكة على عهد رسول الله ﷺ فكانت عاقبتهم كعاقبة أصحاب الجنة من حيث الخسران المبين . واختلف المفسرون في هذا الابتلاء الذى ابتلى به مشركى مكة :

(ف قيل : اختبرهم الله تعالى بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ؟ فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ؟ فلا تكن عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة فى امتحانهم ثم دمار جنتهم) (٢) .

وقال الشوكانى : (إن الله تعالى أعطى كفار مكة الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا دعا عليهم رسول الله - ﷺ - فابتلاهم الله بالجوع والقحط كما ابتلى أصحاب الجنة المعروف خبرهم عندهم . وذلك أنها كانت لرجل يؤدى حق الله منها ، فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله فيها ؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها) (٣) .

٢ - تفسير القاسمى ج ١٦ ص ٥٨٩٧ .

١ - من سورة القلم : الآيات ١٧ - ٣٣ .

٣ - فتح القدير ج ٥ ص ٢٧١ ملخصاً .

هذا ، وعلى ضوء ما سبق ذكره من النصوص يمكن لنا أن نلخص حوادث هذه القصة فيما يلي : يبدو أنه بعد موت صاحب الجنة - الرجل الطيب الصالح الذى كان شاكراً لأنعم ربه - آل البستان بما فيه من أنواع الثمار والفواكه والخيرات إلى أولاده ، فأصبحوا من الأثرياء ، ولعل هذه الثروة أذهلتهم عن ذكر الله وحده ، وهذه النعم أبطرتهم من شكرها ، فخدعوا بما هم فيه من نعم ، وسئلت لهم أنفسهم أمراً فى شأن ما ورثوه ، ونسوا القوى الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة ، وحسبوا أن ما صار بين أيديهم من النعم خالد لا يفنى . وهكذا ظلوا فى عمايتهم سادرين .

لقد أخذوا يكيدون بالمساكين ، ويحتالون على إسقاط حقهم فى هذه الأموال الموروثة ، وحرمانهم من حظهم فيها . يبدو ذلك واضحاً فى اتفاقهم على قطع ثمار البستان فى وقت مبكر من الصباح حتى لا يشعر بهم أحد من الفقراء والمساكين ، وحلفوا فيما بينهم على ذلك ، وعزموا على هذا الشر ، وباتوا بنية معصية الله تعالى والاعتداء على حقوق عباده . (١) .

وبينما هم مستغرقون فى سباتهم ، غافلون عن تدبير الله سبحانه ومكره ، ألت بتلك الجنة آفة سماوية دمرت كل ثمرها ، فلم يسلم منه شيء ، فأصبحت خاوية على عروشها مهشمة محطمة ؛ وبالتالي حُرِّمُوا خيرها بذنبهم الذى عقدوا نيتهم السيئة عليه .

وفى الصباح الباكر خرج الماكرون على نشاط وسرعة ، ينادى بعضهم بعضاً ؛ لتنفيذ ما اعترزوا ، وهم لا يشعرون ما جرى عليهم بالليل . فمضوا إلى حرثهم ، يخفون كلامهم ويسرونه ؛ لئلا يعلم بهم أحد ، ويقول بعضهم لبعض : لا تمكَّنوا اليوم أى مسكين من دخول جنتكم . وهكذا قر رأيهم على أن يتكبدوا على المساكين ، ويحرموهم رزقهم ، وهم قادرون على نفعهم . ولعلمهم ظنوا بهذا أنهم قد تمكَّنوا من مرادهم .

ولكنهم لما وصلوا إليها ، وشاهدوا ما قد حلَّ بها من الخراب والدمار ، دهشوا حتى إنهم أنكروها وشكَّوا فيها . واعتقدوا أنهم قد ضلُّوا إليها الطريق . ثم لما تأملوا فيها وعرفوا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإحراقها ؛ جزاء على ما وقع منهم من العزم على منع الخير ، والبخل بنصيب المساكين ، آنذاك تأكدوا أنها جنتهم ، ولكنهم حُرِّمُوا خيرها ؛ لجنائيتهم على أنفسهم .

(١) قال تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ الآية رقم ١٤١ من سورة الأنعام

هنالك تقدّم أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم فذكّرهم ما كان من نصحه لهم حين عزموا على نيتهم الخبيثة ، فعصوه ، وقد حاقت بهم الآن عاقبة المكر السيئ ، فقال : هلاً تقولون : سبحانه الله العظيم ، وتستغفرونه من ذنبكم ، وتتوبون إليه من خبث قصدكم ، وتشكرونه على ما أعطاكم .

الآن وقد سَقَطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، اعترفوا بذنبهم ، وظلمهم لأنفسهم ، وندموا على ما فرط منهم ، ونزّهوا الله تعالى عن أن يكون ظالماً فيما فعل بجنتهم . ثم توجه بعضهم يلوم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من الكيد بالمساكين ، وحرمانهم حقوقهم المعلومة ، وعزمهم على ذلك ، وطغيانهم نعم الله سبحانه ، وعدم شكرها . ثم نادوا على أنفسهم بالويل ، وأقروا بخطيئتهم أمام العاقبة الرديئة ، وطفقوا يقولون : إنا كنا عاصين متجاوزين حدود الله بتفريطنا وعزمنا السيئ واعتدائنا على حقوق الفقراء والمساكين . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وأبدلنا بجنتنا جنة خيراً منها ، إنا تبنا إليك ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله ، وإنا يا ربنا طالبون منك الخير كله ، راجون لعفوك عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا . وهكذا لعلهم كانوا يدعون الله ويتضرعون إليه أمام تلك العاقبة السيئة ، عسى المولى عز وجل أن يغفر لهم ويرحمهم ، ويجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون بجنة خيراً من جنتهم الضائعة .

وفي الختام يحىء التعقيب مشيراً إلى الابتلاء بالنعم وعواقبه ونتائجه ؛ ليكون الناس في يقظة تامة حين تكون النعم تحت أيديهم ، وليعلموا أن كل نعمة محفوفة بالابتلاء : فإن هم اتقوا الله تعالى وشكروا لأنعمه زادهم من فضله . وإن عصوا ربهم ، وبدّلوا نعمة الله كفرة ، سلبها الله عنهم ، وأصبحت عاقبتهم كعاقبة أصحاب الجنة . فمثل ذلك العذاب وهلاك الأموال ، الذى ابتلاهم الله سبحانه به ، عذاب الدنيا . فليكن الناس دائماً - فى السراء والضراء - على صلة بربهم ، وليحذروا عقوبة الآخرة ، فإنها أشد وأعظم من ابتلاء الدنيا وعذابها . (١) .

(١) قال تعالى : ﴿ وللعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ الآية رقم ١٢٧ من سورة طه .

الفصل الخامس

ابتلاء قوة العقيدة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : ابتلاء أيوب عليه السلام .

المبحث الثاني : ابتلاء سحرة فرعون .

المبحث الثالث : حادث أصحاب الأخدود .

المبحث الأول

ابتلاء أيوب عليه السلام

كان نبي الله أيوب (عليه السلام) من عباد الله الصالحين الأوابين ، وقد ابتلاه الله تعالى بالضراء في بدنه وماله وأهله ، فقام من فنون الشدائد والمحن ما قام . ولكنه ظل على صلته بالله عز وجل ، وثقته به ، ورجائه في رحمته ، محتسماً للأذى ، صابراً على الضراء والبلاء ، راضياً بقضاء الله وقدره . لقد كان (عليه السلام) مثلاً للعبودية الحقة لله تعالى في السراء والضراء ، فهو لم يضق صدره بالبلاء ، ولم يسأم من الآلام والأسقام ، ولم تبد عليه علامات السخط أو التبرم ، ولم يخرج عن طاعة ربه . بل ظل راسخ العقيدة ، صابراً شاكراً محتسباً ، حتى أصبح يُضرب به المثل في الصبر على المكاره . وأضحت قصة ابتلائه وصبره عبرة للمصابين ، وعزاء للمكروبين ، وسلوى للمرضى والمحرومين . وظل هو عبر القرون من المعلمين للصبر ، ومن الأمثلة العالية في الإيمان . فلا غرور أن أنى الله تبارك وتعالى عليه ، وسجل له هذه الفضائل في القرآن الكريم ، فأظهر مكانه في القوة والعزيمة .

قال تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ (١) .

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثله معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحثث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ (٢) .

هذه النصوص الكريمة تشير إلى مجمل قصة ابتلاء أيوب وصبره دون تفصيل . ومنها يتبين أنه (عليه السلام) ابتلى بالضرب بلاء شديداً في أهله وماله ونفسه . ولكن ما أصابه من ضر في بدنه ليس من الأمراض التي تلقاها الناس بالاستهيم ، ورواها بعضهم عن بعض ، وخاصة ما حكته الإسرائيليات والروايات المكذوبة من أنه (عليه السلام) ابتلى في جسده بأنواع البلاء حتى تنافر من بدنه الدود ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، فعافه الناس ، وأخرجوه من دياره ، وألقوه على مزبلة خارج البلد فكل هذا افتراء عليه وكذب ؛ لأنه مستحيل على رسل الله أن يُصابوا بمثل هذه الأمراض المزعومة ؛ حتى لا ينفر منهم الناس الذين يدعونهم إلى الله تعالى .

١ - من سورة الأنبياء : الآيات ٨٣ - ٨٤ .

٢ - من سورة ص : الآيات ٤١ - ٤٤ .

قال الأستاذ المراغى : (وما روى من مقدار ما لحقه من الضر فى نفسه حتى وصل إلى حد النفرة منه ، وأن الناس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامه إلى ظاهر المدينة فى موضع الكناسة ، ولم يكن يتصل به إلا امرأته التى تذهب إليه بالزاد والقوت ، فكل ذلك من الإسرائيليات التى يجب الاعتقاد بكذبها ؛ لأنه ليس من سند صحيح يؤيدها ، ولأن من شروط النبوة ألا يكون فى النبى من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه ، ولأنه متى كان ذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام)^(١) .

هذا ، ولقد تحمل أيوب (عليه السلام) صنوف الشدة والمحنة والابتلاء . ولما طال ذلك عليه واشتد حاله ، توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقيه من إيذاء الشيطان . وكان توجهه إلى الله تعالى بثقة وأدب حيث ناداه متضرعاً إليه ، داعياً له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فأظهر نفسه بالحاجة والضعف ، وذكر ربه بما هو أهله :

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ .

واختلف المفسرون فى المراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب على أقوال . ولعل أرجحها هو ما ذهب إليه أبو السعود حين قال : (المراد بالنصب والعذاب : ما كان يوسوس به إليه الشيطان فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، والقنوط من الرحمة ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل)^(٢) .

فلما علم الله تعالى منه صدقه ، وتجرده له ، وإخلاصه ، وثقته به ، ورضاء نفسه بقضائه ، ووجده متحملاً لما يلحقه من وسوسة الشيطان ، صابراً على الآلام والأذى والحرمان ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء ؛ عند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأدركه برحمته ورعايته وإنعامه ، فكشف بلاءه بخارقة أجراها سبحانه على يديه ؛ إكراماً له (عليه السلام) ثم وهبه الصحة والعافية وأعطاها أكثر مما فقد من أهل ومال . وفى هذا كله درس مفيد يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك .

قال تعالى : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

١ - تفسير المراغى ج ١٧ ص ٦١ .

٢ - تفسير أبى السعود ج ٤ ص ٥٨٠ .

﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنت إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح . ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم ، ورزقه مثلهم . وقيل : هم أبناؤه فوهب الله له مثلهم . أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً .

﴿ رحمة من عندنا ﴾ فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنّة ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ تذكرهم بالله وبلائه ، ورحمته في البلاء وبعد البلاء . وإن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها ، وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها . وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

(والإشارة (للعابدين) بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها . فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء . وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان . والأمر جد لا لعب . والعقيدة أمانة لا تُسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفها ، وليست كلمة تقوّلها الشفاء ، ولا دعوى يدعيها من يشاء . ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء)^(١) .

قال الترمذی : حدثنا قتيبة ، أخبرنا شريك عن عاصم عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ، أتى الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)^(٢) .

وقد كان نبي الله أيوب (عليه السلام) غاية في الصبر على البلاء والامتحان والفتنة ، حتى أثنى الله تعالى عليه ومدحه وشرّفه بهذا الوصف الكريم : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ . فهو (عليه السلام) لم يجزع ولم يشك بثّ وحزنه إلى أحد من خلق الله ، وإنما دعا ربه ووصف حاله وضعفه . ولعل هذا مما لا ينافي رضاه بقضاء الله تعالى وقدره .

قال أبو السعود : (وجده الله تعالى صابراً فيما أصابه في النفس والأهل والمال ، وليس في شكواه إليه تعالى إخلال بذلك ؛ فإنه لا يُسمّى جزعاً ، كتمنى العافية وطلب الشفاء ، على أنه قال ذلك خيفة الفتنة في الدين ، حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه بأنه (عليه السلام) لو كان نبياً لما ابتلى بمثل ما ابتلى به)^(٣) .

١ - في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٢٣٩٢ .

٢ - سنن الترمذی ج ٤ ص ٢٨ . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٣ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٥٨١ .

ولعل هذه الوسوسة كانت تؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه البلاء والألم الذى فى جسده ، ولهذا لما حدثته زوجته ببعض هذه الوسوسة التى كان يوسوس بها الشيطان إليها غضب عليها ، وأقسم لئن عافاه الله ليضربنها مائة جلدة . فلما شفاه الله تعالى جعل له من أمره يسراً ، إذ أمره أن يبرئ يمينه بأن يضرب امرأته بحزمة من الحشيش أو نحوه فيها مائة عود ، أو يأخذ شماريخ قدر مائة فيضربها بها ضربة واحدة ، تجزئ عن يمينه ، فلا يحنث فيها . ولقد شرع له الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها ، وتكريماً له على جميل صبره على الابتلاء ، وحسن طاعته وإخلاصه ، وقوة عقيدته ، ولحسن أدائها هى حقوق زوجها ؛ فقد ظلت وفية له فى صحته ومرضه ، وغناه وفقره . فكانت معه على السراء والضراء ، ولم تتغير بتغير الظروف والأحوال ، بل صبرت على بلائه وبلاتها به ، وتحملت إلى جواره صنوف التعب والإعياء والعناء والشر والبلاء . فما كان جزاؤها مع هذا كله أن تقابل بالضرب .

قال الحافظ ابن كثير : (وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة ، المكابدة الصديقة ، البارة الراشدة - رضى الله عنها - ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ ^(١) .

وبعد : فتلك هى قصة ابتلاء أيوب بالضراء وصبره على البلاء . وهى فى مضمونها تدل دلالة واضحة على أن العقيدة السليمة إذا رسخت فى النفس ، وحلت فى القلب ، لا تزعزحها صنوف الشدة والبلاء ، ولا ألوان المحنة والابتلاء . فنبى الله أيوب (عليه السلام) لاقى ما لاقى من الآلام والشدائد والمكاره ، واحتمل همّاً تنوء به الجبال ، حيث تعرض للفتنة والابتلاء فى نفسه وماله وأهله . فكان هذا البلاء اختباراً من الله جل وعلا وامتحاناً لجوهر عقيدته ، ودرجة تغلغلها فى نفسه . ونتيجة لهذا الاختبار والامتحان ، وجد الله تعالى عبده أيوب صابراً ، ثابتاً ، منيباً ، متواضعاً ، مستكيناً ، لم يزهه البلاء والشدة إلا إيماناً وتسليماً واحتساباً وهداً وشكراً . فكان (عليه السلام) أن رحمه الله عز وجل ، وأنعم عليه وأحسن عاقبته ، وخلد ذكره فى القرآن الحكيم ، وجعله موضع اقتداء وتأسى للمؤمنين فيما اختص به من فضيلة الصبر الجميل .

المبحث الثانى

ابتلاء سحرة فرعون

حقاً إن العقيدة السليمة إذا رسخت فى النفوس ، وتمكنت من القلوب لا ترحزحها جميع قوى الشر والعدوان ، ولا ألوان المحن والشدائد والآلام . يبدو ذلك واضحاً فى ثبوت سحرة فرعون على الإيمان عندما تلقوا تهديد فرعون ووعيده بالتعذيب والقتل والتصليب .

قال تعالى : ﴿ وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون . قال فرعون أمتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لكم مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (١) .

﴿ فالتقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى . قال أمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ (٢) .

﴿ فالتقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون . قال أمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ (٣) .

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن استسلام سحرة فرعون لرب العالمين ، وإعلان خضوعهم لله تبارك وتعالى ، وإقرارهم بالوحدانية له ، كان مفاجأة خطيرة لفرعون ؛ أسقط هيئته ، وهزّت سلطانه ، وزلزلت عرشه . ولذلك فهو يكاد يتميز من الغيظ ، ويحاول السيطرة على الموقف بالكر والخداع والنفاق واستعمال القوة الغاشمة . فينكر على السحرة مسلكهم ، ويتهمهم بعدم الإخلاص له والتآمر عليه ، والخروج على حدود طاعته . ثم يهددهم بالعذاب والتنكيل بعد التهويل فيما

١ - من سورة الأعراف : الآيات ١٢٠ - ١٢٦ .

٢ - من سورة طه : الآيات ٧٠ - ٧٣ .

٣ - من سورة الشعراء : الآيات ٤٦ - ٥١ .

ينتظرهم من القتل والتصليب . فيتوعدهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، ثم شدهم مصلوبين على جذوع النخل ؛ أمثلة وامتهاناً لهم وعقاباً أليماً ؛ لكي يصبحوا عبرة للآخرين ، جزاء على إيمانهم بالله العظيم !

قال تعالى : (قال فرعون آمتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) .

﴿ قال آمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ .

﴿ قال آمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ .

ولكن السحرة الذين آمنوا بربهم ، أصبحوا أصحاب عقيدة سليمة ، وأصبحت قلوبهم خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، حتى سكب هذا الإيمان الطمأنينة في نفوسهم . ومن ثم لم يكثرثوا بتحويل فرعون وتهديده ووعيده ، ولم يفزعوا ولم يتزعزعوا ولم يخضعوا لفرعون ، ولم يخنعوا له ، ولم يختاروه على ما جاءهم من العلم واليقين . بل استعلوا على قوته ، واستهانوا ببأسه وبطشه وجبروته ، وصدعوا بالحق في وجهه . إنهم وجدوا حلاوة الإيمان ، فكان الله ورسوله موسى أحب إليهم من الدنيا وما فيها ؛ ولهذا فضلوا الثبوت على الإيمان ، مع تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، مع التصليب والعذاب والموت والاستشهاد ، على العودة إلى الكفر والفسوق والعصيان .

قال تعالى : ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جئتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

﴿ قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليفقر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ .

﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ .

وهكذا واجهت نفوس هذه الفئة المؤمنة الأذى والكرب والضيق والتعذيب ، فاستعلوا بقوة العقيدة على ذلك كله ، ورغبت قلوبهم في جوار الله تعالى ، واعتصمت به ، ورغبت عما يملك فرعون من الدنيا وزخرفها ومتاعها . ثم أقبلوا صابرين محتسبين على التنكيل والتصليب ، فنفذ فرعون ما هددهم به ، واتبع في ذلك أشد أساليب العقاب قسوة وأبعدها عن معنى الكرامة الإنسانية . فقتلهم شر قتلة ، ثم صلبهم على جذوع النخل ، فماتوا شهداء أبراراً - رضى الله عنهم .

المبحث الثالث

حادث أصحاب الأخدود

من السنن الربانية الجارية أن يتعرّض المؤمنون للأذى والمحن والمكائد ؛ لامتحان إيمانهم وتحقيقه ، ولكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء . ولعل بطش أصحاب الأخدود بالمؤمنين كان لوناً من تلك الفتنة وصنعاً من هذا البلاء . فهُمْ كما يبدو قد تعرّضوا للأذى والموت حرقاً بأيدي أعدائهم البغاة الطغاة المفسدين ، الذين أرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ويتركوا عقيدتهم . ولكنّ المؤمنين وقفوا بإيمانهم كالجبال الشمم ، متحدين الطغاة القساة الشريرين ، مستعدين لكل شر يصيبهم في سبيل الله ، على الرغم من أنهم لم يجدوا النصير الذى يساندهم ويدفع عنهم ، ولم يملكوا النصرة لأنفسهم ، ولا المنعة ، ولم يجدوا القوة التى يواجهون بها الطغيان . فضحّوا بحياتهم راضين ، واحتملوا العذاب والألم ثابتين صابرين مطمئنين ؛ من أجل انتصار عقيدتهم ، وإيثارهم رضوان الله تبارك وتعالى على متع الحياة الفانية في ظل العبودية والارتداد عن الدين .

قال الله تعالى : ﴿ والسما ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ (١) .

وقد اختلف المفسرون في أهل هذه القصة من هم ؟ ولعل أصح الأقوال هو ما رواه مسلم بسنده عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : (كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعده إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّاً بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم

الراهب أفضل ، فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأقى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وأنتك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . وكان الغلام يرى الأكمة والأبرص ويدأوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى ، فقال : إني لا أشفى أحداً إنما يشفى الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فأمن بالله فشفاه الله ، فأقى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى ، قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام ، فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال : إني لا أشفى أحداً إنما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جىء بجليس الملك ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جىء بالغلام ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بم شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه فوق قُرُور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه ، فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بم شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتل حتى تفعل ما أمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبني على جذع ، ثم تأخذ سهماً من كنائتي ثم تضع السهم فى كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى ، فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنائته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوق السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ، فأقى الملك فقيل له : أرايت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرک ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فحُذَّت وأضرَم النيران ، وقال من لم يرجع عن دينه فأحوه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه اصبرى فإنك على الحق ^(١) .

فهذا الحادث كما جاء في القرآن الحكيم ، حادث بشع مفعج ، استحق فاعلوه نعمة الله وغضبه ولعنته . فقد بطش هؤلاء الطغاة المتجبرون بالمؤمنين والمؤمنات ، واشتدوا في إيذائهم حتى شقوا لهم في الأرض شقاً عظيماً كالخندق وملئوه بالحطب الجزل ، ثم أشعلوا فيه النار ، وقذفوهم فيها ، ولم تأخذهم بهم رافة ، بل أهدقوا بالنار قاعدين على حافة الأخدود يتشفون برؤية ما يحل بالمؤمنين من فتنة النار والحريق . ومع هذا فقد صبر المؤمنون على الأذى ، ورضوا بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال :

﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ .

قال القرطبي : (قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه من وحد قبلهم من الشدائد ؛ يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النبي - ﷺ - قصة الغلام ؛ ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ، ودخول الناس في الدين مع صغرى سنه وعظم صبره . وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم ، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم . قال ابن العربي : وهذا منسوخ عندنا ، حسب ما تقدم بيانه في سورة النحل^(١) .

(قلت : ليس بمنسوخ عندنا ، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى ، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان : ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾^(٢) . وروى أبو سعيد الخدري أن النبي - ﷺ - قال : (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) خرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي - ﷺ - بالقتل والصلب والتعذيب الشديد ، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك)^(٣) .

على أية حال يبدو أنه قد تمكن الكفر من أصحاب الأخدود ، وقست قلوبهم حتى إنهم فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ، وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا جريمة ، سوى أنهم آمنوا بالله تبارك وتعالى وصدقوا به :

١ - يشير بذلك إلى الآية رقم ١٠٦ من سورة النحل . ونصها : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله وهم عذاب عظيم ﴾ .

٢ - من سورة لقمان : آية رقم ١٧ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٢٩٣ بتصرف .

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض . ربحوه وهم يجردون مس النار فتحترق أجسادهم ، ويتنصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب . . يعقب به السياق . .)^(١) .

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ .

يفيد هذا النص أن الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وحرقوهم بالنار الموقدة فى الأخدود ، ثم ظلوا فى طغيانهم يعمهون ، ولم يندموا على ما ارتكبوا من إثم عظيم ، وما زاولوا من جريمة بشعة ، فمثل هؤلاء مصيرهم إلى نار جهنم خالدين مخلدين فيها أبداً . أما الذين آمنوا وعملوا بطاعة الله عز وجل ، واستمسكوا بدينهم لدرجة أنهم لم تصدهم عنه الفتنة والابتلاء ، وصبروا على أن يحرقوا بالنار فى سبيل الله تعالى ، فأولئك هم المؤمنون حقاً الذين ينالون فى الدار الآخرة رضا الله سبحانه وإنعامه وإكرامه ، ويصبرون من الفائزين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وبهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه . والله سبحانه وتعالى فعال لما يريد ، وقد أراد فى هذا الحادث أن ينتصر الإيمان على فتنة النار والحريق ، وتذهب الأجسام الفانية ؛ لحكمة يريد بها . وكان سبحانه قادراً على أن يقضى على الذين كفروا قبل ارتكاب هذه الجريمة البشعة ، ولكن أراد أن يبتلى الفئة المؤمنة بهؤلاء الطغاة القساة المتجبرين ، ابتلاءً تقدّر به منازلهم :

﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض ﴾ الآية (١) .

ولو شاء الله لانتصر من أصحاب الأخدود قبل تعذيب المؤمنين ، كما انتصر من بعض الكافرين بالطوفان والغرق والصيحة والريح العقيم ، بل لو شاء لانتصر منهم بغير هذه الأسباب ، ولكنه سبحانه إنما يريد أن يبتلى المؤمنين بالشدة والخوف والقتل ؛ ليسر لهم أسباب الثواب العظيم ، وليعلم الذين آمنوا فيختار منهم شهداء يستخلصهم لنفسه سبحانه ويخصهم بقربه .

الباب الثانى

الابتلاء فى حياة الرسول ﷺ

ويتألف هذا الباب من فصلين :

الفصل الأول : الابتلاء فى حياة النبى ﷺ فى مكة المكرمة .

الفصل الثانى : صور من الابتلاء فى حياة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة .

الفصل الأول

الابتلاء في حياة النبي ﷺ في مكة المكرمة

ويشتمل هذا الفصل على تمهيد ومبحثين :

- المبحث الأول : صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية .
- المبحث الثاني : ابتلاء بالتحدي والأذى من المكذّبين بالدعوة .

تمهيد

نشأ رسول الله ﷺ على اليتيم والفقر وآلام الحياة . فقد توفي والده عبد الله بن عبد المطلب وهو حَمَلٌ في بطن أمه . فولد الرسول الكريم يتيماً الأب ، محروماً من تربيته وعطفه وحنانه . ثم اغترب عن أمه آمنة بنت وهب حين أخذته حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية لترضعه عند أهلها في البادية .

قال الأستاذ محمد الغزالي : (مكث محمد ﷺ في مضارب بني سعد خمس سنوات ، صبح فيها بدنه واطرد غماؤه . وهذه السنوات الخمس هي عمر الطفل ، فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن السنن الصحاح سجّلت في هذه الفترة ما عرف بعد بحادث شق الصدر^(١)) .

روى مسلم بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرجه فاستخرج منه علة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني مرضعته - أن محمداً قد قتل . فاستقبلوه وهو منتقع اللون^(٢) .

وعندئذ أعيد إلى أمه ، واستقر في مكة تحت حضانتها ، في كلاءة الله وحفظه ، ينبت الله تعالى نباتاً حسناً ؛ لما يريد به من أمر عظيم ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار .

ولما بلغ النبي ﷺ ست سنين خرج مع أمه إلى المدينة لزيارة قبر أبيه ، وظل لدى ذوى أرحامه هناك نحو شهر ، ثم قفل عائداً إلى مكة . ولكنه ﷺ حُرِمَ في بعض الطريق من أمه ، إذ توفيت في مكان يدعى (الأبواء) فدفنت هناك . وهكذا وجد النبي ﷺ نفسه وهو بعد في السادسة محروماً من أبيه وأمّه . ولكن الله جل وعلا أحاطت رعايته يتم رسول الله ، فأواه إليه ، وعطف عليه القلوب ، وجعل له مأوى وكفالة عند أقاربه . فبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب ، ورقّ عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يفارقه ولا يدعه لوحده المفروضة ، بل يؤثر أن يصحبه في مجالسه العامة .

ولكن ما إن انقضت سنتان حتى حُرِمَ ﷺ هذه الرعاية أيضاً إذ توفي جده عبد المطلب . بيّد أنه عهد قبل وفاته بكفالة حفيده إلى ابنه أبي طالب . فكان أبو طالب به حفيماً ، شديد العناية بأمره ، وكان يحبه ويكرمه ويعطف عليه ، وما زال يتعهد حتى كبر وترعرع ، وحتى حين بعثه الله نبياً قام يؤازره ويدفع عنه أذى قريش .

١ - فقه السيرة ص ٦٣ .

٢ - صحيح مسلم ج ١ ص ١٠١ - ١٠٣ .

وهذا كله من جميل صنع الله تعالى برسوله الكريم ومودته له ، وإحسانه إليه :
﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾^(١) .

قال الأستاذ المراغى : (لو تدبر المنصف في رعاية الله له ، وحياطته بحفظه ، وحسن تنشأته ، لوجد من ذلك العجب . فلقد كان اليتيم وحده مدعاة إلى المضيعة ، وفساد الخلق ، لقلّة من يحفل باليتيم ويحرص عليه . وكان في خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية في إضلاله لو أنه سار سيرتهم . لكن عناية الله كانت ترعاه وتمنعه السير على نهجهم ، فكان الوفيّ الذي لا يمين ، والأمين الذي لا يخون ، والصادق الذي لا يكذب ، والطاهر الذي لم يدنس برجس الجاهلية)^(٢) .

حقاً لقد أشرفت العناية الإلهية على تربية روحه وعقله ، فنشأ ﷺ بعيداً عن نقائص الجاهلية - على الرغم من مصيبة الموت التي أصابت أقاربه الأقربين واحداً بعد الآخر . ومع ذلك فقد شبّ على كمال وخلق عظيم ، ومكانة سامية عليه . وكان قومه يدعونه بالأمين ، ولا غرابة في ذلك ، فقد قال الرسول ﷺ : ﴿ أدبني ربّي فأحسن تأديبي ﴾^(٣) وأيّده الله تعالى في ذلك بقوله : ﴿ وإنك لعلّى خلق عظيم ﴾^(٤) .

هذا ، وقد نشأ النبي ﷺ فقيراً ، فأغنى الله نفسه بالقناعة ، كما أغناه بالكسب . ففي بداية حياته العملية كان يرعى الغنم . وفي هذا روى البخارى بسنده عن أبي هريرة (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ قال : (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة)^(٥) .

ثم لما كبر وترعرع كان يعمل بالتجارة ، ولما تزوج خديجة (رضى الله عنها) عمل في مالها . وهكذا غمر عطاء الله فقر النبي ﷺ .

قال تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾^(٦) .

وقد هُيئَ ﷺ لأداء المهمة العظيمة والرسالة الكريمة قبل أن يأتيه الأمر بها . فكان دائم التفكير في ما عليه قومه من ضلال . وقد قال الله تعالى في معرض ما أنعم به عليه : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾^(٧) .

١ - من سورة الضحى : آية رقم ٦ .

٢ - تفسير المراغى ج ٣ ص ١٨٥ .

٣ - هذا حديث ضعيف ، قال ابن تيمية في (مجموعة الرسائل الكبرى) (٢ / ٣٣٦) : معناه صحيح ، ولكن لا عرف له إسناد ثابت .

٤ - من سورة القلم : آية رقم ٤ .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٤١ .

٦ - من سورة الضحى : آية رقم ٨ .

٧ - من سورة الضحى : آية رقم ٧ .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى الحيرة التي أَلَّتْ بقلبه ﷺ فيما كان يرجو الناس من الخلاص ، وطلب السبل إلى ما هدى إليه من إنقاذ الهالكين وإرشاد الضالين .

روى المؤرخون عن الحالة التي سبقت رسالة النبي ﷺ : أن الأمم لم تكن مستقرة ، فقد كانت تشتعل بينها نار النزاع ، ويعلو أوارها ، فتؤدى إلى حروب طاحنة تسفك فيها الدماء ، وتنهب فيها الأموال ، وتهان العروض .

وكان الإسراف في قصور السلاطين والأمراء قد بلغ حداً كبيراً ترتب عليه أن أصبحت الشعوب في حالة ضنك وعوز ، فقد زادت الضرائب عليها حتى ناءت كواهلها بدفع الإتاوات ، وأصبح مجهود الشعب كله يذهب إلى الحكام ، فعمّ الفقر والذل واضطراب الأمن ، وعمّت الأفراد حالة أدخلت في نفوسهم أنهم ما خلقوا إلا لخدمة الحكام والرؤساء وتوفير ملذاتهم . ففقدوا بذلك الثقة في نفوسهم والاعتداد بشخصياتهم ، وأصبحوا كعجمאות عند أسيادها .

ومهما تطلعت الفطرة الكامنة في نفوس الناس إلى الخلاص ، فإن أساليب التضليل المصطنعة من الرؤساء والحاكمين تحول بين الفطر وبين الاندفاع إلى أخذ الحقوق . ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد ساعد من يسمّون أنفسهم رجال الدين إذ ذاك على إفساد الأوضاع ، فأظهروا أن الدين عدو العقل ، فأحجمت النفوس ، وعجزت نتيجة لهذا الإحجام عن الابتكار والتجديد ، فاستسلمت للكوارث والمحن ، ووقفت جامدة متحجرة ، واستقر فيها أن الإتيان بجديد طريق معبد للذل والهوان . ولا نجد في تلك الآونة بصيصاً من نور إلا في بقايا حكمة من آثار الماضي ، أو من شريعة طال عليها الأمد ، فتغيّرت القيم الروحية ، واعتنق الناس أفكاراً لا تمت إلى الحق بصلة .

هكذا كان الحال في أمم الأرض العريقة البارزة إذ ذاك : كالفرس والروم والصين . . . ولم تكن حالة العرب أسعد من تلك الأمم ، فقد كانت العلاقات بين القبائل العربية - سواء كانت من أصل واحد أو من أصول متعددة - علاقات عداً غالباً . فالحجازيون يعادون اليمنيين أشد عداً ، وكان بين تيم وبكر بن وائل حروب تكاد تكون دائمة ، وكذلك بين غطفان وهوازن .

وتلك إمارة الحيرة الخاضعة لنفوذ الفرس تشن الغارات على إمارة غسان الخاضعة لنفوذ الروم . هكذا حالهم دائمة القلق والاضطراب ، تتخللها فترات نادرة تظهر فيها علاقة الصداقة بين الأفراد والقبائل ، فتطول حيناً وتقصر أحياناً ، ولكن اللون الغالب عليهم هو

العداء المستحكم ، ولم تدع لهم هذه الحالة استقراراً من النهب والسلب وانعدام الأمن . ومن الطبيعي أن مثل هذا الجو المضطرب لا يمكن للحياة العقلية أن تزدهر فيه ؛ ولهذا لم يكن للعرب علم منظم يسترشدون بقواعده ويسيروا على سنته ، وكل ما عندهم أشياء قليلة استفادوها من العقل الفطري والتجارب العملية .

وحياتهم الدينية ليست بأقل سوءاً من حياتهم الاجتماعية والعقلية ، فمنهم من أنكر الخلق كالدهريين ، ومنهم من أثبت وجوده وأنكر البعث ، ومنهم من أنكر الرسل وبعث الأجسام مع اعترافه بالخالق ولكنه عبَدَ الأصنام لتقريبه إلى الله زلفى ، ومنهم من انتمى إلى اليهودية أو النصرانية أو الصابئة .

كل ذلك يصوِّر لنا الاضطراب في العقيدة الذى يولّد اضطراباً في الأفكار وفي الاتجاهات . وبالجملة فإنَّ الحالة العالمية إذ ذاك كانت تؤذِنُ بانهيار كبير لا سيما الناحية الدينية ، فقد تعدَّدت الديانات بصورة مؤلمة للنفس العاقلة ، وأدَّت هذه الفوضى إلى قيام حالة لا تسلم الإنسانية مع بقائها ، ولا تبقى في مكان التكريم الذى خصه بها الله سبحانه وتعالى .

ففى هذا كله كان رسولنا الكريم دائم التفكير . لقد كان ﷺ يفكر فى القضاء على ذلك الفساد الشامل ، وإزالة النزاع والفوضى حتى تستقيم الأحوال الاجتماعية وتتوحد العقائد الدينية ويسود الوثام والسلام .

يقول الشيخ محمد عبده : (فما العمل فى تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم ؟ وبأى طريق ينبغى أن تُسلَك فى إيقاظهم من سباتهم ؟ ومن أى الأبواب يمكن أن يدخل إلى قلوبهم ؟ ما أشدها حيرة على الصَّديقين ! وما أعظمها ظلمة تغشى السالكين من أهل الصدق واليقين ، إلى أن يحشفها الله بالنور المبين . وهى حيرة لم يكمل الحظ فى شرفها إلا للنبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

(فهذا هو الذى عناه الله بالضلال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ وما أعظم الهداية من ذلك الضلال ، وما أجدره بالكمال من الرجال .

(وبعد هذا وهذا من اهتدى إلى الله ، وعرف أنه خالق الخلق كلهم ، وأنه وحده المستحق للعبادة دون أحد منهم ، هل يدرك بنفسه بغير وحي إلهى كيف يعبد ؟ وبأى وصف يصفه ويمجده ؟ والناس من حوله قد شبهوه بخلقه ، وقاسوه على ما يعرفون من صنعه ، أفلا يحار الموحد كيف يصف ربه وبأى الوسائل يطلب قربه ؟

(كل هذه الضروب من الحيرة كانت من حظه - عليه السلام - قبل أن تطلع عليه شمس النبوة . وللخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ، ويلتمس هداية ربه في جوانب قلبه إلى أن سطع عليه نور الوحي فانتشله من هذا كله ، واختار له ديناً قويمًا ، وعلمه كيف يرشد قومه ، وسنَّ له الطريق في تخليصهم وتخليص العالم مما كان فيه من فساد العقل وسوء العمل ، وهدهاه إلى وصف ذاته بما يليق بذاته . وأتى نعمة أكبر وأجل من هذه النعمة ؟! هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ^(١) .

ولما قارب النبي ﷺ سن الأربعين تزايد انقطاعه للتحنُّن والتأمل ، فكان يخلو إلى نفسه في غار حراء يتعبد ، ويصقل قلبه ، وينقى روحه ويقترّب من الحق ، حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية . فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح . وبينما هو (عليه الصلاة والسلام) في تحنُّنه إذا بالوحي يأتيه من عند الله بالعبء الضخم والمسئولية الكبيرة . فاضطرب ﷺ وخاف حين بدهه الوحي بالدعوة إلى القراءة ، وعاد إلى زوجه خديجة (رضى الله عنها) فهدأت من روعه .

روى البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين (رضى الله عنها) أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبَّ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ﴾ ^(٢) . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له

١ - تفسير جزء عم ص ١١٠ للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

٢ - من سورة العلق : الآيات رقم ١ و ٢ و ٣ .

خديجة : يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزلّه الله على موسى ، ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرّاً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي (١) .

يبدو من هذا الحديث أن السبيل القويم الذي طالما بحث عنه الرسول ﷺ في كثير من الحيرة قد انكشف له ، وعرف معرفة اليقين أنه أضحي نبياً رسولاً للكبير المتعال . فاستيقن بأن الله جلت قدرته قد اصطفاه واختاره ليكون بشيراً ونذيراً بالحق إلى الناس كافة . ومن ثم باذر إلى التبليغ كما أمر ، مستهيناً بالشدائد ، مجتازاً كل العقبات ، صامداً محتسباً جهاده وآلامه ومشقاته عند الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً . فلقد كان من ثباته ﷺ على الدعوة وبثها واحتمال الأذى ما أفضى إلى تشديد النكير عليه ، وإيقاع أشد الأذى به ، وأقوى الاضطهاد عليه .

فلا غرو في ذلك ، فقد روى مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : (ألا إن ربّي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً حلال ، وإنّ خلقت عبداً حنفاء كلّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمّت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لا ابتليك وابتلى بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان ، وإنّ الله أمرني أن أحرّق قريشاً ، فقلت : ربّي إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة : قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق فسنفق عليك ، وابعث جيشاً نبعت خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك) الحديث (٢) .

هذا ، وفي المباحث الآتية سنعرض بعض ما لاقاه الرسول ﷺ من الأذى والإعراض من جانب المكذّبين بالدعوة ، كما سنقف على تفنن أعدائه وأعداء رسالته من المشركين في إيذائه ، وسلوكهم كل مسلك في هذا المجال ، من إيذاء بالفعال والمقال ، كالإنكار والاستنكار والصد والتكذيب .. إلى غير ذلك من أساليب الأذى والعنت التي لاقاها من الجاهلين في سبيل الدعوة إلى الله رب العالمين .

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١ ص ٢٢ .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٧ .

المبحث الأول

صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية

المبحث الأول

صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية

كانت مواقف الكافرين من النبي ﷺ ودعوته مواقف سلبية وعدوانية طيلة العهد المكي . فقد أخذت الدعوة منذ البداية تصطدم بالإنكار والاستنكار والصد والتكذيب . ولقى الرسول ﷺ في سبيلها أشد العنت وأقسى الأذى ، وهو صابر على المكروه ، ثابت على الحق ، لم يجزع ولم يمل ، بل تحمّل كل شيء في هذا السبيل ، مرضاة لله تعالى . وسنرى في كل موقف تقدمه من مواقف الذين كفروا من الرسول ودعوته في مكة شاهد صدق على هذا الذي قلناه .

وفي هذا المبحث سنقدم نوعين من المواقف :

- ١ - صور من دور الأشخاص في المناوأة والتكذيب .
- ٢ - صور أخرى من مواقف الجاحدين في الصد والإعراض .

نماذج النوع الأول :

أ - بعض مواقف أبي جهل من النبي ﷺ :

من الذين أشركوا بالله تعالى ، وكفروا برسوله ﷺ عمرو بن هشام الذي عُرف في تاريخ الإسلام بأبي جهل ، بعد أن كان أبا الحكم ؛ وذلك لأنه كان من أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ومن أوائل الذين بادروا بمناوأة النبي ﷺ وتكذيبه .

فمن مواقفه الشديدة العنيفة ضد الرسول ﷺ ودعوته ما يلي :

١ - يتصدى للنبي وينهاه عن الصلاة والدعوة :

قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ إِنَّ رَأَاهُ اسْتَفْغَى ۚ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ۚ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۚ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۚ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۚ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۚ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۚ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۚ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۚ كَلَّا لَا تَطْمَعُ ۚ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩﴾ .

تدل هذه الآيات الكريمة على أن النبي ﷺ قد أخذ يصلي بين أظهر قومه جهره عند البيت الحرام ، وأنه أخذ يتلو القرآن ويدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، ويأمر بالإخلاص والتوحيد

والعمل الصالح واتباع مكارم الأخلاق . فتصدى له شخص ينهيه عن صلاته ودعوته ، ويدو أن هذا الشخص كان من الطغاة المكذبين بالقرآن ، المعرضين عن الإيمان ، أبطره ما كان له من مال وثروة ، وجاه وقوة ، فتمرد على أوامر الله تعالى ، وشاقق الرسول ﷺ وظل يتوعده وينهاه عن الصلاة والدعوة .

وقد أجمع المفسرون على أن هذا الشخص المناوئ للنبي ﷺ ، الذى تولى النهي والصد ، ووقف الموقف العصيب الذى ذكرته الآيات ونذدت به هو أبو جهل .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة (رضى الله عنه) قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قال : فقليل : نعم . فقال : واللوات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه فى التراب . قال : فأق رسول الله ﷺ وهو يصلى ، زعم ليطأن على رقبته ، قال : فما فجئهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه . قال : فقليل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهو لا وأجنحة . فقال رسول الله ﷺ : (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً) قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ . إلى آخر السورة (١) .

وقال الترمذى : حدثنا عبد الله بن سعيد الأشج أخبرنا أبو خالد الأحمر عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : (كان النبی ﷺ يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنك عن هذا ؟ ألم أنك عن هذا ؟ ألم أنك عن هذا ؟ فانصرف النبی ﷺ فزبره ، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿فليدع ناديه . سندع الزبانية﴾ قال ابن عباس : (والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله) . هذا حديث حسن غريب صحيح . وفيه عن أبي هريرة (٢) .

٢ - أبو جهل يهزأ برسول الله ﷺ :

رُوى أنه لما غما إلى علم المشركين فى مكة أن عدد حراس سقر تسعة عشر ، لم تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولم يفكروا فى مصيرهم وما ينتظرهم فى الدار الآخرة من العذاب الأليم إن ظلوا فى غيهم وضلالهم ، وإنما تلقوا هذا الأمر العظيم بالتهكم والسخرية والاستهزاء ، واتخذوه موضعاً للهزل والمزاح .

١ - صحيح مسلم بشرح النوى ج ١٧ ص ١٣٩ - ١٤٠ .
٢ - سنن الترمذى - وهو الجامع الصحيح - ج ٥ ص ١١٤ - ١١٥ .

قال القرطبي : (قال ابن عباس وقتادة والضحاك : لما نزل : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ ^(١) قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر ، وأنتم الدهم - أى العدد - والشجعان ، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ! قال السدى : فقال أبو الأسود بن كلداء الجمحى : لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة ، وبمنكبي الأيسر التسعة ، ثم تمرون إلى الجنة ، يقولها مستهزئاً . وفى رواية : أن الحارث ابن كلداء قال : أنا أكفيكم سبعة عشر ، وأكفوني أنتم اثنين . وقيل : إن أبا جهل قال : أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ الآية ^(٢) (٣) .

٣ - أبو جهل يجرّض على أذى النبي ﷺ :

روى مسلم بإسناده عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : (بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نُجر جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه في كتفى محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه ، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه . قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر ، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت وهى جويرية - فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم . فلما قضى النبي ﷺ صلاته ، ورفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ثم قال : (اللهم عليك بقريش ﴾ ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته . ثم قال : اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط (وذكر السابع ولم أحفظه) ^(٤) فوالذى بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سُمى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب ، قليب بدر) ^(٥) .

٤ - أبو جهل يشتم الرسول ﷺ :

قال ابن إسحق : (حدثني رجل من أسلم ، كان واعية : أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ عند الصفا ، فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ،

١ - من سورة المدثر : آية رقم ٣٠ .

٢ - من سورة المدثر : آية ٣١ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٨٠ - ٨١ .

٤ - فى رواية البخارى : السابع هو : (عمارة بن الوليد) فتح البارى ج ١ ص ٥٩٤ .

٥ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ١٥١ - ١٥٣ .

فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) أن أقبل موشحاً قوسه ، فلماً مرّ بالمولاة قالت له : يا أبا عمار ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام : وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ .

(فاحتمل حمزة الغضب ، فخرج يسعى حتى أقبل على أبي جهل في فناء الكعبة ، فضربه بقوسه فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فردّ ذلك على إن استطعت : فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل . فقال أبو جهل : دعوا أبا عمار ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ^(١) .

ب - صور من مواقف الوليد بن المغيرة ضد الرسول ﷺ :

كان الوليد بن المغيرة المخزومي من طغاة مكة المكذبين الضالين ، الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية ، وأذوا النبي ﷺ وحاربوه وصدوا عن سبيل الله . فمن مواقفه العنيفة ضد الرسول ودعوته ما يلي :

١ - يصم القرآن الكريم بأنه سحر وقول بشر :

قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مალأً ممدوداً . وبينين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾ ^(٢) .

احتوت هذه الآيات الكريمة صورة فرد بذاته من المكذبين ، كان يكرر ويكيد بالدعوة والداعية ؛ ولعل مما حمله على ذلك ما كان يرى لنفسه من قوة وجاه ومال كثير ممدود . وبينين حوله حاضرين شهوداً . فكفر بأنعم الله ، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر والسحر المأثور .

١ - السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٦٠ - ٢٦١ بتصرف .

٢ - من سورة المدثر : الآيات ١١ - ٣٠ .

وقد وردت روايات متعددة بأن هذا الشخص المذكور في سياق الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي . قال ابن جرير : (حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال له : أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قریش أنى أكثرها مالاً ! قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنتك كاره له ! قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره . فنزلت : ﴿ ذرى ومن خلقت وحيداً ﴾ حتى بلغ : ﴿ تسعة عشر ﴾ (١) .

٢ - حق الوليد من نبوة النبي ﷺ :

وكان الوليد بن المغيرة ممن يحسدون الرسول ﷺ على إعطائه النبوة ؛ لأنها لم تكن نصيب أحدهم في مكة أو الطائف . ولعله كان يطمع - هو نفسه - في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً ؛ لأنه صاحب جاه وثناء . ولهذا ظل يظهر غيظه واستخفافه بالنبي ﷺ ويعلن كفره وجحوده بالقرآن ، ويصد نفسه وغيره عن سبيل الله .

قال ابن إسحق : ﴿ وقال الوليد بن المغيرة : أُنزل على محمد ، وأترك وأنا كبير قریش وسيدها ! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيم القريتين ! فأنزل الله تعالى فيه ، فيما بلغنى : ﴿ وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ (٢) (٣) .

ج - مناوأة النضر بن الحارث للنبي ﷺ :

كان النضر بن الحارث من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ فقد رويت عنه مواقف عنيفة في الكيد للنبي ﷺ ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله . وهى مواقف تدل على سوء طويته ، وفساد نفسه وخلوها من الخير . استهزأ بآيات الله ، وسخر من رسوله

١ - تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٥٦ .
٢ - من سورة الزخرف : آية رقم ٣١ - ٣٢ .
٣ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٩ .

صلى الله عليه وسلم واعتدى على الإسلام . ولا غرو ، فقد كان شديد العناد ، مصرّاً على الضلالة ، سىء الأدب فى حق الله وحق القرآن الكريم . فمن مواقفه الشديدة ضد النبى ودعوته ما يلى :

قال ابن إسحق : (والنضر بن الحارث بن علقمة كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً ، فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم السنديد ، وعن اسفنديار ، وملوك فارس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها . فأنزل الله فيه : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾^(١) . ونزل فيه :

﴿ ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾^(٢) ونزل فيه : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾^(٣) ^(٤) .

د - كيد ابى لهب وامراته لرسول الله ﷺ :

كان أبو لهب وامراته^(٥) من المكذبين الضالين ، ومن أشد الناس عداوة للنبى ودعوته . فقد كان يكره الرسول ﷺ ويغضه ويؤذيه ويزدريه ويسىء إليه ، ويحاول الوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية بالكيد والمكر والمناوأة والعناد والتكذيب والصد والإعراض ، وبكل أسلوب خسيس ! وكانت زوجته أم جميل عوناً له على كفره وجحوده وعناده وسيره فى طريق اللدد ومجانبة الصواب .

قال ابن إسحق : (حدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبى قال : إني لغلام شاب مع أبى بمنى ، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : (يا بنى فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تحلحوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثنى به) قال : وخلفه رجل أحول وضىء ، له غديرتان ، عليه حلة عدنية . فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من

١ - من سورة الفرقان : آية رقم ٥ - ٦ .

٢ - من سورة الجاثية : آية رقم ٧ - ٨ .

٣ - من سورة المطففين : آية رقم ١٣ .

٤ - السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٧ .

٥ - أبو لهب هو عم النبى ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب . وامراته هى أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان .

بنى مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه .
قال : فقلت لأبي : يا أبت ، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد
العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب (١) .

ويمثل هذا الأسلوب العنيف ظل أبو لهب يكيد للدعوة والداعية . ولقد اتخذ موقفه هذا
من النبى ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة .

روى البخارى بإسناده عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : لما نزلت : ﴿ وأندر
عشيرتك الأقربين ﴾ (٢) ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا
فهتف : يا صباحاه . فقالوا من هذا ؟ فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً
تخرج من سفح هذا الجبل أنتم مصدقون ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير
لكم بين يدي عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام . فنزلت :
﴿ تبث يداي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته
حالة الخطب . في جيدها حبل من مسد ﴾ (٣) (٤) .

ومن خصال أم جميل السيئة التى جُبلت عليها أنها كانت تمشى بالنميمة ، وتسعى بالأذى
والفتنة والوقعة ، ولعلها كانت تحت زوجها أبا لهب على الكفر والضلالة ، وتنفخ فيه روح
العداوة والبغضاء للنبي ﷺ كلما جنح للتروى والفتور . وقيل : إنها كانت تضع الشوك في
طريق رسول الله ﷺ لإيذائه . ولما نزلت سورة المسد ، توهمت أن الرسول ﷺ قد هجاها
شعر ؛ فذعرت لذلك ، وبلغ منها الغيظ والحق مبلغاً حملها على مواصلة الإيذاء ، والمضى في
الكيد والمناوأة والتكذيب .

قال ابن إسحق : (فذكر لي : أن أم جميل حمالة الخطب حين سمعت ما نزل فيها وفي
زوجها من القرآن ، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر
الصديق ، وفي يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ
فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو
وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت :

مذمماً عصنا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأيتك ؟ فقال : ما رأيته ؛ لقد
أخذ الله ببصرها عني (٥) .

- ١ - السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٥٠ .
- ٢ - من سورة الشعراء : آية رقم ٢١٤ .
- ٣ - سورة المسد .
- ٤ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج٨ ص ٧٣٧ .
- ٥ - السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٦ .

صور أخرى من مواقف الجاحدين في المكابرة والإعراض :

أ - القرآن ومكابرة الجاحدين حين تلاوته عليهم :

لقد كره الذين كفروا ما أنزل الله تعالى على رسوله محمد ﷺ . ولعل هذه الخصلة الذميمة كانت من الدوافع التي حملتهم على المكابرة والعناد والجحود وإعلان الكفر بالقرآن . ثم إن هذا الإحساس بالكراهية كان يترجم أحياناً إلى أعمال دنيئة لا تليق بمقام النبي الكريم ، فكانوا حينما يتلو القرآن تظهر آثار الغيظ والألم على وجوههم حتى ليهمون بالبطش به ﷺ . وأحياناً يستكبرون ويسخرون بالآيات ويفترون على الله الكذب ، ويعلنون تصميمهم على الجحود بالقرآن الكريم ونبوة النبي ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (١) .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ (٢) .
﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ الآية (٣) .
﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ (٤) .

ب - إعراض الكفار عن سماع الإنذار والدعوة :

ومن مواقف الذين كفروا العنيدة ، إعراضهم عن سماع الإنذار ، وصدّهم عن الهدى ، ونفورهم عن الحق . فمن شيمهم القبيحة أنهم كانوا كلما سمعوا النبي ﷺ يتلو عليهم القرآن ، أو يدعوهم لما يحییهم ، أو يذكّرهم برّبهم ومصيرهم ، يتراجعون على أعقابهم عناداً واستكباراً عن الإذعان للحق ، كأنما يرون فيه خطراً وشراً مستطيراً . وهم بمسلكتهم السلبية هذا أشبه بقطيع من الحمر الوحشية ، رأت أسداً ، فامتلات رعباً ، وفرت لا تلوّى على شيء .

ولعل تكذيبهم بيوم الدين ، وعدم خوفهم من أهوال يوم القيامة ، هو الذي ينأى بهم عن التذكّرة وينفرهم هذه النفرة . أيضاً : فإن عدم تدبرهم للقرآن ، وكراهية أكثرهم للحق ، وحقن كبرائهم وحسدّهم للنبي ﷺ على منزلة النبوة ، والطمع أن يناها كل منهم ، وأن يوحى إليه ويتزل

٢ - من سورة الحج : آية رقم ٧٢ .

٤ - من سورة الزخرف : آية رقم ٣٠ .

١ - من سورة الأنفال : آية رقم ٣١ - ٣٢ .

٣ - من سورة سبا : آية رقم ٣١ .

عليه كتاب ينشر على الناس ويعلن كما أنزل على رسول الله ، كل هذا كان من أسباب جحود النافرين المعرضين عن سماع الإنذار والدعوة .

ولعل ذلك يبدو واضحاً من الآيات الآتية :

﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامراً تهجرون . أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾^(١) .

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يجيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ الآية^(٢) .

﴿ فلما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم هم مستنفرة ، فرت من قسورة . بل يريد كل امرئ منهم أن يؤق صحفاً منشرة . كلا بل لا يخافون الآخرة . كلا إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾^(٣) .

قال ابن كثير : (وقوله : ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ في تفسيره قولان : أحدهما - أن (مستكبرين) حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه ، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله ، فعلى هذا : الضمير في (به) فيه ثلاثة أقوال : أحدها - أنه الحرم - أي ذموا مكة - لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام . والثاني - أنه ضمير للقرآن ، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر ، إنه شعر ، إنه كهانة ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة . والثالث - أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ، ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون ، فكل ذلك باطل ، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء . وقيل : المراد بقوله ﴿ مستكبرين به ﴾ أي بالبيت ، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به ، ويتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه^(٤) .

ج - أكابر المجرمين يصدون العامة عن الهدى :

لما نادى رسول الله ﷺ بكلمة الإخلاص في مكة ، ودعا الناس إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، تلقى كبار المشركين هذه الدعوة بالاستغراب والتعجب والمكابرة والاستنكار والسخرية ، ووقفوا منه موقفاً شديداً العناد والجحود ، وأصبحوا يمحرون ويكيدون للدعوة بشتى الطرق

٢ - من سورة فاطر : الآيات رقم ٤٢ - ٤٣ .

٤ - تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٢٤٩ ، بتصرف .

١ - من سورة المؤمنين : الآيات ٦٦ - ٧٠ .

٣ - من سورة المدثر : الآيات رقم ٤٩ - ٥٦ .

والأساليب ؛ للحيلولة دون نجاحها والاستجابة إليها . فمضوا يخالفون النبي ﷺ ويكذبونه ، ويستخفون به ، ويتساءلون عن مدى صدق اختصاصه بالقرآن من دونهم !

ثم أخذوا يؤلبون العامة ليلاً ونهاراً على الكفر والجحود ، ويحثونهم على التكذيب والتمسك بدين الآباء وأصنامهم ، ويحرضونهم على محاربة القرآن الكريم ، بأن لا ينقادوا لأوامره ، وأن لا يستمعوا له ، وأن يجعلوه لغواً ، ويتخذوه هزواً . وهكذا كانوا يبذلون أقصى جهدهم في تضليل الناس وإغوائهم وصددهم عن الهدى ، مدعين لهم أن هذا القرآن ما هو إلا إفك مفترى ، وسحر مبین .

قال تعالى : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد ﴾ (١) .

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبین ﴾ (٣) .

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امنوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ﴾ (٤) .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٥) .

ولقد بين الأستاذ سيد قطب السبب الذي يجعل أكبر المجرمين يصدون العامة عن الهدى ، فقال :

إن الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض ، ومن الكسب الحرام ، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم . . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله وفي ظل الاستقامة على هداة . ومن ثم يصدون عن سبيل الله . يصدون أنفسهم ويصدون الناس ، ويبغونها عوجاً لأستقامه فيها ولا عدالة . وحين

١ - من سورة إبراهيم : آية رقم ٢ - ٣ .

٣ - من سورة سبأ : آية ٤٣ .

٥ - من سورة فصلت : آية رقم ٢٦ .

٢ - من سورة سبأ : آية رقم ٣٣ .

٤ - من سورة ص : الآيات من رقم ٤ إلى رقم ٨ .

يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله ، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها ، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطفخوا وأن يغشوا وأن يخذعوا وأن يغروا الناس بالفساد ، فيتم لهم الحصول على ما ييغونه من الاستثثار بخيرات الأرض ، والكسب الحرام ، والمتاع المرذول ، والكبرياء في الأرض ، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار^(١) .

١ - في ظلال القرآن ج١٣ ص ٢٠٩٦ - ٢٠٨٧ .

المبحث الثاني

ابتلاء بالتحدى والأذى من المكذبين بالدعوة

لقد كان من العوامل التي حملت أكابر المشركين في مكة على أن يجحدوا نبوة النبي ﷺ ويكيدوا له ، ويصدوا عن الإيمان بما معه من الهدى ، هو استبعادهم أن يكون رسول الله بشراً . يبدو ذلك واضحاً في قوله تعالى :

﴿ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر ، وأنتم تبصرون ﴾ (١) .

فقد كانوا يتوهمون أن النبي ﷺ لا بد أن يكون من جنس الملائكة أو المخلوقات العلوية بحيث يكون ذا قوى خارقة يستطيع أن يجرى بها على يديه ما لا يجريه سائر البشر من خوارق العادات والمشاهد .

ولكن اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى وحكمته أن يكون الرسل كلهم من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس . وما كان الرسول ﷺ بدعاً من رسل الله ، فهو بشر مثلهم ، وبشريته مماثلة لبشرية الناس جميعاً . وما يدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ (٢) .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنا إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ (٣) .

فلما رأى المشركون النبي ﷺ مثلهم ومنهم ، وليس ملكاً أو جنساً آخر ، وما هو إلا إنسان اختاره الله من البشر لرسالته ، وأنه يتبع ما أوحاه الله إليه ، ويقف عنده ، آنذاك جحدوا دعوى نبوته ، وكذبوا صلته بالله عز وجل . ومن ثم تحدّوه بالآيات والخوارق واتخذوه موضع سخرية وهزاء واستخفاف ، ونعتوه بالمجنون والشاعر والساحر والكاهن والكاذب والمفتري ، إلى غير ذلك من الصفات التي طاب لهم أن يرموه بها ؛ ليضعفوا الثقة به وليصدوا عن سبيل الله .

١ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٣ .

٢ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٤٤ .

٣ - من سورة فصلت : آية رقم ٦ .

وكان الابتلاء على قسوته وشدته لا يزيد النبي ﷺ إلا قوة وتصميماً : قوة في مواجهة التحدى كائناً ما كان نوعه ومداه ، وتصميماً على المضي في طريق الدعوة مهما كانت الصعوبات والمشاق والأذى .

وحقاً لقد واجه رسول الله ﷺ في تلك الفترة العصيبة في حياة الدعوة في مكة ، العناد والتكذيب والتحدي والمكابرة ، والأساليب النفسية الخسيسة المقرونة بالتهمة والشائعات وحملات السخرية والاستهزاء والاستخفاف . ولقد جاء ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وفيما يلي نذكر أمثلة منها تحت العناوين الآتية :

أولاً - تحديات متصلة بشخص الرسول ﷺ :

قال تعالى : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ (١) .

﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾ (٢) .

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهـ والملائكة قبلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (٣) .

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون . وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ (٤) .

﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً . تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ (٥) .

٢ - من سورة الحجر : الآيات ٦ - ٨ .

٤ - من سورة الأنبياء : الآيات ٥ - ٨ .

١ - من سورة هود : آية رقم ١٢ .

٣ - من سورة الإسراء : الآيات رقم ٩٠ - ٩٣ .

٥ - من سورة الفرقان : الآيات رقم ٧ - ١٠ .

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا
بعضكم لبعض فتنه أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾^(١) .

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوق مثل ما أوق موسى أو لم يكفروا بما أوق
موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ﴾^(٢) .

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب
المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم
طاغون ﴾^(٣) .

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول
شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾^(٤) .

﴿ وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو
بقول شيطان رجيم ﴾^(٥) .

تعبّر هذه النصوص الكريمة عن أساليب التعجيز والسخرية والدعاية الخبيثة التي كان يكيد
بها المشركون للنبي ﷺ . ولعلهم بذلك كانوا يستهدفون حرب أعصابه والقضاء على روحه
المعنوية العالية . وهم بتلك الأساليب النفسية الدنيئة ، والإساءات البالغة إلى شخصه
الكريم ، كانوا يحسبون أنفسهم أنهم قد أفلحوا في إطفاء نور الله بأفواههم ، ولكن هيهات
هيهات لما كانوا يرمون إليه ، إنه لا يفلح الظالمون .

وذلك أنه في تلك الفترة الحرجة الشاقة التي بلغ فيها تحدى المشركين للنبي ﷺ حذّه
الأقصى ، كان القرآن الكريم ينتزل عليه ؛ ليثبتّه على الحق ، ويسليه ويطمئنه ويؤيده في موقفه
ويؤكد صدق دعواه . ومن ناحية أخرى كان يرد على الجاحدين تهجمهم واقتراءاتهم عليه ،
ويفند نعوتهم المتنوعة التي كانوا يرمونه بها . ومن ثم فقد كان ﷺ يتلقى تحديهم له بالصبر
والثقة واليقين بما معه من الحق ، ويتحمّل الأذى ويستمر في دعواه ، وعين الله ترعاه ، ويأبى
الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

٢ - من سورة القصص : آية رقم ٢٠ .

٤ - من سورة الحاقة : الآيات ٣٨ - ٤٣ .

١ - من سورة الفرقان : آية رقم ٢٠ .

٣ - من سورة الطور : الآيات رقم ٢٩ - ٣٢ .

٥ - من سورة التكويد : الآيات رقم ٢٢ - ٢٥ .

ثانياً - تحديات متصلة بالقرآن خاصة :

قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ (١) .

﴿ أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ن كنتم صادقين ﴾ (٢) .

﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ (٣) .

وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ (٤) .

﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٥) .

يبدو من هذه الآيات الكريمة تطاول المكذبين الضالين على رسول الله ﷺ وتحديهم له ، وطلبهم إليه أن يأتى بقرآن سوى هذا القرآن الكريم أو يبدله أو أن ينزل عليه دفعة واحدة غير منجم . ولعل مما حملهم على هذه الاقتراحات المتعنتة هو عدم استشعار قلوبهم للإيمان ، وجهلهم بحقيقة هذا القرآن ، وتوهمهم أنه من قول البشر . ومن ثم أصبحوا يكيّدون ويفترون ويسلكون مسلك العبث والهزل ويقفون مبهورين أمام هذا القرآن الكريم .

ثم لما كانوا لا يريدون أن يقروا بنزول القرآن من عند الله ، لجئوا إلى اتهام الرسول ﷺ بافترائه وخلقه ، ونعتوا كتاب الله بالمفترى وأساطير الأولين وقول البشر إلى غير ذلك من الأوصاف الكاذبة . وبهذه الشبه والأساليب الماكرة كانوا يحاولون الوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية وعرقلتها وصد الناس عنها .

٢ - من سورة هود : آية رقم ١٣ .
٤ - من سورة الفرقان : آية ٣٢ - ٣٣ .

١ - من سورة يونس : الآيات رقم ١٥ - ١٧ .
٣ - من سورة الفرقان : الآيات ٤ - ٦ .
٥ - من سورة الطور : آية رقم ٣٣ - ٣٤ .

ولكن الله تعالى كان للمنكرين المجرمين بالمرصاد ، فقد تحداهم في غير ما آية على أن يأتوا
بمثل هذا القرآن ، فما كان منهم إلا أن تلقوا هذا التحدى عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين .
وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الله سبحانه ينزل من الآيات البينات التي تتضمن رداً قوياً على
شبههم ، وذلك بأسلوب رصين يفند اقتراحاتهم ، ويكشف عن تعنتاتهم ومكابرتهم
وجحودهم ، ويتجلى فيه صحة رسالة النبي ﷺ وصدق دعوته . ومن جهة أخرى فقد كان الله
تعالى يسلي رسوله ﷺ بالقرآن ويعزيه ويطمئنه حين العنت والمشقة التي كان يلقاها من أولئك
المتعنتين المعاندين .

نماذج أخرى مما لقيه النبي من الأذى :

أ - سعى الرسول إلى الطائف وموقف ثقيف منه :

قال ابن إسحق : (ولما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب . فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ؛ يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الله عز وجل .

(فلما انتهى ﷺ إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يؤمئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمير من النسب . فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلمك . فقال رسول الله ﷺ من عندهم وقد يش من خير ثقيف ، وقد قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فاكمثوا عني ، وكره أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم ذلك عليه . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حيلة من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف .

(فلما اطمأن ﷺ قال : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبي حتى ترضي ، ولا حول ولا قوة إلا بك) . وحين يش ﷺ من خير ثقيف ، انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة محزوناً ^(١) .

يبدو من هذه القصة أن البلاء قد اشتد من سفهاء قريش على رسول الله ﷺ بعد موت عمه أبي طالب ، وتجرعوا عليه ، وكاشفوه بالأذى ، حتى اضطر إلى الخروج إلى الطائف . ولكنه لاقى أشد الأذى من ثقيف : استهزؤا به ، وسخروا منه ، وكذبوه ، وأغروا به سفهاءهم

وعبيدهم ، فنالوا منه ما لم تتل منه قریش . فلما رأى نفسه فى حاضر مرير ، وإيذاء رهيب من سفهاء القریتین ، وسلسلة ثقيلة من المأسى المتلاحقة ، توجه إلى الله تعالى يستغيث برحمته .

روى مسلم بإسناده عن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بم شئت فيهم . قال فنادى ملك الجبال ، وسلم على ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(١) .

ب - مشركو قریش يتظاهرون بالاستخفاف بالنبى :

وكما استهزأ زعماء ثقيف بالنبى ﷺ كان مشركو قریش يتظاهرون بالاستهزاء بشخصه الكريم كلما رأوه ، ويسخرون منه ، ويستخفون به وبدعوته ؛ عناداً وإصراراً على الشرك ، وجحوداً لما أرسل به من الحق . وبينما هم يكفرون بالرحمن كان يعظم عليهم أن يدعوهم إلى الله تعالى ، ويستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم ، أو أن يذكرها بسوء .

ولكن الله تعالى لم يتركه لهذا التطاول والعناد والسخرية . بل كان ينزل عليه من الآيات القرآنية ما فيه تسرية وطمأنة له وتقوية ، وكان يفيض عليه من الثقة ، ويعزيه عن استهزائهم به ، ويسليه بأن كل ما يلقاه من مشركى قومه من جحود وتكذيب ، واتخاذ موضع سخرية وهزاء واستخفاف ، إلى غير ذلك من أساليب المكر والكيد والأذى ، كل ذلك قد لقيه من قبله الأنبياء والرسل .

قال تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى يذكر آهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾^(٢) .

﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾^(٣) .

١ - صحيح مسلم بشرح النووى ج-١٢ ص ١٥٤ - ١٥٥ . ٢ - من سورة الأنبياء : آية رقم ٣٦ .

٣ - من سورة الفرقان : آية رقم ٤١ - ٤٢ .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾^(١) .

﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾^(٢) .

قال الأستاذ سيد قطب : (ولقد كان محمد ﷺ ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته . فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته ، وهو من ذروة بنى هاشم ، وهم ذروة قريش . وكان عندهم ذا مكانة من خلقه ، وهو الملقب بينهم بالأمين . ولقد ارتضوا حكومته بينهم في وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمان طويل . ويوم دعاهم على الصفا فسألهم : أصدقونه لو أخبرهم أن خيلاً بسفح هذا الجبل قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم .

(ولكنهم بعد البعثة : وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم ، راحوا يهزءون به ويقولون : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ وهى قولة ساخرة مستنكرة . . . أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية ، وأن ما جاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء ؟ كلا . إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ، ومن أثر هذا القرآن الذى لا يقاوم . وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التى تهددهم في مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية ، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التى تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع .

(ولقد كانوا يعتقدون المؤتمرات لتدبير المؤامرات المحبوكية ، ويتفنون فيها على مثل هذه الوسيلة ، وهم يعلمون كذبهم فيها عن يقين)^(٣) .

ج - ائتمار مشركى قريش بالنبي ﷺ :

قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾^(٤) .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾^(٥) .

تعبر هذه النصوص الكريمة عن مكر المشركين برسول الله وإخراجه من مكة المكرمة . وقصة مكربهم هذا الذى ترتب عليه هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة ، فيها عدة روايات عن ابن

٢ - من سورة يس : آية رقم ٣٠ .
٤ - من سورة الأنفال : آية رقم ٣٠ .

١ - من سورة الفرقان : آية رقم ٣١ .
٢ - في ظلال القرآن ج ١٩ ص ٢٥٦٤ - ٢٥٦٥ .
٥ - من سورة التوبة : آية رقم ٤٠ .

عباس (رضى الله عنه) بالفاظ متقاربة . ولعل من أوفى هذه الروايات : رواية ابن إسحق في سيرته ، وابن جرير في تفسيره . وسننقل هنا ما أورد ابن جرير منها عنه قال :

(حدثنا سعيد بن يحيى الأموى قال : حدثني أبي قال : حدثنا محمد بن إسحق ، عن عبد الله بن أبي نجيع ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : وحدثني الكلبي عن باذان مولى أم هانئ ، عن ابن عباس : أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم منى رأى ونصح . قالوا : أجل ، ادخل ! فدخل معهم ، فقال : انظروا إلى شأن هذا الرجل ، والله ليوشكن أن يوائبكم في أموركم بأمره . قال : فقال قائل : احبسوه في وثائق ، ثم تربصوا به ريب المنون ، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابعة ، إنما هو كأحدهم ! قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال : والله ، ما هذا لكم برأى ! والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يشبوا عليه حتى يأخذه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ! قالوا : فانظروا في غير هذا . قال : فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع ، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم ، وكان أمره في غيركم . فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ، لتجتمعن عليكم ، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ، ويقتل أشرافكم ! قالوا صدق والله ! فانظروا رأياً غير هذا ! قال : فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد ، ما أرى غيره ! قالوا : وما هو ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسيطاً شاباً نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربوه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدر على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل ، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . فقال الشيخ النجدى : هذا والله الرأى ، القول ما قال الفتى ، لا أرى غيره ! قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، قال فاتى جبريل النبى ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه - الذى كان يبيت فيه - تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة (الأنفال) يذكره نعمه عليه ، وبلاءه عنده : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ . وأنزل في قولهم : تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به

ريب المنون ﴿١﴾ . وكان يسمى ذلك اليوم : (يوم الزحمة) للذى اجتمعوا عليه من الرأى (٢) .

ويبدو مما سبق ذكره أنه حين ضاق كفار قريش برسول الله ﷺ ذرعاً ، ورأوا أن كل ما كان منهم من إعراض عن الهدى ، وصد عن سبيل الله ، وتعرض وإيذاء للنبي ﷺ لم يحل دون الاستجابة لله وللرسول ، ولم يزد النبي إلا قوة وعزماً وتصميماً على المضى فى الدعوة إلى الله تعالى ، آنذاك بلغ منهم الغيظ والحقد والبغضاء مبلغاً جعلهم يأتُمرون ويتآمرون ويمكرون ؛ ليقيدوا رسول الله ﷺ ويشدوا وثاقه ويسجنوه حتى يموت ، أو ليقتلوه ويستريحوا منه ، أو ليخرجوه من دياره منفياً مطروداً . ولقد فكروا فى هذا كله ، ثم أجمعوا أمرهم على قتله ﷺ على أن يقوم بتنفيذ ذلك المنكر شباب من بطون قريش جميعاً ؛ ليتفرق دمه فى القبائل كلها ، ويعجز بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرضوا بالدية وينتهى الأمر .

وبينما كان الملأ من قريش يتآمرون ويمكرون بالنبي ﷺ كان الله سبحانه من ورائهم محيط ، يكر لرسوله بهم ، ويحيط كيدهم ، وهم غافلون . فأخبره بمكرهم وأوحى إليه بالخروج ، فخرج هو وصاحبه أبو بكر الصديق مستخفين .

هنالك شقَّ على الذين كفروا خروج الرسول من بين أظهرهم ، وقد كانوا مدركين للخطر العظيم الذى يحدق بهم فى حالة نجاته منهم . فخرجوا فى إثره يرصدون الطرق ، ويبحثون عنه فى جميع مظان وجوده ؛ ليقبضوا عليه ويحولوا دون استمراره فى طريقه الذى سلكه . وأحس النبي ﷺ بمطاردة القوم له ، فاخفى هو وصاحبه فى غار ثور حتى يئأس الكفار منهم .

وفى أثناء إقامتهما فى الغار ، وصل المشركون قريباً منهما ، فأخذ الروح أبا بكر (رضى الله عنه) واشتد حزنه على رسول الله ﷺ فجعل النبي يسكنه ويثبتته ويطمئن من قلبه .

روى البخارى بإسناده عن أنس أن أبا بكر قال : نظرت إلى أقدام المشركين فوق رأسنا ونحن فى الغار فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا (٣) .

ثم كانت العاقبة النصر المؤزر من عند الله تعالى لرسوله بجنود لم يرها الناس ، وكانت الهزيمة للذين كفروا ، وذلك بأن صرف وجوههم وأبصارهم عن رؤيته ، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً ، فتراكضوا عائدين إلى ديارهم وهم أذلاء صاغرون .

١ - من سورة الطور : آية رقم ٣٠ .

٢ - تفسير الطبرى ج ١٣ ص ٤٩٤ - ٤٩٦ . وقال الأستاذ محمود محمد شاكر : هذا الأثر فى 'سيرة ابن هشام ج ٢ : ٨٩ - ٩١ ، وإسناده هناك : (قال ابن إسحق : فحدثني من لا أنهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبى الحجاج وغيره ممن لا أنهم عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) ثم ساق الخبر بغير هذا اللفظ .

٣ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٢٥ .

ومع ذلك ظلوا يفكرُونَ في وسائل أخرى لعلهم يعثرون بها على النبي ﷺ وصاحبه ، فجعلوا لمن جاء بها دية كل واحد منها ، فجُدَّ الناس في الطلب .

قال ابن إسحق : (وحدثني الزهري أن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم حدثه ، عن أبيه ، عن عمه سراقه بن مالك بن جعشم قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فبينما أنا جالس في نادى قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفأ ، إني لأراهم محمداً وأصحابه ، قال : فأومأت إليه بعيني : أن أسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم ، قال : لعله ، ثم سكت . قال : ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي ، فقيدت لي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لي من دبر حجرى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت ، فلبست لأمتى ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره : (لا يضره) . قال : وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فأخذ المائة ناقة)^(١) .

وروى مسلم بسنده عن أبي إسحق قال : سمعت البراء بن عازب يقول : قال أبى لأبى بكر الصديق : يا أبا بكر ، حدثنى كيف صنعتما ليلة سریت مع رسول الله ﷺ قال : نعم ، أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد حتى رُفِعَتْ لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد ، فترلنا عندها ثم قال : فارتحلنا بعد ما زالت الشمس ، واتبعنا سراقه بن مالك ، قال : ونحن في جلد من الأرض ، فقلت يا رسول الله أتينا . فقال : لا تحزن إن الله معنا ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه إلى بطنها ، فقال : إني قد علمت أنكما قد دعوتما على فادعوا لى ، فإله لكما أن أردَّ عنكما الطلب ، فدعا الله فنجا ، فرجع لا يلقي أحداً إلا قال : قد كفيتكم ما ههنا ، فلا يلقي أحداً إلا ردَّه قال : ووفى لنا)^(٢) الحديث .

وفى رواية أخرى عن عثمان بن عمر قال : قال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) : فلما دنا سراقه بن مالك دعا عليه رسول الله ﷺ فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه ، ووثب عنه وقال : يا محمد ، قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن يخلصنى مما أنا فيه ، ولك على لأعmin على من ورائى ، وهذه كنانتى فخذ سهماً منها ، فإنك ستمر على إبلى وغلمانى بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك . قال : لا حاجة لى فى إبلك . فقدمنا المدينة ليلاً ، فتنازعوا أيهم ينزل

١ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٩٦ .

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ١٤٧ - ١٥٠ .

عليه رسول الله ﷺ فقال : أنزل على بنى النجار أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك . فصعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون : يا محمد يا رسول الله ، يا محمد يا رسول الله (١) .

وهكذا أنجز الله تعالى وعده لرسوله ﷺ بأن منع عنه كيد مشركي قريش ومكرهم وأذاهم ، واستنقذه من ذلك الموقف العصيب ، ونصره نصراً عزيزاً مبيناً عليهم ، بعنايته وجنده ولطفه وفضله وكرمه ؛ وبالتالي تلاشت كلمة الكفر ، وظلت كلمة الله في مكانها العالى منتصرة قوية نافذة .

١ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ١٥٠ - ١٥١ .

الفصل الثاني

صور من الابتلاء في حياة الرسول ﷺ في المدينة المنورة

وفي هذا الفصل مبحثان :

المبحث الأول : صور من ابتلاء الرسول وأصحابه في الغزوات .

المبحث الثاني : صور من ابتلاء المؤمنين بمكر المنافقين .

المبحث الأول

صور من ابتلاء الرسول وأصحابه في الغزوات

أقام رسول الله (ﷺ) ثلاثة عشر عاماً بعد نبوته في مكة ، ينذر بالدعوة بغير قتال . وظل هو والذين آمنوا معه يتعرّضون للأذى ، ويظلمهم القلق والخوف ، لضعفهم وقلة عددهم . ولعل مما يدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (١) .

فكانوا يتحملون الفتنة والأذى والظلم صابرين محتسبين ، ويرقبون في ثقة ويقين وعد الله لهم بالنصر المبين . وكانت الآيات القرآنية إذ ذاك تنزل على النبي (ﷺ) تحثهم على الصبر والعفو والصفح والدفع بالتي هي أحسن ، مثل قوله تعالى للرسول (ﷺ) : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢) .

فلما ازداد طغيان الذين كفروا ، وتبرّموا بالنبي (ﷺ) وبمن حوله ، حتى ائتمروا على قتله ، أذن الله له في الهجرة . فهاجر هو وأصحابه إلى المدينة المنورة ، تاركين ديارهم وأموالهم غنيمة باردة للمشركين .

ثم اشتد عدا الكفار للمسلمين الباقين في مكة ، الذين لم يقدروا على الهجرة إلى دار الإسلام . فأخذ المشركون يؤذونهم في دينهم ، ويفتنونهم في عقيدتهم ، وينكلون بهم ، وما فتى طغيانهم عليهم يزداد يوماً بعد يوم حتى ضاقوا بالعذاب ذرعاً ، وأخذوا يتطلعون إلى الخلاص ، مستغيثين بالله تعالى أن يجعل لهم فرجاً ومخرجاً من دار الظلم والعدوان .

آنذاك أذن الله عز وجل للمؤمنين بالجهاد في سبيله ، ووجه المهاجرين والأنصار إلى قتال مشركي مكة على ما كان منهم من ظلم وبغى ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به وبالمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه بغير حق .

قال تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا

١ - من سورة الأنفال : آية رقم ٢٦ .

٢ - من سورة النحل : آية رقم ١٢٥ .

تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿١﴾ .

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ ﴿٢﴾ .

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ ﴿٣﴾ .

ولقد لخص الإمام ابن القيم دوافع الجهاد في الإسلام في (زاد المعاد) في الفصل الذي عقده باسم : (فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل) قال : (. . . ثم أذن للنبي في الهجرة ، وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعترله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم .

فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمر فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهدهم ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يجاربه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم ، فقتل الناقض لعده ، وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم

١ - من سورة البقرة : الآيات ١٩٠ - ١٩٣ .

٢ - من سورة النساء : آية رقم ٧٥ .

٣ - من سورة الحج : آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

للموفى بعهدة عهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسلم له آمن ، وخائف محارب . وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدوهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار المنافقين (١) .

من هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام ، نعلم أنه لا بد من القتال ، لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإخلاص العبودية له وحده ، وإقرار منهجة في الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، أو أن يجرفهم الضلال والفساد .

ولعله من أجل هذه الأهداف العليا شرع الجهاد في سبيل الله . فقام النبي (ﷺ) وأصحابه بأداء هذه الفريضة خير قيام . فقد كان (ﷺ) يحرض المؤمنين على القتال ، ويقاوم معهم ، وينظم صفوفهم ، ويوجههم الوجهة السليمة في كل ميدان . ولقد بلغ عدد الغزوات والسرايا والبعوث على عهد الرسول (ﷺ) في المدينة خمساً وستين ، قاد هو (ﷺ) منها بنفسه سبعاً وعشرين ، وهذا مما يدل على أهمية الوقائع الحربية ، لإنهاء الصراع القائم بين الكفر والإيمان ، ولحماية حرية العقيدة ، وتأمين حرية نشر الدعوة الإسلامية بين الناس .

وفي هذا المبحث سنقتصر على ذكر ابتلاء المؤمنين في غزوة أحد والخندق ، لأن أبرز مواقف الرسول (ﷺ) في الحرب ، والتي تتحطم فيها أقوى الأعصاب ، موقفاه يوم أحد ويوم الخندق : يوم الهزيمة الذي بقى فيه ثابتاً ، ويوم حصار المدينة الذي أخذ بالأنفاس وبقى (ﷺ) فيه كله أمل وثقة ويقين بنصر الله . هذا بإضافة إلى أن أصحابه (رضي الله عنهم) في هاتين الغزوتين قد تجلّى جهادهم في أروع صورة من صور التضحية التي تركز على الإيمان القوى بالله تعالى ، والرغبة الصادقة في بذل الروح في سبيل حماية حرية نشر دعوته ، وتحقيق مرضاته .

إبتيلاء المؤمنين في غزوة أحد :

يبدو أنه من الأفضل قبل أن نأخذ في استعراض الآيات القرآنية التي نزلت في شأن غزوة أحد أن نلخص وقائع المعركة كما وردت في روايات السيرة ؛ لنذكر مواقع تلك الأخبار وما فيها من الحقائق والتوجيهات والحكم والأحكام :

لقد نصر الله تعالى النبي والذين آمنوا معه في غزوة بدر الكبرى ، وقتل بأيديهم صناديد قريش وأشرافهم وأكابر مجرميهم ؛ ومن ثم أخذ أبو سفيان بن حرب يؤلب قريشاً وكفار مكة على المسلمين ؛ لأخذ الثأر . وقد كانت هناك قافلة تجارية كبيرة لقريش قادمة من الشام في طريقها إلى مكة - قبل معركة بدر - قد نجت من المسلمين بتدبير أبي سفيان . فتآمر الذين كفروا على رصد ما فيها من أموال لحرب النبي (ﷺ) وأصحابه .

قال ابن إسحق : (حدثني الزهري ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمير بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن ، قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجعوا إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله ابن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصنفوان بن أبي أمية ، في رجال من قريش أصيب أبأؤهم وإخوانهم يوم بدر . فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يامعشر قريش ، إنَّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، فلعلنا أن ندرك منه ثأراً ، ففعلوا ، ففهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ حَشْرُونَ ﴾ (١) ﴿٢﴾

فاستعانت قريش بهذا المال في التجهيز للحرب . (واستأجر منه أبو سفيان ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم) (٣) واستنفر العرب وألبهم وجمعهم .

ودعا جبير بن مطعم بن عدى غلاماً له حبشياً يقال له : وحشى - كان يقذف بحرية له قذف الحبشة قلماً يخطئ بها فقال له أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى ، فأنت عتيق . لأن حمزة هو القاتل لطعيمة) (٤) .

١ - من سورة الأنفال : آية رقم ٣٦ .

٢ - لباب القول في أسباب النزول ص ١١١ - ١١٢ .

٣ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢١ .

٤ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٥ .

(وأصرت النسوة من قريش على أن يسرن مع الغزاة فتشاور القوم ، فمن قائل بخروجهن ، (فإنه أقمن أن يحفظنكم ويذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لانريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك تأرنا أو نموت دونه) ومن قائل : يامعشر قريش هذا ليس برأى : أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ولا أمن أن تكون الدبرة عليكم فنفتضحوا في نسائكم) وبينما هم يتشاورون صاحبت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بمن يعترض خروج النساء : (إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك . نعم نخرج فنشهد القتال ، ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهن إلى بدر حين بلغوا الجحفة ، فقتلت الأحبة يومئذ أن لم يكن معهم من يحرضهم) (١) (وأخيراً استقر الرأى على الخروج ، فخرج من نساء قريش خمس عشرة امرأة مع أزواجهن ، على رأسهن هند يبيكين قتلى بدر ، ويحرضنهم على القتال وعدم الفرار) (٢)

(وقد جمع أبو سفيان قريباً من ثلاثة آلاف رجل ، وليس بينهم غير مائة من ثقيف ، وسائرهم من مكة : ساداتها ومواليهم وأحاييشتها . وخرجوا قاصدين المدينة في ثلاثة ألوية عقدت في دار الندوة ، وعلى اللواء الأكبر منها طلحة ابن أبى طلحة وقد أخذوا معهم من العدة والسلاح الشيء الكثير وقادوا مائتى فرس ، وثلاثة آلاف بعير ، ومن بينهم سبعمائة دارع) (٣)

(ثم استمروا في سيرهم حتى نزلوا بعينين جبل بطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابلة المدينة ، يوم الأربعاء ثانى عشر شوال فأقاموا بها الأربعاء والخميس والجمعة) (٤)

وأجتمع المسلمون حول الرسول (ﷺ) يتدبرون أمرهم فاستشارهم : أخرج إليهم ، أم يمكث في المدينة ؟ وكان قد رأى في منامه رؤيا فأخبر بها أصحابه .

قال ابن إسحق : (قال رسول الله (ﷺ) للمسلمين : إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقرأ ، ورأيت في ذباب سيفى ثلماً ، ورأيت أنى أدخلت يدى في درع حصينة ، فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

١ - حياة محمد ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

٢ - إنسان العيون ج ٢ ص ٤٨٩ .

٣ - حياة محمد ص ٢٨٨ .

٤ - شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢١ .

(وكان رأى عبد الله بن أبى سلول مع رأى رسول الله (ﷺ) يرى رؤية فى ذلك ، وألاً يخرج إليهم . وكان رسول الله (ﷺ) يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ، ممن كان فاته بدر : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، ولا يرون أننا جبننا عنهم وضعفنا فقال عبد الله بن أبى بن سلول : يارسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا بشرٍّ محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا فلم يزل الناس برسول الله (ﷺ) الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله (ﷺ) بيته فلبس لأمته ، ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله (ﷺ) ولم يكن لنا ذلك . فلماً خرج عليهم ، قالوا : يارسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد . فقال رسول الله (ﷺ) : ما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل فخرج رسول الله (ﷺ) فى ألف من أصحابه . حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلاث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس . فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، يقول : يا قوم ، أذكركم الله الأتخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ، وقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلوا لما أسلمناكم ، ولكننا لانرى أنه يكون قتال فلماً استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه (١) .

وإلى انسحاب المنافقين هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾ (٢) .

ولما رأى بنو سلمة : من الأوس ، وبنو حارثة : من الخزرج - عبد الله ابن أبى بن سلول قد ترك عون المسلمين ونصرتهم وانصرف عنهم هموا كذلك بالانصراف ، وكانوا جناحين من المعسكر ، ثم عصمهم الله عز وجل ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣)

١ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٦ - ١٧ . يتصرف .

٢ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٦٧ .

٣ - من سورة آل عمران : آية ١٢٢ .

روى البخارى بسنده عن سفيان قال : قال عمرو : سمعت جابر بن عبد الله (رضى الله عنهما) يقول : (فينا نزلت : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ﴾) قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب - وقال سفيان مرة : وما يسرنى - أنها لم تنزل ، لقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ﴾ (١) .

(ثم مضى رسول الله (ﷺ) في سبعمائة من أصحابه حتى نزل بالشعب من أحد ، وقد حانت صلاة الصبح يوم السبت الخامس عشر من شوال ، وهو يرى المشركين (٢) فأذن بلال وأقام ، وصلى (ﷺ) بأصحابه صفوفاً) (٣) .

(وعقد (ﷺ) ثلاثة ألوية . لواء للأوس بيد أسيد بن الحضير ، ولواء للمهاجرين بيد علي بن ابي طالب . ثم نقله بعد ذلك ليد مصعب بن عمير ، لأنه من بنى عبد الدار ، وهم حملة اللواء ، وفاء منه (ﷺ) ، ولواء للخزرج بيد الحباب بن المنذر ، وقيل بيد سعد بن عباد) (٤) .

٤٧٤

قال ابن إسحق : (وجعل رسول الله (ﷺ) ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال . ثم تعبى رسول الله (ﷺ) للقتال وهو في سبعمائة رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال : أنضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا تؤتينا من قبلك وظاهر رسول الله (ﷺ) بين درعين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أخى بنى عبد الدار) (٥) .

(فأما قریش فصفت صفوفها ، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، ودفعت اللواء إلى عبد العزى طلحة بن أبى طلحة وجعلت نساء قریش يمشين خلال صفوفها ، يضربن بالدفوف والطبول ، فيكنن تارة في مقدمة الصفوف وتارة في مؤخرتها ، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وهن يقلن :

١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٢٥ .

٢ - قال ابن حجر : (كانت غزوة أحد هي الوقعة المشهورة في شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور) فتح البارى ج ٧ ص ٣٤٦ .

٣ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٢٠ .

٤ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٤ بتصرف .

٥ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٨ .

صرباً بكل بتار

ويقلن :

وَنَقْرُشُ النَّمَارِقِ
فِرَاقٍ غَيْرِ وَاِمَقِ

إِنْ تَقْبِلُوا نُعَايِقِ
أَوْ تَدْبِرُوا نَفَارِقِ

واستعد الفريقان للقتال ، وكل يحرض رجاله . فأما قريش فتذكر بدرأً وقتلاها . وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره ورسول الله بخطب ويحض على القتال ، ويعد المسلمون النصر ما صبروا (١)

(وكان أول من بدر من المشركين - لما التقى الناس - أبو عامر الفاسق وكان يسمى (الراهب) فسماه رسول الله (ﷺ) : (الفاسق) وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله (ﷺ) بالعداوة فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلهم على رسول الله (ﷺ) ويحضهم على قتاله ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه فكان أول من لقي المسلمين . فنادى قومه وتعرّف إليهم . فقالوا له : لا أنعم الله بك عيناً يافاسق فقال : لقد أصاب قومي بعدى شرّ) (٢) .

ثم بدأ القتال بالمبارزة ، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين . (خرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للمبارزة فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثاً . فقام إليه الزبير ، فوثب حتى استوى معه على البعير ، ثم عانقه فاقتتلا فوق البعير ، فقال رسول الله (ﷺ) : (الذي يلي حضيض الأرض مقتول) فوقع المشرك ، فوقع عليه الزبير فذبجه . فأثنى عليه الرسول (ﷺ) وقال : لكل نبي حوارى وإن حوارى الزبير) (٣) .

(وخرج طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار ، وكان حاملاً لواء المشركين ، فطلب المبارزة ، فخرج إليه علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) فاختلفا بضربتين ، فضربه علي فصرعه ، وقتله ، وسر رسول الله (ﷺ) بقتله) (٤) .

١ - حياة محمد ص ٢٩٣ .

٢ - في ظلال القرآن ج ٤ ص ٤٦١ .

٣ - إنسان العيون ج ٢ ص ٤٩٧ .

٤ - إنسان العيون ج ٢ ص ٤٩٧ - ٤٩٨ تصرف .

(ولمَّا اصطفَّ الناس للقتال خرج سباع فقال : هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فقال : ياسباع ، يا ابن أم أثمار مقطعة البظور ، أتحد الله ورسوله (ﷺ) ؟ ثم شدَّ عليه ، فكان كأمس الذاهب) (١) الحديث ، رواه البخارى بسنده عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري .

ثم التحم الجمعان ، وحمى الوطيس ، وحمل المسلمون على أعداء الله ، فنهكهم قتلاً ، ووقع الرعب في قلوب الذين كفروا ، ولا حت أمارات الهزيمة عليهم . فلمَّا قتل حاملي لوائهم ، هزموا وولوا مدبرين لا يلوون على شيء حتى انتهوا إلى نسائهم ، وحتى شممت النساء ثيابهن عن أرجلهن هاربات روى البخارى بسنده عن البراء (رضى الله عنه) قال : فلمَّا لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن (٢) الحديث .

وهكذا أنزل الله تعالى نصره على المؤمنين وثبت أقدامهم ، فحصدوا الكفار بسيوفهم حتى كشفوهم عن معسكرهم ، وكانت الهزيمة والفرار وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ (١٧)

ففي الساعات الأولى عند اشتداد المعركة ، ظهرت صور من البطولات نادرة من أصحاب رسول الله (ﷺ) جديرة بالتسجيل ، نذكر منها هنا - على سبيل المثال لا الحصر - بطولات أبي بكر الصديق ، وأبي دجانة الأنصاري ، وحمزة بن عبد المطلب (رضى الله عنهم) .

أما أبو بكر الصديق فقد أبدى بطولة نادرة وتضحية فريدة حيث خاطر بنفسه ليقتل ابنه عبد الرحمن لنصرة الإسلام .

قال المقرئزي : وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فقال : من يبارز؟ فنهض إليه أبو بكر (رضى الله عنه) فقال له عبد الرحمن : لو لا أنك أبى لم أنصرف . فقال رسول الله (ﷺ) لأبى بكر (رضى الله عنه) : شمس سيفك وارجع إلى مكانك ، ومتعنا بنفسك (٤) .

وأما أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري (رضى الله عنه) فقد أثنى عليه الزبير خيراً .

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٦٧ .

٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤٩ .

٣ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٥٢ .

٤ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ بتصرف .

قال ابن هشام : (حدثني غير واحد من أهل العلم ، أن الزبير بن العوام قال : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله (ﷺ) السيف فمنعني وأعطاها أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ومن قريش ، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله ، فأعطاه إياه وتركني ، والله لأنظرن مايصنع ، فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقال الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها فخرج وهو يقول :
 أنا الذي عاهدني خليلي
 ألا أقوم الدهر في الكبول
 ونحن بالسفح لدى النخيل
 أضرب بسيف الله والرسول

قال ابن إسحق : فجعل لايلقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لايدع لنا جريحاً إلا زفف عليه ، فجعل كل واحد منها يدنو من صاحبه .
 فدعوت الله أن يجمع بينها فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة بدرقته ، فعضت بسيفه ، وضربه أبو دجانه فقتله ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها . قال الزبير : فقلت : الله ورسوله أعلم (١)
 وأبلى حمزة سيد الشهداء بلاء حسنا قال وحشي غلام جبير بن مطعم يصف مصرعه (رضى الله عنه) في هذه الغزوة :
 (والله إنى لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه مايليق به شيئاً مثل الجمل الأورق فكمنت له تحت صخرة فلما دنا مني هزرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجلية فأقبل نحوى فغلب فوقع ، ومهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم تكن لى بشيء حاجة غيره) (٢) .
 (وقد جاءت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، فبقرت بطن حمزة ، وأخرجت كبده ، ولاكتها فلم تقدر عليها فألقته .

(ولما وقف رسول الله (ﷺ) بعد المعركة على جثمان حمزة (رضى الله عنه) تأثر تأثراً شديداً وقال (ﷺ) : (لن أصاب بمثلك أبداً ، وما وقفت قط موقفاً أعظم إلى من هذا) ثم قال رسول الله (ﷺ) : (أكلت شيئاً) قالوا : لا قال : (ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار) (٣) .

١ ، ٢ - السرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢١ .

٣ - في ظلال القرآن ج ٤ ص ٤٦٦ .

وعلى وجه العموم فقد أبلى أصحاب رسول الله (ﷺ) يومئذ في ساحة القتال بلاء حسناً ، حتى كانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار . ولكن ما إن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش ، وشرع المسلمون ينتهبون ما خلفه المشركون من الغنائم ، حتى غادروا مواقعهم ، التي أمرهم الرسول (ﷺ) ألا يبرحوها ، وهبطوا إلى الميدان ييغون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال .

روى البخارى بسنده عن البراء (رضى الله عنه) قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي (ﷺ) جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله ، وقال لا تبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا . فلما لقينا هربوا ، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبد الله : عهد إلى النبي (ﷺ) أن لا تبرحوا ، فأبوا . . . (١) الحديث . (وثبت أميرهم عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة مكانه وقال لا أجاوز أمر رسول الله (ﷺ) فقالوا : لم يرد هذا ، قد انهزم المشركون فما مقامنا هنا ؟ فانطلقوا يتبعون العسكر وينتهبون معهم وخلوا الخيل) (٢)

قال ابن حجر : (وفي حديث ابن عباس : فلما غنم رسول الله (ﷺ) وأباحوا عسكر المشركين انكفت الرماة جميعاً ، فدخلوا في العسكر ينتهبون ، وقد التفت صفوف أصحاب رسول الله (ﷺ) فهُمْ هكذا - وشبك بين أصابعه - فلما أخلت الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها ، دخلت الخيل من ذلك الموضع على الصحابة ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثيراً (٣) .

(ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، ففكر بالخيل ، وتبعة عكرمة ابن أبي جهل ، فحملوا على من بقى من نفر الرماة ، فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير) (٤) وهكذا انقلبت المعركة فدارت الدوائر على المسلمين فدهشوا وتحيروا لهول المفاجأة التي لم يتوقعوها . ولكن البعض منهم أخذ يقاتل بحرارة حينما حاول المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي (ﷺ) .

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك : (أن رسول الله (ﷺ) أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقي في

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤٩ .

٢ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣١ .

٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٥١-٣٥٠ .

٤ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٢ .

الجنة فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضا فقال من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة ، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قُتِلَ السبعة ، فقال رسول الله (ﷺ) لصاحبيه : ما أنصفنا أصحابنا (١)

وفي وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين (نادى إبليس عند جبل عينين - وقد تصوّر في صورة جَعَال بن سُراقَة - : إِنَّ مُحَمَّدًا قد قُتِلَ ، ثلاث صرخات) (٢) .

وبهذه الصرخة الطائشة ، والاشاعة الكاذبة ، كان الابتلاء الشاق المرير للمسلمين ، وكانت ذروة المحنة التي هدّت ما بقي من قواهم ، فانقلبوا على اعقابهم مهزومين ، لا يحاولون قتالاً ؛ مما أصابهم من اليأس والكلال .

قال الزرقاني : (والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق : فرقة استمروا في الهزيمة الى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انفض القتال ، وهم قليل ، وهم الذين نزل فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٣) .

وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي (ﷺ) قد قتل ، فصارت غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه ، أو يستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثر الصحابة . وفرقة ثبتت مع النبي (ﷺ) . ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حيّ (٤) .

ولقد تعددت الاقوال إثر شائعة قتله (ﷺ) وكثرت الظنون الكاذبة ، وظهر نفاق المنافقين بلياً ، فقال بعضهم :

﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ (٥) وقال اخرون : (لو كان نبياً ما قتل ، فارجعوا إلى دينكم الأول) (٦) .

(وقال بعض المسلمين الذين فروا الى الجبل : ليت لنا رسولاً الى عبد الله بن أبي ليث تأمن لنا من أبي سفيان ، يا قوم إِنَّ مُحَمَّدًا قد قتل ، فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتوكم الكفار فيقتلوكم فإنهم داخلوا البيوت) (٧) .

١ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ١٤٧ .

٢ - إمتاع الاسماع ج ١ ص ١٢٨ .

٣ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٥٥ .

٤ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٣-٣٤ .

٥ - انسان العيون ج ٢ ص ٥٠٤ .

٦ - المرجع السابق ص ٥٠٤ .

٧ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٤ .

وقال آخرون من المؤمنين الذين قد تمكن الإيمان من قلوبهم : (إن كان رسول الله ﷺ) قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء^(١) .
ولقد كان من هؤلاء المؤمنين الصادقين الثابتين الذين لم ينهزموا أنس بن النضر ، وثابت بن الدحداح (رضى الله عنهما) .

روى مسلم بسنده عن ثابت قال : (قال أنس عمي الذي سُميت به : لم يشهد مع رسول الله ﷺ) بداراً . قال فشق عليه ، قال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه ، وإن أراي الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ) ليراني الله ما أصنع ، قال : فهاب أن يقول غيرها ، قال : فشهد مع رسول الله ﷺ) يوم أحد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو ، أين ؟ واهماً لريح الجنة أجده دون أحد . قال : فقاتلهم حتى قُتل ، قال : فوجَدَ في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، قال : فقالت اخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخى إلا بينانه ، ونزلت هذه الآية : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾^(٢) قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه^(٣) .

(وأقبل ثابت بن الدحداح بن نعم بن غنم والمسلمون أوزاع - متفرقون غير مجتمعين - قد سُقِطَ في أيديهم ، فصاح : يا معشر الأنصار! إلىَّ إلىَّ ، أنا ثابت بن الدحداح ، إن كان محمد قد قُتل فإنَّ الله حي لا يموت ، فقاتلوا عن دينكم فإنَّ الله مُظهِرُكم وناصرُكم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فيها : خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فحمل عليه خالد ابن الوليد بالرمح فقتله ، وقتل من كان معه من الأنصار - رضى الله عنهم^(٤) .

(وثبت النبي ﷺ) بإجماع ، ما يزول أبداً ، يرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ، ويرمى بالحجر . وروى البيهقي عن المقداد : فوالذي بعثه بالحق ما زالت قدمه شبراً واحداً ، وأنه لقي وجه العدو ، وتنفى إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفرق مرة ، فرما رأيته قائماً يرمى عن قوسه ، ويرمى بالحجر حتى انحازوا عنه^(٥) .

١ - المرجع السابق ص ٣٤ .

٢ - من سورة الأحزاب : آية رقم ٢٣ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٤٧ - ٤٨ .

٤ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢ .

٥ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٤ .

ولقد كان الرسول (ﷺ) هو هدف المشركين الأول ، وكانوا أحرص ما يكونون على قتله . قال المقرئى : (وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاهدوا على قتل رسول الله (ﷺ) وعرفهم المشركون بذلك وهم : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبي وقاص ، وعمرو بن قميته ، وأبي بن خلف)^(١) .

(قال عبد الله بن شهاب : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ! ورسول الله (ﷺ) الى جنبه ما معه أحد . ثم جاوزه عبد الله بن شهاب ، فلقى صفوان بن أمية بن خلف فقال له : تر ! ألم يمكنك أن تضرب محمداً فتقطع هذه الشافة ، فقد امكنتك الله منه ؟ قال : وهل رأيته ؟ قال : نعم ! إنه إلى جنبك ، قال : والله ما رأيته ! أحلف أنه منا ممنوع ، خرجنا أربعة تعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك)^(٢) .

وكان المسلمون من جانب آخر يفتدون الرسول (ﷺ) بأنفسهم ، حتى لقد بايعه بعضهم على الموت فى ذلك اليوم العصيب .

قال المقرئى : (وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، هم : على ، والزبير ، وطلحة ، وخمسة من الأنصار هم : أبو دجانه والحارث بن الصمة ، وحباب بن أنتر ، وعاصم بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، فلم يُقتل منهم أحد يومئذ)^(٣) .

ومن أبلى يومئذ بلاء حسناً فى الدفاع عن رسول الله (ﷺ) : مصعب بن عمير ، وأبو دجانه ، وسعد بن أبي وقاص ، وزيد بن السكن ، وأبو طلحة زيد بن سهل الانصارى ، وطلحة بن عبيد الله ، وأم عمار نسيبة بنت كعب المازنية (رضى الله عنهم) .

قال ابن إسحق : (وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله (ﷺ) حتى قُتل ، وكان الذى قتله ابن قميته الليثى وهو يظن أنه رسول الله (ﷺ) فرجع إلى قريش فقال قتلت محمداً . فلما قُتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله (ﷺ) اللواء إلى على ابن أبي طالب ، وقاتل على بن أبي طالب ورجال من المسلمين)^(٤) .

(وترس دون رسول الله (ﷺ) أبو دجانه ، يقع النبل فى ظهره ، وهو منحرف عليه ، حتى كثر فيه النبل . ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله (ﷺ) ، قال سعد : فلقد رأيته

١ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٣٤ .

٢ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٣٠ .

٣ - المرجع السابق ص ١٣٢ .

٤ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣ .

يناولني النبل وهو يقول : ارم ، فذاك أبى وأمى ، حتى إنه ليناولني السهم ما له نصل ، فيقول : ارم به (١) .

وروى البخارى بسنده عن سعد بن أبى وقاص انه قال : (نثل لى النبى ﷺ) كنانته يوم أحد ، فقال : ارم فذاك أبى وأمى (٢) .

قال ابن إسحق : (وقال رسول الله ﷺ) حين غشيه القوم : من رجل يشرى لنا نفسه؟ فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الانصار - وبعض الناس يقول : إنما هو عمارة بن يزيد بن السكن - فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً ، يقتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم - أزالوهم - عنه ، فقال رسول الله ﷺ : أدنوه منى ، فأدنوه منه فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ (٣) .

وروى البخارى بسنده عن أنس (رضى الله عنه) قال : (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ) وأبو طلحة بين يدى النبى ﷺ مجُوبٌ عليه بجحفة له ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد التزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمرُّ معه بجعبة من النبل فيقول : انثرها لأبى طلحة . قال : ويشرف النبى ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبى انت وامى ، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك ، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمّرتان ، أرى خدماً سوقهما ، تَنقِزان القرب على متونها تفرغانه فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنها ، ثم تحيئان فتفرغانه فى أفواه القوم . ولقد وقع السيف من يدى أبى طلحة إما مرتين وإما ثلاثاً (٤) .

(وقاتل طلحة بن عبيد الله عن رسول ﷺ) قتالاً شديداً - حين انهزم عنه اصحابه وكرَّ المشركون فأحدقوا به من كل ناحية - وصار يذُبُّ بالسيف من بين يديه ومن ورائه وعن يمينه وعن شماله : يدور حوله يترس بنفسه دون رسول الله ، وإن السيوف لتغشاه ، والنبل من كل ناحية ، وإن هو إلا جُنة بنفسه لرسول الله حتى انكشفوا . فجعل ﷺ يقول لطلحة : قد أوجب . وكان طلحة أعظم الناس فناء عن رسول الله ﷺ يومئذ . ورمى مالك بن زهير الجُشمى بسهم يريد رسول ﷺ فاتقى طلحة بيده عن وجهه المقدس فأصاب خنصره فشَلَّ خنصره . وقال حين رماه : حَسَّ ! (٥) فقال ﷺ : لو قال : بسم الله ، لدخل الجنة

١ - المرجع السابق ص ٣٠

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٥٨ .

٣ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٩ .

٤ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٦١ .

٥ - إمتاع الاسماع ج ١ ص ١٤٢ قال الاستاذ محمود محمد شاكر : (حَسَّ) كلمة كانوا يقولونها اذا اصاب احدهم بشى أحرقه كالجمرة والضربة ونحوهما .

والناس ينظرون ، من أحب أن ينظر الى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة فلينظر الى طلحة بن عبيد الله ، طلحة ممن قضى نجه . ولما جال المسلمون تلك الجولة ثم تراجعوا ، أقبل رجل من بنى عامر بن لؤى - يقال له شيبة بن مالك بن المضرَّب - يصيح : دلوني على محمد ! فضرب طلحة عرقوب فرسه فاكتسعت به ، ثم طعن حذقته وقتله . وأصيب يومئذ طلحة في رأسه : ضربه رجل من المشركين ضربة وهو مُقبل ، وأخرى وهو معرض عنه ، فتزف الدم حتى غشى عليه ، فنضح أبو بكر (رضى الله عنه) الماء في وجهه حتى أفاق ، فقال : ما فعل رسول الله ؟ قال : خيراً هو أرسلنى إليك . قال : الحمد لله كل مصيبة بعده جليل^(١) .

وروى البخارى بسنده عن قيس قال : (رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبى (ﷺ) يوم أحد^(٢)) .

وفى تلك الغة التى يختار فيها الانسان الحليم ، كانت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية تقاتل عن الرسول (ﷺ) قتالاً شديداً .

قال المقرئى : (وكانت أم عمارة نسيبة بنت كعب قد شهدت أحداً هى وزوجها وابنها ، ومعها شئ لتسقى الجرحى . فقاتلت وأبليت بلاء حسناً يومئذ حتى جرحت اثني عشر جرحاً ، بين طعنة برمخ او ضربة بسيف ، وذلك أنها كانت بين يدي رسول الله (ﷺ) تذب عنه ، فلما انهزم المسلمون جعلت تباشر القتال ، وتذب عن رسول الله (ﷺ) بالسيف ، وترمى بالقوس . ولما أقبل ابن قميئة يريد النبى (ﷺ) كانت فيمن اعترض له ، فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيها بعد ذلك غور أجوف ، وضربته هى ضربات ، فقال رسول الله (ﷺ) : لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان . وقال : ما التفت يميناً ولا شمالاً وإلا وأنا أراها تقاتل دونى . وقال لابنها عبد الله بن زيد : بارك الله عليكم من أهل بيت ؛ مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك (يعنى زوج أمه : غزيرة بن عمرو) خير من مقام فلان وفلان ، ومقامك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل بيت قالت أم عمارة : ادع الله ان ترافقك فى الجنة : قال : اللهم اجعلهم رفقاى فى الجنة ؛ قالت : ما أبالى ما أصابنى من الدنيا)^(٣) .

هذا قليل من كثير من بطولات الصحابة (رضى الله عنهم) فى الزود عن النبى (ﷺ) يوم أحد .

١ - إمتاع الاسماع ج ١ ص ١٤٢-١٤٣

٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٥٩ .

٣ - إمتاع الاسماع ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ . بتصرف .

أما ما لحقه (ﷺ) من الاذى في ذلك اليوم العصيب فقد قال عنه ابن حجر : (مجموع ما ذكر في الاخبار أنه (ﷺ) شُجَّ وجهه وكُسرت ربايعته ، وجُرحَت وجنته وشفته السفلى من باطنها ، ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة ، وجحشت ركبته . وروى عبد الرزاق عن معمر بن الزهري قال : (ضُرِبَ وجه النبي (ﷺ) يومئذ بالسيف سبعين ضربة وقاه الله شرها كلها) وهذا مرسل قوى ، ويحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتها ، أو المبالغة في الكثرة) (١)

وروى مسلم بسنده عن انس أن رسول الله (ﷺ) كسرت ربايعته يوم أحد ، وشج في رأسه فجعل يسלט الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ، وكسروا ربايعته ، وهو يدعوهم الى الله . فأنزل الله عز وجل : ﴿ ليس لك من الامر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (٢) (٣) .

وروى مسلم ايضاً بسنده عن سهل بن سعد قال : جرح وجه رسول الله (ﷺ) وكسرت ربايعته وهشمت البيضة على رأسه ، فكانت فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) تغسل الدم ، وكان على بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة اخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً ، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم (٤) .

قال ابن هشام : وذكر ربيع بن عبد الرحمن بن إبي سعيد الخدري عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري : أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله (ﷺ) يومئذ ، فكسر ربايعته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته ، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله (ﷺ) في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ على بن أبي طالب بيد رسول الله (ﷺ) ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، ومصَّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري - الدم عن وجه رسول الله (ﷺ) ثم ازدرده ، فقال رسول الله (ﷺ) من مس دمي دمه لم تصبه النار (٥) .

وقال الزرقاني : (دخلت حلقتان من المغفر في وجهه الشريف ، بسبب جرح ابن قمئة وجنته ، فانتزعها أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وعض عليها حتى سقطت ثنيتها في مرتين من شدة غوصها في وجهه الشريف ، كما روى ابن إسحق عن أبي بكر بسند صحيح : أن أبا

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٧ ص ٣٧٢ .

٢ - من سورة ال عمران : آية رم ١٢٨ .

٣ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ١٤٩ .

٤ - المرجع السابق ص ١٤٨ .

٥ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٨ .

عبيدة نزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله (ﷺ) فسقطت ثنيته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين^(١) .

(وكان أول من عرف رسول الله (ﷺ) بعد التحدث بقتله وخفائه عن أعين المشركين كعب بن مالك قال : عرفت عينيه تزهزان من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله (ﷺ) . فأشار إلى بيده أن أسكت . فلما سمع المسلمون .

ذلك وعرفوه ، أسرعوا إليه حتى أتوه ، ونهضوا معه إلى الشعب ، وكان معه أبو بكر وعمر وعلى ورهط من المسلمين (رضى الله عنهم) . فلما امتدوا صعوداً في الجبل ، أدرك رسول الله (ﷺ) أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ ! لانجوت إن نجا ؛ فقالوا : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال (ﷺ) : دعوه . فلما دنا تناول (عليه الصلاة والسلام) الحربة من الحرث بن الصمة ، فلما أخذها (عليه الصلاة والسلام) منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا - أي بعدنا - عن تطاير الشعراء - أي ذباب صغير له لدع - عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله (عليه الصلاة والسلام) فطعنه رسول الله (ﷺ) طعنه وقع بها عن فرسه ، وجعل يخور كما يخور الثور ، ولم يخرج له دم ، بل احتبس فكسر ضلعاً من أضلاعه . فلما رجع إلى قريش قال : قتلني والله محمد ، أليس قد كان قال لي بمكة : أنا اقتلك ؟ فوالله لو بصق على لقتلني . فمات عدو الله بسرف وهم قافلون إلى مكة^(٢) .

(وأشرف أبو سفيان - على الجبل - فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : لا تحييه . فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : لا تحييه فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قُتلوا ، فلو كانوا أحياء لاجابوا . فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله . أبقى الله عليك ما يخزيك . قال أبو سفيان : أعل هبل . فقال النبي (ﷺ) : أجيئه . قالوا : مانقول قال : قالوا : الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي (ﷺ) : أجيئه . قالوا : مانقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، وتجدون لم أمر بها ولم تسؤن^(٣) الحديث ، رواه البخاري بسنده عن البراء (رضى الله عنه) .

(ثم انصرف أبو سفيان إلى أصحابه ، وأخذوا في الرحيل . فأشفق رسول الله (ﷺ) والمسلمون من أن يغير المشركون على المدينة فهلك الذراري والنساء ؛ فبعث سعد بن أبي وقاص لينظر : إن ركبوا الإبل وجنبا الخيل فهو الظعن ، وإن ركبوا الخيل وجنبا الإبل فهي

١ - شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٣٩ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٤ - ٤٥ بتصرف .

٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٧ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

الغارة : ثم قال (عليه السلام) : والذي نفسي بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم . فذهب سعد يسعى إلى العقيق فإذا هم قد ركبوا الإبل وجنّبوا الخيل ، بعد ما تشاوروا نهب المدينة ، فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا يفعلوا : فإنهم لا يدرون ما يغشاهم ؛ فعاد فأخبر النبي ﷺ (١) .

(فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ، فأذن مؤذنه : ألا يخرج من معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ؛ وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان خلفني على بنائه يوم أحد ، حتى لا تركهن لا رجل فيهن ، فتخلفت عليهن ، فأذن لي أسير معك . فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه . وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ، ليظنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم . فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم . ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا ، أصبنا جل أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرن على بقيتهم ، فلنفرغن منهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال : ويحك ! ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحلوا حتى أرى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم ؛ لنستأصل بقيتهم ؛ قال : فإني أنهارك عن ذلك . فرجعوا على أعقابهم إلى مكة . ومراً أبو سفيان بركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأهل لكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمرّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولم يفت ذلك الخبر في عضد المسلمين ، فأقاموا الاثنين والثلاثاء والأربعاء ينتظرون . ثم عرفوا أن المشركين أبعدوا في طريقهم إلى مكة منصرفين . فعادوا إلى المدينة (٢) .

١ - إمتاع الأسماك جـ ١ ص ١٥٩ .

٢ - السيرة النبوية لابن هشام جـ ٣ ص ٤٤ - ٤٥ . بتصرف .

(هذه صور من أحداث المعركة التي تجاور فيها النصر والهزيمة ، لا تفرق بينهما إلا لحظة من الزمان ، وإلا مخالفة عن الأمر ، وإلا حركة من الهوى ، وإلا لفتة من الشهوة ! والتي تجاوزت فيها القيم العالية والسفوح الهابطة ! والنماذج الفريدة في تاريخ الإيمان والبطولة ، وفي تاريخ النفاق والهزيمة .

(وهي مجموعة تكشف عن حالة من عدم التناسق في الصف حينذاك ، كما تكشف عن حالة من الغبش في تصورات بعض المسلمين . . وهذه وتلك أنشأت - وفق سنة الله وقدره - هذه النتائج التي ذاقها المسلمون ، وهذه التضحيات الجسام التي تتراءى على قممها تلك التي أصابت رسول الله ﷺ والتي لا شك أن الصحابة حينذاك كانوا يحسونها بعمق وعنف ، ويرونها أشد ما نالهم من آلام ، وقد دفعوا الثمن غالياً ليتلقوا الدرس عالياً وليمحص الله القلوب ويميز الصفوف ، وليعد الجماعة المسلمة للمهمة العظمى التي ناطها بها : مهمة القيادة الراشدة للبشرية ، وإقرار منهج الله في الأرض في صورته المثالية الواقعية .

(فلننظر إذن كيف عالج القرآن الكريم الموقف بطريقة القرآن)^(١) :

قال تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾^(٢) .

ذهب ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحق والسدي إلى أن اليوم المشار إليه في هذه الآية الكريمة هو يوم أحد . وذهب الحسن إلى أن المراد بذلك يوم الأحزاب .

قال أبو جعفر : (وأولى هذين القولين بالصواب قول من قال : (عني بذلك يوم أحد) ؛ لأن الله عز وجل يقول في الآية التي بعدها : ﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل أنه عني بالطائفتين : بنو سلمة وبنو حارثة ، ولا خلاف بين أهل السير والمعرفة بمغازي رسول الله ﷺ أن الذي ذكر الله من أمرهما أنما كان يوم أحد دون يوم الأحزاب)^(٣) .

(ذكرهم الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة بوقعة أحد وما كان فيها من كيد المنافقين ، إذ قالوا ما قالوا أولاً وآخرأ ، وإذ خرجوا ثم انشقوا ورجعوا ؛ ليخذلوا المؤمنين ويوقعوا الفشل فيهم . ومن كيد المشركين وتآلبهم الذي لم يكن له دافع إلا الصبر حتى عن الغنيمة التي طمع فيها الرماة فتركوا موقعهم وإلا التقوى ومنها - بل أهمها - طاعة الرسول فيما أمر به هؤلاء الرماة)^(٤)

١ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٤٤٦ .

٣ - تفسير الطبري ج٧ ص ١٦١ .

٢ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٢١ - ١٢٣ .
٤ - تفسير القرآن الحكيم ج٤ ص ١٠٨ .

(وقبل أن يمضى فى الاستعراض والتعقيب على أحداث معركة أحد التى انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بمعركة بدر التى انتهت بالنصر ، لتكون هذه أمام تلك ، مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ، ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة وأسباب النصر وأسباب الهزيمة . ثم - بعد ذلك - ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ لحكمة تتحقق من وراء النصر كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء . وأنَّ مرد الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين ، وفى جميع الأحوال)^(١) .

قال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون . والله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾^(٢) .

أما سياق الآيات التالية لهذه الآيات الكريمة من سورة آل عمران فهو لا يدخل فى استعراض أحداث معركة أحد ، وإنما يتكلم عن الربا والمعاملات الربوية ، وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، وعن الإنفاق فى السراء والضراء ، وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس ، وعن الاستغفار من الذنوب والإنابة إلى الله عز وجل ، وعدم الإصرار على المعاصى والأعمال التى لا ترضى الله تعالى ، إلى غير ذلك من أوصاف المتقين وما وعدهم الله به من النعيم المقيم .

ثم قال تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليلمحص الله الذين آمنوا ويعمق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾^(٣) .

١ - فى ظلال القرآن ج٤ ص ٤٦٩ .

٢ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٢٣ - ١٢٩ .

٣ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٣٧ - ١٤٣ .

قال الأستاذ الإمام : إنَّ بعض المفسرين يجعل الآيتين الأوليين من هذه الآيات الكريمة تمهيداً لما بعدهما من النهي عن الوهن والحزن وما يتبع ذلك ، وعلى هذا جرى (الجلال) كأنه يقول : إنَّ هذا الذي وقع في أحد لا يصح أن يضعف عزائمكم ، فإنَّ السنن التي قد خلت من قبلكم تبين لكم كيف كانت مصارعة الحق للباطل ، وكيف ابتلى أهل الحق أحياناً بالخوف والجوع والانكسار في الحرب ، ثم كانت العقابة لهم . فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين للرسول ، المقاومين لهم ، فإنهم كانوا هم المخذولين المغلوبين ، وكان جند الله هم المنصورين الغالبين ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فلا تهنوا ولا تحزنوا لما أصابكم ولما فاتكم من أحد (١) .

(والسنن التي يشير إليها السياق هنا ، ويوجه أبصارهم إليها هي : عاقبة المكذبين على مدار التاريخ ، ومداولة الأيام بين الناس ، والابتلاء لتمحيص السرائر ، وامتحان قوة الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين ، والمحق للمكذبين .

(وفي خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة في الشدة ، والتأسية على القرح الذي لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً ، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً ، والعاقبة بعد لهم ، والدائرة على الكافرين) (٢) .

وهكذا بين الله تعالى سنَّته الجارية في المكذبين ، بياناً للناس كافة ، وأشار إلى أنَّ المتقين هم الذين ينتفعون بهذا البيان القرآني ، ويجدون فيه الهدى والموعظة والعبرة ؛ لأنهم دائماً على صلة برهم ، راغبين في الحق ، مبادرين إلى امتثال أوامر الله عز وجل .

ثم يتَّجه سياق الآيات الكريمة إلى المسلمين ، فيدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان ؛ فإن يكن أصابهم القرح والأذى والقتل والهزيمة في هذه الغزوة ، فقد أصاب الكفار مثل ذلك يوم بدر ، أو في أول الأمر يوم أحد : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسَّونهم بإذنه ﴾ (٣) الآية . ثم كانت الدولة للمشركين حينما خرج الرماة على أمر رسول الله ﷺ واختلفوا فيما بينهم . فترتب على هذا الاختلاف وذلك الخروج أن قُتل من المسلمين سبعون صحابياً ، وأوذى رسول الله ﷺ وأُتخن أصحابه بالجراح .. وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً .

روى البخاري بسنده عن البراء (رضي الله عنه) قال : (لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله وقال : لا تبرحوا ، إن رأيتُمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتُموهم ظهروا علينا فلا تعينونا . فلما لقينا هربوا ، حتى رأيت النساء

١ - تفسير القرآن الحكيم ج٤ ص ١٣٨ .

٢ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٤٧٨ .

٣ - من سورة آل عمران : آية رقم ١٥٢ .

يشتدّدن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبد الله : عهد إلى النبي ﷺ ألا تبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صُرفَ وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلاً^(١) الحديث .

فمن سنن الله في خلقه أن يصاب الذين آمنوا ويصيبوا على أن تكون لهم العقبى بعد الجهاد والابتلاء وتمحيص القلوب وتمييز الصفوف ، واتخاذ الشهداء الذين يقتلون دون عقيدتهم .

واتخاذ الشهداء إنما هو إكرام عظيم وفضل من الله تعالى لهم ؛ فإنَّ الشهادة درجة عالية عنده سبحانه وتعالى ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله . فلولا إدالة الكفار على المؤمنين لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء لله . فهو سبحانه يختار الشهداء من بين المجاهدين في سبيله ، ويمنحهم هذا الإكرام بالشهادة ، ويخصّهم بقرية ، ويشملهم بعطفه ورحمته ورعايته ، ويؤمنهم مما يخافون يوم القيامة .

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) عن النبي ﷺ قال : (ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأنَّ له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات ؛ لما يرى من الكرامة)^(٢) .

وبمداولة الأيام بين الناس يتبيّن المؤمنون ، كما يتبيّن المنافقون ، ويمحق الله الكافرين ببغيهم وطغيانهم إذا انتصروا .

قال أبو جعفر : (يعنى تعالى ذكره بقوله : ﴿ ولیمحص الله الذين آمنوا ﴾ : وليختبر الله الذين صدّقوا الله ورسوله ، فيبتليهم بإدالة المشركين منهم حتى يتبين المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان ، من المنافق)^(٣) .

ثم أنكر الله (تعالى) عليهم حسابهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر ، لأنَّ حكمته سبحانه تأبى ذلك . فلا يدخلونها إلا بالجهاد في سبيل الله وملاقة البلاء ، ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء . وعلى ذلك : فالفوز والظفر في الدنيا ، ودخول الجنة في الآخرة ، لا يكونان بالأمان والغرور ، بل بالجهاد والقتال ، والصبر على الشدائد والمحن والأهوال ، والأخذ بأسباب النصر ، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول (ﷺ) .

ثم قال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين . وما كان

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج٧ ص ٢٤٩

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص ٢٤ .

٣ - تفسير الطبرى ج٧ ص ٢٤٤ .

لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين . وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿١﴾ .

لقد ابتلى المؤمنون يوم أحد ابتلاء شديداً ، وكانت ذروة الابتلاء حين صرخ صارخ : (ألا إن محمداً قد قتل) ﴿٢﴾ فكان لهذه الصيحة وقعها الشديد على المسلمين ، حتى يشس بعضهم وترك القتال . فانزل الله تعالى هذه الآيات الكريمة يوجه بها المسلمين إلى سبيل الرشاد ، ويصحح تصوراتهم عن حقيقة الموت وحقيقة الحياة ، وشخصية الرسول (ﷺ) ورسالته .

فآية الأولى منها تشير إلى : (أن محمداً ﷺ) ليس إلا بشراً رسولاً ، قد خلت ومضت الرسل من قبله فماتوا ، وقد قُتل بعض النبيين كزكريا ويحيى ، فلم يكن لأحد منهم الخلد ، وهو لا بد أن تحكم عليه سنة الله بالموت ، فيخلو كما خلوا من قبله ، إذا لابقاء إلا الله وحده ، ولا ينبغي للمؤمن الموحد أن يعتقده لغيره ، أفإن مات الرسول (ﷺ) كما مات موسى وعيسى ، أو قُتل كما قُتل زكريا ويحيى ، تنقلبون على أعقابكم ، أى تولون الدبر راجعين عما كان عليه ؟ يهديهم الله بهذا إلى أن الرسول ليس مقصوداً لذاته فيبقى للناس ، وإنما المقصود من إرساله ما أرسل به من الهداية فيجب العمل بها من بعده كما وجب في عهده) ﴿٣﴾ .

ثم بين الله الحقيقة الثابتة في شأن الموت والحياة ، وما فيها من حكمة الله وتدبير ، ومن ابتلاء للناس وجزاء ، لكي تطمئن النفوس ويزول عنها الخوف والفرع من الموت ، ولتواجه أعداء الله بكل ثبات وشجاعة وإقدام ووفاء ، فقال سبحانه : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ .

فالأجال محددة ، وموت الأنفس لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى ، ومَلِكُ الموت الذى وكل بالناس ليس له أن يقبض نفساً إلا بأذن الله عز وجل . وفى هذا يلاحظ تحريضهم على القتال في سبيل الله ، وتشجيعهم على لقاء العدو ، وذلك بإعلامهم أن الحذر ، والحرص على الحياة ، والتخلف عن الجهاد ، لاتنفع نفساً ولا تطيل أجلاً . فالإنسان لا يموت قبل بلوغ

١ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٤٤ - ١٤٨ .

٢ - السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٢٧ .

٣ - تفسير القرآن الحكيم ج١ ص ١٦١ .

أجله ، وإن خاض الغمرات والمهالك ، أو اقتحم المعارك . يبدو ذلك واضحاً في نجاة الرسول (ﷺ) عند غلبة المشركين والتفافهم حوله يوم أحد ، فقد كلاه الله بحفظه ورعايته ، وردّ عنه أعداءه .

(ثم يضرب الله المثل للمسلمين من إخوانهم المؤمنين قبلهم . من موكب الإيمان اللاحق الممتد على طول الطريق ، الضارب في جذور الزمان من أولئك الذين صدقوا في إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم ، فلم يجزعوا عند الابتلاء ؛ وتأدّبوا - وهم مقدمون على الموت - بالأدب الإيمانى في هذا المقام .. مقام الجهاد .. فلم يزدوا على أن يستغفروا ربهم ، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها «إسرافاً» في أمرهم . وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار .. وبذلك نالوا ثواب الدارين ، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء ، وإحسانهم في موقف الجهاد . وكانوا مثلاً يضربه الله للمسلمين)^(١) .

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ .

إن كثيراً من الأنبياء الذين خلوا من قبل الرسول (ﷺ) قد قاتل مع كل واحد منهم جماعات كثيرة من المؤمنين . فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والشدة ، وما تضعضت قواهم ، ولا لانت عزائمهم عن الاستمرار في الجهاد ، وما استسلموا لليأس والجزع ولا للأعداء . فكانوا بذلك من الصابرين على مقاساة الأهوال والشدائد والمحن . ومن ثم شهد الله لهم بالإحسان حين أحسنوا الأدب معه وأحسنوا الجهاد ، وأعلن حبه لهم عندما وجدهم من المؤمنين الصابرين المنافحين عن عقيدة ودين .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثنى الظالمين . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمّاً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل

١ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٤٨٨ .

عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهتمهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم .

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحى ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴿١﴾ .

(لقد كانت الهزيمة في أحد مجالاً لدسائس الكفار والمنافقين واليهود في المدينة . وكانت المدينة لم تخلص بعد للإسلام ، بل لا يزال المسلمون فيها نبتة غريبة إلى حد كبير . نبتة غريبة أحاطتها (بدر) بسياج من الرهبة ، بما كان فيها من النصر الأبلج . فلما كانت الهزيمة في أحد تغير الموقف إلى حد كبير ، وسنحت الفرصة لهؤلاء الأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم ، وأن ينفثوا سمومهم ، وأن يجدوا في جو الفجائع التي دخلت كل بيت من بيوت المسلمين - وبخاصة بيوت الشهداء ومن أصابهم الجراح المثخنة - ميساعد على ترويج الكيد والدس والبلبل في الأفكار والصفوف) ﴿٢﴾ .

وفي مستهل هذه الآيات الكريمة يدعو الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا ليحذروهم من طاعة هؤلاء الذين كفروا ومتابعهم ، لأن في ذلك الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر ، وبالتالي يصبحون وقد خسروا الدنيا والآخرة ، وهو الخسران المبين . ثم يذكرهم بأن الله وحده ناصر المؤمنين ، وهو خير الناصرين . وما ينبغي للمسلمين أن يميلوا إلى طاعة الكافرين في حالة انتصار المشركين - في حادث عابر ليس هو السنة الثابتة في الانتصار - رجاء الأمن والحماية والنصرة عندهم . وما كان للمؤمنين أن يتوهموا ذلك ، لأن الله وليهم وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير .

ثم يطمئن الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، ويعددهم النصر على عدوهم ، وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، فيفت في عضدهم ، ويفل شوكتهم ، بسبب إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وذلك بالإضافة إلى العذاب الأليم المعد لهم في الآخرة ، وهو المصير المحزن البائس الذي يليق بالظالمين .

١ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٤٩ - ١٥٨ .

٢ - في ضلال القرآن ج٢ ص ٤٨٩ .

ثم ذكّرهم الله تعالى بالنصر الذى حققه لهم فى أول المعركة ، حسب وعده لهم ، فقد وعدهم بالنصر ماصبروا واثقوا ، والرسول (ﷺ) وعدهم بالنصر بجانب ذلك ماثبتوا مكانهم الذى بوأهم إياه . وقد صدقهم الله وعده حين صدقوا فى الوفاء بالصبر والتقوى والثبات وعدم التطلع إلى الغنائم وتقديمها على الجهاد وطاعة الله ورسوله ، فمكّن لهم من أعدائهم يخدمون حسهم ، ويستأصلون شأفتهم ، بتوفيقه سبحانه تحقيقاً لوعده لهم ، حتى استحر القتل فى المشركين وولوا الأدبار .

هنالك ضعفت بعض نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم ، وألهاهم الطمع فيها ، فتنازعوا فيما بينهم وخالفوا أمر الرسول (ﷺ) بعدما رأوا دلائل النصر الذى يحبونه . فكان منهم من يريد غنيمة الدنيا ، ومنهم من يريد ثواب الآخرة . وعلى ذلك فقد أخلوا بشروط النصر ، فأمسك الله عنهم أسبابه ، حتى تحولت الحال من نصر مبین إلى هزيمة للمسلمين .

قال الأستاذ سيد قطب عند قوله تعالى : ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ : لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنزعوا وعصوا ، صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان ، فلاذوا بالفرار . . . وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ، ولكن مدبراً من الله ليبتليهم . . . ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ، وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكونات القلوب ، ومن تمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف . وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها ، وهى فى الوقت ذاته مدبرة بحسابها ، بلا تعارض بين هذا وذاك ، فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب تدبير . . من اللطيف الخبير^(١) .

وبعد الابتلاء والتمحيص والخلاص تداركهم الله بعفوه عن كل ما وقع فى المعركة ، فضلاً من تعالى ومئةً ، وتجاوزاً عن ضعفهم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة .

قال ابن إسحق : (ثم أنبهم الله بالفرار عن نبهم (ﷺ) وهم يُدعون ولا يعطفون عليه لدعائه إياهم من خلفهم ، فقال : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأتابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ : أى كرباً بعد كرب ، بقتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وبما وقع فى أنفسكم

١ - فى ظلال القرآن ج١ ص ٤٩٤ .

من قول من قال : (قتل نبيكم) فكان ذلك مما تتابع عليكم غما بغم ، (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) من ظهوركم على عدوكم بعد أن رأيتموه بأعينكم ، ولا ما أصابكم من قتل إخوانكم ، حتى فرجت ذلك الكرب عنكم)^(١) .

ثم أقام الله تعالى على كل واحد من المؤمنين رقيباً عليه من ضميره لا من الناس ، يحول بينه وبين مخالفة أوامر الله ورسوله ، فقال : ﴿ والله خير بما تعملون ﴾ (إذ يتذكر كل واحد منهم عند سماع هذه الجملة أو تلاوتها أن الله تعالى مطلع على عمله ، عالم بنيته وخواطره ، فيحاسب نفسه : فإن كان مقصراً تاب من ذنبه ، وإن كان مشمراً إزداد نشاطاً ، خوف الوقوع في التقصير ، وأن يراه الله حيث لا يرضى)^(٢) .

وبعد الهزيمة والهول والفرع والغم ، أنزل الله تعالى النعاس أمانة منه على أهل الإخلاص واليقين به ، فسكب في قلوبهم الطمأنينة ، كما سكب في كيانهم الراحة والسكون والهدوء ، فهُمْ نيام لا يخافون . أمّا أهل النفاق والشك فقد ساء ظنهم بالله سبحانه ، وكاد القلق والحيرة والحسرة أن تأكل قلوبهم .

قال السيوطي : (أخرج ابن راهويه عن الزبير قال : لقد رأيته يوم أحد ، حين اشتد علينا الخوف ، وأرسل علينا النوم ، فما منا أحد إلا ذقته في صدره ، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، فحفظتها . فأنزل الله في ذلك : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً ﴾ إلى قوله : ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾^(٣) .

وروى البخاري بسنده عن أنس (رضي الله عنه) : أن أبا طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ، ويسقط وأخذه)^(٤) .

(أمّا المنافقون فقد كان لاهمّ لهم غير أنفسهم ، فهُمْ من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغل ، قد طار عن أعينهم الكرى ، يظنون بالله الظنون الكاذبة ، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله ، شكاً في أمر الله ، وتكذيباً لنبيه (ﷺ) ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ومسلط عليه أهل الكفر به ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟)^(٥) .

١ - السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٥٤ .

٢ - تفسير القرآن الحكيم ج ١ ص ١٨٥ .

٣ - لباب النقول في أسباب النزول ص ٥٤ .

٤ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٢٢٨ .

٥ - تفسير الطبري ج ٧ ص ٣٢٠ .

فتوهموا أن الله سبحانه مضيعهم في هذه المعركة التي ليس لهم من أمرها شيء ، وإنما أجبروا على القتال فيها إجباراً ، ليجرحوا ويتألموا ويقتلوا ، والله لا ينصرهم ولا يعينهم ، إنما يخلى بينهم وبين أعدائهم لينكلوا بهم . هكذا كانت وساوسهم وظنونهم الفاسدة التي لاتلىق بالله تعالى . فردّ سبحانه على ما كانوا يتساءلون عنه بقوله : (قل إن الأمر كله لله) فالأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى ، لا أمر النصر وحده . ولا أمر لأحد من خلقه ، ولا شأن له في سير الأحداث . فهو تعالى فعال لما يريد ، ولا يُسأل عما يفعل ، ويكون ما يشاؤه جل وعلا كيف يكون .

ثم ذكر الله عز وجل تلاومهم وحسرتهم على ما أصابهم ؛ فكشف عن خبث خباياهم ، وسوء طويتهم ، إذ يقول بعضهم لبعض خفية : لو كان لنا الأمر في إدارة المعركة لما وقع فينا القتل ههنا ، ولما لاقينا هذا المصير .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا : (يقررون رأيهم ، ويستدلون عليه بما وقع لهم ، غافلين عن تحديد الآجال ؛ ولذلك أمر الله نبيه أن يجيبهم بقوله : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أى لو كنتم وادعين في بيوتكم في سلم وأمان لخرج من بينكم من انتهت آجالهم ، وثبت في علم الله أنهم يقتلون ، كما يثبت المكتوب في الألواح والأوراق إلى حيث يقتلون ويسقطون من البراز - الأرض المستوية - فتكون مصارعهم ومضاجع الموت لهم ؛ فقتل من قتل ولم يكن لينجو ؛ لأنّ الأمر كله بيد الله ، ولأنّ آجالهم قد جاءت كما سبق في علم الله تعالى) (١) .

(فإذا هنالك الأجل المكتوب لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ، وإنّ هنالك مضجعاً مقسوماً لا بد أن يحىء إليه صاحبه فيضجع فيه ! إنه قدر الله ، ووراء حكمته :

﴿ وليبلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ (فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ، ويصهر ما في القلوب ، فينفى عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء .. فهو الابتلاء والاختبار لما في الصدور ليظهر على حقيقته ، وهو التطهير والتصفية للقلوب ، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف . وهو التصحيح والتجلية للتصور ؛ فلا يبقى فيه غش ولا خلل :

﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾

(وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها ، التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور ! والله عليم بذات الصدور هذه . ولكنه سبحانه يريد أن

يكشفها للناس ، ويكشفها لأصحابها أنفسهم ، فقد لا يعلمونها من أنفسهم ، حتى تنفضها الأحداث وتكشفها لهم^(١) .

والله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(٢) .

ولقد علم سبحانه دخيلة الذين ولوا الأدبار من المسلمين يوم الزحف ، يوم التقى جمع المؤمنين والمشركين بأحد . إنهم ضعفوا وهربوا من ميدان القتال بسبب معصية ارتكبوها ، ولعل تلك المعصية هي مخالفة بعض الرماة لأمر رسول الله (ﷺ) بتركهم أماكنهم التي بوأهم إياها ، عندما جال في نفوسهم الطمع في الغنيمة ، وظنوا أنه ليس للمشركين رجعة ، فترخصوا بذلك في التحرك من مقاعدهم ، ووجد الشيطان طريقه إلى هذه النفوس من ذلك المنفذ ، فاستجرهم ودعاهم إلى الزلة حتى زلوا . ولكن الله الغفور ذو الحلم والأناة لم يدعهم للشيطان ووسواسه ، وإنما أدركهم برحمته ، فشملمهم بعفوه وتجاوز عن سيئاتهم وذنوبهم فصصح لهم عنها ، إنه هو الغفور الرحيم .

ثم حذر الله تعالى المؤمنين من تصورات الكفار والمنافقين الفاسدة ، لما تعقبة من سوء الأثر في النفوس . تلك التصورات الخاطئة هي اعتقادهم أنه إذا خرج أحدهم من بلاده للتجارة والكسب ، أو طلب الرزق فمات ، أو كان خروجه من بلاده ليغزو ويقاتل فيقتل في ثانيا المعركة : أنه لو لم يكن قد خرج من عندهم ، وكان قد أقام في بلادهم ، ما مات وما قتل . فاعتقادهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتل يذهب بأنفسهم حسرات ، ويسكب في قلوبهم الحزن والغم ، وهم يجهلون العلة الحقيقية في ذلك الموت أو القتل ، ألا وهي استيفاء الأجل ، وقدر الله وسنته في الموت والحياة . فهو سبحانه بيده إعطاء الحياة للناس وبيده استردادها في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، فأينما يكونوا يدركهم الموت - إذا جاء أجلهم - حتى ولو كانوا في بروج مشيدة .

قال أبو جعفر : (يقول جل ثناؤه لعباده المؤمنين : لا تكونوا أيها المؤمنون ، في شك من أن الأمور كلها بيد الله ، وأن إليه الإحياء والإماتة ، كما شك المنافقون في ذلك ، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله ، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ، ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته . ثم وعدهم على جهادهم في سبيل الله المغفرة والرحمة ، وأخبرهم أن موتاً في سبيل الله أو قتلاً في الله ، خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد العيش الذي من أجله يتناقلون عن الجهاد في سبيل الله ، ويتأخرون عن لقاء العدو . ولئن متم أو قتلتم ، أيها المؤمنون ، فإن إلى الله مرجعكم ومحشركم ، فيجازيكم بأعمالكم ، فأثروا ما يقربكم من الله ويوجب لكم رضاه ويقربكم من الجنة ، من الجهاد في سبيل الله والعمل

١ - في ظلال القرآن ج٤ ص ٤٩٧ .

٢ - من سورة غافر : آية رقم ١٩ .

بطاعته ، على الركون إلى الدنيا وما تجمعون فيها من حطامها الذى هو غير باق لكم ، بل هو زائل عنكم ، وعلى ترك طاعة الله والجهاد ، فإن ذلك يبعدكم عن ربكم ويوجب لكم سخطه ، ويقربكم من النار^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما كان لنبى أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون . لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾^(٢) .

تحدثت هذه الآيات الكريمة عن : (حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة فى أخلاق النبى (ﷺ) وطبيعته الخيرة الرحيمة الهينة اللينة ، المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس . . ثم يمضى السياق القرآنى فيشير إلى ما أمر به النبى (ﷺ) من العفو عن أصحابه ، واستغفار الله لهم ، وأن يشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم غير متأثر بنتائج الموقف فى أحد لإبطال هذا المبدأ الأساسى فى الحياة الإسلامية . ومع الأمر بمبدأ الشورى يؤمر (عليه الصلاة والسلام) بمبدأ الحزم والمضى - بعد الشورى - فى قضاء وحسم ، ويجب حينذاك التوكل على الله وحده فى إمضاء عزمه ، توكلأ يسد باب التردد ويفسح المجال للنجاح . ثم تشير الآيات إلى حقيقة قدر الله ، ورد الأمر كله إليه وفاعليته وحده فى تصريف الأحداث والنتائج . وتحذر من الخيانة والغلول والطمع فى الغنيمة . ونجد التفرقة الحاسمة بين من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله ، تبرز منها حقيقة القيم والاعتبارات والكسب والخسارة . . وتحتم الآيات الكريمة بالإشادة بالمنة الإلهية المتمثلة فى رسالة النبى (ﷺ) إلى هذه الأمة ، المنة التى تتضاءل إلى جانبها الغنائم ، كما تتضاءل إلى جانبها الآلام سواء !^(٣)

ثم قال تعالى : ﴿ أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إنَّ الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً

١ - تفسير الطبرى ج ٧ ص ٣٣٧ - ٣٣٩ بتصرف .

٢ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٥٩ - ١٦٤ .

٣ - فى ظلال القرآن ج ٤ ص ٥٠٠ ملخصاً .

لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴿١﴾

تعبّر هذه الآيات الكريمة عن دهشة المسلمين واستغرابهم للمصيبة التي أصابتهم يوم أحد : (وهى القتل الذى قتلوا منهم ، والجرحى الذين جرحوا منهم فى ذلك اليوم ، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفراً . فىقول تعالى للمؤمنين : أو حين أصابتكم هذه المحنة ، وأنتم قد أصبتم من المشركين مثلى هذه المصيبة التى أصابوا هم منكم ، وهى المصيبة التى أصابها المسلمون من المشركين ببدر ، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ، أو حين وقع بكم فى أحد ما وقع قلتم : من أى وجه . هذا ؟ ومن أين أصابنا ، ونحن مسلمون وهم مشركون ، وفينا نبي الله (ﷺ) يأتيه الوحى من السماء ، وعدونا أهل كفر بالله وشرك ؟ هنالك ردّ الله تعالى على هذا التساؤل ، فبين لهم أنّ ما أصابهم كان بفعلهم ، وكان النتيجة الحتمية لتصرفهم ، فقال : قل لهم ، يا محمد أصابكم هذا الذى أصابكم من عند أنفسكم ، بخلافكم أمرى وترككم طاعى ، لا من عند غيركم ، ولا من قبل أحد سواكم) (٢) .

ثم بين الله تعالى لهم أنّ ما صارت إليه الأمور يوم أحد كان قدراً مقدوراً . فقد كان وراء مخالفتهم لأمر الله ، ووراء ما أصابهم من الضر والجرح والآلام ، تحقيق قدر الله فى تمييز المنافقين من المؤمنين ، فينكشف أمر المنافقين ، وليلمحصر الله قلوب المؤمنين ويحلى ما فيها من ضعف أو قصور . ثم أظهر الله تعالى ما كان يخفيه عبد الله بن أبي بن سلول فى نفسه ، هو ومن معه ، من عداوة الرسول (ﷺ) وأهل الإيمان به . فقد كانوا يظهرون الإيمان بالله ورسوله ويكتمون الكفر ، وليس فى قلوبهم مثقال ذرة من الإيمان ، والله بتفصيل ذلك كله عليم .

ثم كشف الله تعالى ما كانت تنطوى عليه أنفسهم من عقائد فاسدة وأفكار مضللة ، كانوا يطلقونها فى أوساط المسلمين ، لتفرقة جمعهم وخلخلة صفوفهم وزعزعة الثقة فى نفوسهم . فهم لم يكتفوا بالتخلف عن معركة أحد وما يحدثه هذا التخلف من آثار سيئة فى نفوس الناس ، بل طفقوا يقولون عمن استشهد فى المعركة : (لو أطاعونا ماقتلوا)

(فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول (ﷺ) وإتباعه مغرماً ومضرة . وأكثر من هذا كله يفسدون التصور الإسلامى الناصع لقدر الله ، ولحتمية الأجل ، ولحقيقة الموت والحياة وتعلقها بقدر الله وحده . . . ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم

١- من سورة آل عمران الآيات رقم ١٦٥ - ١٦٨

٢- تيسر الطبرى ج ٧ ص ٣٧١ بتصرف .

الناصع ، الذى يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامى ويجلو عنه الغبش من ناحية :

(قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)

فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان ولا يرده حرص ولا حذر ولا يؤجله جبن ولا قعود . . . والواقع هو البرهان الذى لا يقبل المراء . . وهذا الواقع هو الذى يجبههم به القرآن الكريم ، فيرد كيدهم اللئيم ، ويقر الحق فى نصابه ، ويثبت قلوب المسلمين ، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين (١) .

ثم قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم أيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٢) .

وبعد أن جلا الله عز وجل فى قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل فى الآيات السابقة كشف لهم فى هذه الآيات عن مصير إخوانهم الذين قتلوا فى سبيل الله يوم أحد ليزيد قلوبهم طمأنينة وراحة وليرغبهم فى الجهاد ويهون عليهم القتل . فأخبرهم بأن الشهداء ليسوا أمواتا ونهاهم أن يحسبوهم كذلك وأكد لهم أنهم أحياء عنده تعالى متمتعون فى رزقه مسرورون بما آتاهم من كرامته وفضله ، وبما جباهم به من جزيل ثوابه وعطائه ، وقد أذهب عنهم الخوف والحزن فطاب المثوى وكرم المأوى . ثم هم فرحون لمن وراءهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء فى الدنيا ، لما علموه من رضا الله عن المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيله ، ولما عاينوه من وفاء الموعد وعظيم الثواب فهُمْ فى رحاب فضل الله وساحات كرمه وحسن جواره ، قد تمنوا أن يعلم إخوانهم المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ما أفاضه الله عليهم من نعمة وفضل وما لقوا عنده من الرزق والمكانة السامية فى دار الكرامة .

قال ابن إسحق : (حدثني إسماعيل بن أمية ، عن أبي الزبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرِ خَضَرٍ ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحَسَنَ مَقِيلِهِمْ ، قَالُوا : يَا لَيْتَ إِخْوَانُنَا يَعْلَمُونَ

١ - فى ظلال القرآن ج ٤ : ص ٥١٦

٢ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٦٩ - ١٧٥ .

ما صنع الله بنا ، لئلا يزهّدوا في الجهاد ، ولا يتركوا عن الحرب . فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله على رسوله (ﷺ) هؤلاء الآيات : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)^(١)

ثم يمضي سياق الآيات الكريمة في استعراض موقف المؤمنين الذين تبعوا رسول الله (ﷺ) إلى حمراء الأسد في طلب مشركي قريش الذين كانوا بأحد وذلك أن أبا سفيان لما انصرف هو وجنوده عن أحد ، استنهض الرسول (ﷺ) أصحابه لمتابعتهم وتعقبهم غداة المعركة المريعة فاستجاب المؤمنون لدعوته (ﷺ) وخرجوا معه على ما بهم من ضر وجراح لم تلتئم بعد حتى بلغوا حمراء الأسد .

ولعلمهم فعلوا ذلك ليرى الناس أن بهم قوة على عدوهم فيهابوهم ، وخوفاً من كربة قريش على المدينة . فكانوا بذلك محسنين صنعاً ممثلين لأمر الله تعالى ، طائعين لرسوله ، ومؤثرين رضوان الله عز وجل على متع الحياة الفانية ، ولهذا لما تصدى لهم القوم الذين سألهم أبو سفيان أن يشبطوا هؤلاء المؤمنين ، لم يأبهوا بمقاتلتهم ، ولم يبالوا بتخويفهم بجموع قريش . بل توكلوا على الله وحده ، وتجردوا له ، وازدادوا إيماناً وتسليماً . ومن ثم كانت العاقبة لهم ، صرف الله تبارك وتعالى عدوهم عنهم دون أن ينال منهم مكروه ولا أذى ، ورجع المؤمنون إلى المدينة بالنجاة والعافية ، وقد حازوا الفضل والنعمة ، والثبات على الإيمان ، والزيادة فيه ، وحذر عدوهم منهم ، ونالوا رضوان الله ذي الفضل العظيم .

قال الأستاذ سيد قطب : (وأخيراً يختم هذه الفقرة - الآيات الكريمة - بالكشف عن علة الخوف والفرع والجزع . . . إنه الشيطان يحاول أن يجعل أوليائه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة . . . ومن ثم ينبغي أن يفتن المؤمنون إلى مكر الشيطان وأن يبطلوا محاولته فلا يخافوا أوليائه هؤلاء ، ولا يخشوهم . بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوى القاهر القادر ، الذي ينبغي أن يخاف :

(إنما ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه فلا تخافوهم وخافون إن کتتم مؤمنین) .
(والشیطان ما کر خادع غادر ، یختفی وراء أولیائه ، ینشر الخوف منهم فی صدور الذین لا یحتاطون لوسوسته . . . ومن هنا یکشفه الله ، ویوقفه عاریاً لا یستره ثوب من کیده ومکره . ویرفّ المؤمنین الحقیقة : حقیقة مکروه وسوسته لیکونوا منها علی حذر فلا یرهبوا أولیاء الشیطان ولا یخافوهم فہم وهو أضعف من أن یخافهم مؤمن یرکن إلى ربہ ویستند إلى

قوته . . إن القوة الوحيدة التي تخشى وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضرر هي قوة الله وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله ، وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة في الأرض . . . لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان (١) :

ثم قال تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نمى لهم خير لأنفسهم إنما نمى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليلذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم اجر عظيم ﴾ (٢) .

وبهذه الآيات الكريمة ينتهى الاستعراض والتعقيب على غزوة أحد ، تلك المعركة التي أصيب فيها المسلمون بالهزيمة ، والتي رجع منها المشركون بالنصر والغلبة . فأظهر بعد ذلك بعض المنافقين كفرهم ، وأصبحوا يثيرون الشر والأذى ويشطون المسلمين ، ويطلقون أفكارهم الفاسدة لعرقلة الدعوة وسيرها بين الناس . فهنا في هذا المقطع الختامى يطمئن الله تعالى رسوله (ﷺ) ويسليه ويواسى . قلبه الكريم ، ويدفع عنه الحزن الذى يساوره حسرة على هؤلاء الذين يسارعون في الكفر - مرتدين على أعقابهم - من أهل النفاق . فإنهم لا يبلغون أن يضروا الله بمسارعهم في الكفر شيئاً . وهم بذلك إنما يحاربون الله تعالى ، ولا شك أنهم أضعف من أن يضروا الله شيئاً ، ولا سبيل لهم لأن يضروا دعوته أو يضروا أوليائه ضرراً ما ، مهما سارعوا في الكفر . فهُمْ لا يضرون إلا أنفسهم وما يشعرون . وقد كان ذلك كله بمشيئة الله تعالى وقدره بهم وفتنته لهم . فهو سبحانه قد علم من فساد فطرتهم وكفرهم ما يقتضى حرمانهم نعيم الآخرة . فهُمْ قد آثروا الكفر على الإيمان ورضوا به وسارعوا في نصرته واجتهدوا فيه ؛ ولذلك تركهم الله عز وجل يسارعون في الكفر إلى نهايته ، حتى يحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، وبالتالي مجرمهم الله من ثواب الآخرة ، ويحبط أعمالهم ، ويدخلهم النار ؛ ليدوقوا العذاب العظيم الأليم .

قال الأستاذ الإمام : (وقد يعرض لبعض الأفكار وَهْمٌ في هذا المقام ، ويجول فيها صورة ما يتمتع به الذين يؤثرون الكفر على الإيمان من اللذات والقوة وإمكان نيلهم من المؤمنين إذا أذنبوا ، كما نالوا منهم يوم أحد بذنبهم وتقصيرهم ، فيقول الواهم : آمنا وصدّقنا أن هؤلاء سيعدّون في الآخرة ولا يكون لهم نصيب من نعيمها ؛ ولكن أليسوا الآن متمتعين بالدنيا ؟ أليس لهم فيها من القوة ماتمكّنهم من الاعتداء علينا ؟ وقد كشف هذا الوهم قوله تعالى :

١ - في ظلال القرآن ج ٤ ص ٥٢١ بتصرف

١ - من سورة آل عمران : الآيات رقم ١٧٦ - ١٧٩ .

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ فبين لنا سنة حكيمة من سنته في الاجتماع البشرى ؛ وهى أن الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن ، ويقع في الضرر بتقصيره في العمل الصالح وتشميره في عمل السيئات ، والعبرة بالخواتيم ، فكأنه قال : إن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو جرى على سنته في الخلق ، وهى أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله . ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسبباً لاسترساله في فجوره ، فيوقعه ذلك في الإثم الذى يترتب عليه العذاب المهين (١) .

وقد ختم الله تعالى الاستعراض والتعقيب على أحداث واقعة أحد بكشف حكمته وتدبيره من وراء ابتلاء المؤمنين وإمهال الكافرين ، فقال : ﴿ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية . فبين سبحانه أنه ليس من شأنه ، ولا من سنته في خلقه أن يدع المؤمنين على مثل الحال التى كانوا عليها عند حدوث غزوة أحد من التباس المؤمن منهم بالمنافق ، فلا يعرف هذا من هذا ؛ ولذلك مضت سنته تعالى ، وشاءت حكمته ولطفه بالمؤمنين المخلصين الصادق الإيمان أن يميزهم من المنافقين المستترين للكفر ، بالبأساء والمحن والابتلاء بالشدائد ؛ ليتكشف المخبوء في القلوب ، ويزول اللبس ، ويتميز الخبيث من الطيب ، ويتبين المؤمنون بالله ورسله على وجه القطع واليقين .

كذلك ليس من شأن الله تعالى ولا من سنته في عبادته أن يطلع المؤمنين على الغيب الذى استأثر به ؛ لأنهم بشر ممن خلق ، وبحكم تكوينهم البشرى ليسوا مهئين للاطلاع على الغيب . ومن أجل هذا لم يكن من مقتضى حكمته سبحانه ، ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على ضمائر قلوب عبادهم ، فيعرفوا المؤمنين منهم من المنافقين والكفار ؛ ولكنه يميز بينهم بصنوف المحن والابتلاء ، ليتبين مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم . غير أنه سبحانه يصطفى من يشاء من عبادهم ويستخلصه لنفسه ، فيطلعه على غيبة بوحية ذلك إليه ورسالته .

وفي الختام يتجه السياق إلى الذين آمنوا بوجههم إلى تحقيق مدلول الإيمان ومقتضاه في أنفسهم ، ويرغبهم في فضل الله العظيم الذى ينتظر المؤمنين ، الذين يمثلون أوامر الله ويحبتون نواحيه :

﴿ فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم اجر عظيم ﴾

وبهذا التوجيه والترغيب ، والوعد بالأجر العظيم على الإيمان بالله ورسله المقرون بالتقوى ، والذى جاء خير خاتمة لاستعراض الأحداث في أحد ، والتعقيب على تلك الأحداث ، نكون قد وقفنا على ابتلاء المؤمنين في غزوة أحد .

ابتلاء المؤمنين في غزوة الخندق :

من مواقف الامتحان العسيرة التي واجهها الرسول (ﷺ) وأصحابه على عهدهم المدني ، غزوة الخندق . ويقال لها أيضاً : غزوة الأحزاب . وهي الغزوة التي ابتلاهم الله سبحانه وتعالى فيها وزلزلهم ، وثبت الإيمان في قلوب أوليائه المتقين ، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق والمعادين ، وفضحهم وقرعهم .

وقد اختلف في العام الذي كانت فيه هذه الغزوة . قال ابن حجر : (قال موسى بن عقيب : كانت في شوال سنة أربع ، هكذا روينا في مغازيه . قلت : وتابع موسى على ذلك مالك ، وأخرجه أحمد عن موسى ابن داود عنه . وقال ابن إسحق : كانت في شوال سنة خمس ، وبذلك جزم غيره من أهل المغازي)^(١) .

وذكر محمد بن إسحق بأسانيده أسباب هذه الواقعة ، فقال : (كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود ، منهم : سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحبي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهود بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله (ﷺ) خرجوا حتى قدموا على قريش في مكة ، فدعوههم إلى حرب رسول الله (ﷺ) وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً ﴾^(٢))

(فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوههم إليه من حرب رسول الله (ﷺ) فاجتمعوا لذلك واتعدوا له . ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان - من قيس عيلان - فدعوههم إلى حرب رسول الله (ﷺ) وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج-٧ ص ٣٩٣ .

٢ - من سورة النساء : الآيات رقم ٥١ - ٥٥ .

(فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة ، والحارث بن عوف في بني مرة ، ومسر بن ربيعة فيمن تابعه من قومه من أشجع .

(فلما سمع بهم رسول الله (ﷺ) وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله (ﷺ) وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله (ﷺ) وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله (ﷺ) ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابت النابتة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) ويستأذنه في اللحق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتساباً له . فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١) ثم قال تعالى يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبي (ﷺ) : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٢) .

(ولما فرغ النبي (ﷺ) من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسياال من رومة ، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد وخرج رسول الله (ﷺ) والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الأطام .

(وخرج عدو الله حبي بن أخطب النضري حتى أتى كعب ابن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعاهدهم وكان قد وادع رسول الله (ﷺ) على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده فلما سمع بحبي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حبي : ويحك يا كعب ، افتح لي ، قال : ويحك يا حبي إنك امرؤ مشثوم ، وأنى قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً ، قال : ويحك افتح لي

١ - من سورة النور : آية رقم ٦٣

٢ - من سورة النور : آية رقم ٦٣

اكلمك قال : ما أنا بفاعل فلم يزل حتى بكعب يقتله في الذروة والغارب حتى سمح له ، وعلى أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده ، وبريء عما كان بينه وبين رسول الله (ﷺ)

فلما انتهى إلى رسول الله (ﷺ) وإلى المسلمين الخبر ، عظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ضن المؤمنون كل الضن ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط وحتى قال أوس بن قيطي ، أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو - وذلك عن ملأ من رجال قومه - فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة .

(فأقام الرسول (ﷺ) وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم حرب إلا الرميّ بالنيل والحصر .

(فلما اشتد البلاء على الناس ، بعث رسول الله (ﷺ) إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف - وهما قائدا غطفان - فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتابة ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المروضة في ذلك فلما أراد رسول الله (ﷺ) أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عباد فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه ؟ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ؟ أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل (شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما) فقال سعد ابن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئ أو بيعاً . أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله (ﷺ) : فانت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتابة ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

(وأقام رسول الله (ﷺ) وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ؛ لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم . وبينما هم كذلك إذ خرج فوارس من قريش على خيلهم ، منهم عمرو بن عبد ود بن أبي قيس ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن

أبى وهب ، وضرار بن الخطاب بن مرداس . تلبَّسوا للقتال ، ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلمَّا رأوه قالوا : والله إنَّ هذه لمكيده ما كانت العرب تكيدها^(١) .

(ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبي طالب (رضى الله عنه) في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الشجرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم . فلمَّا وقف عمرو بن عبد ود وخيله ، قال : من يبارز ؟ فبرز له على بن أبي طالب ، فقال له : يا عمرو ، إنك قد كنت عاهدت ألاَّ يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له على : فإنِّي أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لا حاجة لى بذلك ، قال : فإنِّي أدعوك إلى النزال ، فقال له : لم يا ابن أختي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال على : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره ، وضرب وجهه ، ثم أقبل على على ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله على (رضى الله عنه) وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

٥٠٦

(ثم إنَّ نعيم بن مسعود بن عامر - من غطفان - أتى رسول الله (ﷺ) فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بم شئت ، فقال رسول الله (ﷺ) : (إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت ، فإنَّ الحرب خدعة) . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان هم نديماً في الجاهلية ، فذكَّروهم بما بينه وبينهم من مودة ، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد (ﷺ) وقريش وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلاً ، فترحلان ، فتخليان ما بينهم وبين الرسول فينكل بهم ، ونصح لهم ألاَّ يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رهناً يكونون بأيديهم حتى لا تتنحى قريش وغطفان عنهم . فقال بنوقريظة : لقد أشرت بالرأى .

(ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فأسرَّ لهم أنَّ بني قريظة ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد ، وأنهم عاملون لاسترضائه وكسب مؤدته بأنَّ يقدموا له من أشراف قريش وغطفان من يضرب أعناقهم . ومن ثم نصح لهم : إن بعثت إليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألاَّ يبعثوا منهم أحداً . وصنع نعيم مع غطفان ما صنع مع قريش ، وحذَّروهم مثل ما حذَّروهم .

١ - قال ابن حجر - في فتح الباري - ج ٣ ص ٣٩٣ - : (وكان الذي أشار بحجر حديث سلمان الفارسي فيما ذكر أصحاب المغازی ، منهم أبو معشر قال : قال سلمان للنبي (ﷺ) : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، فأمر النبي (ﷺ) بحفر الخندق حول المدينة) أ. هـ . ولا غرو في ذلك ، فالإسلام لا يأبى الصالح من الحضارات ما دام ذلك لا يتعارض مع أصل من أصوله .

(وهكذا قام نعيم بن مسعود (رضى الله عنه) بتنفيذ أمر الرسول (ﷺ) حتى أفقد الأحزاب الثقة بينهم وبين بنى قريظة . وخذل الله بينهم ، وبعث عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطرح أبنيهم .

(فلما انتهى إلى رسول الله (ﷺ) ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم ، لينظر ما فعل القوم ليلاً .

(قال ابن إسحق : فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، أرايتم رسول الله (ﷺ) وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي . قال : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يا ابن أخي ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله (ﷺ) بالخندق وصلى رسول الله (ﷺ) هويأ من الليل ، ثم التفت إلينا فقال :

(من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ، ثم يرجع - يشرط له رسول الله (ﷺ) الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟) فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يبق أحد ، دعاني رسول الله (ﷺ) فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ، فقال :

(يا حذيفة ، اذهب فادخل مع القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا) قال : فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جلسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون : ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل . ثم قام إلى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولو لاعهد رسول الله (ﷺ) إلى (أى ألا تحدث شيئاً حتى تأتينا) ثم شئت لقتلته بسهم .

(قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله (ﷺ) وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه . فلما رآني أدخلني إلى رجله ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه . فلما سلم أخبرته الخبر . وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم (١) .

هذه - باختصار - هي وقائع غزوة الخندق كما وردت في روايات السيرة . فلننظر إذن كيف عرض القرآن الكريم ابتلاء المؤمنين في هذه الغزوة :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ^(١) .

لقد بدأ السياق القرآني وصف المعركة بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم ، إذ ردّ عنهم كيد الأحزاب ويهود المدينة الذين ظاهروهم وهي نعمة عظيمة جديرة بالذكر والتسجيل في كتاب الله العزيز .

فقد تكالبت على المسلمين قوى الشر ، وأحدثت جنود الأحزاب بالمدينة ، من فوقها ومن أسفل منها وهمت باستئصال المؤمنين ، ولكن المسلمين توكلوا على الله وحده بعد أن أخذوا بالأسباب : من حفر الخندق وترتيب مبادئ الحرب . وكان الله بصيراً بهم وبعملهم ، ومن ثم منّ عليهم ، وحماهم من عدوان الكافرين والمنافقين وجعل كيدهم في تضليل .

قال أبو السعود : (بعث الله عليهم الملائكة - عليهم السلام - وكانوا ألفاً ، وبعث عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأحضرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها في بعض ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم . فقال طليحة ابن خويلد الأسدي : (أمّا محمد فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاة النجاة) فانهمزوا من غير قتال ^(٢))

وبعد أن أجمل السياق القرآني في الآية الأولى بداية ونهاية وقعة الخندق ، أخذ في تصويرها تصويراً دقيقاً :

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾

قال الأستاذ سيد قطب : (إنها صورة الهول الذي روع المدينة ، والكرب الذي شملها ، والذي لم ينسج منه أحد من أهلها . وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب

١ - من سورة الأحزاب : الآيات رقم ٩ - ١٣

٢ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٤٠٤

عن قلب ، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله ، وسلوكها فى الشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج ومن ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردد فيه (١)

لقد كان ابتلاء المؤمنين فى ذلك الموقف العصيب ابتلاء شديداً فقد ابتلاهم الله سبحانه بأنواع من البلاء : ابتلاهم بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال فعظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً حتى شخّصت الأبصار دهشاً من فرط الهول والحيرة ، واضطربت القلوب ، وجبن البعض ، وجزع أكثرهم لشدة الهول والروع . وكذلك اضطربت المشاعر والحواليج ، وذهبت كل مذهب ، واختلفت التصورات فى شتى القلوب ، وبالتالي نجم النفاق ، وميز الله الخبيث من الطيب .

قال المقرئى يصور حال المسلمين فى الخندق : (ثم وافى المشركون سحراً ، وعَبَّأَ رسول الله (ﷺ) أصحابه ، فقاتلوا يومهم إلى هوى من الليل ، وما يقدر رسول الله (ﷺ) ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم ، وما قدر (ﷺ) على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء فجعل أصحابه يقولون : يا رسول الله ، ماصلينا فيقول : ولا أنا والله ماصليت حتى كشف الله المشركين ، ورجع كل من الفريقين إلى منزله . وقام أسيد ابن حضير فى مائتين على شفير الخندق ، فكرت خيل للمشركين يطلبون غيرةً وعليها خالد بن الوليد فناوشهم ساعة فزرق وحشى الطفيل بن النعمان ابن خنساء الأنصارى السلمى بمزراقه ، فقتله كما قتل حمزة (رضى الله عنه) بأحد وقال رسول الله (ﷺ) يومئذ : (شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله أجوافهم وقبورهم ناراً) (وخرجت طليعتان للمسلمين ليلاً فالتقتا - ولا يشعر بعضهم ببعض ولا يظنون إلا أنهم العدو فكانت بينهم جراحة وقتل ثم نادوا بشعار الإسلام (حم . لا ينصرون) فكف بعضهم عن بعض وجاءوا فقال رسول الله (ﷺ) : جراحكم فى سبيل الله ، ومن قتل منكم فإنه شهيد (٢) .

(ولقد كان أشد الكرب على المسلمين - وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق - ذلك الذى كان يجيئهم من انقضاء بنى قريظة عليهم من خلفهم فلم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق وأن تميل عليهم يهود ، وهم قلة بين هذه الجموع التى جاءت بنية استئصالهم فى معركة حاسمة أخيرة ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة وبين الصفوف :

١ - فى ظلال القرآن ج ٢١ ص ٢٨٣٧

٢ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٤ بتصرف .

(وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

(فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخنق ، فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم ، وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون فالواقع بظاھرہ یرصدھم فی التوهين والتشكيك وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجميل ، وروع نفوسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم المهلهل . فجھروا بحقيقة مايشعرون غير مبقيين ولا متجميلين)^(١)

إنهم غير مبقيين على شيء ولا متجميلين لشيء حتى إن بعضهم هتف بأهل المدينة ليرجعوا إلى بيوتهم بحجة أن إقامتهم عند النبي (ﷺ) في مقام المراقبة لا موضع لها في حين أن بيوتهم من ورائهم معرضة لهجمات العدو وسرقات اللصوص وهي دعوة خبيثة لزعزعة الثقة في النفوس ، وتثبيط الهمم ، وخلق جو من الاضطراب والبلبلة في الصفوف وهم بذلك قد استغلوا فرصة الخطر المحدق والهول المفزع والظنون المختلفة للدس والمكر والتثبيط فأظهروا الجزع الشديد ، وأسأءوا الأدب ، وشاققوا الرسول (ﷺ) فضلوا عن سواء السبيل .

ثم إن فريقاً من هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب قد اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم وأهليهم ، واحتجوا بأن بيوتهم متروكة بلا حماية ، فهي ضائعة سائبة ليس دونها مايجبها من العدو ، فهم يخشون عليها منهم والواقع أنها ليست كما يزعمون ، إنما كان قصدهم من وراء هذا الكذب والاحتيال والمراوغة ، الهرب من الزحف والقتال .

ثم قال الله تعالى ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئلاً . قل لن يتفككم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾^(٢) .

(يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهي الدخول في الكفر ، لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . وهذا ذم لهم في غاية الذم)^(٣) .

وبعد أن كشف الله سبحانه ما تخفيه صدورهم من ضعف العقيدة والجبن ، وخلق قلوبهم من الإيمان . والطاعة ، وصفهم بنقض العهد وخلف الوعد مع الله الذى عاهدوه من قبل هذه الشدة والخوف ، بالثبات وفى الحرب وعدم الفرار من القتال ، ثم لم يوفوا بعهدهم :

﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مستولاً ﴾ .

قال ابن إسحق (فَهُمْ بنو حارثة ، وهم الذين همُّوا أن يفسلوا يوم أحد مع بنى سلمة حين همتا بالفشل يوم أحد ، ثم عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها أبداً ، فذكر لهم الذى أعطوا من أنفسهم)^(١) .

ولعل الذى حملهم على نقض عهدهم مع الله تعالى هو الخوف من الخطر . فَهُمْ قد حاولوا الفرار من ساحة الحرب وميدان القتال ، ابتغاء النجاة والأمان من الفزع . فصحح الله (سبحانه) لهم هذا التصوّر وأخبرهم بأن التولى يوم الزحف لا يؤخر آجالهم ولا يطوّل أعمارهم :

﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قال الأستاذ سيد قطب : (إِنَّ قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها فى الطريق المرسوم وينتهى بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه فى موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر ، ولن ينفع الفرار فى دفع القدر المحتوم عن فارٍ . فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، فى موعده القريب . وكل موعِد فى الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل . ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته ، سواء أراد بهم سوءاً أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصير ، من دون الله ، يحميهم ويمنعهم من قدر الله)^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾^(٣) .

١ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٥٠ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ٢١ ص ٢٨٢٩ .

٣ - من سورة الأحزاب : الآيات رقم ١٨ - ٢٠ .

يبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمنافقين ومرضى القلوب الذين كانوا يشبطون الناس عن رسول الله (ﷺ) ويدعون إخوانهم إلى القعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى . وذلك أنهم قالوا لهم : ما محمد وأصحابه إلا جماعة قليلة يسهل على أبي سفيان وحزبه استئصالهم في لحظات فخلّوهم وشأنهم وقربوا أنفسهم إلينا .

فهذا الصنف من الناس يخرجون مع المؤمنين يوم الزحف يوهمونهم أنهم معهم وهم في الواقع ما خرجوا للقتال إلا رياء وسمعة من غير احتساب ، ثم يسعون في ساعة الهول والكرب والشدة والضيق بالتخذيل في صفوف المسلمين . فهُمْ مكشوفون لعلم الله ومكرهم مكشوف .

ومن سماتهم أنهم بخلاء على المؤمنين بالمعونة والجهد والطاقة والمال ، وفي نفوسهم انقباض على المسلمين في العواطف والمشاعر . إنهم نموذج جبان تشخص أبصارهم في لحظة الشدة والخوف ، وتنطق أوصالهم وجوارحهم بالجبن والارتعاش . وبعد أن يذهب الخوف ويحل محله الأمن والرخاء يؤذون المسلمين بالكلام الشديد ، فهُمْ آنذاك يتكلمون كلاماً فصيحاً عالياً ، ويدّعون لأنفسهم في غير حياء المقامات العالية في الشجاعة والنجدة والاستبسال في القتال . وهم مع ذلك قليلوا الخير ، فقد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير وسلطة اللسان على أهل الخير .

والعلة في ذلك كله هي أنهم لم يؤمنوا إيماناً خالصاً ، بل هم منافقون يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ، فأحبط الله عز وجل أعمالهم ، وأظهر بطلان جهادهم ، لأنه لم يكن في إيمان ، وكان ذلك الإحباط لأعمالهم هيناً على الله ، وليس هنالك عسير عليه سبحانه ، وكان أمر الله مفعولاً .

ومن صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف : (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) الآية .

قال الشوكاني : (يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع ، وإن يأت الأحزاب مرة أخرى بعد هذه المرة يتمنون أنهم في بادية الأعراب ، لما حل بهم من الرهبة يسألون عن أخباركم وما جرى لكم كل قادم عليهم من جهتكم ، أو يسألون بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وذلك بمعنى أنهم يتمنون أنهم بعيدون عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم وضعف نياتهم . ولو كانوا معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا . خوفاً من العار وحمية على الديار) (١) .

(ذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في الصفوف وتلك كانت صورتهم الرديئة . ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحول الناس جميعاً إلى هذه الصورة الرديئة . . كانت هنالك صورة وضيئة في وسط الظلام مطمئنة في وسط الزلزال ، واثقة بالله راضية بقضاء الله ، مستيقنة من نصر الله ، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب . ويبدأ السياق بهذه الصورة الوضيئة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)^(١) .

(وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد مثابة الأمان للمسلمين ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان وإن دراسة موقفه (صلى الله عليه وسلم) في هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم ، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وتطلب نفسه القدوة الطيبة ويذكر الله ولا ييسئ)^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيماناً وتسليماً ﴾^(٣)

هذا النص الكريم بيان لما وقع من المؤمنين المخلصين عند مشاهدتهم جنود الأحزاب التي أحاطت بهم . لقد نزل هنالك الخطب ، ودهم البلاء ، واشتد الكرب وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . ولكنهم كانوا مع ذلك الهول الضخم والفرع العنيف على صلة بالله سبحانه وتعالى . ومن ثم اتخذوا من إحساسهم بالابتلاء ، وشعورهم بالزلزلة سبباً لانتظار النصر ذلك أنهم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ، وصدقوا بقوله سبحانه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾^(٤) .

لقد اتخذوا من البلاء بشيراً بالنصر فاطمأنوا وثبتوا وصبروا ، وقالوا : ظهر صدق خبر الله ورسوله . وما زادهم ذلك الخطر والشدة والضيق والكرب إلا إيماناً بالله تعالى ، وانقياداً لأوامره وطاعة لرسوله (صلى الله عليه وسلم) .

١ - من سورة الأحزاب : آية رقم ٢١ .

٢ - في ظلال القرآن ج ٢١ ص ٢٨٤١ .

٣ - من سورة الأحزاب : آية رقم ٢٢ .

٤ - من سورة البقرة : آية رقم ٢١٤ .

ثم قال الله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ (١) .

إن الله عز وجل لما تحدث عن المنافقين بأنهم عاهدوا الله من قبل : لا يولون الأدبار ، ثم نقضوا عهدهم مع الله ولم يوفوا به ، وصف هنا - في مقابل ذلك الصنف الغادر - المؤمنين أنهم استمروا على العهد والميثاق ، وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه .

قال الشوكاني : (ومعنى الآية : أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا ، وذلك يوم أحد ، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر . ومنهم من ينتظر قضاء نحبه حتى يحضر أجله ، كعثمان بن عفان وطلحة والزبير وأمثالهم ، فإنهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله من الثبات مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والقتال لعدوه ، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك فضل الشهادة ، وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم ، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً ، أما الذين قضوا نحبه فظاهر ، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبه فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدلوا) (٢)

ثم عقب الله تعالى علي ما كان من الأحداث والوقائع ، ببيان حكمة الابتلاء ، وعاقبة نقض المنافقين لعهدهم مع الله ووفاء المؤمنين المخلصين ، ورد الأمر في هذا كله لمشيئته سبحانه ، فقال ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

قال أبو السعود : (كأنه قيل : وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولاً وفعلاً ، ويعذب المنافقين بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال الحكيمة إن شاء تعذيبهم أو يتوب عليهم إن تابوا) (٣) .

ثم ختم الله سبحانه الحديث عن غزوة الخندق ببيان عاقبتها التي جاءت مطابقة لحسن ظن المؤمنين برهم وتصديقهم بما وعدهم الله ورسوله من البلاء الذي يعقبه النصر ، فقال : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ (٤) .

١ - من سورة الأحزاب : آية ٢٣ - ٢٤ .

٢ - فتح القدير ج ٤ ص ٢٧٢ .

٣ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٤١٢ .

٤ - من سورة الأحزاب آية رقم ٢٥ .

لقد هزم الله وحده الأحزاب وأجلاهم عن المدينة فرجعوا خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم . ولم يشف الله صدورهم ، ولم ينالوا خيراً مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم . وقد كان زمام المعركة منذ البداية إلى النهاية في يد الله تعالى يصرفها كيف يشاء . فهو سبحانه اختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب . فلما ظهر أمر المؤمنين بالفعل ، وظهرت حقيقة توكلهم على الله ، جاءهم نصر الله ، ولم يحتاجون إلى منازل الكفار ومبارزتهم ، بل كفاهم الله القتال بما أرسله على الأحزاب من الريح والجنود الإلهية . وهكذا نصر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم وأعز جنده ، وكبت الأحزاب والمهاجمين ، ورد كيدهم عن المؤمنين ، وبالتالي انكشف ضلال المنافقين ومرضى القلوب ، وخطأ تصوراتهم للموقف حيث أحبط الله كيدهم هم الآخرين ، وجعل العاقبة للمتقين .

المبحث الثاني

صور من ابتلاء المؤمنين بمكر المنافقين

كان على عهد رسول الله (ﷺ) طائفة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب . وقد استطاعت هذه الفئة من الناس أن تظهر الإسلام وتبطن الكفر وتتقن كتم نفاقها عن المسلمين . ولهذا كان لهم مواقف شتى في التآمر على المؤمنين والكيد لهم والمكر بهم في الخفاء . إلا أنهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدث بالنبى (ﷺ) والمسلمين ، كانوا يقفون مواقف علنية فيها كيد ومكر ودس وعليها طابع من النفاق ظاهر ، كما رأينا ذلك واضحاً في غزوة (أحد) و (الخنديق) في المبحث السابق .

وقد احتوت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن هؤلاء المنافقين صوراً كثيرة من مواقفهم المتنوعة في الأذى والكيد ، والسخية بالله ورسوله وآياته ، والتناجى بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، والتشبيط عن الجهاد والتخادع فيه وإثارة الفتن والأحقاد ، وإشاعة الفاحشة ، والإرجاف بين المسلمين بما يثير قسنتهم ويزعزع الثقة في نفوسهم وما تضمنته الآيات الكريمة زيادة على ذلك سوء أخلاقهم ، وتعرضهم لنساء المسلمين بالأذى والمكر وتضامنهم في النهي عن المعروف ، والأمر بالمنكر ومخالفة أوامر النبى (ﷺ) وجهرهم بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم وعقدهم الصلات الوثيقة باليهود الذين هم أشد الناس عداوة للمؤمنين ، وتأكيدهم لهم أنهم معهم كلما خلوا إليهم وأن تظاهروهم بالإسلام ليس إلا استهزاء وخداعاً للمسلمين . هذا إلى غير ذلك من وصف أحوالهم ومواقفهم الكيدية وتآمرهم ضد النبى والإسلام والمسلمين .

وفي هذا المبحث سنقتصر على عرض نماذج من ابتلاء المؤمنين بمكر هؤلاء المنافقين ، وهي كما يلي :

- أ - حديث الإفك وقصته .
 - ب - تعرض المنافقين لنساء المسلمين بالأذى .
 - ج - زعيم المنافقين يدعو إلى مواقف كيدية للمسلمين .
- حديث الإفك وقصته :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ

بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتكم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله غفور رحيم . يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم . ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم . إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴿١﴾ .

موضوع هذه الآيات الكريمة هو ما عُرِفَ في السيرة النبوية بحديث الإفك عن زوجة النبي ﷺ عائشة (رضى الله عنها) حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب والفرية التي غار الله سبحانه لها ولسوله ، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات ، صيانه لعرض رسول الله ﷺ . وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة .

روى البخارى عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : كان رسول الله (ﷺ) إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله (ﷺ) معه . فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله (ﷺ) بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجى وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله (ﷺ) من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين أذن ليلة بالرحيل فقممت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع ، فالتمست عقدى وحسبى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى الذى كنت ركبته وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ، إنما يأكلن العلقمة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة

السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأمت منزل الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيني فمنت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأدلى ، فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفنى حين رأتى ، وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته فوطىء ، على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهرية ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله (ﷺ) اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل على رسول الله (ﷺ) فيسلم ثم يقول كيف تيكم ؟ ثم ينصرف ، فذاك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نقهت ، فخرجت معى أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبى رهم بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة - فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى وقد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بدرًا ؟ قالت : أى هتاه ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً على مرضى . فلما رجعت إلى بيتى ودخل على رسول الله (ﷺ) سلم ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ - قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - فأذن لى رسول الله (ﷺ) فجئت أبوى ، فقلت لأمى : يا أمتاه ، ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت : سبحان الله ، أولقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي . فدعا رسول الله (ﷺ) على ابن أبى طالب وأسامة بن زيد (رضى الله عنهما) حين استلبث الوحى يستشيرها فى فراق أهله . فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله (ﷺ) بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال : يا رسول الله ، أهلك ، وما نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله (ﷺ) بريدة فقال :

أى بريرة ، هل رأيت من شيء يربيك ؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق ، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأق الداجن فتأكله . فقام رسول الله (ﷺ) فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو على المنبر : يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً .

وما كان يدخل على أهلى إلا معي . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله أنا أعذرک منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . فقام سعد بن عباد - وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً . ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد - كذبت لعمر الله . لا تقتله ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد ابن عباد : كذبت لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتساور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله (ﷺ) يخفضهم حتى سكنوا وسكت . فمكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكنحل بنوم . فأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكنحل بنوم ولا يرقأ لى دمع يظنان أن البكاء فالتى كبدى . فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكي فاستأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله (ﷺ) فسلم ثم جلس ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأن فتشهد رسول الله (ﷺ) حين جلس ثم قال : أما بعد ، يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيروك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله (ﷺ) مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب رسول الله (ﷺ) فيما قال ، قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله (ﷺ) فقلت لأمى : أجيبى رسول الله (ﷺ) . قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله (ﷺ) فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن - أنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقوننى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى بريئة - لتصدقننى . والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبى يوسف ، قال : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ولشأنى فى نفسى كان

أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله (ﷺ) في النوم رؤيا يبرؤني الله بها . فوالله ما رام رسول الله (ﷺ) ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه . فلما سرى عن رسول الله (ﷺ) سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك . فقالت أمي : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل . وأنزل الله : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم) العشر الآيات كلها . فلما أنزل الله في برائي قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه وفقره ، والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال . فأنزل الله : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) قال أبو بكر : بلي والله إنى أحب أن يغفر الله لي . فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . وكان رسول الله (ﷺ) يسأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يارسول الله ، أحمي سمعى وبصرى ما علمت إلا خيراً قالت عائشة : وهي التي كانت تسامني من أزواج رسول الله (ﷺ) فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك (١)

هذا هو حديث الإفك وقصته الذي نزلت فيه تلك الآيات الكريمة . وهو حادث تعرض فيه المؤمنون لأكبر محنة وأشد ابتلاء ، فقد عاشوا شهراً كاملاً محنة الثقة في طهارة بيت الرسول (ﷺ) فكانت فترة إليمه في حياة النبي (ﷺ) عاني فيها القلق والألام الهائلة هو وزوجه عائشة وأبو بكر الصديق وزوجه ، وصفوان بن المعطل (رضي الله عنهم) .

قال الأستاذ سيد قطب : (ولو كان حديث الأفك رمية لعائشة وحدها ، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها . . من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله ، وما يعلمها إلا الله :

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) .

(فهم ليسوا فرداً ولا أفراداً إنما هم (عصابة) متجمعه ذات هدف واحد ، ولم يكن عبد الله بن أبي بن سلول وحده هو الذى أطلق ذلك الإفك إنما هو الذى تولى معظمه ، وهو يمثل عصابة اليهود أو المنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة فتواروا وراء ستار الأسلام ليكدوا للإسلام خفية . وكان حديث الإفك احدى مكائدهم القتالة . ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض فى حديث الإفك كمحنة بنت جحش وحسان بن ثابت ومسطح بن أثانة . أما أصل التدبير فكان عند تلك العصابة وعلى رأسها ابن سلول ، الحذر الماكر الذى لم يظهر بشخصه فى المعركة ، ولم يقل علانية ما يؤخذ به ، فيقاد إلى الحد . إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم ، ولا يشهدون عليه . وكان التدبير من المهارة بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهراً كاملاً ، وأن تتداوله اللسان فى أظهر بيئة وأتقاه :

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث وعمق جذوره ، وما وراءه من عصابة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللثيم .

(ثم سارع فطمأن المسلمين من عاقبة هذا الكيد : ﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ .. خير . فهو يكشف عن الكائدين للإسلام فى شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته . وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله . ويبين مدى الأخطار التى تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . فهى عندئذ لا تقف عند حد . إنما تمضى صعداً إلى أشرف المقامات ، وتتطاول إلى أعلى الهامات ، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تخرج وكل حياء . وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة - بهذه المناسبة - عن المنهج القويم فى مواجهة مثل هذا الأمر العظيم . أمّا الآلام التى عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته والجماعة المسلمة كلها ، فهى ثمن التجربة ، وضريبة الابتلاء ، الواجبة الأداء !

(أمّا الذين خاضوا فى الإفك ، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة : (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) .. ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله . وبش ما اكتسبوه ، فهو إثم يعاقبون عليه فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة : (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم .

(والذى تولى كبره ، وقاد حملته ، واضطلع منه بالنصيب الأوفى ، كان هو عبد الله بن أبي بن سلول . رأس النفاق ، وحامل لواء الكيد . ولقد عرف كيف يختار مقتلاً ، لو لا أن الله كان من ورائه محيطاً ، وكان لدينه حافظاً ، ولرسوله عاصماً ، وللجماعة المسلمة راعياً .

(ولقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك ، وخاضها الإسلام . معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصراً ، كاظماً لآلامه الكبار ، محتفظاً بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره . فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله . والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته . والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه .

(ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ، ولو عاد إلى منطق الفطرة هدها . والقرآن الكريم يوجّه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها : ﴿ لو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ﴾ .

(كان هذا هو الأولى . . أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً . وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة . . وامرأة نبهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم . فظن الخير بهما أولى . فإنّ ما لا يليق بهم ، لا يليق بزواج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيراً^(١) .

ثم وصف الله تعالى الخطوة الثانية في المنهج الذي يفرضه لمواجهة الأمور والحكم عليها فقال :

﴿ لو لا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

إنه كان يجب على المؤمنين والمؤمنات حينما سمعوا ما قال أهل الإفك في عائشه (رضى الله عنها) ألا يغفلوا عما في تلك المقالة من كذب وبهتان ظاهر وكيد بين ، وكان يجب أن يعلنوا هذا في الحال وأن يقولوا : هلاً جاء هؤلاء الخائضون الذين رموا أم المؤمنين عائشة بالبهتان بأربعة شهداء يشهدون على ما ذكره وما رموها به ؟ فحين لم يقيموا بيّنة على حقيقة ما رموها به ، فهُم كاذبون عند الله تعالى فيما جاءوا به من الإفك .

ثم قال تعالى : ﴿ ولو لا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتكم فيه عذاب عظيم ﴾ .

قال الفخر الرازي : (في المعنى وجهان : الأول - ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ، وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتكم فيه من حديث الإفك . والثاني - ولولا فضل

الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والآخرة معاً فيكون فيه تقديم وتأخير ، والخطاب للقدفة ، وهو قول مقاتل ، وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخير العذاب ، وحكمه بقبول التوبة لمن تاب (١) .

ولقد تدارك فضل الله تعالى المؤمنين ، ورحمته شملت المخطئين منهم . أما من خاض في الإفك من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه ، فلعل أولئك ليسوا مرادين في هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يوازن هذا أو يرجح عليه . ثم قال تعالى : ﴿ إذ تلقونه بالسلك وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ .

إنهم كانوا يتناولون أعظم الأمور وأخطرها بخفة واستهتار وبلا مبالاة ولا وعى . ومن ثم وصفهم الله عز وجل - في هذه الآية الكريمة - بارتكاب ثلاثة آثام ، وعلّق من العذاب الأليم بها ، وهي كما يلي :

أ - تلقى الإفك بالسلك من المخترعين فيقبلونه ويرويه بعضهم عن بعض . قال الكلبي : (وذلك أن الرجل منهم يلقي الرجل فيقول : بلغني كذا وكذا ويتلقونه تلقياً) (٢) حتى شاع واشتهر ، وهم بهذا قد سعوا في إشاعة الفاحشة على أم المؤمنين ، وذلك من العظائم .

ب - أنهم كانوا يقولون قولاً مختصاً بأفواههم من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في قلوبهم ، حيث كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به . وقد نهي الله تعالى عن الإخبار عما لا يعلم صدقه ، فقال : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ (٣) .

ج - أنهم كانوا يستصغرون حديث الإفك ويخوضون فيه ، وهو عظيم من العظائم عند الله عز وجل .

قال ابن كثير : (قوله تعالى : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ أى تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهى زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر

١ - التفسير الكبير ج-٢٣ ص ١٧٩ .

٢ - فتح القدير ج٤ ص ١٣ .

٣ - من سورة الإسراء : آية رقم ٣٦ .

على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في سيِّدة نساء الأنبياء وزوجة سيِّد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة ؟ (١) .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) وفي رواية : (ما يتبين ما فيها يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) (٢) .

ثم يتَّجه السياق لجميع المؤمنين يبيِّن لهم واجبهم إزاء حادث الإفك ، وأنه ما كان ينبغي أن يتركوا المفتريين مخوضون في عرض رسول الله ﷺ :

(ولو لا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلَّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) .

لقد كان ينبغي أن يبادر المؤمنون بتكذيب الخائضين في حديث الإفك بمجرد سماعه ، وأن يقولوا : ما محل لنا أن نتكلَّم بهذا الحديث القبيح الذي لا يليق في شأن أم المؤمنين (رضي الله عنها) وما ينبغي لنا أن نتفوه به ، بل نتوجَّه إليك يارب ، ننزهك عن أن تدع نبيك لمثل هذا ، ونبرأ إليك مما جاءت به هذه العصبة من الكذب العظيم .

ثم حذَّر الله تعالى الذين خاضوا في الإفك من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم ، فقال :

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبيِّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

لقد ذكَّره الله تعالى ، ونهاهم بالآيات القرآنية التي بها يعرفون عظم هذا الذنب ، وبشاعة هذا العمل ، وما يترتب عليه من آثار ، وما فيه من العذاب في الدنيا والآخرة ؛ لثلا يعودوا إلى مثل هذا القذف مدة حياتهم ، فإنَّ الإيمان يقتضي عدم الوقوع في مثله أبداً ما داموا أحياء مكلفين .

﴿ ويبيِّن الله لكم الآيات ﴾ وهكذا يفصِّل الله لهم حججه عليهم في الأمر والنهي ؛ ليعملوا بها ، وليتعتظوا ويتأدبوا بأداب الله ، ويتزجروا عن الوقوع في محارمه . فالله سبحانه وتعالى عليم بهم وبأفعالهم لا يخفى عليه شيء ، حكيم في تدبير خلقه ، ووضع النظم والحدود التي يصلح بها أمرهم .

والى هنا نكون قد وقفنا على ابتلاء المؤمنين في (حديث الإفك) وما كان وراءه من كيد المنافقين ، وخاصة تلك الفئة التي كانت تتعمَّد إشاعة الفاحشة وأخبار السوء عن المسلمين

١- تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٢٧٤ .

٢- صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ١١٧ .

المخلصين ، وما وقع في الحادث من خطايا وأخطاء من المسلمين ، وكيف عالج الله العليم الحكيم الموقف بأسلوب القرآن الكريم .
تعرض المنافقين لنساء المسلمين بالأذى :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُوْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِنَّمَا مَبْنًى . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً . سَتَةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١) .

لقد تضمّنت فواتح هذه الآيات الكريمة إشارات إلى مواقف كيدية من الأشرار المنحرفين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض ، فيها أذى وسوء أدب إزاء النبي ﷺ وأهله ، والمؤمنين والمؤمنات عامة ؛ وإلى ما كانوا يسعون فيه من نشر قالة السوء عنهم ، وتدبير المؤامرات لهم ، وإشاعة النقائص والعيوب ضدهم كذباً وبهتاناً وبما هم براء منه .

قال أبو السعود عند تفسير هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِنَّمَا مَبْنًى ﴾ : إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً (رضي الله عنه) ويسمعونه ما لا خير فيه . وقيل : في أهل الإفك . وقال الضحاك والكلبي : في زناة يشعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهم . وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضاً جهلاً أو تجاهلاً لاتحاد الكل في الزنى واللباس . والظاهر عمومها لكل ما ذكر ، ولما سيأتى من أراجيف المرجفين (٢) .

وبعد أن مضى السياق في تحذير الذين يؤذون النبي ﷺ في نفسه أو في أهله ، وفي تفضيع الفعلة التي يقدمون عليها ويشاعتها وقبحها وشناعتها ، وبعد ما بين الله تعالى سوء حال المؤذنين للمؤمنين والمؤمنات ، ووصفهم بالإثم والبهتان ، زجراً لهم عن الإيذاء ، أمر سبحانه وتعالى النبي ﷺ أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة بإرخاء جلابيبهن عند الخروج لقضاء الحاجة ؛ حتى يتميز بهذا الزى السابغ الساتر فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن ذوو السيرة السيئة من المنافقين والمرجفين والفساق بأذى ولا ريبة :

١ - من سورة الأحزاب : الآيات من ٥٧ إلى ٦٢ .

٢ - تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٤٣٣ .

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

قال السدى فى تفسير هذه الآية : (كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طريق المدينة فيعرضون للنساء . وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن . فإذا رأوا المرأة عليها جلباب ، قالوا : هذه حرة فكفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا : هذه أمة فوثبوا عليها) (١) .

(وفى النهاية يأتى تهديد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزيلة فى صفوف الجماعة المسلمة . . تهديدهم القوى الحاسم ، بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله ، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، والجماعة المسلمة كلها ، أن يسلط الله عليهم نبيه ، كما سلطه على اليهود من قبل ، فيظهر منهم جو المدينة ، ويطاردتهم من الأرض ؛ ويبيح دمهم ، فحيثما وجدوا أخذوا وقتلوا . كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبى ﷺ وغير اليهود من المفسدين فى الأرض فى القرون الخالية) (٢) .

﴿ لئن لم يتنه المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنتغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .

زعيم المنافقين يدعو إلى مواقف كيدية للمسلمين :

قال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأوا رعوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (٣) .

(لقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى بن سلول) (٤) .

وقد فصل ابن إسحق هذا القول فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق التى كانت فى شعبان سنة ست ، فقال : لما سمع رسول الله ﷺ بأن بنى المصطلق يجمعون له ، خرج إليهم حتى

١ - تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٥١٨ .

٢ - فى ظلال القرآن ج ٢٢ ص ٢٨٨ .

٣ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٣٦٩ .

٤ - من سورة المنافقين : الآيات رقم ٨ - ٥ .

لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) فتزاحف الناس واقتتلوا ، فهزم الله بنى المصطلق ، وقتل من قتل منهم . فبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء - بعد الغزوة - وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث . فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله . فقال له رسول الله ﷺ : (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل) . وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس . وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيدا بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل . حديباً على ابن أبي بن سلول ، ودفاعاً عنه .

(فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحيأه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ، ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله ﷺ : (أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟) قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : (عبد الله بن أبي) قال : وما قال ؟ قال : (زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) قال : فأنت يا رسول الله ، والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الدليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكاً !

(ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا من الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي .

(ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، وفي ابن أبي ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : (هذا الذي أوفى الله بأذنيه) وبلغ عبد الله ابن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه . فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فمروني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : (بل نترقب به ونحسن صحبته ما بقي معنا) .

(وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : (كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله ، لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته) . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري)^(١) .

(وذكر عكرمة وابن زيد وغيرها أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك ، فقال له : مالك ؟ ويلك ! فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل . فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير في ساقية ، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله ، لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن)^(٢) .

ومن هذه الأحداث يتبين لنا أن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول هو الذي كان يدعو إلى مواقف كيدية للمسلمين . ولعل مما كان يدفعه إلى ذلك ما في نفسه من البغض والمكر للمسلمين ، ومن اللؤم والخبث والجبن وانطماس القلب والبصيرة . فقد كان يرى ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فيكره ذلك ويتمنى زوالها . ومن ثم يطلق بينهم الفتن لتحرق تلك العلاقات الطيبة الحميدة .

وقد ذكر الله تعالى طرفاً من فسقه وقبائحه فقال : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ .

١ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٥ بتصرف .

٢ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٣٧٢ .

وهكذا تناول عبد الله بن أبي بن سلول وجهه بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم : ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ (١) إنها كلمة خبيثة ووسيلة خسيسة وخطة لثيمة ، وتوصية كيدية من زعيم المنافقين لقومه من الأنصار بعدم الإنفاق على المحتاجين ممن هم حول رسول الله ﷺ ، حتى يتفرقوا عنه تحت وطأة الضيق والجوع ، وبالتالي تضعف حركته وشأنه .

ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال : ﴿ والله خزائن السموات والأرض ﴾ .

قال أبو السعود : (هذا رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انقراض الفقراء من حوله ﷺ ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء . ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ؛ لجهلهم بالله تعالى وبشئونه ؛ ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون) (٢) .

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ .

(القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، وعنى بالأعز نفسه ومن معه ، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه ، ومراده بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة . وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم ، وهو عبد الله بن أبي ، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون . ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة ، فقال : ﴿ والله العزة لرسوله وللمؤمنين ﴾ أى القوة والغلبة لله وحده ولن أفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لا لغيرهم . (٣) .

ولكن المنافقين لانهماكهم فى الكفر والنفاق ، ولغلوهم فى الفسق والفجور ، ولغفلتهم وقلة فقههم ولفرط جهلهم ومزيد حيرتهم لا يعلمون بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضرر فيجتنبونه ، بل هم دائماً يكيدون للإسلام والمسلمين ، وهم فى طغيانهم يعمهون .

أما زعيم المنافقين فقد سقط فى يديه ، وباء نذره بإخراج المهاجرين مع النبى ﷺ من المدينة بالفشل . وقد رأينا كيف حقق ابنه عبد الله الرجل المؤمن المخلص ما حكاه الله عنه : ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ وكيف لم يدخلها الأذل عبد الله بن أبي إلا بإذن الأعز رسول الله ﷺ .

١ - يعنى بذلك المهاجرين الذين أصبح أكثرهم فقراء محتاجين بتركهم أموالهم فى مكة على ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ الآية رقم ٨ من سورة الحشر .

٢ - تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٣٣ .

٣ - فتح القدير ج ٥ ص ٣٣٢ .

الخاتمة

وبما أننى قد انتهيت من دراسة : (الابتلاء وأثره فى حياة المؤمنين كما جاء فى القرآن الكريم) فإنه يحق لى أن أبين فيما يلى النتائج المهمة المستفادة من هذا البحث :
لقد جعلت هذه الرسالة مكونة من : مقدمة ، وتمهيد ، وباين ، وخاتمة .
فالمقدمة : تكلمت فيها بإيجاز عن موضوع الرسالة ، والدوافع التى حفزتنى إلى اختياره ،
والخطة التى سرت عليها فى بحثه ودراسته .

وأما التمهيد فقد جاء فى أربعة مباحث :

ذكرت فى المبحث الأول : تعريف البلاء والابتلاء والفتنة . وحيث أن هناك أكثر من تعريف فقد ذكرت أبرزها ، وكنت أشرح التعريف إذا كان يحتاج إلى شرح وبيان وضرب أمثلة عليه . وإذا دعت الحاجة لذكر أكثر من تعريف ذكرت ذلك ، وأجريت موازنة بينها ، واستخلصت النتيجة .

وفى المبحث الثانى : بينت أن ابتلاء المؤمنين سنة ربانية جارية ، ومهدت لذلك بمقدمة ، تكلمت فيها عن الابتلاء وسنة الله تعالى فى الحياة عامة وفى الناس كافة . ثم سلكت مسلكين فى معالجة هذا الموضوع ، فتكلمت أولاً - عن سنة الله تعالى فى ابتلاء الأنبياء ، وأثبت بالنصوص القرآنية أن سنة الله سبحانه وتعالى قد جرت بأن يكون لهم أعداء - هم شياطين الإنس والجن - يمحرون بهم ، ويكيدون لهم ، ويتربصون بهم الدوائر ؛ وذلك لئتم الابتلاء ، وينفذ القدر ، وتتحقق الحكمة ، ويمضى كل فيما هو ميسر له ، وينال كل جزاءه العادل فى يوم الفصل . ثم تحدثت عن سنة الله تعالى فى ابتلاء المؤمنين - أتباع الأنبياء - ببعض ضروب الخوف من الأعداء ، وبعض المصائب المعتادة فى المعاش ، كالجوع ونقص الثمار . وفى خلال ذلك وضحت التوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة التى تحمل الدعوة وتهضر بتكاليفها ، والتى تحاول تحقيق منهج الله تعالى فى الأرض . ثم فى ثنايا ذلك كله تطرقت لأثر البلاء فى تربية النفوس ، كما بينت بعض جوانب الحكمة فى ابتلاء المؤمنين .

أما المبحث الثالث : فقد وضحت فيه أن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره ، وأن زاده التقوى والصبر . وبينت أن الجنة سلعة غالية ، ولا بد لها من ثمن ، وقد دفعه الأنبياء والذين آمنوا معهم منذ فجر البشرية ، فلا بد أن يدفعه المؤمنون - من بعدهم - ليكونوا أهلاً لدخول الجنة . فلا يكفى الإنسان أن يقوها كلمة باللسان : (آمنت) فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدى

تكاليف الإيمان وأن ينتهى إلى الجنة والرضوان ! إنما هى التجربة الواقعية والامتحان العملى ، إنما هو الجهاد فى سبيل الله وملاقاة البلاء والمحنة والابتلاء . ثم الصبر على تكاليف الجهاد ومعاناة البلاء . ثم الصبر على تكاليف الدعوة إلى الله تعالى ، التكاليف المستمرة المتنوعة التى لا تقف عند الجهاد فى الميدان ، كالصبر على معاناة الاستقامة على أفق الإيمان ، والاستقرار على مقتضياته فى الشعور والسلوك ، والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات ، والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق المحفوف بالمكاره ، طريق الجنة التى لا تنال بكلمات اللسان ولا بالأمانى التى لا تثبت عند البلاء والمحن والشدائد .

ثم تحدثت فى المبحث الرابع : عن تحذير الله تعالى للمؤمنين من فتنه متاع الحياة الدنيا وزينتها . فبيّنت - أولاً - أن الله عز وجل زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ؛ وذلك لحفظ الحياة ونموها وإطرادها، ولتكون هذه الشهوات موضع ابتلاء واختبار وامتحان للناس ؛ ليعلم الله تعالى من يطيعه ممن يعصيه ؛ ولهذا وجّه الله سبحانه المؤمنين إلى ضبط نفوسهم عن الاسترسال فى هذه الشهوات المحببة المزينة ، وعن الركون إليها ، والانهماك فيها ؛ حتى لا ينحرفوا عن الصراط المستقيم .

ثانياً - تكلمت عن تحذير الله تعالى للمؤمنين من فتنه آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم والتجارة التى يخشون كسادها والمساكن المريحة . فوضحت أن هذه الزينة والمطامع واللذائذ ، وتلك الوشائج قد تقعد الناس - خوفاً وبخلاً - عن الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحبههم ، ولعلها قد تنأى بهم عن حبّ الله ورسوله وحبّ الجهاد فى سبيله ؛ ولهذا نبّه الله سبحانه وتعالى المؤمنين ليكونوا فى حذر ويقظة تامة من فتنه متاع الحياة الدنيا وزينتها . ثم أخبرهم بأنه من تلهى بالدنيا ، وشغلته عن أداء فرائض الله ، فقد باء بغضب من ربه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ثالثاً - تحدثت عن الابتلاء بالمال ، وفصلت القول فيه ، وضربت أمثلة عليه ، وذكرت من ضمنها قصة ثعلبة ، واستخلصت منها دروساً وعبراً . وفى خلالها تطرقت للابتلاء بالشر والخير ، ووضحت أن الابتلاء بالخير هو أشد وطأة من الابتلاء بالشر . ثم أشرت إلى أن اليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر ، والصلة بالله فى الحالىن هى وحدها الضمان .

وأما الباب الأول : فقد خصّصته لدراسة ابتلاء الأولين . فعرضت فيه نماذج من ابتلائهم ، وذلك بعد أن قسّمته إلى خمسة فصول :

تناولت بالدراسة في الفصل الأول : الابتلاء بالطاعة . وقسمت هذا الفصل إلى خمسة مباحث :

تكلمت في المبحث الأول : عن ابتلاء آدم (عليه السلام) . فوضّحت أن الله تعالى أسكن آدم وزوجه الجنة ، وأباح لهما كلّ شيء فيها إلا شجرة واحدة . ولكن إبليس ما إن علم بتلك الشجرة المحرّمة ، حتى طفق يكيد لهما ، حتى أنزلهما من طاعة الله إلى معصيته . فأمرهما الله بالهبوط من الجنة إلى الأرض محلّ البلاء ودار التكليف .

ثم تناولت بالدراسة في المبحث الثاني : ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بتكاليف خاصة . فأشرت إلى أن الله ابتلاه بكلمات ، فوقّ بها ؛ طاعة لله سبحانه وتعالى . فكان جزاؤه أن جعله الله إماماً للناس .

ثم تكلمت عن ابتلائه بذبح ابنه . فوضّحت أنه عرض الأمر على إسماعيل (عليه السلام) فلبّى طائعاً . ولما شرعا (عليهما السلام) في أداء هذا التكليف ، كان الابتلاء قد وصل غايته ، واجتاز الخليل وابنه الامتحان . ومن ثم فداء الله بذبح عظيم .

وأما المبحث الثالث : فقد عرضت فيه صوراً من ابتلاء بني إسرائيل بالطاعة :

فتكلمت - أولاً - عن فتنه قوم موسى بالعجل . وبيّنت أنه لشدة البلاء بذلك الصنم ، خالف غالبية القوم أمر نبيهم هرون (عليه السلام) وهموا بقتله ، وأصروا على عبادة الوثن . ولما رجع إليهم موسى (عليه السلام) لم يقرهم على عبادة الصنم . فسقط في أيديهم . ثم تابوا إلى بارئهم ، وقتلوا أنفسهم كما بين لهم موسى (عليه السلام) .

ثم تحدثت عن قصة بقرة بني إسرائيل . فوضّحت أن الله تعالى كلفهم بذبح بقرة . ولكنهم كما صوّرتهم الآيات القرآنية الخاصة بهذه القصة ، كانوا يتسمون بالتعنت وعدم الالتزام بالطاعة .

ثم تكلمت عن ابتلاء بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة . فبيّنت أن الله تعالى أمرهم بدخولها وكتب عليهم القتال . ولكنهم تخلّوا عن الجهاد ، وأصروا على مخالفة أمر الله . آنذاك حرّمها الله عليهم مدة أربعين سنة . ثم لما انتهت تلك المدة ، أذن لهم بدخولها ، وأمرهم بأن يدخلوا الباب سجّداً وأن يقولوا : حطة . ولكنّ الظالمين منهم خالفوا أوامر الله ، فأنزل عليهم عذاباً من السماء .

ثم تحدثت عن قصة أصحاب السبت . فوضّحت أن الله تعالى جعل لبني إسرائيل يوم السبت عيداً للعبادة . ثم ابتلاهم بوجود الحيتان في ذلك اليوم دون سواه . فتجاوز فريق منهم

حدود الله واعتدوا في السبت . هنالك تصدَّى لهم فريق آخر ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر . ولكنهم أصروا على معصيتهم . آنذاك حلَّ ، العذاب الأليم بالظالمين .

ثم تناولت بالدراسة في المبحث الرابع : ابتلاء قوم طالوت . فبيّنت أنهم لما خرجوا معه للجهاد في سبيل الله ، نهاهم عن شرب الماء من نهر الأردن ، فلم يلتزموا له بالطاعة . لم لأ رأوا كثرة جنود جالوت تحاذل أكثرهم ولم يبق فيهم إلا فئة قليلة ، خاض بها طالوت المعركة فتلقت النصر من رب العالمين ، واستحققت العز والتمكين .

وأما المبحث الخامس : فقد تحدثت فيه عن ابتلاء يونس (عليه السلام) . فبيّنت أنه لم يصبر على إيذاء قومه وإعراضهم . فخرج من بين أظهرهم بغير إذن صريح له من الله تعالى . ولذلك ابتلاه الله بالحبس في بطن الحوت . فلما أقرّب أنه كان من الظالمين لأنفسهم بمخالفة أوامر الله ، نجّاه تعالى من الغمّ ، وشفاه من سقمه ، ثم بعثه مرة أخرى إلى قومه .

وأما الفصل الثاني : فقد تكلمت فيه عن الابتلاء في مرحلة الإعداد للدعوة وبيّنت ذلك في مبحثين :

تناولت بالدراسة في المبحث الأول : ابتلاء يوسف (عليه السلام) فحصرت الابتلاءات التي عاناها في ثلاثة عناصر كما يلي :

- أ - يوسف وكيد إخوته له .
- ب - امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه .
- ج - يوسف في غياهب السجن .

ثم تكلمت في المبحث الثاني : عن ابتلاء موسى (عليه السلام) . فبيّنت أنه ولّد حين كان فرعون عالياً في الأرض ، يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيى نساءهم . ولكن الله سبحانه وتعالى رعاه وحماه وربّاه في قصر فرعون . ولما بلغ أشده واستوى ، ابتلاه الله بقتل رجل من قوم فرعون . فأثمر به الملائكة ليقتلوه . ولما علم بذلك خرج إلى مدين . وهناك هيأ الله له مأوى في بيت الشيخ الصالح . ولما بلغ سن النبوة واستعدّ للدعوة ، عاد رسولاً من رب العالمين إلى فرعون ؛ ليعالجه بالقول اللين والبرهان المبين .

وأما الفصل الثالث : فقد خصّصته لدراسة الابتلاء بالإعراض والأذى من المكذّبين بالدعوة . وقسمته إلى أربعة مباحث :

تحدثت في المبحث الأول : عن ابتلاء نوح (عليه السلام) . فبيّنت أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينذرهم لقاء يوم الدين . فاتهموه بالسفّه

والضلال وكثرة الجدل . ووصموه بالجنون . وهذّوه بالرجم . وقابلوه بالسخرية والتهمك . فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، وصبراً وثباتاً .

ثم تكلمت في المبحث الثاني : عن ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) فبينت أنه دعا أباه وقومه إلى التوحيد . فقابل آزر دعوته بالتكذيب ، وهده بالرجم والهجران . وكذّبه قومه ، وأعرضوا عنه . فكسر أصنامهم ؛ ليبهرن لهم أنها لا تضر ولا تنفع ، ولكن القوم غضبوا عليه وألقوه في النار . ولما وجده الله صابراً مخلصاً له الدين ، نجّاه من كيدهم أجمعين .

ثم تحدّثت في المبحث الثالث : عن ابتلاء موسى (عليه السلام) . فوضّحت أنه لما بلغ رسالته إلى فرعون ، كذّبه واتهمه بالسحر والجنون . وأخذ يهدّده بالرجم ويتوعّده بالسجن . ثم عقد حلقة للسحرة يتحدّاه بها . ثم أتمر فرعون وملؤه بموسى وقومه لإيذائهم . واقترح فرعون قتل موسى (عليه السلام) . فتصدّى للمتمّارين رجل مؤمن من آل فرعون ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر . فقاوموه وهُمّوا بقتله . فنجّاه الله من مكرهم . ولما تمادى فرعون وجنوده في الكفر والضلال ، أغرقهم الله في اليمّ ونجّى موسى وأصحابه من كيدهم .

ثم تكلمت في المبحث الرابع : عن ابتلاء عيسى (عليه السلام) . فبينت أنه دعا بني إسرائيل إلى التوحيد . فكذّبوه وأعرضوا عنه ، واتهموه بالسحر ، وتفنّوا في إيذائه ، حتى إنهم حرّضوا عليه الحاكم الروماني . ثم اتفقوا على قتله وصلبه . فلما وجده الله صابراً على المكروه ، نجّاه من سيئات ما ماكروا .

وأما الفصل الرابع : فقد تناولت فيه بالدراسة الابتلاء بالنعم . وقسمته إلى مبحثين :

فعرضت في المبحث الأول : نماذج من ابتلاء بني إسرائيل بالنعم . ولخصت ذلك تحت العناصر الآتية :

- أ - نعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم .
- ب - نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم .
- ج - نعمة بعثهم من بعد موتهم .
- د - نعمة شمول الله إياهم بفضله ورحمته برغم نقضهم للميثاق .
- هـ - نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم .
- و - نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش .

ثم تحدّثت في المبحث الثاني : عن ابتلاء أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم . فوضّحت أنهم كانوا في غفلة عن ذكر الله تعالى حين حاولوا أن يستأثروا بشمار جنتهم دون المساكين . فلما وجدهم الله يمحرون ، مكّر بهم ، وابتلاهم بإحراق جنتهم .

وأما الفصل الخامس : فقد خصّصته لدراسة ابتلاء قوة العقيدة . وقسمته إلى ثلاثة مباحث :

تحدثت في المبحث الأول : عن ابتلاء أيوب (عليه السلام) . فبيّنت أنه تعرّض للفتنة في نفسه وأهله وماله . فصبر على الضر والبلاء . ولما وجده الله تعالى راسخ العقيدة ، رحمه وكشف ما به من ضرٍّ ، وأحسن إليه ، ثم خلّد ذكره في القرآن الكريم .

وأما المبحث الثاني : فقد تكلمت فيه عن ابتلاء سحرة فرعون . فوضحت أنهم لما آمنوا بالله العظيم ، لم يبالوا بتهديد فرعون . ولما وجدهم ثابتين على إيمانهم ، قتلهم جميعاً وصلبهم ، فماتوا شهداء أبراراً رضى الله عنهم .

ثم تحدثت في المبحث الثالث : عن حادث أصحاب الأخدود . فبيّنت أن الطغاة المتجبرين قتلوا المؤمنين والمؤمنات حرقاً بالنار . فاستعلى المؤمنون بإيمانهم ، واحتملوا العذاب ، من أجل انتصار عقيدتهم ، ولا يثارهم رضوان الله تبارك وتعالى على متع الحياة الفانية .

وأما الباب الثاني : فقد عقدته لدراسة الابتلاء في حياة الرسول ﷺ وقسمت هذا الباب إلى فصلين :

عرضت في الفصل الأول : صوراً من الابتلاء في حياة النبي ﷺ في مكة المكرمة . وقسمت هذا الفصل إلى تمهيد ومبحثين :

أما التمهيد : فقد أشرت فيه إلى بعض ما لاقاه ﷺ من البلاء منذ مولده إلى أن بعثه الله رسولاً للعالمين .

ثم عرضت في المبحث الأول : صوراً عنيفة لمواقف الكافرين من النبي ﷺ ودعوته . وقسمت هذا المبحث إلى قسمين :

فأبرزت في القسم الأول : نماذج لبعض الأشخاص في المناوأة والتكذيب .

ثم عرضت في القسم الثاني : صوراً أخرى من مواقف الجاحدين في المكابرة والإعراض .

وأما المبحث الثاني : فقد تحدثت فيه عن الابتلاء بالتحدي والأذى من المكذّبين بالدعوة . فتكلّمت أولاً - عن تحديات متصلة بشخص الرسول ﷺ . وثانياً - أشرت إلى تحديات متصلة بالقرآن الكريم خاصة . ثم ذكرت نماذج أخرى مما تلقاه النبي ﷺ من الأذى .

وأما الفصل الثانى : فقد أبرزت فيه صوراً من الابتلاء فى حياة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة . وقُسمت هذا الفصل إلى مبحثين :

عرضت فى المبحث الأول : صوراً من ابتلاء الرسول ﷺ وأصحابه فى الغزوات . واقتصرت فى ذلك على ابتلاء المؤمنين فى غزوة أحد والخندق .

فبيّنت أنه لما انتصر المسلمون يوم أحد ، خرج الرماة على أمر رسول الله ﷺ . فترتب على ذلك أن كثر المشركون على المسلمين وقتلوا منهم سبعين صحابياً ، وأذى الرسول ﷺ وأئمن أصحابه بالجراح .

ثم تحدثت عن ابتلاء المؤمنين فى غزوة الخندق . فوضحت أن الله تعالى ابتلى المؤمنين هنالك بشدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، والمحاصرة والتزال والقتال . فكان الابتلاء كاملاً وشديداً ، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزلزل زلزالاً شديداً .

وأما المبحث الثانى : فقد عرضت فيه نماذج من ابتلاء المؤمنين بمكر المنافقين . ووضحت ذلك تحت العناوين الآتية :

- أ - حديث الإفك وقصته .
- ب - تعرّض المنافقين لنساء المسلمين بالأذى .
- ج - زعيم المنافقين يدعو إلى مواقف كيدية للمسلمين .

وأما الخاتمة : فقد ذكرت فيها النتائج التى توصلت إليها فى هذه الرسالة ، ولخصت القضايا التى عالجتها فى هذا البحث .

وهذا ما فتح الله به على ، ويسر لى تحريره وتدقيق مسائله فى موضوع (الابتلاء وأثره فى حياة المؤمنين) . وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فيما أردت من تجليه هذا الموضوع ، وتبسيط الأضواء على ما فيه من دروس وعبر ومعالم فى طريق الدعاة إلى الله تعالى . والله الموفق والهادى إلى سبيل الرشاد .

أهم مصادر الرسالة

- ١ - القرآن الكريم : تنزيل رب العالمين . طُبع في مطابع الشروق بالقاهرة سنة ١٣٩٧هـ .
- ٢ - إنجيل برنابا ، ودراسات حول وحدة الدين - عند موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٣هـ ، تحقيق : سيف الله أحمد فاضل .

كتب التفسير :

- ٣ - الألوسي : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود (١٢٧٠هـ) : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الطبعة الثانية ، إدارة الطباعة المنيرية .
- ٤ - البرسوى : إسماعيل حقي (١١٣٧هـ) : تفسير روح البيان ، دراسات مطبعة عثمانية - ١٣٣١هـ .
- ٥ - البضاوي : أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي (٧٩١هـ) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، والطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٣٨٨هـ بأسفل صفحاته : تفسير الجلالين : للسيوطي والمحلّي .
- ٦ - الجكني الشنقيطي : محمد الأمين بن محمد المختار : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر - طبعة سنة ١٣٨٠هـ .
- ٧ - ابن الجوزي : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧هـ) : زاد المسير في علم التفسير ، الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، سنة ١٣٨٥هـ .
- ٨ - حسنين محمد مخلوف ، صفوة البيان لمعاني القرآن ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، سنة ١٣٧٥هـ .
- ٩ - أبو حيان : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (٧٥٤هـ) : تفسير البحر المحيط ، مطابع النصر الحديثة بالرياض .
- ١٠ - الزنجشيري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (٥٣٨هـ) : الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الطبعة الأخيرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٣٨٥هـ .

- ١١ - أبو السعود : محمد بن محمد العمادى الحنفى (٩٨٢هـ) : تفسير أبى السعود - أو - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض ، حققه : عبد القادر أحمد عطا .
- ١٢ - سيد قطب : فى ظلال القرآن ، الطبعة الشرعية السادسة ، دار الشروق - بيروت - لبنان - سنة ١٣٩٨هـ .
- ١٣ - السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : لُبَاب النقول فى أسباب النزول ، الطبعة الثانية ، مطابع مؤسسة جواد للطباعة والتصوير - بيروت - لبنان - سنة ١٩٧٩م .
- ١٤ - الشوكانى : محمد بن على بن محمد (١٢٥٠هـ) : فتح القدير ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - توزيع : دار الباز بمكة المكرمة .
- ١٥ - صديق حسن خان (١٣٠٧هـ) : فتح البيان فى مقاصد القرآن ، مطبعة العاصمة بالقاهرة .
- ١٦ - الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ) : جامع البيان عن تأويل آى القرآن - الشهير بتفسير الطبرى : الأجزاء من رقم ١ - ١٦ من طبعة دار المعارف بمصر ، حققها : محمود محمد شاكر ، وخرّج أحاديثها : أحمد محمد شاكر . والأجزاء الأخرى من الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، سنة ١٣٧٣هـ .
- ١٧ - ابن العربى : أبو بكر محمد بن عبد الله : أحكام القرآن ، الطبعة الثانية ، عيسى البابى الحلبي ، سنة ١٣٨٧هـ حققه : على محمد البجاورى .
- ١٨ - ابن عاشور : محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ، الطبعة الثانية ، الدار التونسية للنشر ، سنة ١٩٧٣م .
- ١٩ - الفخر الرازى : أبو عبد الله محمد بن عمر القرشى : مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية - طهران .
- ٢٠ - القرطبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى (٦٧١هـ) : الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثالثة ، عن طبعة دار الكتب المصرية - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، سنة ١٣٨٧هـ .
- ٢١ - القاسمى : محمد جمال الدين القاسمى (١٣٣٢هـ) : تفسير القاسمى - السّمى - محاسن التأويل ، الطبعة الأولى ، عيسى البابى الحلبي ، سنة ١٣٧٦هـ .
- ٢٢ - ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى (٧٧٤هـ) : تفسير القرآن العظيم ، دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان - طبعة سنة ١٣٨٨هـ .

- ٢٣ - محمد رشيد رضا . تفسير القرآن الحكيم - الشهير - بتفسير المنار ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .
- ٢٤ - المراغى : أحمد مصطفى المراغى : تفسير المراغى ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٩٤ هـ .
- ٢٥ - محمد سيد طنطاوى : الدكتور : التفسير الوسيط للقرآن الكريم - تفسير سورق الفاتحة والبقرة ، الطبعة الأولى ، منشورات جامعة بنغازى ، سنة ١٣٩٤ هـ .
- ٢٦ - محمد عبده : الأستاذ الإمام : تفسير جزء عم ، مطبعة محمد على صبيح ، طبعة سنة ١٣٨٧ هـ .
- ٢٧ - محمد عزة دروزة : التفسير الحديث ، عيسى البابى الحلبي ، طبعة سنة ١٣٨١ هـ .

كتب السنة :

- ٢٨ - أحمد بن محمد بن حنبل : الإمام (٢٤١ هـ) : المسند ، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر ، سنة ١٣٦٧ هـ : شرحه وصنع فهرسه : أحمد محمد شاكر .
- ٢٩ - الترمذى : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٧٩ هـ) : سنن الترمذى - وهو الجامع الصحيح للترمذى ، الطبعة الثانية ، قامت بنشره : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة ١٣٩٤ هـ . حققه : وصحَّحه : عبد الوهاب عبد اللطيف .
- ٣٠ - ابن حجر : أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ) : فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، المطبعة السلفية بالقاهرة . رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٣١ - أبو العلى محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (١٢٥٣ هـ) : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، الطبعة الثانية ، مطبعة الفجالة الجديدة ، قامت بنشره المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، سنة ١٣٨٧ هـ . ضبطه وراجع أصوله وصحَّحه : عبد الرحمن محمد عثمان .
- ٣٢ - ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (٢٧٥ هـ) : سنن ابن ماجه ، عيسى البابى الحلبي ، حقق نصوصه : محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٣٣ - مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى ، صحيح مسلم بشرح النووى ، الطبعة الثانية ، دار الفكر - بيروت - لبنان ، سنة ١٣٩٢ هـ .
- ٣٤ - الهيثمى : نور الدين على بن أبى بكر (٨٠٧ هـ) : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب - بيروت لبنان - سنة ١٩٦٧ م .

كتب السيرة :

- ٣٥ - الحلبي : علي بن برهان الدين الحلبي (١٠٤٤هـ) : إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون الشهير بالسيرة الحلبية ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٣٨٤هـ .
- ٣٦ - الحسيني أبو فرحة : الدكتور غزوة أحد - فلسفة البلاء في ضوء الكتاب والسنة ، الطبعة الأولى ، مطابع وكالة الصحف العالمية - فرع مطبعة النهضة الجديدة بالقاهرة ، سنة ١٣٩٢هـ .
- ٣٧ - الزرقاني : محمد بن عبد الباقي الرزقاني المالكي : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للعلامة القسطلاني ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية المصرية ، سنة ١٣٢٥هـ .
- ٣٨ - محمد حسين هيكل : حياة محمد ﷺ ، الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٦٥م .
- ٣٩ - محمد الغزالي : فقه السيرة ، الطبعة السابعة ، دار الكتب الحديثة بمصر ، سنة ١٩٧٦م ، خرّج أحاديثه : محمد ناصر الدين الألباني .
- ٤٠ - المقرئ : تقي الدين أحمد بن علي : إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ، سنة ١٩٤١م ، صحّحه وشرحه : محمود محمد شاكر .
- ٤١ - ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (٢١٣هـ) : السيرة النبوية ، مطبعة الحاج عبد السلام بن محمد بن شقرون ، قدّم لها وعلّق عليها وضبطها : طه عبد الرؤوف سعد .

كتب التاريخ :

- ٤٢ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدّمه ابن خلدون ، الطبعة الأولى . لجنة البيان العربي ، سنة ١٣٧٦هـ . حققها : الدكتور علي عبد الواحد وافي .
- ٤٣ - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك - الشهير بتاريخ الطبري ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٠م حققه : محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٤٤ - ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف - بيروت - لبنان - سنة ١٩٦٦م .

كتب اللغة العربية :

- ٤٥ - أحمد حسن الزيات وآخرون : المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية - طهران .
٤٦ - الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (٦٦٦هـ) : مختار الصحاح ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، سنة ١٩٦٧م .
٤٧ - الفيروزبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، دار الفكر - بيروت - لبنان .
٤٨ - ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر - بيروت - لبنان .
٤٩ - أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة ، الطبعة الثالثة ، دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان - سنة ١٩٧٩هـ .

مصادر أخرى :

- ٥٠ - البهي الخولي : آدم عليه السلام - فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ، الطبعة الثالثة ، الناشر : مكتبة وهبة بمصر ، سنة ١٣٩٤هـ .
٥١ - البهي الخولي : تذكره الدعاة ، الطبعة الخامسة ، دار القلم - دمشق ، سنة ١٣٩٧هـ .
٥٢ - الدامغاني : الحسين بن محمد الدامغاني : قاموس القرآن - أو - إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - سنة ١٩٧٠م . حققه : عبد العزيز سيد الأهل .
٥٣ - الراغب الأصفهاني : أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ) : المفردات في غريب القرآن ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، حققه : محمد سيد كيلاني .
٥٤ - رعوف شلبي : الدكتور : الجهاد في سبيل الله - مجالاته ووسائله وأهدافه ، دار التراث العربي للطباعة والنشر بمصر .
٥٥ - سيد قطب : معالم في الطريق ، والطبعة الشرعية الثامنة ، دار الشروق - بيروت - لبنان ، سنة ١٩٨٠م .
٥٦ - عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، الطبعة الثانية ، دار الفكر بيروت - لبنان .

- ٥٧ - عبد الرحمن حبنكه الميداني : العقيدة الإسلامية وأسسها ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٥هـ .
- ٥٨ - عبد الكريم الخطيب : قصتا آدم ويوسف (عليهما السلام) ، دار الفكر العربي ، سنة ١٣٩٤هـ .
- ٥٩ - أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (٢١٠هـ) : مجاز القرآن ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، سنة ١٣٩٠هـ . عارضه بأصوله وعلّق عليه : الدكتور محمد فؤاد سزكين .
- ٦٠ - ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ) : إغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان - بيروت - لبنان سنة ١٣٩٥هـ ، حققه : محمد حامد الفقي :
- ٦١ - ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ) : زاد المعاد في هدى خير العباد محمد ﷺ ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .
- ٦٢ - ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤هـ) : قصص الأنبياء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب الحديثة بمصر ، سنة ١٣٨٨هـ ، حققه : مصطفى عبد الواحد .
- ٦٣ - محمد أحمد جاد المولى : قصص القرآن ، المكتبة الأموية - بيروت - لبنان - سنة ١٣٩٨هـ .
- ٦٤ - يوسف القرضاوى : الدكتور : الإيمان والحياة ، الطبعة الخامسة ، الناشر : مكتبة وهبة ، سنة ١٣٩٧هـ .

المحتويات

المحتويات

الموضوع

المقدمة

٥

التمهيد

في بيان المباحث التالية

- المبحث الأول : في تعريف البلاء والابتلاء والفتنة ١٧
- المبحث الثاني : ابتلاء المؤمنين سنة ربانية جارية ٢٥
- المبحث الثالث : الطريق إلى الجنة مخفوف بالمكافأة ٤٩
- المبحث الرابع : تحذير المؤمنين من فتنة متاع الحياة الدنيا وزينتها ٦٤

الباب الأول

صور من ابتلاء الأولين

- الفصل الأول : الابتلاء بالطاعة ٨١
- المبحث الأول : ابتلاء آدم عليه السلام ٨٣
- وصاة الله لآدم وزوجه وتحذيرهما من إبليس ٨٩
- إغواء إبليس لآدم (عليه السلام) وزوجه ٩٧
- عتاب الله لآدم وتوبته (عليه السلام) وقبولها ١٠٥
- خروج آدم وزوجه من الجنة وتحذيرهما من الشيطان الرجيم ١١٣
- المبحث الثاني : ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بتكاليف خاصة ١١٦
- وفاء إبراهيم لله سبحانه وتعالى ١١٦
- ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل ١٢٣

١٣١	المبحث الثالث : ابتلاء بنى إسرائيل
١٣١	فتنة قوم موسى بالعجل وتوبتهم من عبادته
١٤٥	قصة بقرة بنى إسرائيل
١٥٢	ابتلاء بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة
١٦٤	قصة أصحاب السبت
١٧٣	المبحث الرابع : ابتلاء قوم طالوت
١٨٧	المبحث الخامس : ابتلاء يونس عليه السلام
١٩٥	الفصل الثانى : ابتلاء فى مرحلة الإعداد للدعوة
١٩٧	المبحث الأول : ابتلاء يوسف عليه السلام
١٩٨	يوسف وكيد إخوته له
٢١٠	امراة العزيز تراود يوسف عن نفسه
٢٢٥	يوسف فى غياهب السجن
٢٤٧	المبحث الثانى : ابتلاء موسى عليه السلام
٢٤٧	ولادة موسى وتربيته فى بيت فرعون
٢٥٤	ابتلاء شديد فى حياته لما بلغ أشده واستوى
٢٦٨	الفصل الثالث : ابتلاء بالإعراض والأذى من المكذبين بالدعوة
٢٦٩	المبحث الأول : ابتلاء نوح عليه السلام
٣٠٦	المبحث الثانى : ابتلاء إبراهيم عليه السلام
٣٠٨	إبراهيم يدعو أباه إلى الإيمان فلا يستجيب له
٣١٤	إبراهيم يدعو قومه إلى التوحيد فيؤذونه
٣٢٨	المبحث الثالث : ابتلاء موسى عليه السلام
٣٣٢	موسى يواجه فرعون وملأه برسائله فيتهمونه بالسحر والجنون
٣٥٢	موسى يناظر سحرة فرعون فإذا بهم يؤمنون برب العالمين
٣٥٨	فرعون وملؤه يأترون بموسى وقومه ليؤذونهم
٣٦٨	فرعون يتمادى فى كفره وضلاله ويستعزى بموسى

٣٧٢	جحود فرعون وقومه بآيات الله ظليماً وعلواً
٣٧٦	هلاك فرعون وجنوده ونجاة موسى وأصحابه من كيدهم
٣٨١	المبحث الرابع : ابتلاء عيسى عليه السلام
٣٩٧	الفصل الرابع : ابتلاء بالنعم
٣٩٩	المبحث الأول : صور من ابتلاء بنى إسرائيل بالنعم
٤٠٠	نعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم
٤٠٢	نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم
٤٠٣	نعمة بعثهم من بعد موتهم
٤٠٥	نعمة شمول الله إياهم بفضله ورحمته برغم نقضهم للميثاق
٤٠٧	نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم
٤٠٩	نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن أشتد بهم العطش
٤١١	المبحث الثاني : ابتلاء أصحاب الجنة الذين ورد ذكرهم في سورة القلم
٤١٥	الفصل الخامس : ابتلاء قوة العقيدة
٤١٧	المبحث الأول : ابتلاء أيوب عليه السلام
٤٢١	المبحث الثاني : ابتلاء سحرة فرعون
٤٢٥	المبحث الثالث : حادث أصحاب الأخدود

الباب الثاني

الابتلاء في حياة الرسول ﷺ

٤٣٣	الفصل الأول : الابتلاء في حياة النبي ﷺ في مكة المكرمة
٤٣٥	تمهيد
٤٤٢	المبحث الأول : صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية
٤٤٢	صور من دور الأشخاص في المناوأة والتكذيب
٤٤٢	بعض مواقف أبي جهل من النبي ﷺ

٤٤٥	صور من مواقف الوليد بن المغيرة ضد الرسول ﷺ
٤٤٦	مناوأة النضر بن الحارث للنبي ﷺ
٤٤٧	كيد أبي لهب وامرأته لرسول الله ﷺ
٤٤٩	صور أخرى من مواقف الجاحدين في المكابرة والإعراض
٤٤٩	القرآن الكريم ومكابرة الجاحدين حين تلاوته عليهم
٤٤٩	إعراض الكفار عن سماع الإنذار والدعوة
٤٥٠	أكابر المجرمين يصدون العامة عن الهدى
٤٥٣	المبحث الثاني : ابتلاء بالتحدي والأذى من المكذبين بالدعوة
٤٥٤	تحديات متصلة بشخص الرسول ﷺ
٤٥٦	تحديات متصلة بالقرآن الكريم خاصة
٤٥٨	نماذج أخرى مما لقيه النبي ﷺ من الأذى
٤٥٨	سعى الرسول ﷺ إلى الطائف وموقف ثقيف منه
٤٥٩	مشركو قريش يتظاهرون بالاستخفاف بالنبي ﷺ
٤٦٠	إثتمام مشركي قريش بالنبي ﷺ وإخراجه من مكة
٤٦٥	الفصل الثاني : صور من الابتلاء في حياة الرسول ﷺ في المدينة المنورة
٤٦٧	المبحث الأول : صور من ابتلاء الرسول وأصحابه في الغزوات
٤٧٠	ابتلاء المؤمنين في غزوة أحد
٥٠٣	ابتلاء المؤمنين في غزوة الخندق
٥١٧	المبحث الثاني : صور من ابتلاء المؤمنين بمكر المنافقين
٥١٧	حديث الإفك وقصته
٥٢٦	تعريض المنافقين لنساء المسلمين بالأذى
٥٢٧	زعيم المنافقين يدعو إلى مواقف كيدية للمسلمين
٥٣١	الخاتمة : ملخص البحث
٥٣٨	مصادر الرسالة :
٥٤٥	المحتويات :